الإختيار

يوري بونداريف

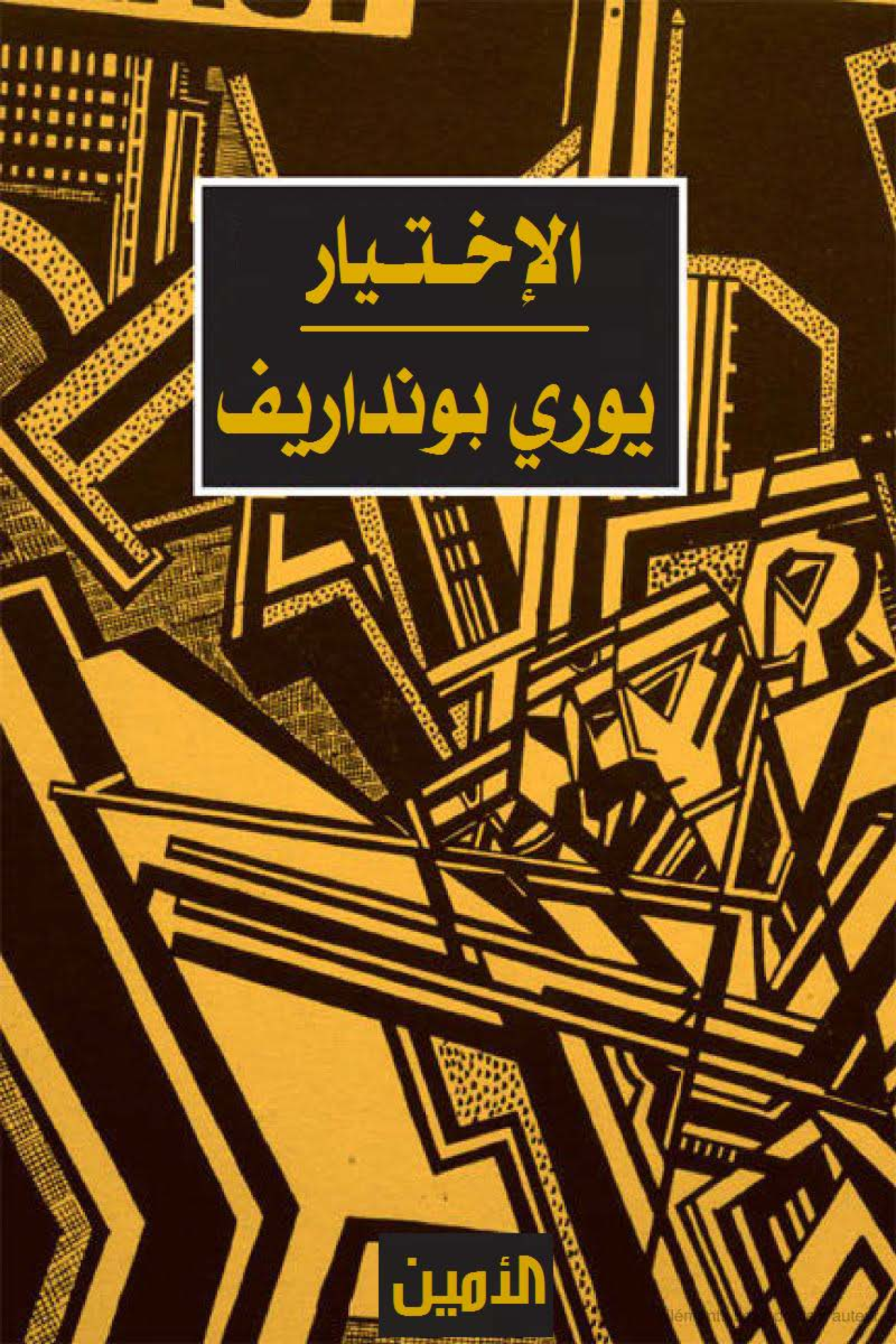

الأمين

الإختيار

يوري بونداريف

ترجمة : عياد عيد

تنسيق

مكتبة الأمين

منشورات

إتحاد الكتاب العرب

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2002

الفصل الأول

ساد الفراغ والهدوء بعد رحيل الضيوف، وظل المصباحان الجداريان على جانبي المرآة منارين في غرفة الدخول، ولم تكن قد أُطفئت بعد الثريات في الغرف، وألقت قبة المصباح القائم البنفسجية بظلها الرقيق فوق الأريكة، وفاحت رائحة دخان السجائر والعطور الغريبة من كل شيء، وعم قليل من الحزن بسبب من مشهد الأرائك المزاحة، وصحون السجائر المليئة بالأعقاب، وعيدان الثقاب المحروقة على السجادة، والكؤوس غير المرفوعة والماصات البارزة من بقايا الكوكتيل فيها، وجبال الصحون في المطبخ . ما أثار ذكرى فوضى خراب محزن لا ينتهي في الشقة.

ربط فاسيلييف الذي أنهكته الأحاديث المستمرة عن الفن، والتزلف والابتسامات العذبة، مئزر المطبخ بارتياح بعد أن رافق آخر ضيوف زوجته حتى المصعد، وشرع يزيل الأواني من غرفة الطعام على نحو حثيث يفوق العادة. غير أن ماريا أوقفته بعينين متوسلتين ("لا لزوم لهذا الآن...")، وجلست على الأريكة حاضنة كتفيها، وأشاحت ساهمة نحو النافذة، التي ازرقت خلفها على نحو كثيف ليلة من ليالي شهر شباط.

قالت: ". الحمد لله، أخيراً. لم تعد قدماي قادرتين على حملي".

سألها قلقاً: ". هل تعلمين كم الوقت؟.. تجاوزت الواحدة... ياللهول. حسن أنك لم تكشفي عن سر الاحتفال، وإلا ما كانت ثمة نهاية أو حد للأنخاب حتى الصباح. كيف

أهنئك يا ماشا[1] . هل بعيد الملاك؟ أم بعيد الشفيع؟"...

ردت وهي تشعل سيجارة وتبتسم له ابتسامة عابرة: ". إنني متعبة جداً. أشكرك يا عزيزي.... لن نخوض في هذه الأمور، فهي جزئيات غير مهمة، ولا تستحق العناء... تصبح على خير. سأجلس وحدي قليلاً، اذهب ونم من فضلك...".

شعر بعدم صدق كلماتها، وبدت هذه الـ"لا تستحق العناء"، غير المتكلفة ـــ الكلاسيكية، وهذه الـ"أشكرك يا عزيزي"، التي تتردد في الصالونات الراقية، وكأنهما تحجبانها، مبعدتين إياها بتصنع غريب عن طبعها في أيام غير أيام الخلاف، التي كانت قليلة سابقاً، والتي سرعان ما كانت تصيبه بزعزعة مديرة للرأس مثلما يفعل جسر متأرجح.

كررت ماريا بإلحاح متعب بعد أن أسندت سيجارتها المدخنة على حافة صحن السجائر، وصبت لنفسها نبيذاً أحمر: "نعم يا فولوديا[2]، اذهب من فضلك، اذهب، وإذا رغبت في أن تقول لي شيئاً ما جديا عن ضيوفي فلا داعي لذلك الآن. لا أرغب....".

". أنا قليل المعرفة بأي من ضيوفك يا ماشا.".

". وربما لهذا السبب كنت لطيفاً جداً. لقد سحرت النساء كلهن.".

اجترعت جرعة، ورأى كيف انزاحت حنجرتها، وبقي شريط رطب مائل إلى الحمرة على شفتيها، اللتين يعرف طعمهما الحميم والرقيق جيداً.

". عم تتحدثين يا ماشا؟ نساء؟ سحرتهن؟ لم أدرك ذلك".

". أتوسل إليك. فلنصمت...".

لا، إنه لا يذكر أنها جلست من قبل على الأريكة بعد رحيل الضيوف وحيدةً هكذا، واضعةً ساقاً فوق ساق، وراحت تشرب مشتتة، وتمج الدخان مهمومةً، هازةً طرف حذائها الضيق. كان سيحسب هذا قبل أربعة أشهر تلاعباً مرحاً، موجهاً له (من أجل تسلية مشاكسة)، ومأخوذاً من فيلم أجنبي بذيء، أو مسرحية هزلية تافهة ترجمتها لصالح لجنة الشراء من أجل مشاهدتها في الرئاسة، وكان على استعداد لأن

---

(1) ماشا: هو تصغير لاسم ماريا (المعرب).

(2) فولوديا : هو تصغير لاسم فلاديمير (المعرب).

يسمع، كما كان يحدث أحياناً، صوتها الضاحك المطوط: "وهكذا، موسيو، ودعنا الضيوف. رحل المشاهير، ياللراحة. ماذا علينا أن نفعل؟.. هل ستذهب إلى المرسم؟ أم ستبقى مع زوجك؟"... ماكان ينتظر الآن مثل هذه الجملة، بل نظر فقط مهموماً بعض الشيء إلى ماريا وهي ترشف النبيذ من الكأس بين مجات الدخان، غير أن الحزم لم يكفه لسبب ما كي يدهش من رغبتها هذه، الشبيهة بالنزوة أو التحدي، لذلك، قال مازحاً على نحو أخرق:

". ألم تفرطي في التسلية كثيراً يا ماشا؟... ألم يحدث شيء؟"...

أغمضت عينيها كما لو أنها تتغلب على ألم ما، ورأى رموشها مثقلةً بالدموع:

". يا إلهي. أيعقل أنك لا تفهم أبسط الأمور ـ أرغب في أن أبقى وحدي. افهمني من فضلك، أريد أن أرتاح وحدي من كل شيء في الدنيا....".

قال شاعراً بالذنب: ". عفوك يا ماشا.".

وخرج من الغرفة.

كان المصباحان الجداريان الطائشان والساهدان الشبيهان بالشمعتين لا يزالان ينيران الدهليز وغرفة الدخول، انعكس فراغ فضي على صفحة المرآة قرب منضدة الهاتف، ألقى فاسيلييف نظرة خاطفة على وجهه العابس والمصفر تعباً ("أفضل شيء أن أرحل الآن إلى المرسم". ثم أطفأ النور، هذه الزينة الكهربائية المتأخرة، قرب المرآة، التي صارت حالاً عاتمةً على نحو غامض. أطال وقت ارتداء معطفه القصير الدافئ، الذي يحبه، والذي يسافر فيه شتاء للرسم في الطبيعة، ثم أطال الانشغال "بسحابي"، حذائه الفرائي، وراح يفكر بالوقت المتأخر، إذ لا معنى للذهاب إلى المرسم، لكن ماريا ظلت صامتة، ولم توقفه، ولم تخرج إلى غرفة الدخول كي تودعه حتى الباب، وتقدم له خدها من أجل القبلة، كما كان متعارفاً عليه بينهما.

". أنا ذاهب يا ماشا".

قال هذا جاهداً كي يتكلم على نحو عادي، موحياً لنفسه أن أي شيء جدي لم يحدث.

". سأتمشى لأستنشق الهواء. تصبحين على خير".

ردت ماريا من غرفة الضيوف بلهجة مجاملة ولطيفة تقريباً:

". إلى اللقاء يا فولوديا. سأتصل صباحاً".

وخرج إلى فسحة السلم، وأقفل الباب بمفتاحه.

سمع، وهو ينتظر المصعد تحت المصباح الأصفر في الطبقة الثامنة من البناء النائم متعدد الطبقات، ضحكاً مكبوتاً يتخلله همس. أمال نظره نحو النافذة، حيث وقف قرب مشعات التدفئة (كما يحدث كثيراً)، شاب وفتاة، ولحظ شيئاً ما مألوفاً في هيئة الفتاة، وهنا ناداه بوضوح صوت ابنته الرنان رنيناً مدهشاً: "ـ إلى أين يا أبي؟! ولماذا؟!...".

لم يكن ممتعاً جداً له أن يرى في مثل هذه الساعة قرب ابنته الممثل الطويل سفيتوزاروف، الذي تخطى سن الشباب، والوسيم وسامةً كاوية، وراوي النكات العربيد، ومحب المقالب، المتزوج مرتين والمطلق مرتين، والذي يسلك سلوك متزلف نساء من مسرحية غنائية، وشعر فاسيلييف بالبرودة اللاذعة، والمهينة من قلة خبرة ابنته الساذجة، وقلة ذوقها التي فاقت الحدود.

قال فاسيلييف، وهو يتفحص سفيتوزاروف بفضول صادق: "ـ لقد حان وقت عودتك يا فيكا[1] على الأرجح. وحان الوقت أيها الشاب ذو الهيئة الخارجية التي لا تقاوم كي تطلق الطالبة السوفييتية، التي عليها أن تستيقظ في السابعة للذهاب إلى محاضراتها".

نطق سفيتوزاروف بصوت جهوري عميق، مصطنعاً الطاعة المتعقلة: ". عليك يا فيكتوريا أن تطيعي من هم أكبر منك سناً. تكرم وسامحني يا فلاديمير أليكسييفيتش على التأخير غير المتوقع إلى ما بعد منتصف الليل... أنا مستعد لأن أذهب إلى الدير كي أكفر عن خطاياي، لو كان لدي عنوان ولو دير عاملٍ واحد. ليس ثمة مكان للتوبة".

. "تفضل معي إلى المصعد عوضاً عن الدير، وسأشرح لك كيف ستتصرف....".

عارضت فيكتوريا ضاحكةً: "- كُفَّ عن هذا يا أبي، ستبدأ الآن النصائح

---

[1] فيكا : هو تصغير لاسم فيكتوريا.

والمواعظ. يروي لي أناتولي قصصاً مضحكةً فأقهقه. لقد سمعت عن التدريبات في المسرح الأكاديمي الموسوكوبي؟... وعن ماسالسكي ويرشوف؟ لا؟ وكيف يقفزان على السدة في أثناء المسرحية بعد إشارة "بريك"؟

قال فاسيلييف، وهو يوجه حديثه متهكماً لسفيتوزاروف، الذي اصطنع في لمح البصر اهتمام الولد المنزلي المطيع: "- ياللأسف والأسى لم أسمع. ألم تتعب يا أناتولي من التمطق بلسانك؟ أنظر إلى الساعة يا محب الأديرة الساحر. لم يعد الوقت لائقاً".

صعق سفيتوزاروف باحترام: "- التمطق؟ ها ـ ها. كيف، كيف؟ لم أعِ الفكرة يا فلاديمير ألكسييفيتش لظلاميتي. مم لم أتعب؟"...

"- من الثرثرة من غير التقاط النفس".

"- أنت تسيء إلي. ما السبب؟... لا أستحق هذا.... مذنب بغير ذنب".

"- آسف جدَّاً".

"ما هذا الذي يحدث لي؟ لماذا أهتاج حين عليَّ أن أتماسك؟"...

اقترب المصعد المنار، وقد فاحت منه على نحو موحش رائحة الثياب المتجلدة، ورائحة الشتاء القارس، وكان ثمة ثلج مداس على أرضه. عبس فاسيلييف وهو يهبط في هذه القمرة الميكانيكية المريحة من القرن العشرين، التي حملته إلى أسفل محاذيةً شقق الآخرين الصامتة، التي هدأها النوم. أغمض عينيه، وراح يفكر بالوقت المهدور، وانعدام المغزى تماماً من كل ما فعله، وقاله طوال المساء في المنزل. لقد تعب من معارضة ضيوفه، الذين لم يترددوا في التأكيد بغطرسة على مقولات خاصة في الفن، و، طبعاً، في الفن التشكيلي، والذين تجاوزوا في محاكماتهم (من أجل السكينة)، بصلابة منعطفات حياتية خارقة الحكمة. وشعر فجاءةً أنه عانى في الفترة الأخيرة أكثر من مرة من رغبة، استولت على روحه على نحو غامض ومفرح، في السفر من موسكو في ساعة من الساعات، لوقت طويل، لبضعة أشهر، لسنة، لخمس سنوات، ينطلق من المنزل أو المرسم، من غير أن يلتفت إلى شيء، ويقيم في مكان ما عند بحيرات فولوغدا، فيتمعن غير مستعجل في كل ماهو طبيعي وأصيل، يعيش مع صيادي السمك، ويأكل الطعام القروي البسيط، ويرسم المناظر الطبيعية الشمالية الغائمة،

ووجوه الصيادين القاسية، وقسماتها التي أحرقتها الشمس والفودكا...

لم يقدر على العمل قرابة الشهرين، كان يستلقي في المرسم ساعات عديدة على الأريكة القديمة، ذات صرير النوابض المألوف، ويقرأ "يوميات" تولستوي في آخر سني حياته، فيتشبع بألم اعتراف هذا الإنسان العظيم. لكن همة فاسيلييف كانت تبرد، ويثوب إلى رشده شاعراً بالريبة، وتأنيب الضمير، وبخداع نزعة التبسيط القسرية وتناقضها المعاصر، ويصير بعد التفكير السليم الملجأ، الذي انتقاه في مخيلته، والبعيد عن موسكو وعن الضجيج والبهرجة مكاناً مهدئاً للرسم في الهواء الطلق، إما سياحياً أو منتجعاً، يشغله إنسان مشهور في عالم الفن فترة محددة. كان واضحاً له أن أية فكرةٍ طموحةٍ لا توجهه في عامه الرابع والخمسين (كما كانت توجهه قبل بضعة أعوام فقط) ما عدا هاجسين لا يتغيران ــــ حبّه لجمال الطبيعة الأزلي والفظ والرقيق، ووفاؤه الجنوني لعمله، هذا المنفى الاختياري العذب، الذي كان سيفقد لولاه كل مغزى لوجوده.

في تلك الأيام والشهور، حين تجافيه الرغبة في العمل ويكون كل شيء خامداً فيه كما لو أنه يغط في النوم، كان في مقدوره أن يصدق بسهولة أن موهبته (إن وجدت من قبل) قد ماتت، وضاعت، فتبدو له، في مثل هذه الفترات الرمادية، الألقاب السامية المعتادة ومقالات الإطراء ضحلةً وكاذبةً على نحو مزوق، وتبدو المشاركة في المعرض الدوري ("يجب أن تكون أعمالك أيضاً هناك لزاماً") بغير فائدة. أما الأسفار إلى الخارج، إلى حيث صاروا يدعونه عن طيب خاطر منذ خمسة عشر عاماً، فما عادت تنقضي بافتتاح معرض في جامعة ما أو صالون خاص مليء عن آخره بالنقاد السامين والصحفيين عديمي الحياء، بقدر ما تنقضي بالنقاشات الحامضة المتفننة عن " التقليدية" و"الحداثة"، فيأخذ يلتهب فيه تدريجاً، وهو يستمع ويحتسي الكوكتيل، غيظ مرح من هذه الثرثرة "المثقفة"، ويبدأ يجادل نصف جاد، مفنداً فن "الكوللاج"[1] والـ"بوب ـ أرت"[1]، والـ"دادائية"[2]، المملة إلى حد لا يوصف واضعاً إياها

---

[1] الكوللاج: (لصق) طريقة تقنية في الفن التعبيري، تتلخص في إلصاق مواد مختلفة على أساس يختلف عنها باللون والطبيعة.(المعرب).

عمداً في تضاد مع السوريالية، وليس الواقعية، ثم يشرع يراقب بفضول منحى النقاش الجديد، إذ تسود فوضى بلاغية، شبيهة بفوضى الفن التشكيلي المعاصر في العالمين القديم والجديد، لم تشكل هذه المناقشات، طبعاً، سباقاً ثابتاً نحو الحقيقة (من يتجاسر على قولها في قرن الشكوك)، بل كانت ضرباً من لعبة، أو تسلية، أو أرجوحة فكرية، أو قتل وقت فراغ، أو مهنة مربحة لأناس كبار في السن، متعبين من الحضارة، لا يطيقون الرسامين ومغرمين بهم. لم يكن الاتصال بهم خالياً من المتعة لفاسيلييف حتى اكتشف التكرار المضني: الأحاديث ذاتها والأسئلة ذاتها، والفنادق التي يشبه واحدها الآخر، ووجبات الفطور الإنكليزية المتأخرة، وسحنات موظفي الاستقبال وعمال البارات المتماثلة.

صار فاسيلييف يرفض الدعوات، وكف عن السفر إلى الخارج، ومرة سمع مصادفةً في مطعم النادي جملة مفعمةً بالشهوة: "أخيراً، سأستقل غداً قمرة مستقلة من عربة المنامة وأستلقي على السرير المرتب، وأنام كما ينبغي، وسأكون بعد غد في باريس". بعد أن سمع هذه الجملة المليئة بشهوة الأمل المتحقق المضنية التفت مستفهماً إلى المنضدة المجاورة، ورأى هناك وسط مجموعة من الزملاء رسام اللوحات المائية المحترم، غير الصاحي تماماً، وقد وضع كفه بعذوبة كالمغرفة تحت خده القرمزي السمين، معبراً على هذا النحو عن شوق لا يقاوم إلى الراحة التي تمنحها عربة القطار، وشعر في جملة الرسام هذه، وفي تعابير وجهه، لا بحلم بالراحة في قمرة مستقلة من عربة المنامة، بل، ببساطة، بانجذاب إلى الخارج ــ إلى الحشود المختلطة في البولفارات الخضراء المشمسة المعتنى بها جيداً، إلى الأديرة القديمة ذات القباب المدببة في الساحات القروسطية ذات الحجارة المصقولة، وإلى الدفء والهواء الطري، وإلى بريق الواجهات المصنوعة من المرايا وضجيج اكتظاظ الناس في الشوارع

---

(1) *بوب ــ آرت (الفن الجماهيري): اتجاه في الفن الغربي يستعمل الأشياء الواقعية والتصوير والإعلان وغيرها، منتزعاً إياها من بيئتها الطبيعية لتكوين تشكيلات عشوائية تدعي سهولة التناول والديموقراطية. .(المعرب).*

(2) *الدادائية: (العثمة طفولية لا اتصال بينها)، اتجاه في الفن الغربي ساد غالباً في فرنسا وألمانيا من 1916 حتى 1924، وكان يعتمد الوسائل المنافية للمنطق ضد التقليدية والقيود البورجوازية.(المعرب).*

التجارية، وإلى الأنوار الحمراء، وإعلانات النوادي الليلية، وإلى دور العرض الصغيرة، نصف الممتلئة، والمريحة، حيث يسمحون بالتدخين ــ أي إلى كل ما كان يجذبه هو أيضاً قبل عامين.

التقط الرسام المائي نظرة فاسيلييف بانتباه، ورفع حاجبيه المشعثين مستعداً للغضب والاستياء (العياذ بالله من عصبيتي القرن العشرين)، لكن فاسيلييف قال بثبات مسالم: ". أتعاطف معك".. سأله زميله وقد احمر احمراراً كثيفاً، ورفع حاجبيه غير المنتظمين إلى أعلى أكثر: ". على ماذا تتعاطف معي؟". رد فاسيلييف: ". على عنائك". من غير أن يعتبر مهماً أن يشرح أن العناء عشية أي سفر إلى الخارج مرتبط دائماً بترقب رحلة ممتعة، و، طبعاً، تحولات مفرحة دائماً: محطات القطار الأوروبية والمطارات، والقهوة التي لا تتغير في البار، والشد على الأيادي، ورفع القبعات، وابتسامات المجاملة، "ماذا تريد أن تشرب؟"، ألا نذهب مساءً إلى الفيلم غير اللائق، الذي أثار ضجة؟". والعطر الكيميائي من الصابون الزهري في الحمام، ورائحة جهاز الأوزون في المرحاض، وبريق البلاط الأبيض، وحلاقة الذقن الحثيثة أمام المرآة المنارة، والقمصان الباردة المنعشة في الصباح، والياقات الضيقة الضاغطة على الرقبة في الاستقبالات المسائية، ولعبة الترحاب الكاذبة بالأعين، والدهشة الساذجة من وجود فن في روسيا على الرغم من كل شيء، ووجود خياطين جيدين ومراسلي صحف جريئة، منتشرين في كل مكان، منتظرين، أسيري العادة، في أبهية الفنادق وراء المناضد مع عصير البرتقال، الأسئلة المبتذلة، "غير الاستفزازية"، التي تطرح عشرات المرات في مختلف بلدان العالم..... أكمل فاسيلييف من غير تعبير قائلاً:". أواسيك على همومك لا أكثر". أما زميله، المضرج كله بحمرة كحمرة الكونياك فأطلق قهقهة قسرية غير طبيعية، وقال متأنفاً: "- إما أنك متكبر يا فاسيلييف وإما حاسد.".قال فاسيلييف :"ـ هذا وذاك معاً. "لكنه راح يفكر على الفور بحزن وأسف في أنه شبع، أكل حتى التخمة، حتى الغثيان، من هذه الأسفار إلى الخارج، تعب، وأرضى فضوله الأشعث، وليس ثمة أي شيء مغرٍ يربطه بباريس وبنيويورك وباستوكهولم وبالمدن الجاذبة والآسرة من بعيد والعادية والمملة عن قرب. لم يكن في مقدوره أن يركز فيها، ولم تثر فيه ذلك الاهتياج المسكر الخفيف والإقدام الطموح، اللذين يسبقان أحياناً الرغبة

في الشروع بالعمل. لم يجلب معه من الخارج أي عمل كامل، وظلت المخطوطات والرسومات العجولة في دفتر مفكراته مثل صوت نغمة أو ذكرى، مثل ضوء منعكس بعيد لحلم منفلت، ومع ذلك فقد اعتبر فينيسيا استثناء، إذ زارها مرتين سائحاً، وكانت المرة الثالثة مع ماريا الخريف الماضي بدعوة من جمعية الرسامين الإيطاليين، بعد أن صار يعرف جيداً سحر هذه المدينة العائمة على الماء، ويذكر أسماء الأزقة والضفاف والجسور فوق القنوات، وأسماء المطاعم البشوشة قرب القصر وساحة القديس مارك...

لم يرسم شيئاً هنا أيضاً، خوفاً من أن يصير ناسخاً، وكان على قناعة بأن في مقدور أسوأ رسام أن "يخط" منظراً طبيعياً لفينيسيا، التي استوعبت في نفسها عبر القرون فكرة الدنيا والمزاج وفيض الجمال الغزير.

هنا، في سفرته الأخيرة إلى فينيسيا شعر فاسيلييف أول مرة جدياً بإرهاقه المؤلم، واعتلاله الذي عقَّده خصامه الصامت الغريب مع ماريا. لم يشبه هذا الخصام بشيء خلافاتهما السابقة، العابرة مثل مطر صيفي مائل، متخلل أشعة الشمس.

الفصل الثاني

رشته عاصفة من عواصف شهر شباط بالثلج من رأسه حتى قدميه، ولسعته برطوبة قارسة، منعشةً إياه بعد النبيذ والسجائر والدفء الفواح.

كان الوقت متأخراً ليلاً. عصفت الرياح في الحي كله، وراحت أشجار الحور المتجلدة تصفر في الأعلى، وأخذت تصر القناديل المكفهرة وترتجف على الأعمدة في تيارات الشارع الهوائية.

فاحت من الثلج رائحة برد السهوب النائية، واستنشق فاسيلييف طراوته مضيقاً عينيه بسبب منه، ثم نظر إلى الأبنية الغارقة في الغشاوة المتحركة، باحثاً عن ضوء نافذة واحد على الأقل، وفكر أن موسكو لم تعرف منذ زمن عاصفة ريفية مثل هذه، ورائحة ليلة شتوية أصيلة كهذه. لقد أتته هذه الرائحة بقلق البعيد الغامض، الطفولي أبداً، والذاهب بغير رجعة، ولم يعد راغباً في الذهاب إلى المرسم الآن، بل جذبه شيء أسطوري مفاجئ إلى مكان ما في البعيد الغائم ـ إلى الظلام العاصف في أزقة زاموسكفوريتشيه المغطاة بالثلج، وأشجارها المثيرة للضجة فوق الأسيجة، وإلى الكنائس الصغيرة نصف المهدمة، والمهجورة والمكفهرة خلف أسوارها الصدئة، لكن السليمة، وإلى الأبنية التجارية ثلاثية الطبقات، ذات الأقواس الحجرية فوق البوابات، التي تظهر خلفها من خلل دوامة الثلج الأفنية الصغيرة ذات العنابر الصغيرة وأبراج الحمام القديمة، والمناضد المغروزة في الأرض تحت أشجار الزيزفون المعمرة ـ هذه الأفنية التي لا تقل سحراً عن مثيلاتها الباريسية أو الإيطالية.

عاش فاسيلييف قبل عام أربعة وخمسين في زاموسكفوريتشيه، فأحب شوارعها الصغيرة وأزقتها، وكان يحلم بها في منامه على الرغم من أنه عاش سنين طويلة بعد الحرب في حي جديد آخر، وفي فناء آخر، لم يذكِّره ولو من بعيد بالماضي العزيز.

فكر فاسيلييف مستثاراً بالطقس السيئ في هذا الوقت الليلي الشتوي، وبرطوبة الثلج القارسة على حاجبيه: "الليل والعاصفة وطراوة الهواء القروية"، يكفي المرء أن يعيش من أجل ليلة كهذه فقط. يا للشيطان، أريد أن أذهب إلى زاموسكفوريتشيه. منذ كم سنة لم أكن هناك. سأوقظ لوباتين الآن سنذهب لنتسكع في موسكو حتى الصباح. سنمشي حتى محطة بافيليتسك، فنلقي نظرة على ضفة شليوزوف واوزيركوفسكايا، وعلى الكنيسة في زقاق فيشنيافسك...".

قطن صديقه فنان الغرافيك ألكسندر غريغوريفيتش لوباتين في مكان قريب منه، على بعد حيين سيراً على الأقدام، في شارع هادئ كالشوارع المسدودة، تتفتح أشجار الحور العالية فيه في شهر تموز على نحو عاصف، حتى أن الزغب الذي لا يهدأ يطير في الهواء بضعة أيام، فيفرش الأرصفة بطبقات بيضاء ويتراكم في الأركان التي لا تصلها الرياح قرب المداخل، ويلتصق بموجة رقيقة بزجاج السيارات كأول ثلج، أما شتاءً فيبدو المكان هنا موحشاً وعاصفاً كما في القرى، وتغرق جذوع الحور في كثبان الثلج، وترتجف فروعها تحت وطأة الريح، وتبدأ أغصانها الصغيرة المتجمدة تحك نوافذ الطبقات العالية وتقرعها.

عاش لوباتين عازباً (مطلقاً منذ أربع سنوات)، وامتاز ظاهرياً بحياة فوضوية، فكان يسافر صيفاً دائماً، وينام أين ما اتفق ـ في القرى أو في محطات القطار أو قرب نار في العراء، لكنه كان يطيل البقاء في موسكو شتاء ليعوض من الرسوم ما فاته صيفاً وخريفاً، فيتمون بالسجائر ويملأ البراد بالمواد الغذائية، ثم يقفل الباب على نفسه، وينعزل في شقته من غير أن يخرج إلى أي مكان، اللهم إلا مرة واحدة كل أسبوع يذهب فيها إلى الحمام مصطحباً المكنسة[1]. كان يستلقي لينام أحياناً كثيرة عند الفجر، ويستيقظ متأخراً (كان يعمل ليلاً أساساً بناءً على طلب دور النشر)، وكانت نافذة غرفته تبرز مثل بقعة خضراء في عتمة الشارع الهادئ، وتشكل أحياناً

---

[1] مكنسة من أغصان البتولا يضربون بها ظهورهم في الحمامات (المعرب).

صاروخ إنقاذ لفاسيلييف.

نظر وهو يقترب من البناء إلى الأعلى على ارتفاع شجرة الحور، حيث كانت تضيء عادة النافذة المعروفة له، لكنها كانت مظلمة.

فكر فاسيلييف مهموماً: "نائم؟" لكنه رن الجرس حازماً، بعد أن صعد إلى الطبقة الرابعة، وراح يستمع إلى صمت النوم على السلم، وإلى انطلاقة الجرس الفزعة في الشقة، وكأن دوائر قلقة قد انتشرت بسبب منها في الماء الراكد، وبعد ثلاث دقائق تقريباً صدح الصوت المعروف له منخفضاً خلف الباب:

". أتمنى لو أعرف من ذا الذي جاءت العفاريت به ليلاً. من هناك أيضاً؟"...

سمع من وراء الباب أنيناً متواصلاً وسعال رجل مدخن، ثم طقطق القفل، وظهر في فتحة الضوء المتدفق من غرفة المدخل لوباتين الوسن، مرتدياً قميص نوم طويل، وحافياً، وقد انتفشت لحيته الشعثاء، وغطت نصف صدره، مضفية عليه هيئة شماس أُنهِضَ من فراشه بسبب من جلبة غير منتظرة.

قال فاسيلييف: ". هذا أنا يا ساشا[1] كما ترى... اعذرني من فضلك لأنني أيقظتك كما لو أن طارئاً قد حدث، لكن إذا قلتَ "لا" فسأرحل ولن أستاء".

هدر لوباتين بصوتٍ غليظ، وهو يحضن فاسيلييف واضعاً لحيته، التي دفأها النوم، على خده البارد:

"ـ ادخل، ادخل أيها الدهان. نعم أيقظتني، فلا تبتكر الاعتذارات، أتفهم؟ من الذكاء أن تليح بيديك بعد العراك، لكنه أمر غبي أيضاً، أتفهم؟ يالرائحة الصقيع الزكية التي تنضح منك. اخلع معطفك. هاته إلى هنا. ياللشيطان، من يحيك لك شرائط التعليق؟ ماريا؟ فيكا؟. ألا تستطيع حياكتها بنفسك؟ كيف تأمر بأن أعلقه؟ من العروة؟ ستضطر إلى أن تتعلم ربط الأزرار وشرائط التعليق إلى الثياب، فأنا يا أخي معلم لا يضاهى في هذا الأمر، لا، لست معلماً، بل عبقرياً من العباقرة، علمتني قسوة الحياة. ياللشيطان، ادخل أيها المتسكع الموسكوبي في أنصاف الليالي قبل أن أردك من تلابيبك. اخط".

---

[1] ساشا هو تصغير لاسم ألكسندر (المعرب).

رافق لوباتين فاسيلييف وهو يلفظ حرف ال"o" بإيحاء كما يفعل دائماً، من غرفة الدخول إلى مرسمه الصغير، الذي غطيت جدرانه من الأرض حتى السقف بالرفوف، وامتلأ بالكتب والمصنفات ورزم المجلات القديمة. عمت الفوضى أيضاً منضدة الكتابة الضخمة، فلم تبق وسط ألواح الكرتون وأكوام المخطوطات، ورزم الرسوم وصحون السجائر الضخمة والمتنوعة، ووسط جبال المفكرات الرثة والصور والغلايين وعلب الدخان وسجائر "دوكات"، سوى جزيرة صغيرة تحت مصباح المنضدة، غطيت كما بالمفرش بصحيفة وضع عليها لوح من الورق، خط عليها، كالعادة، عمل مبيّض. كانت الصحيفة ملطخة بكلمات منفصلة وجمل ومربعات وشجيرات بتولا وأشكال أناس وطيور مرسومة، وقد فسر لوباتين هذه الغرابة بحياة التشرد السابقة التي عاشها، وخصوصاً حين كان مضطراً إلى أن يرسم في ظروف متباينة وعلى مختلف المناضد، مناضد المطبخ، والحدائق، ومناضد تنظيف الأسماك، التي تآكلت بفعل الماء والملح، وظلت عادة فرش المنضدة بالصحيفة، مضافة إليها عادة أخرى، وهي البحث عن تصوير معقد تعقيداً خاصاً بكلمات وخطوط ورموز يرسمها على الصحيفة أول الأمر، ثم ينقلها بعد التمحيص والتدقيق كاملة إلى الورقة.

قال لوباتين مقلداً لهجة فلاديمير، وقد جرف على الأريكة، ليفسح مكاناً، رزمة كتب كان على الأرجح يتصفحها هنا مساءً: "- اجلس، اجلس ما دمت قد أنهضتني في ملابسي الداخلية. اتخذ لنفسك مكاناً على الأريكة، ودخن". - وشرع يدخن هو: "- هل تريد سجائر ثقيلة؟... هل ترغب في "غوليواز" الروسية؟ إن "دوكات" شيء مفتخر يخترق الجسم كالمبرد....".

قال فاسيلييف، وهو يجلس على الأريكة: "- ارتد ملابسك يا ساشا، فالنوم منتهى الغباء. أقترح عليك جولة رائعة".

أشعل لوباتين سيجارته، ورمى عود الثقاب في صحن السجائر، وسعل: "- إلى أين يا صديقي؟ إلى أين ولماذا؟ الفلسفة مرة أخرى؟ هل كنت تقرأ الرجل المسن؟ أم رسائل فان غوغ؟ آمل أن شيئاً مأساوياً لم يحدث، أليس كذلك؟"

"- وإن حدث؟..."

"- ما هذا أيضاً؟ ما معنى "إن"؟".

". العاصفة، الريح، الثلج... أما أنت فنائم... فلنذهب ونتسكع في الشوارع، فنصل إلى زاموسكفوريتشيه، وإلى ضفة شليوزوف، وحتى محطة بافيليتسك. الليل رائع، وتفوح من الثلج رائحة السهب والذئاب والظلمة...".

شرع لوباتين يهز رأسه، وقد لف الدخان لحيته: "ـ ما معنى هذا؟ لماذا زاموسكفوريتشيه؟ عموماً ـــ لا أعارض. نعم، طبعاً، موافق. سأستمتع بالمشي في العاصفة الليلية. ماذا؟ كيف قلت؟ تفوح رائحة السهب والذئاب والظلمة؟ هل هذا في موسكو المتحضرة؟ سيقتلك الخيال والفلسفة يا فولودكا. ياللمتعة. أي واقعي أنت؟"...

قال فاسيلييف ساهماً، وهو يدعك السيجارة:

". تخيل، كانت تفوح من الثلج في وقت ما رائحة الجَبَسِ يا ساشا. لكن هذا كان منذ زمن. في الطفولة... هل لديك فودكا؟! نحن على الأغلب في حاجة إلى اجتراع كأس من أجل الطريق، هل تمانع؟!

"أمانع؟Jamais[1]. لكنني أظن أنك بالعطالة. أليس كذلك؟"قال لوباتين هذا وخطا على الأرض بقدميه الحافيتين نحو الخزانة. أخرج منها دورق الفودكا المصفرة بسبب من قشور الليمون فيها، وصب قدحين، ثم نظر مقطباً إلى فاسيلييف بعينين ذكيتين خفيفتين: "عكازة الطريق، أم ماذا؟ للمتسولين المتنقلين المساكين. هل الأمر هكذا يا فولوديا؟".

"لا، لا يمكن أن يكون الأمر بحكم العطالة، فنفسي لا تطلب الشراب" ـ فكر فاسيلييف بذلك وهو يأخذ القدح جاهداً، كما لو من خلل عائق يعيقه، كي يفهم متى تبدلت حدته واهتمامه السابق بالحياة بقلق خانق متسلل على هيئة نوبات، وممتصاً ألماً غير جسماني في صدره: "حسناً، لم يبدأ هذا اليوم، ولا بعد رحيل الضيوف... لا، بدأ كل شيء قبل بضعة أشهر، في فينيسيا، في أيام تلك الرحلة مع ماريا.....".

". عكازة الطريق يا ساشا".

فكر فاسيلييف: ". لو... في مقدور هذا العقار الشيطاني أن يساعد..." وكان يشعر بخوف من ألم غامض شبيه باليأس، بالتحذير من شيء مميت، مرعب، قد يحدث له

---

[1] "أبداً" (بالفرنسية.)

ولماريا، وكانت أول مرة يشعر بهذا في تلك الرحلة الخريف الماضي.

قال لوباتين: وهو ينفث بصخب دخان السيجارة: "ـ أتفهم؟ كيف يبدو لك أن نشرب عشية الصباح، آ؟ وماذا؟ الفودكا المرة؟ وقبل أن نفتح أعيننا؟! لكن هيا، هيا، فلنعبها".

وقرع كأسه بكأس فاسيلييف، وهو يحك بإحدى قدميه الحافيتين مؤخرة قدمه الأخرى، وشرب ونخر بصوت عالٍ، وعبر إلى الغرفة الثانية، وهي غرفة النوم، وراح يصر هناك بباب خزانة الثياب، وهو يرتدي ملابسه. صاح من هناك قائلاً:

".اسمع يا صديقي فولوديا، لا تستثن أيضاً مخططاً قد يصادفنا، وهو أن نركب عند الركن سيارة أجرة، ونهرع إلى محطة ياروسلافل، فنشتري بطاقتين على أول قطار، ونجلس في قمرة دافئة مع زجاجة لذيذة سآخذها معي و... إلى الشمال العزيز. إلى مكان ما في مدينة ريفية لأيام ثلاثة. إلى الأديرة والكثبان تحت مصاريع النوافذ، وإلى غربان الزرع في الغروب الوردي. آ؟ رائع. أيها الشيخ... تذكّر ما معنى مدينة ريفية روسية شمالية شتاءً. في مقدورنا أن نراها صباحاً بكل بياضها الرائع، ومن غير أية فلسفة موسكوبية: أي حزن وحرية يا صديقي أن نقيم في مكان ما في فندق جرب من ما قبل التاريخ....".

صمت فاسيلييف، الذي هدأه، نوعاً ما، لسع قدح الفودكا الممزوجة بقشور الليمون وعشبة مجهولة على ما يبدو، والهدير المتين، المشدد على الحرف "O"، لصوت لوباتين الغليظ، المستعد من غير أية شكوك، لأن يوافق على أية فكرة من أفكاره، ولو كانت أكثرها جنوناً، وفكر أن الحياة لم تفقد بعد كل مافيها مادام يوجد في هذه الدنيا لوباتين، الذي رأى الكثير وفهمه، والذي يحبه.

راح فاسيلييف يناقش نفسه، وهو يمد ساقيه على الأريكة: "نعم، نعم، إنه يحب مكامن ضعفه في مكامن ضعفي، يحب اندفاعه نحو التجول وتحرره التام، لكنني لست حراً، بل على العكس: لا أريد أن أكون حراً بمفهوم لوباتين. إنني أحب ماريا كالسابق، وهذا ليس حرية، وأرغب في هذه اللاحرية أكثر من أية حرية أخرى. حبي لها؟... ربما ما عدت أحب أحداً، ولم تبق سوى الغيرة الأنانية؟ لكن ما الذي بدأ بيننا؟"

هدر لوباتين، وهو يدخل الغرفة ويرتب لحيته فوق كنزته الفضة المحاكة يدوياً: ". أحن إلى مدن الشمال الروسية. ليست تلك الراحة، ولا ذاك البلاط، بل سحر لا مثيل له... لا يقارن بأي جمال غربي. يكفي هدوء الصباح بالندى المثلج القرمزي، ثم ـــ الصقيع والشمس والبياض، الفتحات المدخنة في جليد النهر السميك مع ساونات باقية في بضعة أمكنة، والنساء الروسيات الأجمل بعيونهن الزرق اللطيفة، واللواتي يفقدن المرء عقله بحديثهن الجميل وحده... آ؟ أما عند الغروب يا أخي فالهدوء الساحر، ولا تعكس النوافذ سوى اللون القرمزي، وغربان الزرع تذهب وتجيء أسراباً كاملة فوق الأجراس القديمة. هل تذكر كم كانت رائعة إقامتنا أسبوعاً كاملاً في ضواحي نوفغورود؟ لقد ظلت هناك أيضاً جزر من روسيا القديمة والحمد لله".

قال فاسيلييف : ". لا أريد الذهاب إلى أي مكان يا ساشا".

لقد تذكر رحلته إلى منطقة نوفغورود قبل عامين، تلك الرحلة المفاجئة، والشتوية والليلية أيضاً، التي ولدت فكرة الانطلاق فيها في "أراغفي"[1]، حين كانوا يحتفلون بجائزة فاسيلييف الثانية. كانت رحلة قسرية، ولم تنجم عن عقول صاحية، وكانت كالهرب من بهرجة موسكو المتعبة والتوتر الاحتفالي، المرتبط بالاتصالات الهاتفية وبرقيات التهنئة والرسائل، وتعريج لا ينتهي على المرسم من قبل مجموعات كاملة من الرسامين بنيّة لا شك فيها، وهي تهنئته وشرب نخبه. حينئذٍ ظهر أمل الخلاص بالرحيل إلى الهدوء، وزقزقة الثلج، وهواء الصقيع النظيف الفائح برائحة كل ما هو قديم، والأشجار المغطاة بالجليد، والسكون العذب ومتانة الحجر الأبيض. كان هروباً قسرياً من جنون معربد إلى الشتاء الروسي العزيز.

فكر فاسيلييف مقطباً: "الهروب، الهروب. أهرب طوال الوقت إلى مكان ما. إلى أين؟ وها أنا آت الآن من غير تكليف إلى ألكسندر، وأنا عارف أنه سيغفر لي كل شيء. كدرته وكدرت نفسي....".

سأله لوباتين جاداً: "ـ هل علي يا فولوديا أن آخذ حقيبة تحسباً للظروف؟" وجذب من خلف عرمة الكتب نصف حقيبة سفرية، نصف حقيبة يد، وأراها

[1] مطعم في موسكو.

لفاسيلييف :"ـ إنها ذاتها التي سافرنا بها. بياضات وخمر وفرشاتا أسنان، وآلة حلاقة..... ونشتري ما تبقى في المكان ذاته".

قال فاسيلييف فجاءة بصوت أجش: "ـ لا أريد الذهاب إلى أي مكان يا ساشا. حتى إلى زاموسكفوريتشيه. لا أريد الذهاب يا ساشا...".

وارتمى على الأريكة مع تعبير عن إرهاق لا حد له، شبيه بالغياب عن الوعي تقريباً.

أما لوباتين فزعق على نحو مسموم، وهو ينفض كتفيه: "ـ هكذا إذن. كيف "لا أريد الذهاب"؟ لا تريد إطلاقاً؟"... ـ وقهقه ملء شدقيه: "ـ لأي سبب أجبرتني على أن أرتدي كساء المسير؟ سبعة أيام جمعة في الأسبوع[1] لديك أيها الموسوس السخيف".

قال فاسيلييف مغمضاً عينيه: "ـ أريد أن أبقى عندك بعض الشيء الآن. اشتقت إليك. لم نلتق منذ زمن. إنني متعب جداً".

رمى لوباتين نصف حقيبة السفر في الزاوية من غير أن يقول كلمة واحدة، وجلس مصدراً أنيناً غير واضح على رزمة صحف مربوطة بحبل، وقال أخيراً:

"ـ لم أرك، كما أظن، منذ شهر ونصف الشهر تقريباً، أليس كذلك؟ كيف تعيش في الفترة الأخيرة يافولودينكا؟"

رد فاسيلييف : "ـ الحمد الله ولا سمح الله".

ثم فتح عينيه وضحك وسحب سيجارة من العلبة على الطاولة:" ـ "دوكات" لقد دخنتها في أيام الدراسة. رخيصة وشريرة. ليست سجائر بل مقتلعات حناجر".

"ـ ألم تعمل يا فولوديا؟"..

"ـ لا".

"ـ لماذا؟"..

"ـ لا تراودني الرغبة يا ساشا. منذ زمن. طليت بضعة أعمال، لكنها ليست كما ينبغي".

"ـ لا أشعر بالدهشة تجاه هذا الأمر، ولا أرمي القلنسوة في الهواء. لا ترغب، وتشعر بالكسل أم الشرارة غير موجودة؟"...

---

[1] مثل روسي يقال للمترددين والذين يغيرون رأيهم بسهولة. *(المعرب)*.

"ـ هذا وذاك يا ساشا، لا بل وثالثاً أيضاً.... لا أريد التحدث عن هذا. الأفضل أن ندخن ما لديك من مقتلعات الحناجر....".

"ـ حسناً، سأصمت. الأفضل لنا أن ندخن، مادمت لا تريد أن تشرب. وكيف الحال في المنزل؟"...

". الحمد لله...".

أكمل لوباتين بلهجة ساخرة: ".ولا سمح الله".

ثم سأل بصرامة، وكأنه يقطع الحديث غير الإجباري، الذي لا يتطلب أي إجهاد فكري من كليهما: ". يمكنك، طبعاً، أن تشتمني يا فولوديا بأقذع الشتائم، لكن أجبني على سؤال واحد: هل أنت مريض؟لا؟".

قال فاسيلييف، وهو يمسح جبينه ووجهه مقطب: ".لست مريضاً. مع أن أي أحد لا يعرف من المريض: هل هو نفسه أم ذاك الذي يعتبره مريضاً. إليك مثالاً: من وجهة نظر عاملة المصعد لديكم أنت، طبعاً، مجنون وشخص غير طبيعي، لحيته لحية قاطع طريق، ويسير في المنزل حافياً، حتى لشراء الصحف، يدخن سجائر كريهة الرائحة، وهو إضافة إلى ذلك بطال وطفيلي، لا يذهب إلى العمل كل صباح. كيف؟ هل ستقول هذا ليس دقيقاً؟ آ، لم تعد لديك الرغبة...".

لم يشعل السيجارة وأعادها إلى العلبة و، على الرغم من أنه بدا مستعداً لأن يبتسم مرحاً، فإنه لم يبتسم، بل تمطى على نحو مريح أكثر، عابساً قليلاً، وصالب يديه على صدره، وبدا وكأنه يرغب في أن يغفو هنا، على هذه الأريكة المريحة في ضوء مصباح المنضدة الأخضر، وسط فوضى الكتب اللطيفة، وفي مرسم لوباتين تحت وقع ضربات العاصفة الطائرة والصاخبة على النافذة.

شد لوباتين لحيته بخفة، وراح يشعثها، وقد برزت من مجاهلها السيجارة المشتعلة. نظر برقة يشوبها القلق إلى فاسيلييف وكأنه لايلومه، ولو قليلاً، على عدم التماسك المنطقي في حديثه، لكنه بدا عازماً على أن يفهم حتى النهاية ما الذي يريده، وما الذي يمكن أن يبدر منه في اللحظة التالية، وشعر فاسيلييف بهذه المراقبة على نحو لايخلو من الاهتياج، فشوهت وجهه تجعيدة قرب شفتيه.

تكلم فاسيلييف ببطء: ". أجبني ياساشا. هل تعرف الشعور بالغيرة؟ أليس خطأ

في تسلسل الأحداث، آ؟ أليس سؤالاً غبيا؟"..

أجاب لوباتين متهكماً، وهو ينفخ دخان السيجارة على قبة مصباح المنضدة الخضراء:

". الشعور الذي سميته معروف للجميع. إنها، أي الغيرة، لا تعرف جنساً ولا سناً، لكنها تدفع غالباً قسماً من الناس، بعد أن تستحوذ عليهم، إلى انتقام غاضب وانفعال جنوني، انظر إلى عطيل ومئات القضايا الجنائية حول قتل الزوجات والأزواج، وتدفع القسم الآخر إلى ألم في الأسنان واكتئاب وحال من التعذيب اللا إنساني، وهو أسوأ من أي تعذيب، إذ لا نهاية له. ما سبب سؤالك يا فلوديا؟"

كرر فاسيلييف، وراح يتمعن في وجه لوباتين بعد أن نهض على مرفقه: ". أسألك . هل عرفتها؟ أنت تحديداً؟ لقد كنت متزوجاً من امرأة جميلة في نهاية الأمر".

"ـ أول الأمر لم أشعر بالغيرة على زوجتي السابقة إطلاقاً، إلى أن صارت تقضي الليالي عند من يسمين صديقاتها... هنا عرفت معاناة الغيور، وهنا أيضاً صرت مستعداً لأن أقتل أولئك الصديقات كلهن، وأقتل نفسي. كنت أخور عاجزاً، مثل ليث مسن، وأهرع بحثاً عنها في أرجاء المدينة.... كان زمناً جنونياً. لكنها كانت امرأة خاصة. كانت يلينا ببساطة عاهرة حقيقية لطيفة. أنا الآن حر يا صديقي، أتفهم؟ حرمن النساء والحب، وهذا معناه من الغيرة أيضاً. لقد أعاقني الزواج يا فولوديا مثل.... قيود ثقيلة، مثل كرات أثقال على القدمين. علينا الافتراض أنني لم أخلق من أجل الأحاسيس الأسروية المفرطة، كانت أشغالاً شاقة: النزوات والتأنيبات وواجبات الزوج، لم تفعل كما يجب، ولم تشتر ما يجب، لقد شربت قدحاً زيادة، ملأت الشقة كلها دخاناً، وما شابه ذلك من وسائل راحة تربوية و تفاصيل معيشية".

قال فاسيلييف بصوت منخفض جداً، وهو يسمع لوباتين ولا يسمعه إطلاقاً في الوقت نفسه:

". الأرجح أنني أغار عليها..". وبعد أن وضع يديه وراء رأسه تابع كلامه بصوت هادئ على نحو غير طبيعي:". هذا هو العذاب البطيء يا ساشا.....".

". ألا تبالغ؟"

أنَّ لوبين أو زأر دهشةً، لكنه، وهو يكبت بسعاله هذه الأصوات المبهمة، سأله

بصوتٍ مدوٍ:

". منذ زمن؟"...

". ماذا منذ زمن؟"...

". بداية عذابك؟ متى شعرت... بهذه الأعراض؟"...

". تسألني وكأنك طبيب".

". كصديق لك".

". شعرت بها في فينيسيا. لماذا في فينيسيا. لا أستطيع الشرح. عموماً حدث الكثير هناك يا ساشا. لي، ولها. لا لم يحدث شيء. كل الأمور على حالها، لكنْ ثمة شيء ما قد حدث".

". في مقدورك أن لا تسمعني، أنا الأحمق الغبي، لكن فهمك صعب يا فولوديا".

". أو تحسب أنني أفهم كل شيء؟"

الفصل الثالث

وصل القطار إلى فينيسيا في وقت متأخر من المساء. انساب الضباب الكثيف على امتداد الرصيف المقفر، الذي راحت تقترب عليه من القطار، واحدة تلو الأخرى، عربات العتالين، الذين كان همهم الوحيد الصراخ بأصواتهم الجهورية. أما من النوافذ المفتوحة في القطار شبه الفارغ فلم تبرز سوى وجوه قليلة. أتعبها الانتظار، وراحت تنظر إلى هذه العربات وإلى الرصيف المبلل، الذي راح يلمع تحت الأنوار، وإلى حشد المسافرين غير الكبير، الممتد من عربات القطار الأمامية حتى بناء المحطة البلورية الملفوفة كلها بظلام رمادي.

هبطا برفقة العتال الرشيق على الدرجات الملساء إلى الساحة المجاورة للمحطة، وهناك اشتما على الفور رائحة الخريف الضاربة إلى المرارة، والحجر المبلل، والماء القريب. لقد غرق كل ما حولهم في غبش ضبابي كثيف، حتى لم يعد مرئياً سوى جزء من الساحة الصغيرة، انبثقت من خلفه بقع مصابيح خافتة جداً، وراحت تسبح. أما في الأعلى، في الفراغ المدخن، فبدا المخروط الأحمر القاتم لدعاية "كولا . كولا".

قالت ماريا، وهي تلف رقبتها بياقة المعطف: -"كم الجو رطب. أين هي فينيسياك المحمودة؟... لا بل فينيسياك المحبوبة كما يخيل لي؟ لا أرى أبعد من أنفي".

أجاب فاسيلييف: "ـ مساءً يعم الضباب في هذا الوقت يا ماشا. لكن الطقس يصير مشمساً في الصباح، وسترين كل شيء".

أدارت جنبها نحوه، ونظرت غاضبة قليلاً إلى الظلمة الرطبة، غير النفوذة، التي تخفي المدينة المشهورة بأنوار فنادقها وقصورها، والجسور فوق قنواتها وبكل حياتها المسائية، التي تبدو وكأنها مخنوقة بغشاوة سميكة ومنتشرة في كل مكان، ويكاد الضوء لا ينفذ منها.

بعد أن التقط العتال الحقائب على عجل، وساعدهما بمهارة وحذر عجول على الجلوس في الزورق، وبعد أن جلسا على المقعدين الجلديين الباردين في الصالة المنارة إنارة خافتة بمصباحين معتمين، وأشعلت ماريا سيجارة، وهي تنظر إلى الزجاج، الذي راحت طبقات من المياه القاتمة تنزلق عليه، وتتمدد وتتبخر، اشتغل محرك الزورق، وضج مرتجفاً، ثم استدار متماوجاً، وانطلق بهما نحو الضباب جانب الملامح المبهمة للقصور المرتفعة من الماء، وجانب المراسي المظلمة التي لا تحصى، والتي تبرز قربها صواري اليخوت العارية، الزوارق ذات المحركات والجنادل.

سأل فاسيلييف :"ـ ألا تريدين أن تنظري من السطح يا ماشا؟... أريد أن ألقي نظرة".

قالت مشتتة: ". لا..".

فصعد وحده على السلم من الصالة.

غير أن الضباب في الأعلى لسعه على وجهه، وسدت الرطوبة الخريفية أنفاسه حتى بدا الوقوف هنا، في الهواء المتدفق وضد هذا الكدر المشؤوم، المتهافت والمنساب والمتأرجح من اليمين واليسار، غير ممتع، وجعله يشعر بالبرد. ومع ذلك، وبعد أن وقف خمس دقائق تقريباً، نزل إلى الصالة التي صارت الآن دافئة جداً بعد الرطوبة الشديدة، وفاحت منها على نحو مريح روائح عطرة ضعيفة ورائحة الأرائك المنجدة بأقمشة تركيبية. جلست ماريا على الأريكة، واضعة ساقاً فوق ساق، وراحت تتحدث مبتسمة مع الشاب الإيطالي بوتساريللي، الناقد الفني والضليع بالفن التشكيلي، الذي استقبلهما في محطة القطار. لحظ فاسيلييف البقع الزهرية على عظمي وجنتيه، ولحظ كيف راح يشد لحيته السوداء المرتبة بأصابعه الرقيقة مثل أصابع كاهن، حارفاً ناظريه المخمليين نحو ركبة ماريا المستديرة الرائعة، التي انكشفت لانزلاق

معطفها المطري القصير. سابقاً، كان فاسيلييف لا يعير انتباهه إلا لماماً إلى أن ماريا، في سنها هذا (تجاوزت الثامنة عشرة منذ زمن كما كانت تقول هي نفسها مازحةً)، ما زالت قادرة على جذب اهتمام الرجال، وجرهم إلى التورط في سلوك مشاكس خفيف، وإلى نشر أذيالهم كالمراوح، والنظر إليها مدة أطول مما يتطلبه وضع وشائج الصداقة الأسروية السابقة. لكن هذا كان أول الأمر لا يثير فيه إلا شعوراً خفيفاً بزهو رجولي، يسخن فيه حبه لزوجه. لم يتملك فاسيلييف في ما مضى الفضول أبداً تقريباً تجاه مثابرتها على الاهتمام بالعطور والوسائل المختلفة، المأخوذة من الطبيعة ذاتها، والتي ساعدت في الحفاظ، حتى في أيام روما القديمة، على أنوثة الجسم والأناقة في كل شيء، ولهذا السبب صعقه فجاءة منظر جسم زوجته البني كالشوكولا الصيف الماضي على شاطئ في القرم، بعد أن غمرته شمس الظهيرة، ورأى كم هو فتيٌّ وآسرٌ ومتينٌ، وقويٌّ ببطنها المشدود كجسم رياضية. في ذلك اليوم نظر إلى ماريا متفحصاً إياها خلسةً، على نحو خاص، وسمع جيداً جرس صوتها، محاولاً، وفي الوقت نفسه، غير راغب في العثور على دلائل على أنه صار يلحظ بعد خمسة وأربعين عاماً، ولو بنظرة خاطفة إلى نفسه في المرآة، شبح تجاعيد حول عينيه وشيباً على صدغيه وظلال تعب على وجهه. لا، لم تفقد عيناها الرماديتان القاتمتان بريقهما الدافئ والغامض، وابتسمت شفتاها بمرونة مرسومة، ولم يكن ثمة تجاعيد زائدة منبئة بيأس النساء بغير رحمة . كانت تبدو، طبعاً، أصغر من سنها بكثير، وقد أرجع ذلك إلى التمارين الصباحية والتنس والتزلج، التي كانت تمارسها، لاحباً بالرياضة، بل بسبب من نفورها من بشاعة البدانة، ومن ضرورة الحفاظ على طلعة الشباب التي تحتاج إليها. خصلة شيباء وحيدة برزت قليلاً ببياضها الدقيق في شعر زوجه الأشقر، مؤكدة على نحو مثير للتساؤل السنوات المنقضية، التي لم يكن كل شيء فيها هادئاً وخالياً من الحماسة.

راح بوتساريللي الخجول يتحدث إلى ماريا، وكان يلقي من وقت إلى آخر، والبقع الوردية تعلو وجهه، نظرة إلى ساقيها المستقيمتين الطويلتين (ساقي صوفيا لورين؟)، أما هي فابتسمت بلطف عارفة جيداً سحرهما، وتابعت سؤالها عن الـ"بوب ــ آرت" و"الكوللاج"، في الفن الإيطالي. مج بوتساريللي دخان السيجارة بنهم بشفتيه الفاقعتين،

ثم راح يفهق لسبب ما، ويتلعثم ويعتصر الجمل المتقطعة مخرجاً إياها من داخله. وحين رأى فاسيلييف قفز متنازلاً بلطف عن المكان قرب ماريا. فكر فاسيلييف على الفور، وهو يحاول أن يجعل مزاجه مرحاً: "لماذا تريد أن تعجب بهذا الولد الغريب؟ أم أنها غريزة النساء. اختبار امرأة خبيرة لأسلحة الفتنة المغطرسة لديها؟"

قال بوتساريللي، الذي تعلم اللغة الروسية بمفرده لحبه دوستويفسكي وكاندينسكي وماليفيتش: "ـ مؤسف جـ. جداً". وأشار بسيجارته إلى النافذة في الصالة، معبراً بوجهه عن خيبة أمل لا حدود لها.

سأله فاسيلييف مهتماً: "ـ ما المؤسف يا سينيور بوتساريللي؟ ألا يعجبك الضباب؟ أظن أن فينيسيا الخريفية لا مثيل لها أيضاً".

"ـ ا.. لـ.. طـ.. قـ.. س".

نطق بوتساريللي لافظاً الحروف حرفاً حرفاً، واعتذر بضم كتفيه وكأنه مذنب.

عارضه فاسيلييف: "ـ أرى أنه طقس رائع. انظري يا ماريا، أية جدائل شعثاء شيطانية امتدت حول المصابيح. أترين؟ مثل هذه المناظر الكونية لا توجد نهاراً في الشمس كما أظن".

توجه إليها محاولاً أن ينقل إليها عدوى الإحساس بالوصول إلى مدينة خاصة، يحبها هو. أراد أن يرى بريقاً خفيفاً يفيض من عينيها، ويذكره بيوم صيفي مشمس. أراد أن يثير فيها فضولاً وإحساساً ممتعاً بالجديد المنتظر وبالمجهول الغامض والمفرح. أردف قائلاً: "ـ أتعلمين يا ماريا أننا وقعنا على خريف حقيقي في فينيسيا. أين يمكننا أيضاً أن نرى مثل هذا الضباب؟"... نظرت ماريا ببطء إلى زجاج الصالة، الذي سبحت قربه، محاذية له، بقع الضوء ذات الجدائل الشعثاء ولم تجب بشيء. وبدا لفاسيلييف أنه رأى في نظرتها المتزنة شتاءً وثلجاً، فأحس بموجة برد مضنية كما كان يحدث له أحياناً في ساعات الوحدة.

فكر: "إنها تخفي غيظها مني؟... ماذا يحدث لها؟ هي تصمت وأنا لا أسأل، وهذا مؤلم....".

شعر لحظة بقلق خانق، ببرود خطير تجاه كل ما أغواه وجذبه، وكل ما أبدت

ماريا تجاهه لا مبالاتها غير المفهومة، ماريا، التي تتقن الصمت على هذا النحو المؤلم مع أن أي سبب للخلاف بينهما لم يكن موجوداً.

****

.... رسا الزورق بعد قرابة عشر دقائق قرب شرفة حجرية منارة بنور باهتٍ في الضباب، وقرب درجاتها الزلقة، المغطاة بالعفن، اللامعة تحت المصابيح المنخفضة، وفي الأعلى . خلف الشرفة . أنير المدخل القديم للفندق، الذي يخترق مستطيل الدهليز الكهربائي الأبيض عبر طبقات سميكة.

بعد صوت المحرك وارتجاج الأرض تحت الأقدام والرطوبة اللاسعة، التي تكثفت قطراتٍ على أكمام المعاطف المطرية، بدا البهو الصغير في الفندق الصغير هادئاً هدوءاً خاصاً، وساكناً وجافاً ومشبعاً بدفء الخشب القديم ورائحة السجائر. أما موظف الاستقبال الوسيم جداً، وذو القوام الأنثوي بزيه الأسود وشعره اللامع، الممشط على نحو مستوٍ، فقد ابتسم بود (بوناسيرا، بوناسيرا)[1]، وتناول جوازي السفر، وأخرج فوراً، وبإصبعين كالساحر، المفاتيح من الكوة ورماها، والابتسامة لا تفارق وجهه، في راحة الولد ذي العينين الغامقتين الممدودة، الذي اعتمر قبعة بريشة حمراء، والذي التقط الحقائب بحركة انسيابية استعراضية، وحملها مبتسماً أيضاً، وركض من غير ضجة على السلم اللولبي الضيق ذي الدرابزون المخرم تخريماً دقيقاً، والمفروش بسجادة حمراء تذيب صوت وقع الخطوات.

بعد أن دخلا في الطبقة الثانية غرفتهما الكبيرة ذات الأثاث الذي يحاكي القديم، وقد فاحت منها رائحة الخمة الحادة، ورائحة العفونة لقرب المياه من نوافذها، وكان فيها سرير كبير مزدوج، ومرآة للتبرج ومقعد مخملي ملحق بها، وصور محفورة قاتمة على الجدران، وبعد أن وضع الولد الحقائب بحذلقة على ركائز خشبية واستلم إكراميته بمرح واختفى في الدهليز المعتم أغلق فاسيلييف الباب خلفه، وشعر على الفور، حين بقي وحده مع ماريا، بالهدوء التام. علقت معطفها المطري غير مبالية، وفتحت مصراع الخزانة، الذي راح يصر، لكنها لم تخرج الأشياء من الحقائب لسبب

---

[1] مساء الخير، مساء الخير (بالإيطالية)، ـــ المعرب.

ما، بل راحت تدخن صامتة، وأدارت له ظهرها.

عرف فاسيلييف أنها ستصمت، أو سترد بتحفظ وعدم مبالاة على أسئلته (هذا ما بدا له، وهذا ماكان لا يطاق في علاقتهما)، ثم أحس فجاءة بخوف من برودة هذا الاضطراب، الذي تسلل إلى حياتهما على نحو غير ملحوظ، وفكر مستاء ومتضايقاً من هذا العذاب الذي لا سبب له والمستمر منذ بضعة أيام: "لِمَ هذا العقاب لنا نحن الاثنين في فينيسيا؟... الخلاف في نهاية الأمر أسهل في المنزل...".

اقترب منها من الوراء وقال بلين، وهيئته تدل على رجل يقترح حلاً مريحاً: ". ماشا، ليس لدينا ما يشغلنا مساء. يمكننا أن نجلس في مطعم ما قرب ساحة القديس مرقس. سنطلب شيئاً ما إيطالياً خارقاً. لكننا نستطيع أن نذهب إلى دار العرض. لقد نصحوني في روما، من باب الفضول، بأن أشاهد فيلماً إنكليزياً جديداً، إنه مفاجأة غير متوقعة. أظن أن عنوانه "الاثنان" أو "الثلاثة"...

لحظ حركة حاجبيها الساخرة الخفيفة، فأضاف غير حازم:"- ومع ذلك، فربما المطعم؟.... كيف ترين؟"...

قالت: ". لا أريد، لقد مللت على نحو مخيف. لقد مللت حتى الرعب من المطاعم، ومن هذه البيتزات والسباكيتي. أنا شبعة حتى أجل طويل. هل تفهم؟"...

عارض بضعف: ". لكن علينا أن نتعشى يا ماشا".

أطفأت سيجارتها في صحن السجائر وأجابت غير مبالية:

"- سأتدبر أمري اليوم على نحو ممتاز من غير عشاء".

لقد فهمت، على ما يبدو، كم صار صعباً عليهما عدم التوافق البارد الناشئ بينهما في الأيام الأخيرة، أما فاسيلييف فلم يشأ أن يصعِّد أي شيء في الحديث مع ماريا، خوفاً من أن لا يحتمل الآن أبداً خلافاً آخر، فتضيع في الحال كل متعة رحلتهما إلى فينيسيا، التي أفسد نصفها استياء أحدهما من الآخر.

لذلك قال بإذعان ممازح: ". أنا موافق على كل شيء يا ماشا".

". موافق ؟ على كل شيء؟"...

كررت ماريا سؤاله مستغربة، وهي ترميه بنظرة براقة اخترقته بنفوذية مؤلمة وغير

مفهومة:

". موافق؟... هل قلت: "على كل شيء؟"... ربي وإلهي. كم صارت الكلمات رخيصة في زمننا..."موافق على كل شيء. "نعم، نعم. لنذهب إلى دار العرض مادام الأمر كذلك"..

قالت ذلك مستعجلة وجلست على مقعد مرآة التبرج، وراحت تلقي نظرات عابرة على وجهها في المرآة: "ـ حسناً، لنذهب إلى دار العرض، إلى المفاجأة الإنكليزية. وإذا لم يكن صعباً عليك فاتصل بالسينيور بوتساريللي، وادعه. ستكون حالنا معه أفضل، فهو يعرف المدينة جيداً".

قال فاسيلييف غير واثق: "ـ أنا أيضاً أعرف فينيسيا قليلاً، وسنجد دار العرض، هذا أمر بسيط جداً".

". لا، لا. ادع من فضلك ناقدنا العزيز".

كان الفيلم قد بدأ في صالة العرض الضئيلة التي أنارتها الشاشة إنارة خافتة، وقد فاحت فيها رائحة المعاطف المقبضة، حين قادتهم مراقبة البطاقات خلفها على عجل، بعد أن سلطت ضوء مصباحها على بطاقاتهم، وأجلستهم في منتصف الصف الخامس، الذي انبسط أمامه وحتى الشاشة نفسها فراغ أغبش لم يشغله سوى رأسين أشعثين في الامام وإلى اليمين، حيث احمر طرفا سيجارتين كنقطتين، وتضافرت لوالب الدخان المتصلة، التي اخترقتها إنارة الشاشة الضاربة إلى الزرقة.

أشعرهم خلو المكان أمامهم بشيء من الراحة، وبعد خمس دقائق بدا لفاسيلييف أن ماريا تنظر إليه مستفهمة، وشعر برغبة في أن يجد يدها على مسند المرفق، فيشد بلطف على معصمها الدقيق، ويقول لها صاغراً ومسالما: "لقد غرنا الشيطان بالمجيء إلى هذه المفاجأة الإنكليزية. فلنرحل من هنا. آ؟"، وشعر، ولما يحزم أمره على النهوض بعد، بتوترها قربه، وبنخير السينيور بوتساريللي الحذر من الجانب.

جلست إلى يساره مسندة ذقنها إلى يدها، وكانت قد كفت عن النظر إلى الشاشة، بل مطت شفتها السفلى هازئة، وراحت تراقب الشاب والشابة ذوي الرأسين الأشعثين، اللذين راحا يتعانقان مصدرين نشيجاً وأنيناً ممطوطاً وخواراً في الصف الرابع، وهما يدخنان بنهم بين القبلات الطويلة.

أما هناك على الشاشة، حيث كان كل شيء خاطئاً ومترفاً على نحو سام، فلم يستطع المحامي الشاب المغرم، وحسن التربية، والمتحدر من أسرة غنية ومعروفة، والذي أصابه الهم والقلق بعد زواجه من شقراء وديعة وهشة، أن يفهم سبب أساها الدائم وعدم مبالاتها الزوجية، ونفورها، الذي لم تحسن إخفاءه جيداً، من مقاربته في شهر العسل. لكنه، مرة، وبعد أن عاد إلى المنزل في غير موعده وجد زوجه الشابة سعيدة، ومستثارة برفقة صديقتها في الكلية(هي ذاتها التي راحت تبكي بغير عزاء في الكنيسة ساعة الزفاف)، وقد انشغلتا بلعبة ارتداء الملابس الذكورية تارة والنسائية تارة أخرى، وبعد شرح عاصف بينهم يوافق أخيراً البطل المكتئب والمشتت على اقتراح الصديقة النبهة بأن يجربوا العيش معاً هم الثلاثة، وتصير تفاصيل هذه الحياة الزوجية الثلاثة تدريجاً . في غرفة النوم في المدينة وفي فيللا في الضواحي وفي غرفة في الفندق، وعلى شاطئ البحر المشمس ـ حب المحامي الشاب الجديد وشغفه، وتولد فيه غيرة تمزقه عليهما هما الاثنتين....

قالت ماريا: ". أكملا من فضلكما مشاهدة الفيلم. سأنتظركما في الشارع". ونهضت واتجهت نحو المخرج، حيث أضاء مصباح أحمر كالشرارة فوق ستار الباب.

سأل فاسيلييف: ". كيف أنت يا سينيور بوتساريللي؟ ما عاد لدي صبر".

ونهض خلفها أيضاً.

هز بوتساريللي رأسه موافقاً، ونهض مسرعاً، معبراً عن استعداده للذهاب فوراً مع السينيور المحترم فاسيلييف إلى أي مكان:

". معكما، معكما، معكما".

ساد الضباب في المدينة وتضافر كالسابق مساءً، ولف الأنوار وواجهات المحلات المغلقة، التي أبرزتها وأنارتها أضواء النيونات، مذكرة بخشبات المسارح الخاوية، التي نادراً ما تتحرك قربها أشكال المارة. أخمدت الأزقة الضيقة، التي امتلأت بسديم متمايل حتى أطرافها، وقعَ الخطوات، لكن المكان كان أقل ظلمة قليلاً في الساحات، حيث كانت تظهر من وقت إلى آخر أبنية المعابد الضخمة المغسولة (كان بريق الشموع الكهربائية في نوافذها المحمية بالشِباك يتدفأ متورداً فوق الأرض) ومن ثم ممرات

الشـوارع الضـبابية مـرة أخـرى، التي تخترقهـا نيونـات الواجهـات، ومـرة أخـرى ظـلال الجسور نصف الدائرية المتأرجحة فوق القنوات غير المرئية، حيث يعصف فيها الهواء في الأسفل ناشراً البرد، وتفوح عندها رائحة الحجر المتعفن المغسول بالماء.

ساروا صامتين زمناً طويلاً.

نطقت ماريا فجاءة وهي تدس يديها في جيبي معطفها، وجسمها يقشعر:

"ـ لا أفهم. لقد جن العالم كله. يبحثون عن الحقيقة في الشذوذ المقرف، ويريدون الإيحاء للناس أن يشمئزوا من أنفسهم. ما الغاية؟ لم؟ هل في مقدورك أن تشرح لي يا سينيور بوتساريللي؟ هل تعلم؟ لا رغبة في النظر لا إلى الرجال ولا إلى النساء بعد هذا الفيلم".

ابتسم السينيور بوتساريللي محذراً، وكان بادياً من وجهه أن السؤال لم يكن مفهوماً كفاية، لذلك رجاها مضطرباً:

"ـ ممكن بالإيطالية يا سينيورة ماريا؟"...

قالت متنهدة: "ـ سأجرب، حسناً، بالإيطالية".

كررت السؤال، فأجاب بوتساريللي بالروسية مع شيء من الثأثأة:

"ـ أظن أن الإباحية ظهرت كتأكيد من أهل الفكر لذاتهم أيتها السينيورة ماريا. يعتبرونهم... أي أهل الفكر، عاجزين جنسياً تماماً. حينئذٍ، استشاطوا غضباً، وأقاموا... كيف أسمي ذلك..... ثورة جنسية، لكن.... كيف يمكن أن يقال ذلك؟... ظلوا عاجزين جنسياً كما في السابق". ولمس لحيته المنتظمة كما لو كان فزعاً: "ـ هذا ما أظنه أيتها السينيورة ماريا".

قالت، وقد رفعت حاجبيها مفكرة: "-شرح غريب. هل تؤمن بأسطورتك الساخرة. هل كل شيء واضح لك؟... أنت محظوظ مادمت تتصالح مع نفسك بهذه السهولة....".

تمتم فاسيلييف، وقد أصابه ضجر لا حدود له: "ـ أرى أيها السينيور بوتساريللي أن تاجراً ماجناً قد ابتكر هذا النوع من الجنس، وهو ذاته ـ سياسي محنك ـ بضاعة كأية بضاعة، لاصق طبي ومانع صواعق...".

سألته ماريا بشيء من الاهتياج: ". لماذا ترجع كل شيء إلى السياسة؟"...

" كم أرغب في أن لا تتحدث عن هذا...." فكر فاسيليف بهذا وهو يشعر بالغيرة عليها الآن من ما عرفته بطبيعة عملها، غير مرة، وربما أكثر منه هو، من قراءتها الروايات الإيطالية والفرنسية لتترجمها.

". ليس إلى السياسة فقط يا ماشا"...

قالت ماريا: ". ليس كل شيء في السياسة يا عزيزي فولوديا. فالفاشية وكل انحراف في الإنسان مثل عصية كوخ، وإلا لما سرنا ونظرنا إلى كل هراء كهذا".

هتف بوتساريللي موافقاً، وقد برقت عيناه المخمليتان بإعجاب حار: ". أوه، نعم أيتها السينيورة ماريا. أوه، نعم. الطلب يولد العرض. إذا لم يكن ثمة طلب فإن . ن..... لا يوجد عرض. لقد درست الأخلاق، وأعرف أن الروس لا يحبون الإباحية جداً، لكنني أريد أن أقول، إنها..... هذه الإباحية، مهما كان هي ظاهرة من ظواهر الحرية الإبداعية، غير الموجودة في المطلق.... هنا بداية المأساة...".

تمتمت ماريا مستغربة: "ـ بداية؟... لكن ما الشيء المشترك بين الفن وعلم الأمراض؟"...

هتف بوتساريللي بصوت عتب غير محق: ". أوه، سينيورة ماريا. أليست الحضارة المعاصرة علم أمراض؟ المخدرات؟ العنف؟ تصاعد الجنس؟ التحرك من اللا مكان إلى اللا مكان؟ انظري إلى الشوارع في روما، ميلانو، باريس. إلى أين تسير السيارات؟ والناس المختلفون فيها؟... نعم، أظن أنهم من اللامكان إلى اللامكان. العالم متعب جداً، وهذا الـ"ريميك".. الإنكليزي ـــ أديرة الصمت: يذهب أهل الفكر الإنكليزي إليها ويصمتون أشهراً، مثل الخرسان. والـ"ريترو". العودة إلى الماضي.... و..... الـ"مارغريج"....".

". مارغريج؟"...

ـ سأشرحه. إنه... السعي الجماعي إلى الموت السريع..... يحدث هذا بين الشبان الهيبيين. ماذا على الفن أن يفعل هنا؟"...قالت ماريا مطرقة،و غارقة أكثر في ياقة معطفها المرفوعة: ". كم كل هذا محزن. محزن على نحو مخيف. ماذا سيحدث للناس

بعد عشرين عاماً؟ إلى أين يسيرون؟ إلى الهلاك؟"... أكد بوتساريللي : "ـ محزن جداً"..
ونطق مرة أخرى بحمية مقنعة: "ـ لا يحتاج أحد في العالم إلى الإنسان الآن، ولا يتحدث عن روح الإنسان إلا مجموعة من أهل الفكر. إنهم يريدون شيئاً ما، ويخافون، لذلك يثرثرون عن الإنسانية، وموت الحضارة على الأرض المسمومة، لكن خوفهم هذا يا سينيورة ماريا على أنفسهم، وعلى الثقافة العالمية، وليس على الإنسان، فهم غير مبالين به".

ساروا في العتمة الرطبة عبر الأزقة الحجرية الضيقة، وكانوا أحياناً يصعدون الدرجات إلى الجسور الضيقة المبنية على شكل أقواس فوق القنوات، فيقعون في الأسفل، في الشقوق المبيضة في الجسر، على الرقرقة المائية للمصابيح النادرة، وهنا، على الجسور خصوصاً، نفذت إلى عظامهم الرطوبة الخريفية لجدران الأبنية القاتمة. نامت المدينة منذ زمن، وطرد سوء الطقس في هذا المساء التشريني السياح القليلين في مثل هذه الفترة، ولم يكن في مقدور أحد أن يرى نفساً واحدة. كان الضباب هو السيد في كل مكان، فالتصق بأغوار الواجهات المنارة كالفراديس، والتي لا يحتاج إليها أحد الآن، وانضغط متسللاً إلى نوافذ البارات الليلية الضاربة إلى الحمرة.

جاء فاسيلييف إلى فينسيا مرتين ربيعاً، فحفظها في ذاكرته مشمسة، غاصة بالناس، أما فينيسيا هذه فخريفية معتمة، خالية من الناس وكئيبة: رائحة العفونة القديمة، فيلم ممل، وحديث غير ممتع مع بوتساريللي في الطريق إلى الفندق ـ في كل شيء مذاق الفشل والخداع، وقد بدا صعباً عليه أن يتنفس رطوبة الهواء.

فكر فاسيلييف : "ـ ماذا يقلقني الآن؟ هل أنا غير معافى حقاً؟"

قالت ماريا وهي تنتفض وتضغط ياقة معطفها على ذقنها: "ـ يا إلهي، كم أرغب في التدخين. أية رطوبة مرعبة هنا".

تمتم بوتساريللي: "ـ هل قلت؟ أرجوك يا سينيورة ماريا؟"...وخطا نحوها خطوة، ومد لها السجائر وهو ينحني، لكنها ابتسمت، وردته شاكرة:

"ـ شكراً، لا أدخن في الشارع".

تكلم فاسيلييف متماسكاً قدر الإمكان، وشاعراً بخجل لأنه على استعداد لأن يشتعل:

". أعارضك أيها السينيور بوتساريللي، لقد فُهت بكلمات مرة بحق أهل الفكر. أما أنا فأحبهم بنقائصهم كلها. لولاهم لكانت الحياة مملة جداً، وآلة للمنفعة. لقد تحدثت كناقد، والنقد في زمننا يا للأسف إما دعاية عديمة الحياء، وإما إعدام للموهبة على مرأى الجميع، لاسيما وأن الآلهة فقط هم القادرون على قتل من هم آلهة مثلهم، وليس الملائكة الساقطون. اعذرني، لست راغباً في الإساءة أبداً، لكن النقاد جميعهم تقريباً ملائكة ساقطون... واحتكاماً إلى أنك لم تتكلم على أهل الفكر بحب فإنني فهمت أنك أيضاً....".

لمعت أسنان بوتساريللي الراضي الفتية على وجهه الشاحب والنحيل كوجه كاهن:

". سينيور فاسيلييف. لم أذكر معرضك في روما بسوء. لم أقتلك. بل على العكس، ثمة أشياء تعجبني جداً. "الثلج"..."الوداع"، "المرأة في اللباس الأحمر"، "بورتريه"... لقد حددتُ منهجك. إنه ليس واقعية اشتراكية بل واقعية الاشتراكية".

عبس فاسيلييف: "-وهل المشكلة في المصطلحات؟... الضرب على الجبين كالضرب في الجبين. هل سمعت بهذه العبارة الروسية؟"...

هز بوتساريللي ذقنه مستحياً:". في الجبين، على الجبين. سأتكلم هكذا. الناقد في الفن المعاصر هو مومس راقية، وعليه أن يحب الجميع. لكنني لا أحب الكثيرين. مأساتي في أنني أكره بعض الفنانين، وعلي أن أحبهم، أي أن أصور الحب لهم كالساقطة".

قال فاسيلييف بحدة:". وهذا، يا للأسف، في العالم كله. ياللأسف، لأن الحياة البشرية ما هي إلا حجة للفن، أما الإبداع فهو شخصية، تعبير عنها. فليذهب إلى الشيطان سلوك الساقطين في الفن يا سينيور بوتساريللي".

قالت ماريا بصوت منخفض، وهي تنظر تحت قدميها: ". أنت لا تراقب نفسك. لا لزوم لهذا يا فولوديا. أنت تسيء إليه بنبرتك...".

هتف بوتساريللي بطيبة صريحة، وراح يعبر بحركة يديه الرقيقتين عن عدم استيائه: "ـ لا أشعر بالاستياء. طبعاً، كونك موهبة مستقلة لا يمكنك أن تكوّن علاقة جدية بمهنة الساقطة. أنا نفسي قل ما أصبر على مهنتي، لكن ليس لدي مهنة أخرى. أفهم جيداً أن أي إبداع هو شذوذ بارز، وعملية فهمه عمل طبيب نفساني.... وليس عمل ناقد صعلوك"...

"ـ لم المبالغة؟"...

"ـ أليس شذوذاً إنشاء عالم غير موجود على قطعة قماش، بالألوان أو بالكلمات على الورق؟...حتى واقعيتك ياسينيور فاسيلييف.... كيف هذا؟ ليس عكساً للواقع، بل مرآة لذاتك، لـ"أناك" الخاصة. هل مثل هذا العمل هو ممارسة أناس طبيعيين؟... هل طبيعي الله الذي خلق عالمنا؟ عاش يرونيم بوسخ في القرن الخامس عشر، لكنه أنشأ في مخيلته عالم البشاعة المعاصر المخيف. لوحته "حمل الصليب". من يحيط بيسوع؟... وجوه قاسية، سادية، تمثل كما بيّن التاريخ غالبية البشر. ليس القادمون من كواكب أخرى، بل أناس قساة صلبوا غريب الأطوار المفعم بالحب. اعذراني، لقد ابتعدت جداً، جداً عن الحديث، لكنني أفكر دوماً: ماذا على موهبة الفنان أن تفعل... هل عليها أن تغفر للبشرية خطاياها الدموية والحروب والقتل أم عليها أن تغضب منها؟ الحب أم الحقد؟"

"ـ تغفر ولا تغفر. تحب وتحقد". "تمتم فاسيلييف بذلك شاعراً بالأسف على عدم تماسكه غير المبرر، ثم أكمل حديثه على نحو معتدل: "ـ أنا واثق من أن الفن هو وعي البشرية لذاتها، وعقابها لذاتها".

سأله بوتساريللي، وقد دور عينيه المتنبهتين إعجاباً، كما لو أنه التقط فكرة أساسية ضرورية له:

"ـ ماذا قلت يا سينيور فاسيلييف؟ عقابها لذاتها؟... هل لهذا علاقة ما بالمازوخية؟"....

".أي شيطان يدفعك لتُرجع كل شيء إلى أمر واحد، عفوك. ليست ثمة أية علاقة. تعذيب الذات بمعنى الإحساس تاريخياً بالذنب على الدم المراق كله، والآلام كلها. تعذيب الذات ضروري كي تحافظ البشرية على نفسها. هل فهمتني يا سينيور بوتساريللي؟... الفن مدعو للحفاظ على الإنساني في الإنسان، من غير أيٍّ من أولئك الدوساديين والمازوخيين الجدد والفرويديين المملين حتى الشيطان".

قالت ماريا وهي تضغط كتفيها: ".لماذا أنت غاضب هكذا؟... أنت فظ يا فولوديا".

تمتم فاسيلييف بنصف صوته: ".حقاً؟... لم أشأ ذلك".

وفكر، من غير أن يفهم سبب هذا الاهتياج الشائك والضاغط في صدره ضد ذلك الفيلم غير المعقول وضد رطوبة الضباب الخانقة في فينيسياه الحبيبة، وضد هذا الإيطالي الناقد، غير الغبي والمسرف في الثرثرة، والذي يشبه الكاهن بيديه الرقيقتين، ونحول وجهه وضآلة لحيته: "نعم، لست على ما يرام، ومادمت لست قادراً على أن أتماسك، فلماذا علي أن أبدو لهذا الصبي، السينيور بوتساريللي، روسياً مهذباً وأنموذجياً لا يفوه في مجاملاته الدنيوية إلا بكلمتين لطيفتين: "إطلاقاً"، و"للغاية"؟ فلتذهب هذه المعايير إلى الجحيم. ليأخذها الشيطان، وليأخذها الشيطان. الأحاسيس مرة أخرى؟ لو أنني أوهب فكراً لا قلب له. لَنَعُمَ كل شيء بالهدوء، ولصار كل شيء في العالم قانونياً، ولكنت راضياً على نحو لم يسمع به أحد، لأنني في فينيسيا ثالث مرة، ولأن الصبح سينبلج قريباً، وسأرى الشمس فوق القنوات. لكنْ ثمة شيء يحدث لي، لست على ما يرام. كأنني أرغب في البكاء. لم يحدث لي هذا قط....".

قال فاسيلييف بصوت منتعش،وهو يخفي بصعوبة المسحة المزيفة في نبرته: ".كل شيء، كل شيء رائع عموماً." ثم تابع حديثه مرحاً، وهو يعي أنه يقول شيئاً بذيئاً: ".لحسن الحظ بقينا أحياء بعد هذا الفيلم الغبي، ولهذا فإن الأمر يستحق الآن أن نتناول شيئاً ونشرب كأساً".

"ـ عم تتحدث؟... الثانية عشرة ليلاً. أنا متعبة على نحو لا يحتمل، لكنني لن أعيقك. افعل ما يحلو لك".

نظرت إليه ماريا شزراً، والتقط في نظرتها القصيرة بريقاً شتوياً خاطفاً، فضاق نَفَسه مرة أخرى، كما لو أن اضطراب خفقان قلبه أو دموعه غير المذروفة يعيقانه. سيطر على نفسه شاعراً بالغضب من هذا الوضع غير الطبيعي، المهين له، كما بدا له، ولأنه كان قادراً، ومن غير أسباب خاصة على أن ينفلت من عقاله، ويشتعل حنقاً في أية لحظة.

تمتم فاسيلييف : "ـ لا تتذمر يا سينيور بوتساريللي. آسف حقاً لأنني أكثرت من التفوه بالكلام الجارح، الذي لا يفيد في نهاية الأمر مطلقاً".

****

كان النور مطفأ في بهو الفندق، اقترب موظف الاستقبال الشاب والوسيم، الذي كان يتصفح مجلة مصورة في ضوء مصباح المنضدة، من رفوف المفاتيح وهو يبتسم ابتسامة بشوشة ("بوناسيرا")، وأعطى فاسيلييف مفتاح غرفته مع ظرف ممتلئ وطويل، كتب عليه بالإنكليزية بحروف كبيرة مائلة: "مدام فاسيلييفا"، وقد سطر تحتها خطان.

قال فاسيلييف: "ـ لك يا ماشا".

ورأى كيف أضيئت عيناها بفزع وهي تمر بناظريها على ما كتب في الظرف، وكيف راحت الورقة تهتز في يدها بعد أن تنحت جانباً قليلاً، وقرأت بسرعة الرسالة، التي كانت مؤلفة من بضعة أسطر على الأرجح.

تمتمت وهي تدسها في حقيبتها كيفما اتفق: "ـ إنها لي". لكن صوتها كان مشدوداً جداً، ولهذا السبب على الأرجح سعت إلى أن تبتسم للسينيور بوتساريللي ابتسامة رقيقة ضبابية: "ـ ليلة هادئة، إلى الغد. Arrivederci..[1]

حتى أنها تأبطت ذراع فاسيلييف في طريقها إلى السلم.

وما إن دخلا الغرفة، وأشعلا النور حتى التفتت نحوه بحدة، من غير أن تخلع المعطف، وراحت تنظر إلى عينيه نظرتها الكامدة و الخائفة ذاتها، ثم همست قائلة: "ـ

[1] إلى اللقاء (بالإيطالية).

يا إلهي". ورمت حقيبتها على منضدة التبرج، وراحت تسير في الغرفة مطرقة الرأس، ومغرقة ذقنها في ياقة معطفها المرفوعة. أما هو فتابعها بصمت شاعراً أن الأمر الذي خاف منه، ولم يرغب فيه، والذي كان ينتظره في الوقت نفسه كأمر حتمي، يجب أن يحدث في هذه اللحظات.

نطقت وهي تدخن مستعجلة، ولا تزال تسير في الغرفة: "ـ لا أعرف ماذا أقول لك عن هذا الأمر. لم أعرف، ولا أعرف كيف أقول لك كل هذا".

سألها: "ـ عم تتحدثين؟".

وفكر بوضوح حاد مفاجئ حل عليه: "هاهو الآن.....".

كررت وقد علت وجهها تصعيرة دلت على نفاد صبرها:"ـ لا أعرف كيف أحدثك بمن التقيت في روما. عموماً أقرأ رسالته بنفسك. إنها معنونة لي، لكنها موجهة لك".

"ـ الآن.... كل شيء يحدث الآن تحديداً.... وهي تريد ذلك. كأنها تريد التخلص من شيء ما سري يعذبها....".

سألها هادئاً قدر الإمان: "ـ ممن؟" ثم تناول الظرف الذي أخرجته من حقيبتها، وتمتم بسخرية بدت أنها أنقذته على نحو لم يتوقعه هو نفسه: "ـ وهل يستحق الأمر يا ماشا أن أقرأ رسائل ليست لي؟ هل أملك الحق في ذلك؟...".

صاحت بهمس آمر: "ـ اقرأ، اقرأ"، وقد غيرت تصعيرة نفاد الصبر وجهها وجعلته بشعاً ومنعزلاً ومتألماً.

فض الورقة المصقولة والمروسة بشعار الفندق آلياً، وقرأ بضع جمل مكتوبة بالروسية بخط عصبي مائل.

"إلى ماشا الغالية وفائقة الاحترام.

اعذريني كرمى لله لأنني أستغل الجزء المتبقي من العلاقة الطيبة نحوي. لا أريد للقائي بفلاديمير أن يتم على نحو مفاجئ، فمثل هذا الأمر غير المتوقع سيكون منفراً وغير ممتع كما أفترض، تماماً كلقائي بك في روما، الذي أفزعك أيتها المسكينة حتى كاد يفقدك الوعي. بلغيه كرمى لكل ماهو مقدس أنني سأنتظره في مطعم فندقكم غداً من

الثامنة وحتى العاشرة صباحاً. إذا لم يحضر حتى العاشرة فليكن الله قاضيه، ولن أفهم عدم حضوره كعقاب أو كره تجاهي.

إيليا".

". إيليا؟"...

قرأ الرسالة مرة أخرى فأدير شيء ما مبهم في داخله، ولمع في ذهنه إحساس مقلق ولا يدرك بالماضي، لكن سرعان ما بدا له، ليس هذا الإحساس، بل حتى التلميح، إلى شيء ما بعيد وماض استحالةً، ووهماً في ذاكرته حول زمن اختفى في اللا وجود.

سأل فاسيلييف، بعد أن رمى خارج وعيه ظل هذا التلميح، وهذا الاستذكار الضعيف الخالي من أي أمل: "ـ إيليا؟... من هذا الإيليا؟..."ثم تمتم فاصلاً بين الكلمات:". ليس من بين معارفي على ما أظن من اسمه إيليا، فمن هو؟ وعم يريد أن يتحدث معي؟"...

صاحت ماريا، وقداقتربت من النافذة، وجذبت لسبب ما الستارة الثقيلة: تكاثف الضباب فوق القناة، واخترقته في بعض الأماكن بقع المصابيح الضاربة إلى البياض:". إنه هو، هو، هل تفهم؟...هو.... إنه هو، إيليا، إيليا تحديداً. إنه حي، ويعيش في روما. لقد حضر معرضك، وهو الآن يعرف كل شيء عنك."رددت ذلك وهي تكاد تبكي، ومن غير أن تتحول عن النافذة: ". نعم، في مقدورنا أن ندهش، أن لا نصدق. لكنه هو. إيليا رامزين، ويريد لقاءك. هذا لا يعجبني إطلاقاً، على الرغم من أن حديثاً جرى بيننا في روما. إذا أردت أن تعرف رأيي فلا تلتقه، أنتما مختلفان، وكل هذا لا معنى له. لا معنى له إطلاقاً...".

تمتم فاسيلييف بكلام متقطع، وأشاح بيده غير مصدق تماماً على الرغم من كل شيء:

". هذا غير ممكن. إيليا رامزين؟ يعيش في روما؟ أي هراء. هذا وهم. استشهد إيليا في أوكرانيا عام ثلاثة وأربعين. لقد حاربنا معاً في بطارية واحدة. قدنا فصيلتين. إيليا رامزين؟ هو ذاته؟ إيليا؟ التقاك في روما؟ لا يمكن أن يحدث مالا يمكن حدوثه".

قاطعته غاضبة، وهي تتحول عن النافذة:

"ـ لماذا تقول بإصرار إن هذا لا يمكن أن يحدث؟ آمل أنك لا تظن أنني أنا التي كتبت لنفسي هذه الرسالة. نعم، التقيت به مرة في روما حين كنتَ في حفل الاستقبال في استديو سبينيلي، وتحدثت إليه، هو الحي، خلل ساعة، ليس ثمة أي تزوير يا فولوديا. "ثم أضافت عن قناعة مرة: "ـ تصور، لم يكن أي سحر أو أي أشكال شمعية من متحف مدام تيوسو. لقد تحدثت إلى إيليا، الحي، الحي والحقيقي. في مقدورك أن تتأكد من ذلك غداً، لكنني لا أريد أن تتقابلا. لا أريد أبداً. أعطني عود ثقاب من فضلك. أُطفئت السيجارة..." ثم قالت: وقد تعثر صوتها وارتجف:"ـ يا إلهي، يا إلهي، كم أنا موسوسة. إنه يفكر بكلينا الآن. التعس....".

"إيليا؟ هل معنى هذا أنه حي؟ لكن كيف وصل إلى هنا؟ الأسر؟ هل ظل بين الأحياء؟ أيعقل أنه إيليا؟ آخر مرة رأيته عام ثلاثة وأربعين.... بحثوا عنه بعد الحرب. كانت الأجوبة التي وصلت إلى أمه: "لم يُسجَّل بين الأحياء"، "ضاع بغير أثر"...... لم يسمع أحد عنه خبراً واحداً طوال ثلاثين عاماً. وحتى الآن.... لا، ثمة أشياء لا يمكن تصديقها....".

كرر فاسيلييف سؤاله وهو يفتش عن أعواد الثقاب في جيوبه: "ـ التعس؟ قولي لي كيف يبدو؟... هل عرفته؟... هل أمكن معرفته؟... أظن أنك رأيته آخر مرة عام واحد وأربعين. أليس كذلك؟"...

"ـ أظن في السادس عشر أو السابع عشر من تشرين الأول، حين كانت موسكو تعيش الأيام المرعبة... لقد عدتما حينئذٍ من ضواحي موجايسك...".

راح يشعل عود الثقاب لتشعل سيجارتها، لكنه كسره، فنظرت إليه نافدة الصبر من فوق ياقة المعطف المرفوعة بعينين رماديتين غامقتين، واقتربت وانتزعت علبة أعواد الثقاب من بين أصابعه.

تمتمت ماريا مستعجلة: "ـ علينا في زمننا هذا يا فولوديا أن لا ندهش على الرغم من غرابة كل شيء... حسناً، يمكن معرفة إيليا بقليل من الجهد لولا شعره الأشيب.... ولولا شيء غريب ما في بزته وعينيه... أو ربما في إيماءاته....".

"ـ هل قلتِ" "التعس"؟"...

جذبت كتفيها كما لو أنها شعرت بالبرد عند النافذة المغطاة بالضباب.

"ـ لأنه... لأنه كان يأمل أن يرى الماضي فينا. يبدو أنني محمومة... إذا لم آخذ الآن حماماً ساخناً فسأمرض بعد رطوبة فينيسيا هذه".

عضت شفتيها، وخلعت المعطف بسرعة، وأخرجت لباساً ليلياً من الحقيبة المفتوحة، وذهبت إلى حمام الغرفة. أما هو ففكر في الحال أنها لم تكمل حديثها، وأنها تخفي شيئاً ما مرتبطاً بلقائها غير المعقول هذا مع إيليا في روما، والذي ليس في الإمكان شرحه منطقياً، فإيليا الشهيد أو المفقود، الملازم رامزين، زميله في الصف، وصديق طفولته وشبابه، حي، وهو لسبب ما لا يبحث عن لقاء معه في روما حيث افتتح معرضه، بل هنا في فينيسيا.

لم تكن حركات ماريا مسموعة خلف باب الحمام، وكانت المياه المتدفقة من الصنابير تصدر ضجيجاً بعيداً ومنتظماً. جعله صوت ارتطام الماء الرتيب والموحي باليتم يشعر بالوحشة والوحدة في الغرفة، فشرع فاسيلييف يسير من غير أن ينعم بالسكينة، داساً يديه في جيبيه، ثم قال أخيراً قرب باب الحمام:

"ـ أنا ذاهب إلى الباريا ماشا لأشتري السجائر. سأعود قريبا".

الفصل الرابع

اشترى فاسيلييف في البار الليلي الهادئ والفارغ علبتي "سالم"، وهي سجائر خفيفة بالنعناع، تعجب ماريا، ثم، وكما كان يفعل دائماً حين لم يكن يعرف لغة أهل المكان، أشار بعينيه لعامل البار بثقة كبيرة بالنفس نحو غابة من الزجاجات وسط فوضى المرايا، وقال له بلغة نصف إنكليزية ونصف ألمانية، مفهومةٍ في مطاعم العالم كلها:

". جين أوند تونيك، بليز، بيتي زبر".[1]

حيا عامل البار ذو الوجه السمين، والمرتدي سترة قرمزية فاقعة، وهو يتلاعب بمهارة بالزجاجات وقطع الجليد والكؤوس، معشياً الأبصارَ ببريق أسنانه البيضاء كالثلج وسواد عينيه الصقلي وبريق الدبوس الضخم على ربطة عنقه، فاسيلييفَ بفرحٍ وكأنه واحد من معارفه القدماء المبجلين، على الرغم من أنه يراه أول مرة، ورد بكل سرور عليه ظاناً إياه ألمانياً:

"Ein moment . Danke, Vielen dank. ".[2]

جلس إلى اليمين من منضدة البار شاب وفتاة هيئتهما معاصرة تماماً، إذ كان شعر رأسيهما طويلاً ويرتديان كنزتين فظتين. أمسكت الفتاة بأصابعها الدقيقة

---

[1] جن مع تونيك من فضلك (بالألمانية).

[2] لحظة واحدة . أشكرك جزيل الشكر. (بالألمانية).

سيجارة، وراحت تحتسي الشراب من الكأس ناعسة، وتنظر إلى ما أمامها نظرة زجاجية شفافة، ثانيةً بابتسامتها حافةَ فمها الطفولي المنتفخ. أما هو فكان يهمس لها بشيء ما في أذنها ضاماً إياها من كتفها، ويقبل خدها ورقبتها وشفتها فيما ظلت تثني زاويتي فمها بابتسامتها من غير إحساس، غارقةً، كما بدا، في حال من اللاحركة ونسيان الذات الناجمة عن المخدر. راح بالقرب منهما مسنان أمريكيان يشربان الكوكتيل، وبدا أنهما زوجان. كان الرجل نحيلاً وحليقاً حتى لمع جلده، وبدا متصابياً على نحو ملحوظ في لباسه الرياضي ذي التربيعات، وراح يتفحص بعينيه الحادتين على نحو لا يوحي بكبر سنه البار والشاب والفتاة وفاسيلييف الواقف عندالمنضدة، ويُسِرُّ في الوقت نفسه، وبصوت غيرعالٍ بشيء ما لرفيقته وكأنه يدحرج في فمه كريات سيليولويدية من جانب إلى آخر، أما هي، المتصابية أيضاً، والمتوردة فكانت ضخمة الجسد، وتعتمر قبعة مغناج بما فيه الكفاية (اشترتها على الأرجح في أثناء إحدى رحلاتها إلى باريس، ثماني ساعات على "البوينغ"، مطار كينيدي، نيويورك ــ مطار أورلي)، وتحتسي بالماصة سائلاً بنفسجياً، وتضحك بصوت غليظ كاشفة عن أسنانها الخزفية المحدبة الرائعة. رأى فاسيلييف أن فضولهما وفرحهما غير الخجول بالحياة مبرران جيداً برحلتهما المفرحة في أوروبا الغربية، حيث لا يقل فيها متعة عن أمريكا إنفاق النقود والتمتع بالراحة والخدمة، و تغيير الأماكن والشهية الطيبة والمتاحف الأوروبية.

إلى اليسار من فاسيلييف تقوس وحيداً فوق كأس من الويسكي رجل سمين يوحي مظهره بحب العزلة، وراح ينخر نخيراً ثقيلاً غارقاً في تركيز متجهم ومعلقاً ناظريه على آلة القهوة، التي نشرت رائحة استوائية دافئة. تدلت رقبته الوردية كطية فوق ياقة سترته، وبدا ظهره المدور كالوسادة، فكان أشبه بمصارع سابق أو رباع جنى نقوداً كثيرة، وهو يجوب العالم الآن بغير هدف. تلونت يداه المكسوتان بالشعر بضوء الخواتم الأزرق، وقادت أصابعه إلى التفكير بالولع بلعب الورق وبمقامرة كبيرة وبالإثارة.

هذه هي عادة فاسيلييف ــ تَرقُّبُ الناس بالتفصيل، وأحياناً على نحو مكشوف تماماً، واضعاً الملحوظات الضرورية في ذاكرته. لكنه مهتم الآن بأمر آخر. خُيل له أن

إيليا، في أثناء اقتفائه أثرهما من روما توقف هنا، في الفندق نفسه، وأغلب الظن أن الالتقاء به ممكن إما في المطعم وإما في البار. كان المطعم الذي مر قربه فارغاً تماماً، وقد أضاء نور المصباحين الجداريين المخفف على نحو نعس على جانبي الباب الزجاجي. وحده البار الذي في البهو كان مناراً كله بنور دخاني أحمر، وترددت منه موسيقى منخفضة، سبحت مهدئة من هذا اللهب، فجلس فاسيلييف إلى المنضدة متلفتاً حوله. لا، لم يكن في البار ذلك الرجل الذي في مقدوره أن يعرفه فوراً ويسميه إيليا، الذي انحفرت هيئته في وعيه منذ الطفولة.

راح يشرب بين مجات السيجارة الجن مع التونيك المنعش ببرودته الجليدية (مست قطعة الجليد الملساء أسنانه). طلب كأساً مزدوجاً وراح يتفحص من جديد زوار البار غير الكثر، من غير أن يفهم لماذا يريد في هذه اللحظة أن يرى إيليا، مدفوعاً بإحساس من اللاوعي. لكن هذا الإحساس حذره فجاءة من الخطر، وبدأ العقل يوحي له بهدوء بموقف متماسك جدير برجل زادت التجربة من ذكائه.

فكر فاسيلييف شاعراً بالاحتقار تجاه نفسه: "هل معنى هذا أنني أخاف لقاءه؟... مم أخاف؟... من إيليا؟ عواقب الحديث معه؟ لا، أنا مجبر على أن أراه بين الأحياء، أنا مجبر على أن أرى صديقي القديم، الذي أكلت وإياه في المدرسة وفي الحرب ثلاثة بودات من الملح.... أيعقل أن إيليا حي فعلاً؟.... لا أتخيل أنني سأراه....".

". Noch ein double? ".[1]

سمع صوت عامل البار البشوش، الذي فاه بهذه الكلمات المفهومة في التعامل الدولي، ورآه كيف راح يحرف نظره مرحاً، وهو يخلط الكوكتيل، نحو الزوجين الأمريكيين المسنين، اللذين أحنيا رأسيهما بجدية فوق صحيفة "كورريري ديللا سيرا". حديثة الصدور، الملقاة على منضدة البار، ثم نظرا باهتمام باتجاه المصارع السابق السمين، ذي الهيئة الموحية بحب العزلة.

أجاب فاسيلييف بخليط إيطالي ألماني ابتكره هو:

". غراتسيه، نوخ أين دوبل بييتي".[1]

---

[1] *كأس مزدوج آخر؟ (بالألمانية).*

وسعى إلى أن يحزر سبب حيوية عامل البار المرحة، فتأكد في الحال أن اهتمام الزوجين الأمريكيين لم يكن منصباً على الرجل السمين بل عليه، وأن عامل البار مشارك في هذه اللعبة كوسيط بين الأمريكيين وفاسيلييف.

سحب عامل البار الرشيق الصحيفة بحذر من الأمريكيين (- Excuse me , very sorry)[2] وهو يبتسم ابتسامة اعتذار باهرة، وقربها حذرا أيضاً من فاسيلييف، معبراً بوجهه السمين المتحرك عن انبهار فرح، ثم نطق وهو مليء بدهشة الاحترام ". أوه، فيري غود. بون. كا . را . شو"، ورأى فاسيلييف في أعلى القسم المطوي من الصحيفة صورته، التي وقف فيها نصف ملتفت نحو لوحاته المعروضة في الصالون في روما، ثم تذكر أنه أجرى صباح أمس في الفندق، بمساعدة ماريا، مقابلة صحفية مع حسناء حمراء الشعر، طولها دونكيشوتي، عارية الساقين، وقد وضعت من المساحيق على وجهها ما فاق الحد، وراحت تخط رموزاً سرية مختزلة في مفكرتها، وفكر أن "كورريرى ديللا سيرا" نشرت مقابلة أمس، وأن عامل البار أو الأمريكيين قد عرفاه على الرغم، طبعاً، من أن احتمال مصادفة فنان روسي، وهوجالس أيضاً في بار ليلي، قليل جداً.

تحدث عامل البار بصوت مستميل وهو يجزئ كلامه: ". سينيور فاس ــ سيل ــ ييف؟"، ثم قال جملة طويلة تلخص الهدف منها، كما بدا، في شكر فاسيلييف، لأن هذا الأخير لم يفهم منها سوى كلمة واحدة "غراتسيا".

فكر فاسيلييف : "أعوذ بالله من الغرور الأجنبي". هازئاً من أنفته، وتصور فزعاً أي حديث متعب وطويل من غير معرفة اللغة قد يبدأوه معه، لذلك، حين رأى فضول الزوجين الأمريكيين المتصابيين ونظراتهما، التي تعني استعدادهما للتعرف عليه، واللذين كان في نيتهما، كما بدا، أن يجلسا بغير إبطاء قربه، تمتم قائلاً: "ـ غراتسيا، غراتسيا". وأسرع في دفع ما عليه متظاهراً بأن عامل البار والأمريكيين قد أخطأوا.

---

[1] شكراً، كأس مزدوج آخر من فضلك (بالألمانية).

[2] أرجو المعذرة، آسف جداً. (بالإنكليزية).

لم تكن حاله على ما يرام نوعاً ما، لأن الصحيفة التي نشرت المقابلة معه ظهرت الآن تحديداً وفي هذا المكان، وقد عرفوه، وهذا غالباً ما لا يحدث، فهو قد درس جيداً عدم دقة ملاحظة الناس . لم ترحه، ولم تهدئه تطابقات المصادفات في براهين الشهرة الكاذبة، بل أتعبت بزيفها اهتمامه الاضطراري.

توقف فاسيلييف في أثناء صعوده إلى غرفته في الطبقة الثانية عند منعطف السلم فجاءة، وفكر وهو يصر بأسنانه: "لن أسامح نفسي أبداً إذا لم أره... لن أسامحها أبداً....".

ألقى المصباح الليلي نوراً ضارباً إلى الحمرة في الغرفة، لكن ما إن دخل فاسيلييف حتى ومض عند رأس السرير، الذي لم يعد مرتباً، شعاع ضيق في غطاء ليموني، منيراً على الوسادة وجه ماريا، الذي بدا شرقياً رقيقاً كوجه بنت صغيرة، ومصفراً تحت المنشفة الملونة الموبرة، التي لفت بها كالعمامة شعرها المبلل.

قالت: "-لا أستطيع أن أغفو. حتى الديميدرول لا يساعدني".

قال وهو يرمي علبتي "السالم" على المنضدة: "ـ السجائر".

واقترب من الفراش ملتقياً بنظرة ماريا، وشاعراً برقة لا تقاوم تجاهها، تجاه شحوبها المرضي، و دقة وجهها، ومستعداً لأن يطلب السماح منها من غير أن يعرف على ماذا، وشاعراً بألم يحرقه: لقد جرته وجذبته هذه المرأة الوحيدة، التي لم يكتشفها حتى النهاية خلل حياتهما المشتركة كلها، ولم يفارقه أو يتخلى عنه أعواماً كثيرة الظمأ غير المروي.

انحنى ومس زاوية فمها بضغط خفيف من شفتيه.

"ـ ماشا....".

قالت بصوت شاك: "ـ أنا متعبة جداً. "أما هو، فتلقف، غارقاً في عينيها، بريقاً متعدد الألوان لألم صامت ما: "ـ أشفق عليَّ يا فولوديا، لا تلمسني...".

الفصل الخامس

ليلاً، غنى أحدهم ثملاً في القناة، ثم اشتغل محرك على نحو أصم في مكان غير بعيد، وتردد صوت ارتطام موجة متأخرة، وهدأ كل شيء.

أرهف سمعه، وهو مستلق على ظهره، وراح يستمع لكل صوت، ولأنفاس ماريا، مجبراً نفسه على أن لا يغير وضعه كي لا يوقظها، ومرت في وعيه أصوات إنسانية متواصلة كما لو أن شريطاً مسجلاً لليوم المنصرم قد بدأ يدور. ثم زحفت خارجة من العتمة كالأساريع أحرف صحيفة ضخمة، اجتمعت على نحو لجوج في كلمات غير معروفة، مثل هرم ما يجب أن يرمز للخطر أو التحذير، لكن أي تحذير وأي خطر. هذا ما كان يصعب تبينه أو قراءته. أتعبه هذا، وجعل العرق الحار يبلله: "إيليا، إيليا، أهو حي؟...".

أراد، وهو نصف واع، أن يتخيل كيف سينزل إلى المطعم في الأسفل حين سيأتي الصباح، وكيف سينهض هناك باندفاع من وراء المنضدة في الركن ذلك الإيليا السابق، بعينيه السوداوين الوقحتين، اللتين يمكن معرفتهما على الأرجح من بين آلاف الناس. ذلك الإيليا المزهو بنفسه زهواً فائقاً، والحازم، الذي اختفى عام ثلاثة وأربعين من غير أثر في أوكرايينيا بعد المعركة الليلية.... ماذا سيقول واحدهما للآخر؟... بم سيشعران؟...

حلم قبل الصباح كما لو أنه وحده في منزل ريفي فارغ، يخترقه ضوء قمري

جنائزي، وقد أيقظه في وقت متأخر من الليل نباح كلب يَشرُق قرب جدار الغرفة، حيث كان ينام، ثم انقبض قلبه رعباً حين انقطع هذا النباح كما لو أُخمد ــ وساد صمت شبيه بصمت ما قبل القتل. في هذا الحزن القمري، الذي لف المنزل بشبكة عنكبوتية كئيبة، سمع كيف قرقع الزجاج ورن، وكيف تشقق الإطار تحت تأثير قوة خارقة، وبدأ شخص مربع يقترب بخطوات ثقيلة من باب مرسمه. كان الصمت مطبقاً على العالم كله، وكان ثمة شيء مضن في انعدام الرجاء العالمي هذا، جعله يختنق في وحدته مودعاً حياته غير الموفقة، التي اعتبرها أصدقاؤه خالية من الغيوم وناجحة وسعيدة... ثم تكلم أحدهم في الغبش القمري بصوت ماريا داعياً إياه لأن يشفق على نفسه وعليها وعلى أسرته، لكنه شعر بالخجل من طلب الغفران بصوت مسموع، بينما كان الرعب يمزق قلبه، وفيما كان يختنق، اقتحم بوعيه مكاناً ما، وفهم أن نباح الكلب المقتول، والصمت، وخوف الانتظار ماهي إلا أحلام، وأنه ليس في منزل ريفي في ضواحي موسكو بل بعيد جداً عنها، في فندق غريب، وأن عليه أن يستفيق نهائياً....

فكر بوضوح: "نعم، أنا في فينيسيا". وتطاول بحذر، كي لا يوقظ ماريا، لينظر إلى الساعة على الخزانة الصغيرة، لكنه لم يتبين العقارب في الظلمة، فاستلقى مرة أخرى وأغمض عينيه. في تلك اللحظة نبح من وراء النافذة، التي اخترقها ضوء القمر، كلب ثم انقطع نباحه على نحو مقلق، إما لأن أحدهم قتله أو خنقه، حتى أن فاسيلييف أنَّ وهو غاط من جديد في حركة الحلم المتكرر الدائرية ـ كان يعرف أن تكرار الأحلام المنهك هذا في فترات فرط الإجهاد العصبي هو دليل على اعتلاله.

استحم، وحلق ذقنه، ودخن سيجارة على الريق، ونزل إلى المطعم في الثامنة صباحاً، شاعراً بالتعب الذي لم يرحل عن جسمه كله.

بدا المطعم رحباً كما يحدث في الأوقات المبكرة، وكانت الستائر مزاحة، فلمعت شمس الصباح المنخفضة، طاردة الضباب من خلف النوافذ، بتيار مائل على المفارش المشدودة، وعلى أبراج المناديل البيضاء المنشأة، وعلى السجادات الحمر في الممرات. أما الشرفة الكبيرة خلف الباب الزجاجي المفتوح فكانت طلقة، مشمسة على نحو خاص، مستقبلة النور من ثلاث جهات.

"أيعقل أنه هناك؟"..

بداية، لم ير فاسيلييف بوضوح، بل تخيل إيليا الذي ينتظره هناك، وقد لحظ من بعيد الزبون الوحيد على الشرفة وراء آخر منضدة، حيث كانت تسهل مراقبة الداخلين إلى المطعم. لا، لم يجلس وراء المنضدة التي في الركن كما تخيل ليلاً، بل قرب جدار الشرفة الزجاجي العالي، وراح ينظر، مديراً رأسه، إلى فاسيلييف خلل فضاء المطعم كله، أما هذ الأخير فقد سار باتجاهه وهو يسمع على نحو سيئ رئيس الندل الإيطالي السمين والمتورد، الذي ظهر من الجانب وراح يسأله عن شيء ما بلطف ودود وموقر.

تمتم فاسيلييف آلياً: ". Ja, ja, danke, Schon."[1] من غير أن يسمع كلماته، ومن غير أن يضمنها أي معنى، لأن الرجل، الذي عرف فيه في لا وعيه إيليا، راح ينهض ببطء من وراء المنضدة داعكاً سيجارته في صحن السجائر، ولم يكن إيليا، لم يكن الملازم إيليا رامزين، بل شخصاً آخر، فارع القامة، أشيب، حليقاً بعناية، يرتدي بزة رمادية ضيقة التفصيل ومزررة بزر واحد كما تقتضي الموضة، كان رجلاً أجنبياً خالصاً لا يعرفه فاسيلييف ولم يلتقِ به في حياته أبداً. لكن، ومع ذلك، كان هذا الأجنبي هو إيليا بسواد عينيه المضيقتين الخطر والثاقب كالسابق على وجهه البني الملوح بالشمس على الأرجح، غير أنه لم يكن ذلك الإيليا القريب منذ الطفولة، بل شخصاً ثانياً، عاش في البعيد المجهول حياة كاملة غير مفهومة كما لو أنها على كوكب آخر.

نطق فاسيلييف : ". مرحباً يا إيليا".

ومد يده متوتراً، من غير أن يحيد بنظره عن عيني إيليا الإسبانيتين، اللتين تشبثتا بوجهه، وقد برقت في رأسه فكرة عن التحفظ المنافي للطبيعة في لقائهما هذا، الذي بدا أنه سيجعل مصيرهما سعيداً أو يهلكهما من التصرفات الأولى والكلمات الأولى.

رد إيليا بصوت منخفض: ". مرحباً يا فلاديمير.".

وشد على يده بمصافحة طويلة جداً ومتينة على نحو متقطع، كما لو أنه يعبر بذلك عن حاجته الشديدة إلى هذا اللقاء، ثم أضاف بلباقة مسكوكة ومبالغ فيها: ".

---

[1] *نعم، نعم، أشكرك. (بالألمانية).*

شكراً، يبدو أن اللقاء بي ليس سهلاً عليك... شكراً".

كان فاسيلييف يتذكر صوته جيداً، لكنه لم يتعرف عليه تقريباً، إذ أنه فقد نبراته الطبيعية السابقة الهازئة أو الآمرة، والذي لفظ الآن به جملاً قاسية وواضحة وصحيحة مثل الكثيرين من الروس الذين عاشوا طويلاً في الخارج ـ ليست هيئة إيليا الخارجية المتغيرة، هذا الإيليا الأشيب، الأجنبي المتأنق بعض الشيء بلباسه المحاك بغير عيوب، ولا أظافره نصف الدائرية المعتنى بها، ولا أصابعه الناعمة، بل سكُّ كل كلمة ـ تحتها خوف سري من عدم صحة اللفظ، هو الذي جرح فاسيلييف تحديداً، وصار يشعر فجاءة بالرعب من التفكير بالأعوام المنصرمة التي فرقتهما.

فكر فاسيلييف وهو يرتجف من الإحساس بالزمن، ومن تقلبه القاسي، الذي لا يرحم البتة أي شيء: "كيف أبدو له؟"... ثم قال بنصف صوته:

"ـ حسناً، لنجلس، فالوقوف ليس مريحاً كما أرى. لن نفطر الآن على الأرجح، لننتظر ماريا".

شرع إيليا يتحدث بصوته الواضح المسكوك حين جلسا، وقرَّبَ من فاسيلييف السجائر: "ـ ليس عليَّ أن أسألك إن كنت مندهشاً، فأنت لم تتوقع الالتقاء بي في أية حال من الأحوال. هراء، أليس كذلك؟... لقد دفنني وطني العظيم منذ زمن، وفاقاً للرتبة العسكرية، أو، الأدق، وفاقاً لرتبتي كضابط... لكنني حي. أمر خيالي، أليس كذلك؟"...

ابتسم قسرياً مبيناً أسنانه المتراصة الجيدة، التي ربما كانت حقيقية أو صناعية. لم يكفِ الوقت فاسيلييف ليتذكر بوضوح كيف ابتسم إيليا الشاب منذ أعوام كثيرة، لكن، وكأن شيئاً ما سابقاً، معروفاً له، لاح في بياض أسنانه.

تمتم فاسيلييف: "ـ قل لي يا إيليا". وراح يتمعن بهدوء في وجهه البني المحلوق بحذلقة، فأدهشته هذه النعومة الغريبة الدالة على رجل كثير الاهتمام بمظهره، ثم كرر بحزم، منصاعاً لنفاد صبرٍ عارم: "ـ قل يا إيليا كيف حدث كل شيء؟ نعم، أنت محق، فاللقاء معك أمر غير متوقع لي إطلاقاً. عموماً، لم أصدق حتى النهاية. لا.... لم أصدق حتى رأيتك....".

سأله إيليا وكأن ظل ابتسامته الوقحة السابقة لاح مرة أخرى في بياض أسنانه: ". هل صدقت؟... ألا يمكن أن يكون شبيه إيليا رامزين جالساً الآن أمامك؟... جالساً تحت قناع إيليا الحقيقي ليغرر بزميل الدراسة السابق الفنان السوفييتي.... ليغرر به على نحو غادر ويجره إلى شبكة عنكبوتية؟ ليغرر به ويعرض عليه جنيهات وفرنكات وكأس الدرر. ألم تسمع بهذه الأغنية البذيئة؟"... ". لا..".

قال إيليا، ساكاً الكلمات، ومفرطاً من جديد في التأكيد على صحة لفظه ومواضع التشديد التي لم ينسها: "ـ أما أنا فتشرفت بسماع أحد المغنين الخارجين من روسيا. حسناً، أنا بحاجة إلى هذه الشبكات وإلى أية قذارة سياسية مثلما تحتاج، أرجو المعذرة، كلبة لوكسمبورغية سلوقية إلى حبوب منع الحمل. أرغب يا فلاديمير في أن تعلم أولاً أنني لا أطيق السياسة، لذلك لم أتبع أحداً... هل تتذكر ـ كانت في الحرب أرض ليست لأحد؟... هل تتذكر الشريط المحايد؟... لهذا لا يمكنك الآن، وبأي كعك، أن تغريني بالذهاب إلى أي مكان ـــ لا إلى اليمين ولا إلى اليسار. أنا فطيرة خارج السياسة، هربت من الجدة وهربت من الجد[1]. الله غير موجود لا هنا ولا هناك...". وشتم بفظاظة، غير أنه خفف بابتسامته الساخرة من جملته البذيئة التي فاه بها بلكنة غير روسية، إذ أضاف: "ـ ما آسف له أحياناً من كل قلبي هو أن الشتائم الروسية البذيئة، التي استخدمناها على نحو ممتاز في الحرب، لا تتردد هنا في الغرب المتعفن كما يكتبون عنه في روسيا. لا أحد يفهمها.... لكنني أتحدث عن أمر آخر، الله ههنا..."تابع إيليا حديثه وقرع صدره بإصبعه:". وإلى هنا، إذا تحدثنا بالألمانية، شترينك فيربوتين... أما بالروسية فممنوع الدخول. يمكنني أن أخمن ماذا تفكر عني. لكن المفارقة تكمن في أنني لم أنسَ، وأذكر موسكو والفناء والحرب.... وأذكرك مذ كنت في الثانية عشرة تقريباً، إذن، يا فلاديمير، لقد مررت في حياتي بأنواع الخداع جميعها، لذلك قل لي أولاً الحقيقة: "هل أمي حية؟"...

سأل سؤاله هذا، ونظر مستفهماً إلى فاسيلييف غير المهيأ، كما اتضح، لأن يصدقه، لكن بدا على إيليا كم كان راغباً في أن يسأل هذا السؤال، الذي وجهه لماريا

---

[1] يرد هنا أبياتاً من حكاية شعبية روسية مشهورة عن فطيرة هربت من الجد والجدة اللذين صنعاها (المعرّب).

في روما على الأرجح، وكم انتظر الآن بشغف مفضوح الجواب الذي يعني له الكثير...

أجاب فاسيلييف على نحو سوي:"ـ قابلت رايسا ميخائيلوفنا منذ عام. لم تعد تعمل في المكتبة، تقاعدت. لقد انتقل الجميع تقريباً من بنائنا إلى أحياء جديدة، بقيت هي والمسنان تسيغانكوف. هل تذكر عائلة الحذائين هذه؟"...

تمتم إيليا بصوت أجش نوعاً ما، وفرقع بقوة بقداحته، ثم قرب النار من السيجارة فالتهبت النقطة المعدنية في حدقتيه: "ـ أذكر، لكن على نحو سيئ. كيف هي..... معذبتي العزيزة؟... لقد تخطت السبعين... كانت أصغر من والدي بخمس سنوات. إذا كنت مذنباً وخاطئاً أمام أحد فأمام والدتي القديسة". شرع يتحدث عن نفسه بقسوة فجاءة: ". أحببت الكتب أكثر من كل شيء. أمثالها في هذه الدنيا قلة. لو كان في مقدوري يا فولوديا أن أريها المكتبة التي جمعتها في الأعوام الأخيرة. لولا الكتب لمت منذ زمن... بأي معاش تقاعدي تعيش؟ بخمسين روبلاً؟.. كم تبلغ الصدقة التي يعطونها لأمي المسكينة في شيخوختها؟"...

قال فاسيلييف وقد بدأ يعاني من الكدر من أسئلة إيليا الشائكة: ". كما أذكر فإن رايسا ميخائيلوفنا تتقاضى ثمانين روبلاً. لكنك تعلم، ففي نهاية الأمر ارتبطت أحوالها الجيدة بك... بـ... بمصيرك بعد الحرب. لقد كنت ابنها الوحيد، وكما هو معروف....".

"ـ و؟ وكدت أحرم أمي من معاشها التقاعدي السوفييتي الضخم المقدر بثمانين روبلاً؟"...

". كيف؟ لم أفهم سخريتك يا إيليا".

"ـ لقد قتلت أو فقدت من غير أثر. واضح أنهم سجلوني هكذا في تقاريرهم عن الخسائر، لكن لم يعرف أحد أنني كنتُ في هذا الوقت ألتهم اللفت النيء في الأسر. حتى أنت، مع أننا كنا معاً حتى آخر معركة. "الملازم رامزين قائد الفصيلة النارية لم يعد من المعركة". هكذا كتبتم في التقرير؟"...

". هكذا".

". أما أنا فاستسلمت للألمان"...

"ــ استسلمت؟ تريد أن تقول: ساقوك إلى الأسر. أليس كذلك؟".

". عزيزي فولوديا. لقد انحنيت دوماً أمام نظافتك وضميرك... منذ الطفولة....".

". أرجوك يا إيليا من غير هذا الأسلوب الرواقي. كرمى لأي شيطان.....".

". فولوديا، يا صديق طفولتي السابق الغالي".

". ماذا يا إيليا، يا صديق طفولتي السابق الغالي؟"...

"ـ ما الفرق: "ساقوني"، "وقعت"، "قبضوا علي".... لم يكن أسيراً من أطلق النار على نفسه قبل الأسر، أو من ثقب في الأسر شرايينه بمسمار صدئ، أو رمى نفسه على الأسلاك المكهربة، أو حطم رأسه على حجر.... مات أولئك، أما من أراد أن يحيا فكان أسيراً سواء استسلم أم اقتادوه".

". إذن، هل استسلمت؟ أم أسرك الألمان؟ أنا أذكر جيداً تلك الليلة عند طرف الغابة. حين عدنا إلى المدافع.... أذكر كيف بدأت المعركة وكيف انتهت. أذكر كيف اقترب الألمان بمصابيحهم من الجرف حيث كنتم...".

". ألم تحفظ في ذاكرتك المساعد لازاريف، قائد جماعة الاستطلاع؟... يا لسحنته الكبيرة. كان ضخماً كالدب، من الجناة السابقين."[1]

"ـ أذكره. كان لديه وشم نسر على صدره. لقد هجم معك نحو المدافع. لم يعد أيضاً. فقد أثره....".

". قتل. قتلته رصاصتان قربي. قفزنا معاً إلى الجرف، نحو النهر، أذكر على نحو ممتاز حمار القبان[2] ذاك الشبيه بالدب. أما لقبه فكان رائعاً ـــ لازاريف، على اسم قديس، المساعد لازاريف. كان شخصاً مرموقاً في البطارية. وكان واشياً إضافة إلى ذلك. حفظته على نحو ممتاز، وإلى الأبد. إلى دهر الداهرين. أشعلت له الشموع بعد الحرب في المعابد الأرثوذوكسية، وكتبت تحتها". لراحة نفسه...".

". ومع ذلك كيف وقعت في الأسر؟"...

---

[1] *كانوا يرسلون المساجين إلى الحرب ويكلفونهم بأصعب المهمات وكانوا يميزونهم بالوشم (المعرب).*

[2] *حمار القبان حشرة صغيرة تعيش في الأماكن الرطبة، وتتكور حين يلامسها المرء. (المعرب).*

"ـ اقتادوني طبعاً، اقتادوني. حاصروني بجحافل كاملة من حملة البنادق الآلية، و"هيند هوه"[1]. فاقداً الوعي، جريحاً جرحاً خطيراً، مصدوماً، من غير يدين ومن غير رجلين. هل يدهشك هذا؟... ألم يكتبوا هكذا عن الأسرى في روسيا؟"...

"ـ لا أقبل مثل هذا المزاح يا إيليا، وأظن أنك تذكر ما كلفتنا هذه الحرب".

"ـ كلفت من . الشعب؟ أنت أم أنا؟"...

"ـ على الأقل كلفتك الأسر يا للشيطان".

"ـ اجتزت يا فولوديا دوائر جهنم كلها والمطهر، ولم يكن معي في أثناء ذلك المرشد العبقري فرجيل، الذي لا مثيل له. لن أدخل الجنة، لا أستحق ذلك، لا أستحق ذلك. سفكت الكثير من دماء الناس. أمر مؤسف، لكن يدي في الدم حتى المرفق. عليَّ أن أتوب وأصلي ليلاً نهاراً إذا اتبعنا المسيح، أما السلام التام، وسعادة الحب في الخلاص وتعاظم الحب في الروح فغير موجودة، لكنك أنت أيضاً سفكت دماء الآخرين....".

"ـ عن أية دماء يدور الحديث؟"...

"ـ مادمنا أنا وأنت قدنا فصيلتين ناريتين، فاحسب كم شظية من قذائفنا أصابت هدفها في كل معركة. لقد سفكنا، أنا وأنت، صهاريج من الدم، دمِ الأنذالِ الفاشيست كما كنا نقول في الحرب. أنا لا أتكلم على بحار الدم الروسي التي سفكوها هم. لكن قتل الحيوان العاقل على يد الحيوان العاقل هو أعظم الخطايا التي لا تغتفر، و... إلى الدير، إلى الدير. علينا الذهاب منذ زمن. علينا أن نظل راكعين حتى نخلص أرواحنا، لكن لا خلاص. من سيمنحني الغفران؟ الرب؟ بعيد جداً. الناس؟.... عليهم، السفلة والخاطئون، أن يغسلوا ذنوبهم بأنفسهم لدى أقربائهم. فمن في مقدوره الآن أن يحاكمني على كيفية وقوعي في الأسر: استسلمت أم اقتادوني؟ أنت؟ مستبعد، يا فلاديمير. لقد ابتعدنا عن المدفع معاً، وعدنا إليها معاً، واقتحمنا صفوف العدو معاً، قائد الفوج الرائد فوروتيوك؟ شنق أمثاله قليل في أي وقت. الشعب؟... مفهوم عظيم، لكنه عام ويستخدمه الديماغوجيون أغلب الأحيان ـ يتحدثون باسم الشعب".

---

[1] اليدين إلى الأعلى (بالألمانية).

". مفهوم يا إيليا. يمكنك أن تتابع. هل هذا معناه لا أحد؟"..

". معناه لا أحد. لا توجد في العالم الآن محكمة عادلة يا فلاديمير".

". والشهداء في نهاية الأمر. أم كل شيء منسي. ليس من حقنا أنا وأنت...".

" من أعطاني الحق في أن أتحدث إليه بهذه اللهجة القضائية؟... ما هذا الاستجواب؟ ألا أصدقه؟"

"ــ ألا تريد أن تتهمني في أن عشرين مليون روسي سقطوا لأنني وقعت في الأسر؟ أي عشرين! إنهم يقللون العدد طبعاً. هل تظن أن الذنب ذنبي؟"

راحت عينا ايليا السوداوان الضيقتان، اللتان كانتا تشتعلان في وقت ما من أيام الشباب بنار الغيظ تنظران الآن فاحصتين إلى فاسيلييف، أما هذا الأخير فسعى بأمل، ومن غير أن يوافق، إلى أن يجد في هيئته ماكان جوهر تصرفات الملازم رامزين الراسخ، وجوهر حزمه الذي لا يلين. لكن كانت تنقص إيليا السابق الآن عيناه، اللتان لم تنفذ من خلل تضييقهما إلا شرارات حَمية مضطربة.

قال إيليا مدققاً: "ــلا يا فلاديمير، لا علاقة للأسرى هنا. أعرف من يجب أن يحاكم على الشهداء. يجب محاكمة الرواد الفورتيوكيين، الذين لم يتعلموا قراءة خريطة فرسخين كما ينبغي. هل تذكر كيف كان يسير قائد فوجنا الذي لا مثيل له: شتاءً في جزمة من جلد الكروم وصيفاً في جزمة من التاربولين المتثنية على ساقيه. كانت السيور تغطيه، وكانت حافة القبعة مزاحة فوق عينيه، وقذاله محدب صيفاً، أما شتاء فغطاء رأس من الفرو... أول شاب في القرية. الفتاة الحسناء من المراقبين الصحيين دائماً معه، دائماً إلى جانبه مع المراسل الداهية. وأي صوت كان له ــ ذا ذبذبة، ذا حب للغناء: استعد. لا أعلم كيف أنت، لكنني أذكره وكأن الحرب انتهت أمس. كان يصيح في الهاتف متفوهاً بكلمتين: "إلى الأمام" و"هيا"، وكان يبقى في السرية بعد المعركة ستة أشخاص. هل تذكر جيداً الرائد فوروتيوك؟"

". أذكره"..

". والمساعد لازاريف؟"

". أذكره".

".إذن"..."Keineilei Pryobleme. Nicht probleme.."[1].

"يبدو لي يا إيليا أنك تبتعد لسبب ما عن أسئلتي"...

"ـ أبتعد؟ عن أسئلتك؟ لا يا فلاديمير.أنا لا أخاف لا الله ولا الشيطان. لقد عشت حياتي ورأيت فيها ما رأيت. شربت خمرة العالم كلها، ودخنت سجائر الدنيا كلها، ونمت مع نساء من جميع الماركات ـ حتى مع السيرسيات الزنجيات.[2] قل لي من فضلك: "مم وممن علي أن أخاف؟.. الموت؟ أنت ببساطة حذر يا فلاديمير مثل جميع الروس خارج البلاد. وتريد أن .... تعرف كيف سلمت... ألست مجنداً لدى الجنرال فلاسوف".[3]

قال فاسيلييف، وقد لحظ الهزء في سواد عينيه، وشعر بالمرارة الخادشة كما لو أن سر حياة إيليا الدبق الذي لايخضع لسلطان الماضي قد أسرهما ولم يطلقهما: "ـ أردت أن أسألك عن شيء آخر يا إيليا.... أردت أن أقول شيئاً آخر... كنتَ ضابطاً روسياً، وفي الأسر كما هو معروف...".

قاطعه إيليا بلطف زائف: "-لم يمت الجميع، لقد تعلقت بالحياة بأسناني وأظافري، سأفضي لك بأكثر من ذلك. هناك فقط فهمت ما معنى الحياة، وما معنى أن تتحول إلى جيفة".

فكر فاسيلييف حاقداً على نفسه: " من أين له هذه الندبة على صدغه؟... "وتخيل حالاً، كتبرير، جرحا في صدغ ايليا الأيسر أحدثته رصاصة، جرحاً أصابه في تلك الليلة المشؤومة، حين أُمِروا بسحب المدافع التي تركوها في الحصار، ثم سأله وهو ينقذ نفسه بتعلقه بهذا التبرير:

".هل جرحت تلك الليلة في صدغك؟"...

وضح أن إيليا فهم فوراً عما أراد أن يتحدث فاسيلييف، فرفع حاجبيه معبراً عن

---

[1] لا مشكلات البتة، ليس ثمة أية مشكلات. (بالألمانية).

[2] سيرسيا هي الساحرة التي حولت أتباع أوديس إلى خنازير بعد أن استدرجتهم إلى جزيرتها (المعرب).

[3] جنرال روسي استسلم للألمان وحارب ضد السوفييت في الحرب العالمية الثانية (المعرب).

طيبة نفس متسامحة، وقال ممسداً بأصابعه الناعمة شعره الأشيب على نحو سوي فوق صدغه:

"ـ لا، في وقت آخر. هذه آثار عراك في أحد الأماكن المشبوهة عام ثمانية وأربعين. أما حينئذٍ ليلاً نطق "حينئذٍ" بتشديد: "ـ فقد كنت سليماً تماماً، وفي وعيي الكامل. لقد قلت لك . تمسكت حينئذٍ بالحياة بأسناني وأظافري. حينئذٍ....".

"ـ والآن؟"...

"ـ الآن لا أثمن حياتي بأكثر من فلس مهشم".

بيّن إيليا بابتسامته السريعة أسنانه البيضاء جداً، وتذكر فاسيلييف التلبيسة الصغيرة الذهبية، التي وضعها إيليا على ضرسه الجانبي في الصف الثامن، والتي أدهشت الجميع بلمعانها الرطين وغير الجميل، وفكر كيف أن هذا حدث منذ زمن بعيد، بعيد حتى أنه شعر برغبة في أن يرمي جانباً وساوس الذاكرة اللزجة.

قال فاسيلييف: "ـ في نهاية الأمر. "ثم كر بشيء من الاشمئزاز وهو يسمع ما لا يجب أن يسمع: "ـ في نهاية الأمر، لا أفهم جيداً المغزى المزدوج في حديثنا....".

فتل إيليا السيجارة غير المشتعلة ودعكها، وكان وجهه الحليق الأصفر، الجاف نوعاً ما، وربطة عنقه التي لا عيب فيها، وجزر الشيب هذه في شعره الممشط نحو الخلف، وكل شيء فيه وقوراً، ويتحدث عن أعوام الحياة المنقضية، وعن تعب إنسان كان قوياً وعملياً في وقت ما، وهو الآن مبتعد عن أعماله ومنشغل بمظهره الخارجي، ببزته، بالحفاظ على حيويته التي لم تفارقه".

قال إيليا من غير أن يكف عن دعك السيجارة غير المشتعلة : "ـ لا أعلم إن كان ضرورياً أن نتحدث عن هذا. لم أرغب في أن أقابلكَ في روما حيث أحاط بك أسياد كثيرون مختلفون ومتنوعون".

"ـ متنوعون؟"...

عض إيليا فلتر السيجارة ودسها في صحن السجائر من غير أن يشعلها:"ـ لا تستغرب أيها الفنان المشهور. لم يكن هناك جيمس بوند طبعاً، لكن رؤوس الأباريق كانوا هناك حتماً. المكان في فينيسيا أكثر حرية، وقد قررت. أريد أن أعرف.... منك

تحديداً.... "أخرج السيجارة من صحن السجائر مجدداً، وراح يضغطها ويديرها بأصابعه: ". منك تحديداً....".

". ماذا؟"...

". أردت أن أعرف.... منك تحديداً. أن أعرف... إليك ماذا يا فلاديمير. ما رأيك: هل يدخلونني إلى روسيا لبعض الوقت كي أرى أمي؟ الأصح ـ هل يعطونني تأشيرة؟ قل لي كرجل: هل في مقدورك أن تعرف؟"...

". هل هذا ما أردت أن تسأله؟"...

أجاب إيليا، وهو مستمر ميكانيكياً في دعك السيجارة وموجهاً اهتمامه على نحو مركز إلى أصابعه العصبية ذات الأظافر الشاحبة والمصقولة: ". هذا".

قال فاسيلييف:". تأشيرة؟ لا أعلم".

ووضع أمام إيليا علبة أعواد الثقاب: "ماذا؟... أليس لديك نار في قداحتك؟"...

". أشكرك، لدي".

كسر إيليا السيجارة المدعوكة ورماها في صحن السجائر، ثم التقط القداحة على المنضدة، وأشعل نارها ونفخ عليها، ولم يتضح إن كان قد قطب وجهه أم ابتسم:

". لا تشغل نفسك. مسموح لي أن أدخن ثلاث سجائر في اليوم. دخنت واحدة حين انتظرتك. إذن، لا تستطيع الإجابة عن سؤالي يا فلاديمير؟".

". لا..".

". يالالأسف".

راح يتلاعب بالقداحة بعد أن أسبل عينيه، ثم قال، وهو مشغول بذلك، على نحو متقطع ومن غير أن ينظر أيضاً إلى فاسيلييف: ". حتى لو رموني بالرصاص، أريد أن أرى أمي. حتى لو رموني بالرصاص....".

" نعم، هاهو، هاهو".

فكر فاسيلييف، وقد تذكر بوضوح متناه عادته القديمة هذه، وهي إطلاق يديه لتعملا في أوقات التفكير قبل اتخاذ القرار النهائي، ولاحت القداحة في راحته مذكرة

بخصوصية إيليا القديمة تلك.

نطق إيليا بصوت عنيد: "ـ أعرف الكثير عن روسيا من الصحف السوفييتية. صار معروفاً لي أنهم ردوا الاعتبار لوالدي بعد الممات في زمن نيكيتا خروشوف. أريد أن أسافر بضعة أيام..... لأرى أمي".

"ـ حتى لو رموك بالرصاص؟ لماذا قلت هذا يا إيليا؟!".

"ـ قلّ ما أثق بأحد، لكن أحياناً يجب دفع الثمن المؤجل".

"ـ لقاء ماذا ستدفع؟"...

"ـ لقاء أنني لم أعد، والعودة متأخرة الآن. لقاء أنني لم أفطس في الأسر، ولم أَشْرُق في الغواط كمثل مئات الروس الآخرين خارج البلاد، بل اغتنيت على نحو ملائم، في حدود متواضعة طبعاً.هاهي "اللقاءات" المذكورة أعلاه، فهل هي قليلة؟ لكنني لم أخدم لدى فلاسوف على الرغم من أنهم جندوني في زاكسينهاوزن. لم أحارب في الفيلق الأجنبي. لم يرد اسمي بين مجرمي الحرب وأعضاء الحملة التأديبية....فعلت كل شيء ما عدا الذي أحصيته"...

أوقف نظرته المستفهمة والثاقبة على وجه فاسيلييف، ثم قال مخففاً في الحال من تعبيره العنيد هذا: "ـ لقد شخت، ولهذا أرى في المنام فناءنا في لوجنيكوفسكايا، والبوابة الخشبية، وأشجار الزيزفون تحت النوافذ، وأيضاً لا أدري لماذا أرى صباحاً ربيعياً في برج الحمام، وأشم رائحة ريش و قنب.... أريد.... أريد أن أرى أمي. ساعدني إذا كنت تصدقني ولو قليلاً. إذا لم تصدقني فقل مباشرةً: لا....".

أشاح فاسيلييف بوجهه نحو نافذة الشرفة المنارة بالشمس الساهمة، التي ارتفعت كقرص فضي فوق القناة الكبيرة، أما الضباب فابتعد عبر الشارع المبتل المحاذي للقناة، متماوجاً على شكل بخار فوق مياه الصباح، وقد أزرقت السماء ساطعة، صيفية تقريباً، وصارت مرئية ذرا المعابد خلف القناة وقباب القصور المتاحف. لكن هذا الصباح المشمس الهادئ في فينيسيا الخريفية، وزرقتها الصافية، والقباب المتدفئة بفرح في البعيد، وكل شيء، بدا له فجاءة غير صادق مقارناً بذلك الشيء الرائع والحزين، الذي مضى مع السنوات التي لا تستعاد، في الزمن الأفضلِ،

زمن أبراج الحمام والصباحات الربيعية من حياتهما، حين كانا، هو وإيليا، مؤمنين من غير أي تردد بالقوانين الرفاقية الزاموسكفوريتشية غير المكتوبة، وما زاد المرارة هو أن الماضي تلون بدخان طفولتهما وشبابهما الحلو، إلى حيث لم يلتفت فاسيلييف، ولو مرة واحدة في الأعوام الأخيرة، مفكراً بمصيره الخاص. حسناً، كان معترفاً به ومدللاً ومشهوراً، ولم تنقصه النقود، لذلك اعتاد على أن لايتملق وأن لا يبرر بالكذب تصرفاته. فكّر، شاعراً بنفور من نفسه، ووضعهُ المزدوج يعذبه بعد كلمات إيليا "ساعدني إذا كنت تصدقني"، أنهما اقتربا ههنا من الهاوية معاً، وسيختفي ذلك الشيء الفتي والمصون والمقدس والمشترك بينهما، الذي كان ضرورياً لهما جداً في الماضي، في الزمن المنصرم إلى الأبد.

سأل فاسيللييف بعد صمت طويل: ". هل لديك أسرة؟ زوجة؟ أولاد؟"...

"ـ أنا أرمل. كنت متزوجاً من ألمانية، ولدي ابن شاب، رودولف، يعمل في ميونخ. بعد وفاة زوجتي، ومنذ تسع سنوات وأنا أعيش في ضواحي روما. هنا أهدأ. الروس أقل".

تكلم فاسيلييف شاعراً بشعور السقوط في الهاوية الخانقة نفسه: "ـ ماذا أستطيع؟ بم أستطيع مساعدتك؟ بم؟"...

قال إيليا ببرود: ". أريد أن أتوجه للسفارة السوفييتية في روما. أسألك شيئاً واحداً فقط. أن تروي لدى لقائك بالسفير ما تعرفه عني، لا شيء غير ذلك. أنت لا تستطيع أن تكفلني مطلقاً."قرع المنضدة بالقداحة ومرر بها خطا على المفرش: ".لقد أكل الدهر وشرب على ماكان بيننا في وقت ما. أمر مؤسف، لكن ليس في مقدور أحد أن يفعل أي شيء"..

خط بالقداحة حداً ثانياً على المفرش، وبدا هذان الخطان المرسومان واحدهما إلى جانب الآخر وكأنهما فرقا بينهما وفصلا واحدهما عن الآخر نهائياً. قال فاسيلييف بهدوء ظاهري:

". سأرى السفير قبل سفري على الأرجح. لكن إليك ما أردت أن أسألك عنه....".

لم يكمل كلامه، لأن إيليا استقام سريعاً، ووقف من وراء المنضدة متوتراً، وهو

يزرر الزر على السترة، ورأى فاسيلييف في الحال، من خلل قوس الباب الواسع، ماريا، التي سارت نحو الشرفة في المطعم الخالي من الناس، يرافقها باحترام رئيس الندل، المعبر عن الطاعة المبهجة بانحناءة من رأسه، أما إيليا، الممدود، والمستقيم، فقد وقف من غير أن يتخلى وجهه الأسمر الأربد، الجاف قليلاً، عن اهتمامه اللطيف، وظل واقفاً إلى أن اقتربت ماريا من المنضدة وهي تبتسم ابتسامة خفيفة. حينئذٍ فقط دعاها، وهو يزيح الكرسي الفارغ بحركة لا تخلو من تأدب ظاهر، إلى الجلوس، فأومأت برأسها للاثنين، وجلست وهي تقول:

"ـ صباح الخير. أرى أنكما لم تفطرا بعد، أليس كذلك؟"...

قال إيليا وهو يضحك أول مرة ضحكاً صفيحياً متقطعاً غير معهود: "ـ لا أعرف عاداتكما: ماذا تتناولان على الفطور؟ تكفيني عصيدة الشوفان، وبيضتان وكوب من الحليب. حمية على الطريقة الإنكليزية. لكن كان ثمة وقت لم أبدأ فيه الصباح بالحليب، لهذا أرى ضرورة أن أسأل: ألا ترغبين يا ماريا بخمرة جيدة؟...كيف أنت يا فلاديمير؟"..

"ـ أشكرك شكراً كبيراً".

أجابت ماريا مخرجة بأظافرها المطلية سيجارة من العلبة، وقد لاح في عينيها الرماديتين القاتمتين لهب القداحة، التي قربها إيليا، كشرارة قلقة متسائلة، ذابت حالاً في تيار نور الشمس: "ـ أرى أن بدء النهار بالخمرة جنون. سألتزم بالحمية الإنكليزية".

مست عند القذال شعرها، الذي كان مسرحاً بعناية، وبدا وجهها نضراً رائقاً من غير أي ظل لإجهاد الأمس، وخطر لفاسيلييف أن الحمام الصباحي، وسحر مساج الوجه المعروف لها وحدها، والذي تقوم به سراً، يجعلان وجهها فتياً على نحو مدهش. قالت وهي تنظر إلى القناة، حيث تنحى قارب أبيض كالثلج عن المرسى مفرقعاً بمحركه باعتدال، وقد لمعت الشمس على زجاجه الأمامي منعكسة كمروحة يدوية: "ـ أمس كان الضباب. أما اليوم فيا لهذا الصباح الرائع. ماذا قررتما. هل نفطر بالإنكليزية؟"...

قـال فاسـيلييف، ولـم يكـن راغبـاً في الطعـام: "ـ سأحتسـي كأسـاً مـن الحليـب الساخن. يكفي"...

أومـأ إيليـا لـرئيس النـدل بحركـة خاطفـة، وكانـت إيمـاءة مـن إنسـان معتـاد على المطاعم. أما رئيس الندل، الذي كان يصحح على نحو حثيث على بعد خطوات خمس عـن المنضـدة وضـع السـتارة على النافـذة التي أعمـت الأبصـار، فـاقترب حـالاً والسـرور يشـع من خديه المتوردين بفضل مزاج ضيوفه الجيد، والصباح الرائع، ووضـع أمام كل منهم لائحة طعام كبيرة مثل مصنف ذهبي مُهدى لصاحب يوبيل محترم.

أسر إيليا لرئيس الندل ببضع كلمات ألمانية، من غير أن يبدي أدنى اهتمام بلائحة الطعام فتكلم هذا الأخير بلهجة إيحائية غامضة، مفرقعاً بكعبي حذائه:

"Javohl, ein Moment"."[1]..

ثم ابتعد منهمكاً على ساقين مرنتين قصيرتين لرجل عسكري سابق.

قالـت ماريـا: "ـ لقـد عـدك ألمانيـاً طبعـاً". وراحـت تتصـفح لائحـة الطعـام لإرضـاء الفضـول، وقـرأت بصـوت مسـموع أسـماء المـأكولات بالفرنسـية: "ـ أوهـو، أيهـا الـرب الـرحيم، كانـت أطبـاق اللحـوم الصـباحية هـذه سـتفرح لاميـة غـودزاك". "ثـم أغلقـت المصنف المذهب، والتقطت السيجارة المسندة على حافة صحن السجائر، وتكلمت متنهدة: "ـ أجبني يـا إيليـا عـن سـؤال واحـد، مـن يرتـاح أكثر في العـيش في هـذا العـالم الغربي؟ الأمريكي أم الألماني أم الإيطالي أم الروسي أخيراً؟ هل لحظت هذا؟"...

قال إيليا بقسوة:

"ـ لا أحـد. ماتـت الآمـال منـذ زمـن، كمـا الآلـهة. أعـوام السـبعينيات كانـت حرجـة، وستكون الثمانينيات مشؤومة لذلك- إما و إما...".

". إما ماذا؟"...

"ـ إمـا مسـرات الحضـارة كلـها، وتحـول الأرض إلى مكـب قمامـة، وتـدمير الـذات في نهاية القرن، وإما الفكر السليم زائد يسوع مسيح جديد.....".

---

[1] حاضر، لحظة واحدة. (بالألمانية).

سأله فاسيلييف مفكراً بقسوة تأكيده، ومتفقاً معه وغير متفق:"ـ هل تؤمن بالفكر السليم يا إيليا؟... يبدو لي أن الناس فقدوا إيمانهم بأنفسهم في الأعوام الماضية، وهذا ما فرقهم".

قال إيليا متلاعباً بالقداحة:". فرقهم الطمع والدم وغباء السياسيين. كنت سأتخلى عن قشرتي البالية منذ زمن بعيد لولا..... لولا شيء واحد يبقيني على الأرض. إنه الفضول الفارغ: وماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل تستحق رؤيتكما مثلاً الألم في الحياة....".

ومرر بلطف عينيه الساخرتين على وجه ماريا المهموم، أما هي فلم تجبه واضعةً ساقاً فوق ساق، ومجعدة قصبة أنفها قليلاً، وقد راحت تتابع مشتتة تشويش القوارب البيضاء المفرقعة بعيداً في القناة، التي غمرتها الشمس كلها الآن، وحينئذٍ تسلل إلى وعي فاسيلييف خاطر ضبابي:". لا يمكن أن يبقى لديها تجاه إيليا شيء ما من أيام المدرسة، من ذاك الخريف عام واحد وأربعين... ما هذا؟ أيعقل أنني أغار؟"....

قال إيليا كما لو أن الشيء بالشيء يذكر، وهو ينظر إلى النافذة، إلى حيث نظرت ماريا: "ـ ثمة رجاء آخر يا فلاديمير. قررت أن أشتري منك لوحة من المعرض، عنوانها "صباح بسكوفسكي". إذا لم تمانع فإنني.....".

لم يدعه فاسيلييف يكمل: ". لا أستطيع الرد إيجاباً. الأفضل لي أن أهديها إليك لا أن أبيعها لك. سأفكر".

فكر فاسيلييف بعد ساعة، حين افترقا عن إيليا: "كم أردت الالتقاء به منذ أعوام كثيرة خلت. كنا مختلفين تماماً في شيء ما. كنت أشعر بأفضليته في أشياء كثيرة، لكن هل كان لدي بعد ذلك صديق أفضل منه؟ لا يطاق أن نفهم ماهو مناف للطبيعة... وما لا يمكن فعل شيء حياله...".

فاحت رائحة البرد الخريفي المدخن في ساحة القديس مارك، وقد راحت هذه الساحة، التي بللها الضباب منذ وقت قريب، تلمع بنور الشمس، وهنا عصفت بشدة، كعاصفة مرحة، أسراب ضخمة من الحمام، مصفقة بأجنحتها على نحو مصم، وطارت منخفضة فوق أسطح قصر القادة، وفوق الشارع المحاذي للقناة، ثم

حطت ناشرةً من جديد ضجيجاً مباغتاً في الساحة وعلى رؤوس ومناكب ثلاث عجائز أمريكيات، رحن ينثرن فتات الخبز حولهن، ويضحكن ضحكاً مهتاجاً. لم تعد المقاهي الصيفية تعمل لأسباب خريفية وطويت السقائف وأغلقت المظلات الملونة، وأزيحت المناضد والكراسي في كل مكان، أما الهواء الفواح برائحة البحر والقادم من القناة الكبيرة، المتلألئة بمياهها الثقيلة كثيفة الزرقة، فتحرك وراح يدفع عند المرسى مزق الصحف وعلب السجائر المدعوكة وأكياس النايلون الفارغة ويبرم كل هذه القمامة السياحية في أراجيح ذات حفيف قرب واجهات الحوانيت المقفرة حتى الربيع.

أخيراً، تكلم فاسيلييف الذي ظل صامتاً منذ غادرا الفندق بعد حديثه مع إيليا: ". فلنقف هنا يا ماشا". ثم أضاف محاولاً استعادة شعوره بالوضوح الروحي في هذه المدينة غير العادية، التي اكفهرت فجاءة، واستترت على نحو قائم وراء شيء مقلق لا ينتهي: ". هل تعرفين أين نحن الآن؟"... وتقبَّل الصباح التشريني المنعش وهبوب الهواء الرطب على الشارع المحاذي للقناة ووميض الزجاج الأمامي على القوارب الماخرة عبر القناة كواقعية مؤقتة غير صلبة.

"ـ يحدث يا ماشا أن تغمر المياه في الربيع العاصف ساحة القديس مرقس وبلاطات المعابد الحجرية....". قال ذلك وتلعثم حين لحظ تجعيدة الأسى الدقيقة بين حاجبي ماريا.

قالت، وهي تراقب العجائز الأمريكيات المتأثرات جداً، واللواتي ظللن يطعمن الحمام في الساحة بفتات الخبز:"ـ لا لزوم للشروح السياحية. فلنصمت قليلاً. سأفهم."ثم قالت بعد دقيقة، وهي تنظر خطفاً إلى القناة والمرسى والجنادل الفارغة المتأرجحة عند الأعمدة العالية، وسطوع السماء الرقيق فوق القصور المنبثقة من الماء:". لا أدري إن كان روى لك ما أنقذه. حدث أنهم جلبوا عام أربعة وأربعين أسرى من المعسكر لتنظيف مدينة ألمانية صغيرة بعد القصف الأمريكي. عمل إيليا هناك عند أنقاض مصنع مهدم، فتعرف مرة، على نحو لا يعقل، بإحدى الألمانيات. مارتا زايغلر. لم تكن شابة جداً، وكانت، تخيل، حدباء بعض الشيء، لكن.... عيناها عينا

غريتخين[1] ولاشك.....". ضمت ماريا كتفيها بغير مبالاة ساخرة:". كما تعلم فهذا كله من طباع إيليا. تكلم معها بالألمانية فطلبت من قائد المعسكر أن يرسله ليعمل لديها، وبعد التحرير عام خمسة وأربعين ظل عندها. قصة مسلية. أليس كذلك؟!... وكما فهمت فقد أحب الحدباء الألمانية الغنية... ذات عيني غريتخين ولا شك."ضمت كتفيها مرة أخرى وعضت شفتيها:". ماتت زوجه منذ عشر سنوات، وتركت له، كما قال، مصنع إبر حياكة صغيراً، لكنه جيد، وقد باعه منذ وقت قريب، واقتنى بثمنه أسهماً ما.... حسناً، ماذا سنفعل الآن في فينيسيا الساحرة؟"....

قال فاسيلييف:". لا أستطيع أن أفعل مع نفسي شيئاً. لا يخرج إيليا من رأسي". ثم أضاف وقد رغب من جديد، ولم يستطع، في أن يستعيد المزاج الفتي الخفيف الذي صبغ رحلته السابقة إلى فينيسيا: ". فلنسر يا ماشا عبر الشارع المحاذي للقناة. سأريك العلية التي عشت فيها منذ عامين"....

.... حينئذٍ كان جيداً السير صباح يوم ربيعي في هذا الشارع الدافئ، الذي ما زال رطباً، وقد أفطر السياح في المقاهي المكشوفة، وكان في مقدوره أن يخطو مسروراً على رصيفه، تعبا بعض الشيء من العمل في العلية، التي استأجرها قرب المرسم، وقد امتلأ كيانه باهتياج الأمل والحب والإيمان بدوام نيسان.

---

[1] شخصية من رواية فاوست امتازت بجمال عينيها (المعرب).

الفصل السادس

زار مرسم فاسيلييف في موسكو في الأعوام العشرة الأخيرة الكثيرون من الرسامين، وكان يريهم عن طيب خاطر كل عمل جديد من أعماله، لكن الكلمات الشائعة كلها في مثل هذه الأحوال، وهذه الـ"خارق الموهبة" و"أدهشتنا" و"ليتك تعلم"، جميعها، وصيحات الإعجاب أو صيحات الغيرة كلها، ورفع الناظرين إلى السقف، ووضع اليدين خلف الظهر، والخوار غير المحدد، والسعال عميق المغزى، والهمهمة المستمرة بهيئة مهتمة، والإيماءات جميعها، التي ليست إيماءات انصعاق، ولا إيماءات عدم رضى لطيف، قد فقدت منذ زمن طزاجتها الأولية إضافة إلى صدقها، حتى أنه، هو نفسه، صار يتقبلها غالباً على أنها تكلفة ضرورية للتعامل مع أخوته في المهنة، الذي يستحيل أن يعيشَ، لولاهم، كناسك.

كانت صباحات أيام الأحد تبدأ عادة بأن يعرج واحد ما من "اللوحاتيين"، الأقوياء جسدياً، والجلودين والملتحين في الغالب، والمتمتعين بأيدي ضاربي المطرقة ذوي العضلات البارزة، والذين كان يستحيل تنظيف الألوان المتشربة تحت أظافرهم المتينة تنظيفاً تاماً. أحياناً يكون صوت "اللوحاتي" النعس غليظاً جداً يوم الأحد، فيطن على نحو منخفض، وتكون عيناه المتورمتان على وجهه المائل إلى الدهاء حمراوين ومثيرتين للشك، وينتقل الكلام دائماً إلى الموضوع المعيشي ـ إلى البراد الفارغ من جراء هجوم الأصدقاء، حيث ليس سيئاً أن يقتني المرء على سبيل الاحتياط

زجاجة من البيرة المتجلدة بعد يوم السبت اللعين. وبعد أن يتنحنح الضيف، ويقهقه، ويحرف نظره إلى المنصة حيث وضع العمل الجديد، وإلى رفوف الكتب والستائر المسدلةعلى الجدران، يتذكر فجاءة أخيراً، ويطلب مياهاً غازية، وفي أسوأ الأحوال عصيراً ما"أو أي عصير متوافر في البراد، حتى لو كان عصير البندورة"... ثم يرحل من غير أذية بعد أن يفرغ زجاجة المياه الغازية الباردة، تاركاً فاسيلييف يتنفس بارتياح بعد أن يتخلص من آلام أصدقائه الصباحية. بعدئذٍ، وقبل الغداء يطل جاره في المرسم (الباب الثاني في الممر إلى اليسار) فنان المناظر الطبيعية أخابكين اللطيف، ذو الصوت المنخفض والعينين الذابلتين، الذي يرتدي شتاءً سترة صفراء مليئة بالسحابات، وصيفاً سروالاً قصيراً بلون الشوكولا، واسعاً على نحو عجيب فوق ساقيه النحيلتين المكسوتين بالشعر، فيقرع الباب بهدوء، ويفتحه، ويدخل المرسم من غير أن يصدر أي ضجيج، خاطياً خطوة حذرة إلى الأمام، ثم خطوة إلى الوراء كما لو أنه يجسد لنفسه صامتاً حركة راقصة رشيقة، وبعد ذلك يعبر العتبة قائلاً بحياء وبصوت غنائي الجملة ذاتها: ". نهارك سعيد. هل يمكنني الدخول؟ اعذرني يا فلاديمير أليكسييفيتش، ألست مستاءً مني؟"...

لحظ فاسيلييف رقصه الرشيق عند العتبة منذ زمن، وقد أرجعه إلى وساوس هذا الرسام اللطيف الموهوب والوحيد، وغرابة أطواره، وقد أعجبته فيه محاكماته الخجولة قليلة الكلام، وبساطته الدقيقة. كان أخابكين يتفحص المرسم لامساً، أسير عادته، ذقنه بطرف إصبعه وهو ساهم، وينظر مرتبكاً إلى لوحة الألوان وقطعة القماش، ثم يتسمر ويتمتم مذهولاً: ـ أي تناغم ألوان ساطع يا فلاديمير ألكسييفتش... سيحسدك عليه إدوار مانيه لو رآه." كان مغرماً بأسلوب فاسيلييف وطريقته، من غير أن يفوت معرضاً من معارضه، على اعتبار أنه معجب وفي، مستعد لأن يشاهد أعماله ساعات كاملة. وحين يعارضه فاسيلييف أحياناً، ويؤكد بشيء من المزاح على وجوب اعتبار إدوار مانيه، على الرغم من ألوانه الطنانة، حتى في "الأولمب"، الشهيرة، فنانَ صالونات أكثر منه أباً للفن التشكيلي الغربي المعاصر، كان أخابكين ينظر إليه نظرة رعب، ولا ينبس بكلمة واحدة، وينزلق في الحال جانباً ويسرع نحو

الباب وهو يلتفت فزعاً كما لو أنهم يودون ضربه هنا. كف بعد ذلك فاسيلييف عن التعبير بحضوره عن رأيه بهذا الفرنسي الشهير، لأن الخوض في جدال حول الأصنام والأساتذة جحود على أقل تقدير، أضف إلى هذا أنه كان يستلطف أخابكين المسالم، غير القادر لا على الجدال، ولا على الحسد الشرير، ويستلطف زياراته غير المملة إلى المرسم وإعجابه الشديد الخالي من أية مطامع بالألوان المشبعة بالضوء وبالفن التشكيلي عموماً، الذي وضعه في موضع أسمى من الواقعية نفسها وأسمى من حياته الخاصة.

مساءً، يحضر إليه ما يقارب الستة أشخاص معاً بقيادة الفنان كوليتسين، منهم من يعرفه ومنهم من لا يعرفه، فكان من يعرفهم يندفعون بضوضاء وبغير حياء (ممثلون وكتاب ومراسلون)، حاملين معهم اهتياج المطاعم القابض، فيما كان الذين لا يعرفهم، والمتعطشون "لرؤية فاسيلييف"، يتلكأون مزدحمين عند العتبة كما لو أنهم في معبد غريب. أما كوليتسين المتأنق ذو الشعر الفضي الشبيه بلبدة الأسد، فيصيح وهو يقبل فاسيلييف بصوت جهوري معبر، لا يتطابق مع تناسق جسده المحتفظ بفتوته، مما يضطر هذا الأخير، بغض النظر عن أي شيء، إلى أن يكشف بعض الأشياء للشعب المهتم، الذي يجب أن يعرف المواهب الوطنية، وحينئذٍ كان لزاماً عليه أن يريهم على نحو ديموقراطي لوحاته، فينزلها عن الرفوف ويضعها على المنصة ثم على الجدار، ثم لوحة فوق الأخرى، حتى يغص المرسم بها في نهاية الأمر. كان الضيوف الذين تشتعل وجوههم بسبب من تساهل الفنان، يطلبون أوائل أعماله، التي رسمها بعد الحرب، والتي أعلن بها عن نفسه في معهد سوريكوفسك، حين كان لا يزال يرتدي معطف المدفعية ــــ أزقة زاموسكفوريتشيه المحجوبة بالغشاوات الصقيعية الليلكية:ـ الطرق المسدودة مع الكثبان حول الأسيجة، العاصفة، كشك البيرة قرب موقف الترام، الطابور الأسود الملطخ بالثلج، الأنوار المسائية في الأفنية الهادئة المليئة بأشجار الزيزفون، الجسور المتجمدة نصف الدائرية فوق القناة، والقناديل المترنحة في الهواء على الشارع الليلي المحاذي للنهر.

أثارت الأعمال المبكرة المرتوية بالمزاج والمليئة به، لكن، وكما تهيأ لفاسيلييف

نفسه، الخالية من الفكرة العميقة والجسارة والاتساع اللوني، اهتماماً حقيقياً لدى كوليتسين على هذا النحو أو ذاك. لقد وقف أمامها طويلاً مصالباً يديه على صدره، فكان يبتعد عن لوحة ليقترب من أخرى، ويرفع حاجبيه، وقد احمر خداه المنتفخان ببقعتين حمراوين حارتين، وظهر في عينيه المثلثتين كأسد هرم بريق رطب ثابت، غير أنه لم يفه لا بكلمة مديح ولا بكلمة ذم، بل لخص في النهاية رأيه على نحو غير محدد:

"- ن ـــ نعم. الشباب مثير للفضول." كان في الإمكان فهم هذه الجملة بأكثر من معنى، وفاقاً للرغبة، لكن فاسيلييف افترض أن أعماله المبكرة لم تنل، على نحو ما، رضى كوليتسين، وإنما قربتهما معاً، ونقلتهما إلى فترة الشباب الواعدة تلك، حين كان الجميع عموماً سواسية أمام المستقبل، ولم يفكر أحد جدياً لا بالمعارض ولا بالمجد ولا ببيع اللوحات للمتاحف. كان كوليتسين الحاصل على ألقاب سامية، والذي يشغل مركزاً مرموقاً في وظيفته، بخيلاً في المديح، على الرغم من أن فاسيلييف قد قرأ عن نفسه في كتابه الاختصاصي عن جيل فناني ما بعد الحرب، وعلى نحو لا يخلو من الفضول، أنه ممثل مرموق "للأسلوب القاسي" الناشئ في نهاية الخمسينيات، وأن تجربة فناني هذا الاتجاه العنيف تريد أن ترى الحياة كما هي، من غير أن يخفِّف أي شيء فيها أو يزِّين، وهنا تحديداً أفضلياته ونقائصه. حينئذٍ لم يكن فاسيلييف قد فقد بعد اهتمامه المزهو بما كتب عنه، وبدا له التعريف الجذاب للجيل الجهوي ـ ممثلو الطريقة القاسية ـــ دقيقاً كفايةً، لأنه سئم من "الأكاديمية" الملساء المضجرة ومن الرقة وفي الفن.

درسا معاً في معهد سوريكوفسك، وقد جعلهما الوقت الطويل يتعارفان عن قرب، مما سمح لكوليتسين، الفنان التشكيلي والأستاذ والدكتور في الاختصاصات الفنية ورئيس اللجنة الأجنبية، بأن يعرج على المرسم لا لقضاء أعماله الخاصة فقط، إنما لقضاء أعمالٍ أ جنبيةٍ أيضاً. كان يطلب من فاسيلييف أحياناً، وبسبب من عمل لجنته، أن يستقبل الأجانب، وكان عرض اللوحات يختتم بحسن الضيافة الروسية، ثم يتفرق الأجانب الثملون والمهتاجون في وقت متأخر من الليل وبعضهم يودع بعضاً قرب المصعد وداعاً مصحوباً بالضحك والهتافات والقبل، ويعتذرون

مسقطين قبعاتهم. أما فاسيلييف فكان يرتب المرسم بعدئذٍ شاعراً بالفراغ وتأنيب الضمير بعد إنفاق الخلايا العصبية السخي جداً والساعات الثمينة المهدورة من غير فائدة.

لم يكن باب مرسمه، بسبب من الأحداث الأخيرة في حياته ـ المعارض واليوبيلات وحصوله على الجوائز وانتخابه في أكاديمية الفنانين ــ يغلق إطلاقاً، وخصوصاً أيام السبت والأحد، لكنهم صاروا يأتون إليه من غير تكليف في أيام العمل أيضاً، ومنهم أناس لا يعرفهم إطلاقاً، مقدمين له تهاني مبكرة أو متأخرة، بعضهم متملقاً وبعضهم طالباً نقوداً ومعبراً عن ذهول بذيء حتى الخجل، ثم يبقون حتى الغداء وكان يتخبط طوال النهار في فراغ لا معنى له مهدراً وقتاً لا يعوض.

لكنه فهم بعد ذلك أن هذا دلالة على اقتراب موته الإبداعي. فهم أن عليه الابتعاد بغير إبطاء والانعزال عن العالم كله كما يرحل الخاطئ إلى دير بعيد، ويكف عن إغاظة القدر، فهذه الأعياد الغزيرة قد طالت جداً، وشغلته عن عمله اليومي، الذي كان يعتبر ولعه به الشكل المبرر الوحيد لوجوده. وقرر فاسيلييف مرة وإلى الأبد أن يبتر الخيوط الديموقراطية كلها، ويحرق الجسور المقامة أمام عتبة مرسمه جميعها، ويغرق في وحدة عمل رهبانية، في مقدورها وحدها أن تبرر الهدف من وجوده على الأرض.

استدعى عاملة المصعد لتغسل الأرض في مرسمه، الذي هوّاه جيداً، كي ينظفه ويطهره من روح البطالة والثرثرة والفارغة والغرور والنجاح، فوضع اللوحات في أمكنتها، وأدارها نحو الجدار كي يشكل رحابة وانعدام أجسام وحرية، وحضر قطع القماش ــ وعاد من جديد، بعد أن حول خلل ثلاثة أيام مرسمه إلى صومعة ناسك نظيفة، وبراحة نفسية لم يشعر بمثلها من قبل، إلى عمله غير المنجز ـــ إنه لوحة بورتريه للمخرج شيغلوف.

أقفل الباب على نفسه، وكان ينام في المرسم أو يأتي إليه في وقت مبكر جداً، ولم يردَّ على قرع الباب ورنين زملائه الودودين واليائسين بعض الشيء، ولم يقترب من الهاتف باستثناء إشارة متفق عليها مع زوجته وابنته. لقد عد نفسه كالجياد العاملة، فكانت الأصوات الإنسانية الفارغة في الممر تثير لديه حنقاً شجياً، وكان يفزع من الوقت المهدور سدىً، ويلعن الطموح المفرط لديه "لدى مغوي النفوس والحائز عليها بالجمال" كما قال صديقه لوباتين مازحاً ومحذراً إياه من تعطشه للنجاحات والتوفيق المحالف له وحب زملائه غير الصادق.

كان الهاتف المغطى بقطعة قماش يرن سدى، وتقترب الخطوات في الممر وتزدحم، ثم تبتعد، ويتردد القرع على الباب بإصرار متعنت أو على شكل نقر خفيف خاطف. لم يكن فاسيلييف يرد، وكان يرى في هذه الأصوات غيظاً منفجراً منه وغيرةً ــ فهم لا يغفرون له على ما يبدو انطواءه وانكبابه على العمل، هذا المنفى إلى نفسه، فهو على ما يبدو قد خدع الكثيرين ممن أرادوا رؤيته سهل المنال دائماً.

لكن رنين الهاتف أيقظه مرة ليلاً (لم يخرج من المرسم الأسبوع كله). نهض فاسيلييف من غير أن يعي شيئاً، وهو بين النوم واليقظة، فأشعل المصباح الليلي فوق الأريكة ونظر إلى الساعة: كانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل، وكان يخاف من الاتصالات الليلية غير المتفق عليها، والخاطئة أحياناً وغير الحسنة والمتعلقة بحوادث مفجعة ما، فرفع السماعة ببطء، وسمع صوت كوليتسين المعبر والثمل قليلاً، على ما بدا، والذي راح يتكلم بمرح متهكم:

". ماذا، هل أيقظتك يا هومر الفن التشكيلي المعاصر الخالد؟ لقد وجدتك ليلاً أخيراً، فاعذرني على إلحاحي. أتعلم؟... صار الوصول إليك الآن أصعب من الوصول إلى وزير أو راهب في المغائر. كيف تريد أن أفهمك: انتقلت إلى العمل السري؟... ترهبنت؟ أم أن التكبر نال منك؟"....

تكلم فاسيلييف غاضباً: "ـ اسمع يا أوليغ. هل نظرت إلى الساعة؟ في مثل هذا

الوقت ينام الناس الطيبون جميعاً أيها الفريق المحترم سكريتير....".

قاطعه كوليتسين: ". سمني عصا، إن شئت، لكنني يجب أن أراك فوراً مادمت قد أمسكت بك. هل تسمع أم لا؟ علي أن أراك فوراً. سأصعد إليك الآن. أهتف لك من الهاتف العمومي في الأسفل. افتح الباب بعد خمس دقائق. إنني أتجمد برداً في قمرة الهاتف قرب منزلك"....

"ـ هذا فعل جنون مناف للعقل. أي حديث يمكن أن يكون في وقت متأخر من الليل؟"...

غير أن السماعة علقت هناك، في قمرة الهاتف قرب مدخل المنزل في الليلة الشتوية الهادئة المقفرة، وفكر فاسيلييف مستثاراً أن كوليتسين عائد كعادته من مطعم فندق ما بعد استقبال الأجانب في المطار وتناول العشاء معهم، وقرر وهو في ذروة مرحه أن يطل عليه في المرسم متصوراً أن هذا ما ينقصه لتكتمل مشاعره...

لكن ما إن دخل كوليتسين المهتاج، والمتجهم، عكس المتوقع، في قبعته الرخيصة ومعطفه الفرائي المفتوح، وما إن تخطى عتبة المرسم، حتى فهم فاسيلييف أنه جاء لا بسبب من اكتمال المشاعر ولا في أثناء عودته من المطعم. كان كوليتسين صاحياً تماماً وشاحباً على نحو غير مألوف، وقد ركضت عيناه المثلثتان، الشبيهتان بعيني أسد هرم حكيم، والمتعبتان والخضراوان المائلتان إلى الصفرة، بشك متلمس في المرسم وعلى اللوحات المدارة على نحو ثابت إلى الجدار، ثم توقفتا على المنصة حيث كانت اللوحة، التي بدأ فاسيلييف يعمل عليها، مغطاة بقطعة قماش، وسأل على نحو يخلو من الثقة:

". قال لي أحدهم إنك تعمل ليلاً".

". ليلاً أرغب في النوم، وهذا ما أتمناه لك أيضا".

تكلم كوليتسين مستعجلاً:"ـ عمل ميكيل أنجلو العظيم وفنانو عصر النهضة جميعاً تقريباً، والعباقرة الروس على ضوء الشموع. لقد عملوا مثل المحكومين بالأشغال الشاقة، وكالمقيدين بالسلاسل في مراسمهم. لقد عملوا من أجل الخلود. كان

محكوماً عليهم بالخلود، فبماذا حكم علينا؟..."...

". في المقام الأول، لا تقفز خارجاً من بزتك. ليس لائقاً من غير سروال كما تعلم".

". ليس لائقاً دائماً انعدام الموهبة، في أية بزة يا فولوديا".

كان صوته المتمتع بطراوة عميقة ونبرة وقورة أحياناً ومتساهلة وطيبة أحياناً أخرى، منخفضاً الآن وباهتاً يكبته الاهتياج:

"ـ أعرف يا فولوديا أن مجد الفنان ظل دخان، سخرية قدر، أما أنت فما زلت ترسم وتتكل على أن أثرك الخاص في الفن التشكيلي سيبقى لأنك تحسن التفكير بالألوان، ألا تأمل؟ كل موهوب يأمل، وإلا ماكان ليبدع. أليس الأمر كذلك يا فولوديا؟ أم أنه ليس كذلك؟ لكن ماذا يفعل من يتمتع بموهبة هشة؟ هل عليه أن يعيش في الآلام وانعدام الحيلة؟ ماذا تفعل العشبة وبم تفكر قرب جفنة عليق؟"....

". تنمو قربها. هل أردت أن تحدثني عن هذا؟"...

سأله فاسيلييف هذا السؤال غاضباً، وكي يكبح نفوره تظاهر بالتثاؤب وهو يشعل سيجارة:

"ـ ألا تظن أن النقاش خال من أي معنى؟ الأفضل أن تقول لي من استقبلت أو من ودعت؟... اجلس هنا على الأريكة. إنها جيدة لكونها من القرن التاسع عشر. فخامة الماضي".

غير أن كوليتسين لم يجلس على الأريكة المخملية الرثة والمضغوطة، والتي، لهذا السبب، تغري بالانجذاب، بعمقها الخفيف، إلى حضنها البورجوازي، بل رمى إلى الخلف بيديه معاً لبدته الفضية الكثيفة المتدلية على ياقته، وراح، من غير أن يبعد يديه المرنتين والأنثويتين تقريباً عن صدغه، يحدق بشجن بعينيه المكدرتين إلى واحدة من اللوحات المدارة نحو الجدار.

نطق كوليتسين مكتئباً:" ـ عملت اليوم منذ الصباح، تعبت وأنهكت مثل الشيطان، ولم ألتقط شيئاً: الثلج الأبيض، الأشجار البيضاء، البيوت البيضاء، وسماء شباط الزرقاء، مع شيء من الإحساس بالربيع فيها. بيضاء وزرقاء، ولون

بنفسجي ما. لم أجدها، لم ألتقطها. لم أمسكها. أُنهكت، لكنني لم أمسك شفافية سماء شباط وبياض الندى المثلج في الشمس، كان الإلهام. تحليق حرية الإبداع".

تثاءب فاسيلييف على نحو مكشوف الآن: "ـ لا ترفع صوتك هكذا. إلى أين التحليق؟ سر على الأرض، فالسير أكثر راحة. أما إذا طرت فستصطدم قمة رأسك بسقف المرسم، والإصلاح اليوم غالي الثمن".

تكلم كوليتسين وهو يهز رأسه حانقاً:"ـ أريد أن أسألك جاداً أيها الميتر المحترم. هل تراودك لحظات العجز التام؟ حين لا يوجد شيء. هل تراودك لحظات تشعر فيها أنك عاجز عن أن تعبر عن نفسك... باللون... على القماش؟ أم أنك سعيد، ولا يوجد لديك مثل هذا؟ نعم، لديك. يسهل العيش على المرء حين يثق بعبقريته".

قطب فاسيلييف وأشاح بالسيجارة:

"ـ لم أشك أبداً، ولا لحظة، في أنني عبقري لاسيما وأن لحظات راودتني كنت فيها واثقاً تماماً من أنني لست حماراً في الفن، بل أحمر الحمير، أو الأدق، لست حماراً أصيلاً بل ظل حمار. بماذا أجيبك أيضاً في الساعة الأولى من الليل يا أوليغ؟ يمكنني أن أضيف أيضاً أن التعبير في الفن التشكيلي عن ماذا تفعل الأحاسيس مستحيل حين يغفو العقل. أما كيف يتصرف الإحساس في مثل هذه الحال؟ فهذا موضوع الأدب".

"ـ هل هذا غمز من قناتي يا فولوديا؟"...

"ـ من قناتي وقناتك وقناة الفن التشكيلي كله. ثلثا الفن التشكيلي عجز"...

انتفض كوليتسين وهو يرد، أسير العادة، شعره بيديه معاً، ويسير قرب الجدار، حيث كانت اللوحات المدارة:"ـ اصمت، اصمت يا فاسيلييف. لقد تذكرت اليوم أحد مناظرك الطبيعية. منظر طبيعي ربيعي ـــ الحقل ولون الثلج البنفسجي في الوادي الضيق والشمس في البرك على الطريق.... أين هو؟ كان هنا، ههنا، اسمح برؤيته. لقد

تذكرته اليوم وأردت أن أرى..... هل تعتبره ناجحاً؟ ما شعورك نحوه؟ كيف أنت؟....".

وبدا أنه، من غير أن يختار في صف اللوحات، قد أدار واحدة منها عند الركن ــ المنظر الطبيعي الربيعي، الذي رسمه فاسيلييف العام الماضي. ثم نكص مبتعداً بضع خطوات، وراح يتمايل كالثمل على كعبيه وأطراف أصابعه، وهو يبتسم متكلفاً، أما أصابعه المرنة الأنثوية فأسرعت للتشابك خلف ظهره في كماشة وثيقة.

قال فاسيلييف بأسىً:". إنها عموماً غير ناجحة، لكن أي موضوع بسيط، لحظة غير ملتقطة، عجزي أمام الضوء، إذا شئت...".

تمتم كوليتسين بكلام سريع هاذ:". لم أخطئ. سقطت الزاوية في ربيعك. فراغ في الركن، وهنا، أين الظلال.... أفرطت في البرود، المطلوب دفء أكثر، دفء أكثر.....لا، لقد عجنت بكثافة. لكنك لم تصب هنا، لم تمسك..... أشعر أنك لم تصب الهدف بالمجارف. فقط السماء. لقد أصبت هنا. منبع ضوء رائع، منبع الربيع. أما ما تبقى فهو الفشل. جثة هامدة، لا إصابة، حتى أنت، حتى أنت أيها المعلم فاسيلييف تكون عاجزاً على الرغم من أنك أكثر موهبة مني بمائة مرة، حتى أنت تكون ضعيفاً. شيء مضحك وبذيء. فكرت اليوم بربيعك الفاشل، وبهذا المنظر الطبيعي". تابع حديثه بصوت ثقيل نابع من إنسان يحتقر صدق مشاعره: ". تخيل أنني فكرت بك طوال اليوم... ففي نهاية الأمر أنت سعيد الحظ في الفن لكنك لست إينغر، ولا شيدرين، وأنا لا أحب أشياءك كثيراً....".

". ما سبب هذه الحماسة؟ من أجل بحث علمي أم ماذا؟"...

". لست عبقرياً. فكرت اليوم في أنني معاقب، فاقد الأمل، أضعت كل شيء، صرت موظفاً و ــ لم تبق من موهبتي ذرة واحدة. أشكرك على منظرك ــ لا، لست وحدي أعض أصابعي كالمجنون. لست وحدي، لست وحدي...".

كان وجهه، المرتجف، بابتسامة مكرهة، معذباً ومدعوكاً، وعبرت عيناه المكدرتان والملتهبتان عن علة إحباط عصبي قريب من اليأس، يعرفه فاسيلييف، وقد راح يمزق

في تلك الآونة كوليتسين الصريح على نحو لايوحي بالخير، والذي، كما بدا، كان يضنيه مصاب الرغبة الحارقة في البحث عن نار التعذيب المستمر الشديدة.

****

تموضع أمامه ذلك الصباح المخرج شيغلوف خال ماريا لزأ، النحيل والحي، وكثير الحركة على الرغم من عمره الجليل، وفي الوضع الحر لم يكن يفعل شيئاً سوى وضع ساق فوق ساق، حتى انجذب سرواله الضيق الأخضر من فوق كاحله الدقيق كاشفاً عن جوربيه المخططين وحذائه ذي النعل السميك على الموضة. لم يكن في مقدوره التموضع بهدوء، فكان يدخن من غير انقطاع، ويتحدث ويتندر، ويسعل سعالاً عالياً، وكان وجهه الجاف يتبدل كل دقيقة، فيصير لعوباً غامضاً تارةً، وتارةً يصير ماكراً، وتارةً وجهاً حكيماً لمسن متعب، وكان يقوم بهذه التغييرات بعينيه الجاحظتين خلف زجاج نظارتيه، وبتغضنات فمه النشيط المعبرة والخبيثة، وبدت حدة حديثه الساخرة والموجهة إلى كل ما هو موجود، بما في ذلك إلى نفسه، غير قادرة على الانتهاء أو التوقف عند موضوع واحد، محررة فاسيلييف من ضرورة أن يشغل من يرسمه بالأسئلة.

تحدث شيغلوف لاثغاً بعض الشيء وبأرستقراطية فاترة، نافضاً الرماد في صحن السجائر المعدني على مسند الأريكة:"ـ هذا، طبعاً، هائل، لكنني لا أفهم يا عزيزي فلاديمير أليكسييفيتش. أمر يدعو إلى الجنون. ها أنت تهدر وقتاً كبيراً في الانشغال بفطر سام مسن، بمهرج لا يستطيع أن ينظم وجهه بذكاء من أجل البورتريه. إنني أتموضع على نحو سيئ. اطردني ــ لست كفؤاً. لا أفهم ما حاجتك إلى إيمائي متعفن، ليس طائر الطاووس إطلاقاً، بل مجرد مخلوق وحشي في سروال باريسي على الموضة؟...على كل حال كل شيء في عالمنا إيحاء ولعب لطيف فائق العجب. ماذا؟ لا؟ عرض هزلي، خشبة مسرح، المسرحية عينها ـ ومأساة مذهلة. وافقني على أن الإنسان يلعب الأدوار طوال حياته، ونادراً مايكون هو ذاته ــ سيغفر الله له. لنفرض أن الفن العزيز هو لعبة فكر وعواطف مسلية. والحب؟ أعظم لعبة بين الجنسين. الحقيقة لعبة ماكرة "بالاستخباء" مع الكذب. أما الكذب فلعبة بالحقيقة. ثم أليست

الاجتماعات واللقاءات وما شابهها لعبة أناس كبار، مصطنعين على نحو حثيث هيئة جدية؟ الآن، لنقل إن المجد والتصرفات المحبة للتسلط لعبة الأقوى والأكثر طمعاً. وحده الموت يوقف كل لعبة، لكن..... تبدأ بعدئذٍ لعبة الآخرين ـــ الجناز والدفن. وافقني على أن الحياة والموت هما مسرح هائل. أما المسرح نفسه فهو رسم مصغر وضيع للحياة والموت....".

ثم ضحك بملء صوته، بل تأوه بضحكه، وأنَّ على نحو لاذع، ناظراً بعينيه الثاقبتين خلل زجاج نظارتيه، ثم قرَّبَ متلذذاً سيجارته من شفتيه الضيقتين كالأفاعي، وأخرج متلذذاً أيضاً الدخان بحزمة طويلة، وكان همه الوحيد أن يتخذ وضع الإنسان المكره على أن يقضي وقتاً غير ممل بسبب من قلة أشغاله. سمع فاسيلييف جيداً رنة صوته وهو يرسم مستعجلاً، حتى أنه راح يضرب القماش بالريشة، وسمع أنينه الرتيب الذي يصور الضحك، لكن ضحك شيغلوف، وكلماته كانت تمر جانباً، وكان ما يعيق فهم معناها ذلك الضوء الشباطي الصقيعي الثلجي المرح في النوافذ الصباحية المليئة في الأسفل بالسرخس الجليدي المبهر، والمختَرقَة في الأعلى بزرقة السماء غير الشتوية، وبدا هذا الصباح الندي المشمس والمكرُ المنزلق، الذي لا يكل خلف زجاج نظارات شيغلوف، والوضعُ المعتاد في المرسم، وهذا المنفى الاختياري إلى الذات وإلى الوحدة، كما كان يقول أحياناً، والذي من غيره لا يمكن التركيز وإيجاد وضع التوازن المفرح ـــ وكلُ شيء كما يبدو حين كان يغرق في العمل تماماً، وإضافة إلى ذلك لم يكن ثمة ذوبان تام في هذه الحال، إذ راح أثر الاضطراب غير القديم يحترق كالجمر في روحه.

****

"لا، ما حدث لم يحدث بعد فينسيا. لا، منذ عامين بدأ قلق مبهم ما بعد أن مرضت ابنتي ذلك المرض الخطير. أم أنه بدأ قبل ذلك؟"...

". وجهك غريب، يا عزيزي فلاديمير أليكسييفيتش. ألا تسمعني؟"...

قال فاسيلييف منتفضاً: "ـ أسمعك يا إدوارد أركادييفيتش. "وأشار بالريشة إلى حيث ينبغي النظر: ". هكذا، شكراً".

"ـ أرى مسرحية عبقرية هائلة عن حياة رجل غير بطل. لكن من المؤلف؟ أين سويفت؟ أين سالتيكوف ـــ شيدرين؟ يا للأسف، يسود بين كتاب الدراما استبداد الموهوبين المتاجرين المقيت، الذين يدوس بعضهم بعضهم مزهواً على أرجل بعض...".

كان شيغلوف يتكلم وهو يمسد مسند الأريكة بريشة منسابة دقيقة وأنيقة، ويلاطفه مصوباً نظرته المشتعلة بشرارات صغيرة واخزة إلى اليمين قليلاً من القماش:

". وهاهي حياة الرجل: يخيل للفرد الفتي قبل العشرين أنه خالدٌ، وأن أمامه دائماً الأبواق المبتهجة والتبجيل المليء بالحب، وأكاليل الغار من الزملاء في الخدمة، والاعتراف العالمي بمكتشفاته، ونحيب المعجبات المذهولات، وطبعاً ما بيريكل وسقراط وليف تولستوي أمام عبقريته إلا جراء وضيعة عارية المؤخرة. فيما بعد يتدخل الواقع في الأمر، حتى الخامسة والثلاثين ـــ نساء. هنا سيتعرف على مختلف الأنواع الذوقية الممتعة من الكاراميلا والعسل وحتى الخل والخردل، لكن، طبعاً، الماء المقطر أساساً. بعد سن الأربعين سيعاني، وهو لما يروِ ظمأه بعد، من جوع وحشي، أي الحاجة إلى أن يأكل جيداً، وما يسمى معرفة الزوج للتخمة بعد أن يحتسي بشهية استثنائية قدحاً من الفودكا كاستهلال للقداس. ماذا بعد ذلك ـــ بعد الخمسين ـــ الاستلقاء أيام الأحد على الأريكة وقراءة الصحف، والتلفزيون والنوم، الذي يتمم متعة المأدبة العارمة، لكن أحياناً يظهر سؤال كضرب المطرقة على قمة الرأس: أيعقل أن النهاية قريبة؟ بعد الستين يستمتع بعض الأشخاص بذكريات الشباب البعيد، فيما يظهر لدى الآخرين خوف شديد من الأمراض وحب حماسي للمقاعد في الحدائق وإدارات الأبنية، أما ليلاً فلدى الجميع أمر واحد ـ الأرق وخوف الوحدة قبل الوحدة الأبدية. هل أعجبتك هذه اللوحة الهائلة؟"...

برقت نظرة شيغلوف على نحو جهنمي، وابتعد عن النقطة في الفراغ بعد أن اعتراه مرح حاد، وراح يتسكع في الخمائل السرخسية للندى الشمسي المتجلد على النوافذ، كما لو أنه حضَّر هناك على نحو لعوب فكرته التالية. حاول فاسيلييف جاهداً النفاذ، نازعاً اللباس المكيف عن معادلاته، إلى شيء ما لم يوضح، أساسي، لم يمسه أبداً، مثلما لم يمس حياته العازبة البعيدة عن أن تكون حياة نسك وزهد،

والتي يخفيها عن الجميع. كان خال ماريا لزاً، ومع أن فاسيلييف يعرف منذ زمن بعيد إدوارد أركادييفيتش الموجود في كل مكان والرجل النشيط على نحو لا يرحم، وعديم العمر، فإنه لم يره مرة جدياً ولا ساهماً ولا متعمقاً في ذاته، فقط يظهر في ما ندر، وللحظة واحدة، في عمق قعر عينيه اللتين يتطاير منهما شرر التهكم شيءٌ ما خريفي، حزين، مرتبط، كما بدا، بحفيف الأوراق المتساقطة، وبوقع قطرات مطر تشرين الثاني في البستان العاري.... لكن هذا الإحساس بالخريف قد يكون من خيال فاسيلييف وحده، وربما لهذا السبب عمل طويلاً وبانقطاعات كثيرة، بعد أن اختار شيغلوف كمادة صعبة لا تتقن التموضع من أجل البورتريه، ولهذا السبب كان يصحح كثيراً ويعيد الرسم من غير أن يجد ما أراد أن يجده في طبيعته.

"ـ لكن ماذا أريد أن أجد فيه؟ أن أحزر أية أفكار تراوده في ليالي الشيخوخة الطويلة؟.. من هو في الواقع؟!"...

تابع شيغلوف حديثه في ذلك الوقت : "ـ بالمناسبة يا فلاديمير أليكسييفيتش، أسمح لنفسي بهذه الملحوظة. ارتاب الأشخاص الضخام وبحثوا فلم يحظوا على هذا النحو بسعادة كبيرة على هذه الأرض، ولذلك وهبوا أنفسهم باسم الحب لجنس البشر، الذين لم يتقبلوهم شاكرين فوراً، بل على العكس، سمم حشد الحساد الأعزاء وجيش الوسيطيين أولئك الذين لا يشبهونهم وسخروا منهم، لا بل أحرقوهم وركلوهم. هكذا تحديداً، وعلى هذا النحو، هل يجرؤ إنسان على أن يشك في ما يثير الشك؟... هل يجرؤ؟ لا؟ كيف نكتب درفين أم دلفين؟ كيف تأمر "در" أم "دل"؟.... من المحق العباقرة أم الوسيطيون؟"...

ارتفعت سبابة شيغلوف واثبة في الهواء، ورسمت في أثناء طيرانها إشارات استفهام جامحة، وبرق الزر الذهبي الكبير على سوار كمه القاسي، واهتز على نحو معبر جناحا ربطة العنق . الفراشة تحت ذقنه المدببة الشاحبة كالمرآة.

". أين تكمن الحقيقة؟ أين؟ هل هي أحادية المعنى؟ أليس فيها جهة مباشرةٌ وجهة معاكسة؟... سيظهر الوضوح الكلاسيكي "نعم" أو "لا" حين نحدد بصلابة ما هي السعادة. م ــ م؟ ما هي؟ اثنان ضرب اثنين؟ نجمة رائعة ساقطة في سماء آب؟... أم

مجموع متع الجسد؟ أم عالم كل يوم بما فيه من ماضٍ وحاضر؟... أم الولع، أو، كما يقال، الإلهام مثل ما يحدث لك يا فلاديمير أليكسيفيتش؟ أم السعادة هي حلم العيش في جنة المنامات السعيدة؟ أو حب الإنسان؟ م ـــ م؟ وهل من الإنسانية أن ينقذ الطبيب عند الولادة الوليد المشوه فيضع بذلك، ومدى الحياة، صليباً ثقيلاً على كاهل الأم؟ لكنْ ثمة مطلق وحيد ممكن: في مقدور الإنسان أن يكون سعيداً في طفولته فقط، حين يكون في حال من عدم الفساد الروحي. ويا لسرعة زوال هذه الفترة في حياتنا. كيف إذن تكون الكتابة الصحيحة: درفين أم دلفين؟ آ؟ هاها.... م ـ م؟.. لا سيما وأن الكلمات نفسها ماهي إلا ظلال الأفكار، والأدق لباسها القديم. أهي "در" أم "دل"؟ أم أنه دلفين على الرغم من كل شيء؟"...

تكلم فاسيلييف ساعياً إلى التقاط الشيء الخاص المرح والثعباني في شفتي شيغلوف الحيتين والدقيقتين: ". ليس الولع والإلهام في الفن مطلق السعادة أيضاً. لا يمكن للولع أن يكون سعيداً في السباق نحو الكمال، فلا حدود لعدم الرضى....".

خفق شيغلوف على نحو تمثيلي بالريشة المنسابة في الهواء، من غير أن يسمع حتى النهاية، وتكلم بخفة منزلقة: ". و ـ لا ـ شك. لاحظ المفارقة الجديدة والهائلة. كلما حطم الناس قديمهم صارت أحاسيسهم أكثر بدائية، ياللأسف. صُرفت أوراق فاعلي الخير المالية ذات القيمة الضخمة بنحاسات المشاحنات المطبخية والدسائس الوظيفية. لاحظ أن العقل الواقعي والروح العملية يطوران على نحو متضخم النمو في الوقت الذي نُسي القلب من قبل الجميع. وماذا؟ ماذا؟ لا مكان للمشاعر الشكسبيرية في عصر البلاستيك. حب ما معيشي. الحقد ـ سوء تفاهم في السوق في أثناء الوقوف في الطابور لشراء بصل من طشقند. صاروا يعتبرون التواضع غباءً وهبلاً، والفظاظة الوقحة ـ قوة شخصية. تمحور الكون حول الذات تماماً وفداحة جذمورية من كلمة "جذمور". هذا هائل طبعاً. الصفعة للسافل، كما في أوقات الشرف الرجولي الطيبة ـ أوه، أي عمل جنوني لا معنى له، أية دونكيشوتية عتيقة، وحده الحسد الذي يكوي الروح بقسوة لا مثيل لها يزهر في منبت البورجوازية الصغيرة الجديدة السحري. آ؟ م ـ م؟ يحسدون بحمية، كالمجانين، وبالأبعاد جميعها:

على النقود وعلى التنورة المسايرة للموضة وعلى الشقة الجديدة والصحة، حتى على أصغر نجاح. آ؟ ها.... ونتيجة ذلك فإنهم يفرحون سراً، لكن بحماسة وتلذذ، لكل فشل يقع الآخرون به، للسقف الدالف لدى الجار، وللجنجل على العين، ولانعدام النقود وللمرض و ــ لا ترتجف ــ حتى لموت الناجح سابقاً: إنه هناك الآن، أما أنا فهنا. أو: حسن وعدل أنهم دفنوه في فوسترياكوفسك[1] وليس في نوفوديفتشيه[2]. يحسدون بالجملة . البواب والممثل ونائب الوزير. ماذا؟ الوزير؟ أوه، سأصحح: هو. لا، ولا في أية حال من الأحوال، فهو، ولاشك، خال من أية مشاعر غير جميلة ومعيبة، وهكذا، فالحسد هو ملكة مومسات العالم المطلقة، حسناء شهوانية ومغوية. إليك أين تهدر خلايا الشغف العصبية: على عبادتها، هي المومس في فراش الآخرين المعطر بعطرهم. أمر ساحر ولطيف، أليس كذلك؟"...

سأله فاسيلييف كي يرتاح قليلاً من نَفَسه التدميري الكاوي، ومن تيار الجمل المشبعة بالسخرية و الملل، التي أتعبته من غير رحمة بلعبة فكر شيغلوف الساحر: ". وأنت؟ هل يحسدك أحدهم؟ من يحسدك؟"...

". أنا، فليرحمني القدر، أنا إنسان عصري تماماً. أنا الحاسد و. بحمية".

". من؟"...

". كل رجل يسير في الشارع مع امرأة حسناء".

". كم عمرك يا إدوارد أركادييفيتش؟"...

". أشكرك على المجاملة. ستة عشر عاماً ونصف العام. بيد أن الوقت قد حان يا عزيزي فلاديمير أليكسييفيتش كي أغرب إلى التمرين. عموماً، في مقدور الممثلين أن يستغنوا على نحو رائع عن وجودي الإخراجي، فرؤيتهم إياي قد أضجرتهم ولاشك".

". سأستبقيك خمس دقائق أخرى....".

". تكمن مغالطتنا في أننا نزحف حول الحقيقة، مثل جراء عمياء بينما نظن أننا

---

(1) *مقبرة عادية. (المعرب)*

(2) *مقبرة المشاهير. (المعرب)*

كلاب كبيرة ووقورة".

قال فاسيلييف: "يبدو لي أنك تسخر من الحياة يا إدوارد أركاديفيتش. تصب السم عليها ضاحكاً. لكن لماذا أنت تحديداً؟... فالحياة برأيي لم تسئ إليك أبداً".

ارتمى شيغلوف في الأريكة، وراح ينقر بأصابعه إيقاعاً عسكرياً على متكأ المرفق الخشبي:

"- الجميع تقريباً مستاؤون على الأرض يا صديقي فلاديمير أليكسييفيتش الذهبي وفائق الموهبة. أنا كلب مسن طيب، وأعرف أن الحياة تتطلب أن توجه لها الصفعات حباً، وإلا فإنها ستردها نحوك حاقدةً. أرى يا عزيزي أنك ضد مثل هذه الاستراتيجية الوقائية".

قال فاسيلييف، وكان قد كف عن العمل بضع دقائق، وهو واقف عند المنصة، وعبس مسبلاً يده الممسكة بالريشة: "- هذا جنون. إننا نختنق في بحر الكلمات، في الكلام الحاد، في الضغينة تجاه الحياة ، وسوف نقتل. لمن هي موجهة أزهار بستانك البلاغي؟ للممثلين؟ لي؟ تخيل أنني لا أحب رائحة الكبريت المحروق، ولا أية أشياء شيطانية أخرى"...

ضحك شيغلوف ببرود لبق: "- ليست موجهة لأحد. إنني أنثرها على الطريق وأستمتع بمتعة الآخرين".

فكر فاسيلييف : " نعم، أنا متعب قليلاً. لكن لماذا يثير لدي قلقاً ما كما لو أن مصاباً قد حدث. "إننا نزحف حول الحقيقة مثل جراء عمياء (عمي). هل يذكر تشرين الأول من عام واحد وأربعين، وهل يذكر نفسه وتلك الأيام، ماشا وأنا وإيليا؟ كنا حينئذٍ جراء رائعة، غبية، يائسة، أما هو فكان شاباً...".

*****

الفصل السابع

نعم، كان تشرين الأول من عام واحد وأربعين.

في ذلك الوقت حين تحركت الدبابات الألمانية نحو ضواحي موسكو، وراحت تحطم وحل القرى المقيد بصقيع الصباح وتسطحه، هازة بقعقعة حديد جنازيرها وزئير محركاتها الأوراق الصدئة الأخيرة على أشجار البتولا المجاورة للطرق، والتي سلمت في بعض الأماكن من هبوب الرياح الليلية الحادة، المحملة ببرد ما قبل الشتاء والقادمة من الشمال عبر الغابات الخريفية، التي استمرت بالخروج عبرها من الحصار فلول أفواج الدفاع الأمامي، وفي الوقت الذي كانت التقاطعات على طريقي وارسو، وموجايسك تغص بأرتال الشاحنات الألمانية والمدرعات وقوافل مركبات الخيول، ويشغل القرى المشاةُ وخدمات المؤخرة المختلفة، الممتدة حتى الجبهة، والتي عرف أفرادها مسبقاً الأحياءَ والشوارعَ وأبنيةَ المقرات المقبلة في العاصمة الروسية، التي سادها في الليالي زئير قريب آت من الطبقات السماوية، حيث كانت تمر طائرات اليونكرس مصحوبة بدوي مغرغر، وفي ذلك الوقت حين احتلت كالوغا وجرت المعارك قرب سيربوخوف وموجايسك، و حدد الألمان بدقة، بعد معارك سمولينسك العنيفة وإتمام حصار الجيوش الثلاثة على جبهة بريانسك، المدةَ اللازمة لاحتلال تولا ويومَ سقوط موسكو- في ذلك الوقت نفسه وصل فلاديمير وإيليا بنجاح مع الآلاف غيرهم من تلاميذ المدارس والطلاب، الذين كانوا يحفرون خنادق مضادة للدبابات باتجاه موجايسك، وعزلتهم الدبابات الألمانية على حين غرة، إلى موسكو عبر الغابات

بعد أن انضموا إلى مجموعة جنود، وراحا يخطوان عند الفجر جائعين ووسخين ومهتاجين على أرصفة زاموسكفوريتشيه العزيزة، قاطعين المدينة كلها. أوقفهما الحراس مرتين في شارع غوركي، ثم أوقفوهما مرة ثالثة قرب دار "أودارنيك" للعرض، وتحققوا مرة أخرى من وثائقهما (لم يكن لديهما أية إثباتات شخصية أخرى غير بطاقتيهما الكومسموليتين)، راح الملازم ذو المكعبات الحمر الجديدة على شارة ياقته، بعد أن سلط عليهما الضوء من رأسيهما حتى أقدامهما بمصباح الجيب، يتفحص مرتاباً بطاقتيهما الكومسموليتين، ويسألهما بصوت غليظ جاف من أين هما قادمان وإلى أين ولأي غرض. انفجر إيليا حينئذٍ وأشار من بين أسنانه إلى أن القبض على المخربين الألمان أفضل من طرح الأسئلة الغبية، فأعاد لهما رئيس الحراس المندهش من هجومه وثيقتيهما وأصدر أمره: ". تابعا السير".

لم ينر ضوء واحد في المدينة، وألقيت أكياس الرمل كمتاريس تحت نوافذ الطبقات الأولى. فاحت الشوارع المثقلة بالعتمة الباردة، والمخترقة بالرياح التشرينية، والتي تكاد لا تعرف، برائحة الندى والثلج غير البعيد، وراح الهواء يصفر بشدة في كل مكان فوق الرؤوس بين الهوائيات على الأسطح، التي سبحت وراءها في السماء السوداء، في الأعالي الجليدية، مثل ظلال حاجبة النجوم، أجسام مناطيد الوقاية الجوية الشبيهة بالأسماك.

تميزت في طنين الأسلاك هذا، وصفير الليلة العاصفة، أصوات أخرى صادرة عن حركة مستعجلة ما على الطريق، شبيهة، وغير شبيهة، بحركة الجيوش العادية. لم تكفَّ الشاحنات الخالية من الجنود والمليئة بالصناديق والأكياس، وكذلك السيارات الخفيفة وعربات النقل الزراعية عن السير على مقربة والتجمع في كتلة سوداء في الساحات، التي ترددت منها أوامر المنظمين المكبوتة ونخير الخيول، وسباب السائقين و الحوذيين. ثم بدأت كتلة الرتل الكثيفة تتلاشى تدريجاً، وتستدير وتتطاول إلى شارع سادوفايا، وانطلقت من جديد سيارات "م ــ ك". القيادية، وهي تطلق النفير المقلق، مزرقة بسبب من أغطية المصابيح التمويهية، ومتخطية الخيول والعربات، التي راحت تقرقع بعجلاتها على الأسفلت وسكك الترام..

هنا تحديداً، وفي الشوارع المجاورة قبل الساحات برزت أضلاع القنافذ

الحديدية، مبقية ممراً ضيقاً للحركة، وتدلت مائلة قضبان السكك السميكة المغروزة في الأرض، لقد حولت هذه التجهيزات المضادة للدبابات المدينة إلى مدينة حربية مشوهة إياها، وكان في هذا التغيير ثمة شيء ما جديد، مخيف، كما في رائحة الحريق، التي شعرا بها أول مرة هناك، قرب موجايسك، حين حمل الهواء رماد الأشجار المحترقة. لكن هنا، في موسكو، لم يشاهدا رماد الحرائق المتجمر، بل كانت رائحة الرماد في طراوة الهواء العبقة تهب على هيئة أمواج، وأحياناً، كان يبدو أن الناس يحرقون الأوراق في أعماق الأفنية في كل مكان.

اقترح فلاديمير، بعد أن أوقفهما الحراس بضع مرات، أن لا يقفا أبداً في الطريق إلى زاتسيبا، وأن يدخلا مسرعين تحت أقواس البوابات وإلى مداخل الأبنية ما إن يلمحا أمامهما أناساً، فالمرء لا يميز من بعيد إن كانوا حراساً أم لا. غير أنهما لم يلتقيا في الأزقة المعروفة لهما حول زاتسيبا ماراً واحداً، ولم يريا بصيص نور في النوافذ، ولم تعبر على الرصيف سيارة واحدة. كانت المداخل مغلقة كلها، وأقفلت البوابات بالمزاليج، وراحت الريح تضج في أشجار الزيزفون في الأفنية، وتأرجحت ظلالها المعتمة ونقرت على الأسيجة، وتدافعت أكوام الأوراق على الأسفلت مصحوبة بنقر صفيحي، ومرت عبر الأقدام بحفيف جاف، وتجمعت عند مداخل الأفنية أكواماً متحركة. هنا، في هذه الأزقة، فاحت رائحة أول صقيع تشريني، ورائحة الخمرة التي تفوح في الأقبية، فيما راحت تضيء نجمتان ضخمتان بنور أبيض وأحمر مضطرب بين الأشجار المتأرجحة في صحراء السماء غير المنظورة.

حينئذٍ قال إيليا لا مبالياً: ". مارس وجوبيتير[1]. أترى كيف يلمعان.آ؟"...

رد فاسيلييف: ". أظن مارس إله الحرب. هل تذكر؟"...

"ـ فليذهب إلى الشيطان. لِمَ يجب أن نذكر كل هراء من التاريخ ومن روما القديمة؟ من يحتاج إلى هذا؟ ربما هذا ليس مارس ولا جوبيتير".

لكنهما كانا يذكران جيداً شارع لوجنيكوف، الذي بدا منذ وقت قريب مرحاً ومشمساً وأخضر، فلم يتمالكا نفسيهما عند الركن، وهرعا نحو مدخل فنائهما، وحين

[1] المريخ والمشتري (المعرب).

توقفا عند الباب الخشبي، وشاهدا من خلله بناءهما ثنائي الطبقات، المحاط بأشجار الزيزفون، تعالى عند مرآب الإطفاء على الطرف الآخر من الشارع، حيث تقوم قمرة المناوب، نداء رهيب أبح:". مَنْ هناك؟ قف... سأطلق النار". وفرقع مغلاق البندقية على نحو يوحي بالعداء.....

رد فاسيلييف بجملة عسكرية سمعها عند الخنادق، وقد استولى عليه فرح جنوني لأنهما صارا في المنزل أخيراً: ". أصدقاء، أصدقاء إذا لم تكن تمزح"...

قهقه إيليا: ". يا للسخرية. وهل تتقن الرماية؟ لم تصرخ كالبومة؟"...

واندفعا عبر الباب مقهقهين ومتدافعين، لكن الظلام التام المرسوم بالصلبان الورقية على النوافذ سرعان ما حاصرهما في الفناء المليء بضجيج الزيزفون المنساب على الطريقة الخريفية، فصمتا وهما يتلمسان الطريق نحو المدخل، الذي حجب سطحه الأسود الفحمي نورَ النجمتين فوق الفناء.

كان باب المدخل مغلقاً، ولم يفتح لهما أحد حين رنا الجرس مرتين و ثلاثاً. لم يفتح لهما أحد أيضاً، بعد أن قرعا الباب غير الثابت بعناد، وهزاه بإصرار عشر دقائق. لم يكن ثمة أحد في البناء كله على الأرجح، حينئذٍ قفز إيليا عن المدخل، وهو يطلق الشتائم، واقترب متلمساً طريقه من شجرة الزيزفون الملتصقة بجدار البناء، وتطاول على أغصانها العارية كما لو أنه يلعب على عارضة الجمباز، وبدأ يتسلق إلى الأعلى، كما فعل في طفولته أكثر من مرة نحو نوافذ غرفته في الطبقة الثانية. وقف فلاديمير في الأسفل، ورأى كيف وصل حتى الطبقة الثانية، وراح هناك، وهو معلق على الأغصان، يقرع الزجاج قرعاً شديداً وحازماً حتى أن الصدى راح يصطدم كالطلقات في عمق الفناء، ثم سمع صوته في الأعلى: ". ما ــ ما. ما بك؟! هل أصبتم بالصمم جميعاً؟". وهبط على جذع الشجرة إلى الأرض وهو يقول بمنتهى الأسى:

". ستفتح أمي حالاً. لا أفهم لماذا يختبئون كالفئران في جحورها؟"...

فتحت رايسا ميخائيلوفنا الباب، وكانت مرتديةً ثوبها المنزلي على عجل، وصاحت صيحة ضعيفة:

". إيليوشا, إيليوشا....."ثم تراجعت خطوة وهي ممسكة على نحو محكم بمصباح

الكاز أمام صدرها، وكسا وجهَهَا أسودَ الحاجبين، الذي لا زال جميلاً، تعبيرُ الفرح المعذب مكان تعبير الخوف: "- كم حسن أنكما الطارقان أيها الصبيان. كم حسن....". أما إيليا فقبل خد أمه متساهلاً، وأخذ منها المصباح وصعد السلم سريعاً، وهو يصيح:

"- إلى اللقاء يا فولوديا. تعال صباح الغد".

أوقفته رايسا ميخائيلوفنا بصوت مستعجل: "- انتظر يا فولوديا لحظة. انتظر من فضلك. انتظر. عليَّ أن أقول لك.... سافر أهلك إلى سفيردلوفسك. أجروا ترحيلاً هنا. رحّلوا الجميع مع الأطفال. بعضهم إلى الأورال وبعضهم الآخر إلى آسيا الوسطى. سافروا منذ شهر. مع المصنع. لديَّ رسالة ومذكرة لك، ومفتاح.... لكن في مقدورك مؤقتاً.... أن تقيم عندنا"...

هتفت إيليا فرحاً: "- هذا أفضل. فلنذهب إلينا. سيكون هذا أمرح، وسنجد ما نلتهمه، أليس كذلك يا أماه؟"...

رجاها فلاديمير: "- أعطني المفتاح. سأعرج على منزلنا أولاً....".

أشعره بالاستياء الآن أن يسافر أبوه وأمه مع أخيه ذي الأربع سنوات منذ شهر إلى سفيردلوفسك، وأن يرحلوا مع المصنع (حيث كان يعمل أبوه مهندساً) من غير أن ينتظروه، والمفتاح الذي بدا وكأنه برهان على هدوئهم غير المبالي.

فتح الباب بالمفتاح الذي أبقوه له، وراح يتحسس الزر الكهربائي في الغرفة الأولى، فاشتعل النور ضعيفاً، قليل التوهج.

تدلى كذلك في الغرفة المجاورة الضوء الواهن البرتقالي للمصباح في نصف الظلمة المزدحمة، مظهراً على نحو باهت الأثاث المعروف له وأوراق تمويه النوافذ المعلقة، أما خزانة الكتب فعكست عن زجاجها قرب منضدة الكتابة لطخات ليلكية، وصرّت الأرض الخشبية، وفاحت رائحة مسحوق أمه، وقد امتزج مع هذه الرائحة العزيزة نسيم غير واضح من غبار بارد قليلاً، ثم صدر صوت قضم فئران في المنزل الفارغ ــ وشعر فلاديمير بالاضطراب.

لم يتخيل هناك، قرب موجايسك، حين انضموا إلى مجموعة الجنود الحمر،

وراحوا يجوبون الغابات معزولين عن موسكو، عودته إلى المنزل على هذا النحو، بل تصور المساء وساعة العشاء الحميمة، هاتين الغرفتين في سطوعهما الكهربائي الدافئ، والوجوه العزيزة التي تحبه وراء المائدة، وتصور نفسه وهو يروي عن القصف الأول والمنشورات الألمانية عن الحصار، التي رموها ليلاً... لكن أحداً لم ينتظره في البيت ـ ورائحة ثياب أمه الباقية في الخزانة، والتي بردها نسيم الإهمال القاتل، طعنته بتيار من البرداء. ألا يكون هذا كله بداية حياةً جديدة، منتظرة منذ زمن، يدفعه خطرها إلى مكان مجهول ما؟...

حاول أن يقرأ الرسالة والمذكرة، فلم يعِ سطراً واحداً، وقرر من غير اهتمام أن يقرأهما صباحاً. دس الظرفين في جيبه، واغتسل بماء الصنبور الجليدي، ثم ذهب إلى آل رامزين عبر الممر من غير أن يُحكم إغلاق الباب.

كانت غرفة آل رامزين الكبيرة منارة بمصباح الكاز الساطع على نحو خاص بزجاجه المنظف جيداً. وقف إيليا عند صوان الثياب ممشطاً شعره الرطب باستمتاع ومن غير استعجال، وشدت كنزته الرياضية، التي أحب ارتداءها في الأمسيات المدرسية، كتفيه بقوة، وكان في هذه الكنزة وفي شعره المبلل والبراق على نحو احتفالي، وفي نظرته الحارة، التي ألقاها على فلاديمير ثقة مرحة نابعة من إنسان قوي، راضٍ عن نفسه، وعن مصيره، ولديه، أخيراً، إمكانية التلذذ بالخيرات المنزلية بعد رحلته الطويلة عبر البلدان البعيدة.

قال من غير أن يلتفت إلى رايسا ميخائيلوفنا، التي راحت تضع الطعام، وغمز فلاديمير في المرآة: "ـ عموماً، يا أماه، من حقنا أنا وفولودكا أن نسحق شيئاً ما. كان لديك في الخزانة بورتفين[1] تحسباً للظروف. لقد خرجنا، يا أماه، من الحصار بنجاح، وخلفنا وراءنا قصفين جويين عند المخاضة، ومرة وقعنا تحت نار مدفعية الهاون ولم يحصل لنا شيء. وصلنا إلى المنزل وكل شيء كما ينبغي. اجلس يا فولوديا، سنقضي الآن على البطاطس وسنجترع البورتفين على شرف موت الأنذال الألمان".

قالت رايسا ميخائيلوفنا: "ـ ياللفظاظة التي تتحدث بها يا إيليوشا. إنك تتفوه

---

[1] نوع من الخمر (المعرب).

بكلمات ليست كلماتك. أمن العقل أنك تعلمت الشرب في الأعمال الدفاعية؟ كيف حدث ذلك؟"...

ودعت فلاديمير إلى المائدة.

أجاب إيليا: ". حسناً يا أماه. اضطررنا إلى أن نشرب غير الحليب والماء".

وتناول بمهارة زجاجة البورتفين، التي وضعتها رايسا ميخائيلوفنا على المنضدة، ونظف سدادتها من الشمع وفتل بزال المفتاح فيها ونزعها بفرقعة رنانة: "ـ والآن".. "هيند هوه".. سنحتفل الآن كما ينبغي... هل ستشربين معنا يا أماه؟"....

أوقف فلاديمير إيليا مصدوماً بحزمه المفرط، وبأنه بدأ يسمي رايسا ميخائيلوفنا "أماه"، وكان هذا غير مألوف للغاية:

". كف عن التحامق بالبورتفين"...

أما رايسا مخائيلوفنا فراحت توزع على الصحون البطاطس طيبة الرائحة والمدخنة، وقطع السمك المسلوقة جيداً، وقطع الزبدة الصفراء، فأعادتهم رائحة الطعام المنزلي، ورائحة الشاي المنقوع الساخن، والمفارش النظيفة ـــ روح المنزل الموسكوبي العزيزة إلى ما قبل أربعة أشهر، إلى زمن الدراسة قبل الحرب، ذلك الزمن الصيفي السعيد، الخالي من الهموم. صار كل شيء مختلفاً، محروقاً بنار الحرب، لكن تيهانهما الأخير في غابات موجايسك، التي عصفت الريح بها، وهدرت المحركات على طريقها السريعة، وتردد الكلام الألماني، بدا لهما الآن، هما المستشاران بعودتهما إلى موسكو، وبقدح البورتفين الحلو، قليل الخطر، ومغامرة حربية تدغدغ الأعصاب على نحو ممتع. في تلك اللحظات كان ثمة شيء واحد يقلق فلاديمير، وهو جلاء أسرته إلى سفيردلوفسك ـــ وشعر برغبة في أن يقرأ على الفور رسالة أمه ومذكرتها، اللتين راحتا تحفان في جيبه. كف عن سماع قصة إيليا عن ليلة من ليالي آب المرحة، المليئة بالهرج والمرح عند أعمال حفر الخنادق، حين راحوا، مسلحين بالمجارف، يبحثون في حقول الجودار حتى الفجر (لم يمسكوا أحداً يا للأسف) عن المظليين الألمان، وسحب بحذر الظرفين من جيبه، وقرأ أولاً المذكرة المكتوبة على ورقة دفتر بخط والدته السوي:

"ابني الغالي فولوديا. سامحنا لأن الأمر حدث على هذا النحو ولم ننتظرك، ولأننا نرحل إلى سفيردلوفسك، إلى حيث يجلون مصنع أبيك، سنرحل مع آخر قطار. انتظرناك الوقت كله، ومن يوم إلى آخر، لأنهم قالوا لي ولأبيك في لجنة الحي الكومسمولية إن على جميع الفتيان من مدرستكم أن يعودوا بين لحظة وأخرى من الأعمال الدفاعية. ماطلنا طوال الوقت في السفر، لكنهم أمروا والدك بعد ذلك. عليك أن تفهمنا. قررنا السفر غداً. آمل يا بني وأؤمن بأن النجاح سيحالفك. سأبلغك بعنواننا الجديد حين نصل. أقبلك يا عزيزي فولوديا.

أمك.

19/أيلول/1941".

ثم أخفى المذكرة وقرأ الرسالة المرسلة في الطريق من كازان، وقد كتبت له أمه أنها تشعر بقلق شديد لأن عليه، هو فولوديا، أن يشتري بطاقة القطار حين يعود إلى المنزل من "الخنادق" فوراً، ويسافر في إثرهم إلى سفيردلوفسك حيث سيجد مصنعهم. أما النقود من أجل البطاقة والطريق والطعام فهي موجودة تحت بياضاته في خزانة الثياب.

تابع إيليا في تلك الأثناء روايته وهو يطلي بنشاط الزبدة على قطعة بطاطس:

"ـ .... إنني، يا أماه، آسف الآن لأننا لم نمسك بمخرب واحد. قالوا لنا: رمتهم طائرات اليونكرس بالمظلات ليلاً، وإنهم اختبأوا بين الجودار. هل تفهمين يا أماه؟ مكثوا في مكان غير بعيد، عند طرف القرية، التي كنا ننام في عنابرها. لم تكن لدينا بندقية واحدة، أو أي سلاح ما عدا أدوات الحفر. حسناً، أنهضونا، وأمرونا بأن نتسلح بالمجارف ونطوق الحقل ونمسك بالمخربين. تخيلي يا أماه أننا سرنا في هذا الجودار حتى الصباح ـ لم نجد أحداً ولم نجد شيئاً. الأرجح أنهم، الأوغاد، استطاعوا الفرار إلى الغابة، أما المظلات فدفنوها في مكان ما تحت الأرض. مؤسف أننا لم نصادف واحداً منهم... أليس كذلك يا فولوديا؟ حلمت بأن أمسك بواحد فقط....."

قال فلاديمير: "ـ وأنا أيضاً". وراح يتذكر تلك الليلة من ليالي آب المليئة بالنجوم،

التي بدأت تنار بنور ليلكي مع ساعة الفجر حول الجودار الرطب من الندى الغزير، والذي بلل الثياب، ويتذكر حفيف السيقان الزلقة والأصوات المنادية بحذر فيما ندر، ولهب السماء الأحمر في الغرب، ووجه إيليا الشاحب، المصوب على نحو مثير، وقدّ خطا قربه حاملاً مجرفته المهيأة لخوض الصراع.

نطقت رايسا ميخائيلوفنا بصوت مكبوت: ". كيف كنتم ستمسكون بهم؟... لديهم أسلحة، أما لديكم... هذا مستحيل. كم حسن أنكم لم تصادفوهم. كانوا سيقتلونكم....".

غمز إيليا فلاديمير:". هل سمعت؟ لا يا أماه. المجارف أسلحة أيضاً. ليس واضحاً من كان سيجندل الآخر".

قالت رايسا ميخائيلوفنا بنبرة قلقة: "ـ عم تتحدث يا ايليوشا ـــ ا؟... كلماتك تخيفني ببساطة. أيعقل أنك تظن الألمان مجانين إلى حد لا يمكن تصوره؟ هل سينتظرك مخرب عاقل ومدرب حتى تضربه بالمجرفة؟... يالكما من صبيين ساذجين...سريعي التصديق... ماذا سيحدث لكما؟"...

"ـ لا شيء إطلاقاً. "ودعا إيليا بابتسامته فلاديمير كي يدهش مرة أخرى من قلة خبرة والدته الخالية من أية إساءة، ثم وزع البورتفين على الأقداح، وقال بسخرية لطيفة:"ـ فقط لا تعتبرينا يا أماه صبيين رضيعين، وإلا سيبدو الأمر، كما تعلمين، مضحكاً نوعاً ما، لن يمر من أية بوابة.... نخب صحتك يا أماه." وشرب وضحك ووضع في فمه، لا بالشوكة، بل بأصابعه حبة بطاطس كاملة، وبدأ يمضغها بشهية:". وكيف الحال هنا في موسكو يقصفون؟ كان مسموعاً عندنا قرب موجايسك أحياناً كيف كانوا يزحفون إلى هنا، وكيف أنتم؟ يطلقون صفارات الإنذار فتهرعون إلى الملجأ؟ أمر مخيف يا أماه، آ؟"...

ردت رايسا ميخائيلوفنا: ". لا أذهب إلى القبو يا إيليوشا، فلا معنى لهذا. أما محطة الميترو فليست قريبة جداً، أشعر بالخوف حين تبدأ تقصف المدافع المضادة للطائرات، لكنني أسد أذني بالقطن، وكي أهدأ أبدأ أقرأ مجموعة أعداد مجلة "نيفا". يمضي الوقت هكذا سريعاً يا إيليوشا، ولا تلحظ تقريباً أنهم يحومون فوق حينا. إنهم،

على الأرجح، يصوبون إلى محطة كهرباء موسكو ومجمع كراسنوخولسك. صيفاً، احترقت بالقنابل سوق زاتسيبا، ودمر تقريباً حي كامل قرب حمامات أوتشينيكوفسك...".

قال إيليا على نحو لا يخلو من رقة فظة:"ـ كنتِ دائماً مقدامة يا أماه، ولهذا أحبك. لم تكوني جبانة أبداً، ولا مهرب من المصير، هذا واضح أيضاً. هل تذكرين "الجبري" لدى ليرمونتوف؟... تذكرته أحياناً هناك، عند الخنادق، وحين وقعنا في الحصار. كل شيء، عموماً، سيكون كما ينبغي. كما هو مكتوب في السموات".

نظر إلى أمه بتفوق مازح، أما هي فرفعت، من غير أن تلحظ مرحه، الحافظة الحرارية القماشية عن إبريق الشاي، وقربت الكؤوس وشرعت تصب الشاي، ثم سهمت ناظرة إلى فلاديمير بعينيها حاسرتي النظر اللتين جردتا وجهها الصارم، الذي كان في وقت ما جميلاً لكنه ذاوٍ الآن، من سلاحه.

"ـ ما بك صامت يا فولوديا؟.. ماذا كتبت أمك؟"...

"ـ ينتظرونني في سفيردلوفسك يا رايسا ميخائيلوفنا. لكنني لن أسافر أبداً. السفر إلى مكان ما في المؤخرة غباء. ماذا سنفعل هناك؟"...

"ـ غباء؟"...

"ـ يجب الذهاب إلى اللجنة العسكرية غداً ليرسلوني إلى الجبهة، وليس الهرب إلى مكان ما في الأورال. هكذا قررت...".

تلعثم، فكررت سؤاله بصيحة غير عالية:

"ـ قررت؟ هذا ما قررت؟ وأنت يا إيليا، هل قررت هذا؟ غداً؟"...

أسقطت رايسا ميخائيلوفنا يديها، وأدارت تائهة نحو إيليا رأسها الصغير، الممشط على نحو يوحي بالشباب، وذا حزمة الشعر الثقيلة فوق القذال. أما هو فضغط على قدم فلاديمير بفظاظة تحت المنضدة محتسياً الشاي بسرور استعراضي، ففهم هذا الأخير فوراً خطأه المرتكب وهفوته غير المناسبة. أضاف مرتبكاً:

"ـ هذا ما قررته أنا يا رايسا ميخائيلوفنا، وليس ايليوشكا. ليقرر هو بنفسه...".

سألته رايسا ميخائيلوفنا بصوت منخفض:"ـ وماذا قررت؟"...

أكمل إيليا شرب الشاي نافخاً، وقرع على نحو رنان الكأس بالصحن، وأجاب عن قناعة:

"لم أفكر بشيء بعد يا أماه. سيتضح الأمر، لنعش فنرى كما قال الحارس الليلي ثم استفاق نهاراً"...

ووضع يديه وراء رأسه، وتمطى باسترخاء حلو، مبالغاً في إظهار شبعه وانشراح صدره، ورضاه، واستمتاعه الخالي من أية شوائب بالجو المنزلي، وبدا واضحاً أنه لم يكن يرغب في أن تعرف أمه كل شيء، فلم يفضح نفسه بشيء وهو يبتسم بعينيه الضيقتين السوداوين البراقتين.

عاش إيليا وأمه معاً من غير أبيه، وكان ايليا قد أتاح لفلاديمير ذات مرة أن يرى صورة قديمة من صور أبيه في الألبوم، أفسدتها الصفرة في زواياها، وقد وقف فيها القائد الباسل في الجيش الأحمر، ذو العينين الفاتحتين مليئاً بشجاعة الشباب في سترته العسكرية المزينة بعقدة فاخرة، وحاملاً سيفه قرب ساتر حديدي. أوضح إيليا أن والده، عمل بعد الحرب الأهلية في الأركان العامة، ثم خدم في الشرق الأقصى، ومات عام ثمانية وثلاثين في مكان ما في الشمال في ورشة بناء ذات أهمية عسكرية ـ وقد جذب فمه بغضب متفوهاً بكلمة "مات". على هذا النحو أو ذاك، فقد كان ثمة سر عائلي واضح هنا، لأن فلاديمير رأى أحياناً كيف كان إيليا يعامل أمه بفظاظة ومن غير تكليف أمام الناس، لكنه وجده أحياناً غير نادرة مساءً قرب موقد الكاز وهو ينظف البطاطس قبل قدومها من المكتبة. وكان وجهه الأسمر يصفر ويلتهب حين يظهر في شقتهما مدير البناء اللجوج كوزين كي يذكر رايسا ميخائيلوفنا بوجوب دفع الكمبيالية في الوقت المحدد. لم يكن معروفاً لماذا كان مدير البناء يصعد بنفسه إلى الطبقة الثانية، إلى آل رامزين، حاملاً في حقيبته المنفوخة دائماً إخطاراً مسجلاً رهيباً بدفع أجرة الشقة، مؤكداً بتوقيع يده، لكن إيليا (كانا يدرسان في الصف التاسع)، التقى مرة كوزين اليقظ على السلم، واعترض طريقه عابساً وقرَّب من أنفه التفاحي المتين قبضته المدربة بالملاكمة جيداً، وحذره مكرهاً على نحو موح: "إذا رأيتك تضايق أمي مرة أخرى فسأزين، من غير شهود، كشكك بكدمتين زرقاوين. ولن تعرف نفسك في المرآة". رد كوزين، المتسمر، فوراً وجهه الذي صار رطباً، وتدحرج على السلم

كالمكيال، ورنا في الأسفل بعينين غاضبتين، لكنه كف عن زيارة آل رامزين منذ ذلك اليوم.

كرر ايليا: "ـ لنعش فنرى". ودفع تحت المنضدة قدم فلاديمير، وسأل رايسا ميخائيلوفنا: ". هل بقي أحدهم في الفناء؟ أم فر الجميع في أثناء الجلاء؟ هل بوركا[1] أوكونيف هنا؟ هل تعلمين يا أماه؟ لقد مرض عند الخنادق. أصابه إسهال أو إمساك. أرسلوه منذ شهر إلى موسكو. تبين أن أمعاءه ضعيفة. نعم كان دائماً كالفطر".

قالت رايسا ميخائيلوفنا عاتبة: ". كيف تتحدث عنه يا إيليوشا. بوريا صبي لطيف ومهذب. رحل آل أوكونيف إلى طشقند... سافرا في بداية تشرين الأول حين ازدادت الغارات الجوية، فهم منذ بداية تشرين الأول يطلقون كل يوم تقريباً صفارات الإنذار. وحده اليوم هادئ لحسن الحظ".

"ـ لا تخيفينا يا أماه، فأنا وفولودكا نخاف من كيس فحم على الرغم من أننا شاهدنا القصف، وعرفنا شوتسي تاكي[2]. "قهقه إيليا، وتناول الزجاجة عن المائدة وأدارها أمام ضوء مصباح الكاز كما لو أنه يمتع ناظريه بلون الزجاجة:". وأين ماشا سيرغييفا؟ هي أيضاً في طشقند على الأرجح؟... أم أنها تتشمس في مكان ما في الأورال؟"...

سأل هذا السؤال من غير اهتمام، وعلى نحو عابر، من غير أن يضفي عليه أهمية جدية، لكن فلاديمير شعر كيف صار وجهه يعاني الحر فوراً، لأن كل ما تعلق في المدرسة بماشا، وبتصرفاتها، التي صعقت الكثيرين، كان غالباً عصياً على الشرح وآسراً وغامضاً إلى درجة يصاب فيها بدوار رأس مؤلم لدى ذكر اسمها وحده، ولدى رؤية ظهرها المستقيم وشعرها المقصوص القصير.

ردت رايسا ميخائيلوفنا : ". لا، إنها هنا. التقيت بها أمس. مرضت أمها ولم تسافر مع المسرح. بقيتا في موسكو".

تثاءب إيليا على نحو ممطوط بكامل فمه حين قالت رايسا ميخائيلوفنا "لا، إنها

---

[1] *بوركا وبوريا تصغيران لاسم بوريس (المعرب).*

[2] *أي: مامعناه (بالأوكرانية) ــ (المعرب).*

هنا"، ونهض مصدراً ضجيجاً بإزاحته الكرسي، واقترب من الموقد الهولندي المزين بالترابيع، وضغط يديه على بلاطة المدفأة بنحنحة متصنعة الإقدام.

". أماه. الدفء يكاد ينعدم لديك، هل يوجد حطب في العنبر؟ بم تتدفأين؟...

ردت رايسا ميخائيلوفنا: ". بالنفايات الورقية المختلفة يا إيليوشا. هل تعلم؟ حدث أمر سخيف خيالي، على الطريقة الغوغولية ببساطة، سرق أحدهم حطب البتولا من عندنا، حتى آخر فلقة. ذهبت منذ أسبوع إلى العنبر كي أشعل المدفأة من أجل الليل، و.... ماذا؟ تخيل دهشتي وخيبة أملي. القفل سليم، ومتدل على الباب، أما الحطب فغير موجود. أمر مضحك ووحشي. لا أستطيع فهم ما حدث".

نخر إيليا وجلس القرفصاء مقابل باب الموقد:" -ازدادت شدة البلاهة. من يحتاج إلى قنص الحطب أيضاً. لو أعرف".

قال فلاديمير: ". لو تأخذين حطبنا يا رايسا ميخائيلوفنا، وينتهي الأمر".

عارضت رايسا ميخائيلوفنا: "ـ العنبر فارغ يا فولوديا، لا حطبنا ولا حطبكم. إنها مهزلة ببساطة، لصوص غريبون ـ أبقوا الفأس فقط. انتظرا أيها الصبيان، سأشعل المدفأة الآن. لدي كومة من الصحف والمجلات القديمة...."

فُرش نصف الغرفة بخزائن الكتب، التي اتسعت لمكتبة كاملة من الأدب العالمي، جمعتها رايسا ميخائيلوفنا بشغف سنين طويلة، منفقة في محلات بيع الكتب المستعملة قسماً كبيراً من مرتبها. كان إيليا يعطي الكتب بسخاء من هذه الخزائن ليقرأها الصف كله، والفناء كله، وكانت الكتب المقروءة تعاد من غير إبطاء على نحو يثير الاستغراب، لكن، على ما بدا، لسبب واحد فقط هو أن التعامل مع إيليا لم يكن خالياً من الخطورة. أحب فلاديمير غرفة آل رامزين هذه وطَرْقَ أبوابِ الخزائن الجافة فيها، والرائحة القابضة قليلاً للغبار الجاف والقديم على الموسوعات مما قبل الثورة والحروف النافرة الشبيهة بالحياكة على أقفية الكلاسيكيات الروسية والغربية وأجزاء الروايات الرثة عن الحرب الأهلية المقروءة حتى عتقت صفحاتها، وأغلفة مجلات المغامرات، التي تكشف زرقة الأماكن العالمية البعيدة الآسرة، والشواطئ اللازوردية في بلدان النعيم والهواء العطر على الجزر المرجانية، والجو الاستوائي الخانق في الغابات

المتوحشة، والضجيج الطازج وهدير الموجة الصباحية المائل إلى البرودة في البحر الزهري، والتلاع شديدة الانحدار، المتوهجة تحت الشمس كأذيال الطواويس تحت متون اليخوت المائلة على أحد جوانبها... وكان في ذلك كله وعد الرجولة وكمال الحياة والصداقة والحب الصادقين.

"ـ سأشعل النار الآن أيها الصبيان. ستصير الغرفة دافئة. "أسرعت رايسا ميخائيلوفنا وأخرجت من أسفل الخزانة رزمة صحف مربوطة بخيط من القنب وحزمة مجلات سميكة، انزلقت فجاءة بين يديها وتساقطت على الأرض.

قفز فلاديمير وشرع يساعد رايسا ميخائيلوفنا، فرفع مجلة بدت لناظريه معروفة له، وذات غلاف مدهش ـــ "حول العالم". وصورة معروفة: سرطان بحري ضخم على نحو لا يصدق، مد من ظلمة المحيط متعددة الطبقات ملقطه الهائل مثل زردية، وراح يعض به الحبل الحديدي، الذي أنزلت به قمرة المسبار البحري الدائرية، العاجزة بشعاع مصباحها الكاشف عن اختراق لجة الطبقة المائية. كانت هذه صورة لرواية كونان دويل "هاوية ماراكوتوف". مع تتمتها المنشورة في المجلة التي قرآها منذ وقت قريب.

قال فلاديمير راجياً: ". رايسا ميخائيلوفنا. لا لزوم لحرق....".

قاطعه إيليا، وهو يدفع عبر باب المدفأة المفتوح أكوام الصحف المدعوكة:

"ـ ما حاجتك إليها الآن؟ هاتيها، هاتي إلى هنا يا أماه أدب رياض الأطفال هذا". وتلقف من رايسا ميخائيلوفنا رزمة المجلات المنزلقة، ورماها على الأرض قرب الموقد الهولندي، وأضاف باندفاع مرح: "-أقطع رأسي يا فولودينكا إن كنا سنقرأ، أنا وأنت، مرة أخرى هذه السخافة الطفولية الساذجة"...

". لماذا تتحدث بهذه الثقة يا إيليوشا؟"...

". أقول كلاماً معقولاً يا أماه. هاتي أعواد الثقاب".

لعقت النار حافة الصحيفة المدعوكة في الموقد، وانتقلت إلى الأعلى نحو كومة الأوراق، ثم شبت على نحو أسطع وأوسع وشملتها بلهب سريع، راح يصفر في الداخل، وبدأ إيليا على الفور يمزق المجلات من غير رحمة، ويدس في الموقد الصفحات

المجعدة، محافظاً على النار وزائداً من شدتها، وحين راح يمزق أغلفة "مقتفي الأثر العالمي"، و"حول العالم"، الملطخة بالحبر، والتي قرأوها بحبور في المدرسة، وحين راحت عيناه تبتسمان بوقاحة عاكستين اللهب، بدا في تصرفاته شعور ما بالرضى الثأري، كما لو أنه راح يحرق الجسور غير اللازمة الآن الواصلة بالماضي المدرسي، الذي ماعاد ممتعاً له. هل يعقل أن يكون قد ابتعد عنهما إلى أمد طويل، وربما إلى الأبد، الصباح المشمس الباكر والستائر المتأرجحة بسبب من الهواء الخفيف، والمخترقة بالنور الكهرماني، ورنين المنبة على حافة المنضدة، حيث راحت تحف الصفحات برقة وتنقلب طوال الليل بسبب من هبوب نسيم أيار في النافذة المفتوحة؟...

قال فلاديمير: ". أعطني يا رايسا ميخائيلوفنا مفتاح العنبر. سأعود حالاً".

"ـ إلى أ ين؟"... رفع إيليا عينيه المضيقتين، وصفق باب الموقد الملتهب بالأوراق، حازراً نوايا فلاديمير: "آ، واضح. فلنذهب".

ابيضت النثرات في العنبر على الأرض الترابية، وأنار عود الثقاب الجدران المقامة من ألواح خشبية، وفراعة الحطب الملقاة في الركن من غير فائدة، وراح إيليا يديرها ويفتلها مثل الهراوة، ثم رماها نحو العتبة مصدراً نقراً أصماً.

"ـ أردت لو أعرف، ألم يسرقوا حطبنا بأمر من مدير البناء كوزين؟.. آ، يا فولودكا؟"...

قال فلاديمير، وقد أمسك بالفراعة وخرج من العنبر:"ـ كوزين، طبعاً، نصاب، لكن ينبغي إشعال النار، ينبغي تدبير شيء ما".

سادت ساعة ما قبل الفجر التشرينية في الفناء، وتثنت ذرا أشجار الزيزفون السوداء في أعماق السماء، وتأرجحت بين النجوم، وفاح المكان برائحة برد الثلج القريب (هكذا كانت تفوح ليلاً دائماً رائحة الخريف التام)، وغرق الفناء الذي نمت الأعشاب فيه كله، في ضجيج الأشجار الكثيف، وراح ينتفض مقفراً تماماً وقلقاً تحت هبات الريح التي حملت من بعيد، من جهة زاتسيبا، على هيئة أمواج هديراً وأصوات أبواق السيارات المتقطعة. وهب من عتمة الشوارع دخان ليس بدخان مواقد.

قال إيليا وهو ينظر إلى السماء فوق الفناء:"ـ ثمة ما لا يسر يحدث في موسكو يا فولودكا. ليس مفهوماً. أيعقل أننا سنهرب؟ لكن ليس من موسكو ـ لا يمكن لهذا أن يحدث. ماذا إذن، هل سنعرج على ما شا غداً؟ آ؟"... سأل إيليا سؤاله هذا وراح، بعد أن بدأ يدخن جدياً قرب موجايسك، يلصق سيجارة من غبار التبغ الذي جمعه من جيوبه، وشرعت تتصاعد في الهواء القارس رائحة الدخان المفروم الحامضة، والمرة قليلاً..

تمتم فلاديمير، كما لو أنه لم يسمعه، وقد راح يفسخ بالفراعة بقوة، فانتزع من سياج الحديقة اللوح المزقزق بمساميره: "ـ غداً في اللجنة العسكرية... غداً في اللجنة العسكرية... سنعرف كل شيء...".

اقتلع اللوح واستقام ملتقطاً في هبات الهواء الهادرة، وفي صرير الأغصان، أصوات حركة مبتعدة في الشوارع الليلية، ثم شعر في عمق الفناء المغبش برطوبة الأرض والأسفلت الحادة وبالمرارة المتعفنة لأوراق الأشجار المتساقطة، وراح فجاءة يساوره وينمو فيه أول مرة خلل هذه الساعات في موسكو إحساس بالقلق الضاغط. لا، لم يعرف ماذا سيحدث لهما غداً، ولم يعرف لماذا حدثه إيليا عن ماشا مرة أخرى، مع أنه كان في الربيع الماضي فقط يكاد لا يلحظها في المدرسة، قائلاً من غير مبالاة إن في مقدوره احتمال وردة الغرف هذه، وهذه الساحرة طويلة الساقين ذات الأنف المرفوع في أيام العطل فقط. أما هي فكانت ترد بأن تسخر منه بجراءة، معلنة أنها لم تر حيواناً أشد فظاظةً منه حتى في حديقة الحيوانات. لا، لم يكن ذلك حقداً...

"ـ هل تريد المرور بماشا يا إيليا؟"...

رفع رأسه، ورأى خلف كتف إيليا فوق أقصى ركن من حافة الطنف نجمتين ضخمتين، واحدة حمراء ملتهبة والأخرى بيضاء ثاقبة، مثل حدقتين كونيتين متوهجتين إلى أقصى حد، ناظرتين إلى الأرض من فضاءات العتمة غير المتناهية، وقد تذكرهما فيما بعد، بعد سنوات كثيرة، كنذير شؤم، لا سيما وأن النجمتين الناريتين المتجاورتين وتقاربهما يحمل، وفاقاً للتقويم القديم، الذي عرفه فيما بعد، معنيين: موت القيصر وانهيار الدولة العظمى.

تكلم إيليا بنبرة وقحة، وبصق متعمداً ــ على الطريقة الفلاحية ــ على سيجارته وقذفها بنقرة من إصبعه بين شجيرات الحديقة: "ـ ولِمَ لا نمر؟ فلنمر. ماذا؟ هل تمانع؟ أظن أنك لم تكن حيادياً تجاهها نوعاً ما، آ؟"...

أجاب فلاديمير باحتقار: ". هراء".

حين عادا إلى الشقة محتضنين الحطب المقطَّع كان لهب مصباح الكاز مخففاً بقصد التوفير، وجلست رايسا ميخائيلوفنا على كرسي منخفض دون مسند أمام باب الموقد المفتوح، وراحت ترمي في النار مهمومة كتل الصحف القديمة المدعوكة، وسارت على وجهها الحزين وعلى الجدران وأقفية الكتب في الخزائن الظلال الحمراء. قال إيليا بمرح:

"ـ سنوقد الحطب الآن، وسيصير المكان كحمامات ساندوني، نكاية بمدير البناء ساق الملفوف. أليس صحيحاً يا فولودكا؟.. لم تألمنا عند الخنادق؟... آ؟... لهذا وذاك".

أسقط الحطب فوق الموقد الهولندي مصدراً ضجيجاً، وجلس على الأرض مباشرةً وراح يرمي الحطب المشطور في المدفأة، وبدا واضحاً أنه كان مستعداً للسهر بإصرار، وقد تملكته الرغبة في العمل، لكن فلاديمير قال:

". شكراً يا رايسا ميخائيلوفنا. أنا ذاهب إلى منزلنا".

أوقفته رايسا ميخائيلوفنا:

". ربما أفرش لك يا فولوديا على الأريكة، ابق اليوم. ستشعر بالوحدة والبرد وحدك في الغرفتين الفارغتين".

قهقه إيليا: "ـ لقد نمنا يا أماه على الأرض واضعين قبضاتنا تحت رؤوسنا، فيما تتفوهين بأمور صغيرة... حسناً، إلى الغد يا فولديمار".

عبس فلاديمير: لم يكن يحب أن يسميه إيليا على هذا النمط التوددي الكتبي، الذي يبرز فيه ما يشبه تعامل الكبار غير الجاد مع من هم أصغر سناً.

نزت الكهرباء توهجاً ضعيفاً، مالئة الغرفتين بضباب مائل إلى الحمرة، برز منه الجانب الأخرق لمربع البوفيه القديم، وتلألأت في الركن بلاطة الموقد الهولندي البارد، وظهرت على النوافذ مثل البقع ستائر التمويه الضوئي المسدلة في الغرفتين غير

المدفأتين، واللتين تركتا باستعجال شديد من قبل أمه وأبيه. لكن فكرة الحرية والاستقلالية التامة في أشغال الغد، وفكرة أن الحظ حالفه ببساطة (لا، حسن أنه وحده تماماً في المنزل) هيجته على نحو مريح وهدأته. وجد في عتمة خزانة الثياب، التي فاحت منها رائحة النفتالين، معطفه الشتوي، فاستلقى على الأريكة وراح يضرب وسادتها تحت رأسه، ثم غطى نفسه بالمعطف حتى ذقنه ـــ وزحف الصمت عبر الغرفتين وملأ البناء كله والفناء تحت النجوم والشوارع والأزقة و حارات زاموسكفوريتشيه المسدودة، ولم تعد مسموعة من جهة زاتسيبا أصوات أبواق السيارات الممزقة، وحده الزجاج كأن يهتز أحياناً بسبب من ارتجاج يكاد لا يلحظ في المدينة.

فكر: "ماشا" ـ وأغمض عينيه منكمشاً على نفسه، كما لو أنه ملفوف بشبكة عنكبوت باردة، شاعراً بغموض الفرح والحب والخجل المضني، الذي يشعر به دائماً، حين يرى ماشا ولو من بعيد، ويرى خطوتها المرنة وتمايل معطفها الضيق ذي الطبقة القماشية على الكتفين، على شكل أمواج، والذي لم يرتد مثله أحد في المدرسة...

*****

الفصل الثامن

أيقظه هدير الشاحنات. نهض مرتجفاً برداً عن الأريكة في عتمة الغرفة الزمهريرية، ورأى شقوق نور الصباح على حواف ورقة التمويه، فرفعها إلى إطار النافذة مصدراً حفيفاً.

كان صباحاً تشرينياً رمادياً. استلقى أول ندى كالملح على الأوراق المبسوطة المتجلدة والملتصقة بقارعة الطريق، التي تحرك ببطء عبرها باتجاه شارع فالوفايا رتل من الشاحنات، وقد راح الدخان يتصاعد منها في الهواء البارد، ترددت خلل زئير المحركات أصوات الناس المهتاجة. كانوا يسيرون قرب هياكل الشاحنات في حشد عشوائي متزام، وقد برزت بحدة معاطف الجوخ السميك والستر القصيرة القطنية الرخيصة وأغطية الرؤوس والأذنين الدافئة كما لو أن الشتاء حل دفعة واحدة ليلاً بصقيعه القارس. انحفرت وجوه الناس المهتاجة والمهمومة هذه، وهذا الصباح الرصاصي، الذي بيضه الندى، والزئير المتداخل وهدير الشاحنات والصيحات الفظة والحقائب والصرر في الحشد والسماء الغائمة المنخفضة فوق الأسطح في وعي فلاديمير الوسنان كشيء ينذر بالخطر، وفكر في أن أمراً ما جارفاً ومهدداً بدأ يحدث في الشوارع، وقدر له أن يراه حين خرجوا من الحصار قرب موجايسك. حينئذٍ هرع نحو صحن مكبر الصوت الصامت، الذي نسي تشغيله أمس، وأدخل الشوكة في المأخذ. تسللت ضربات الموسيقى العسكرية الرنانة وأصوات الفرقة النحاسية المليئة بالحيوية إلى الغرفة على نحو احتفالي كما كان يحدث منذ وقت قريب في صباحات

الأول من أيار أو أعياد تشرين الثاني. لكن هيئة الحشد الراكض في الشارع وصوت الموسيقى الاحتفالية ولَّدا فيه إحساساً مفاجئاً بخطر مقترب لا يرد، حتى أن القشعريرة راحت تخزه بإبرها وتشد الجلد على وجنتيه. بدا له وكأنه رأى في الواقع الدبابات الألمانية الزاحفة في الشوارع الفارغة عند أطراف موسكو، وبسبب من هذه الرؤية المستحيلة ومن الانعكاس الباهت للسماء المتورمة على الأسطح الرطبة، ومن نغمات الموسيقى العسكرية خلف ظهره، والدبيب والصيحات تحت النافذة، تجمد برداً، وصار يرتدي ثيابه مستعجلاً، وهو يضغط على أسنانه، لكنه سمع هنا قرعاً على الباب وصوت إيليا من الممر:

"ـ فولديمار، نهوض. اخرج إلى الصف، خذ المجرفة. هيا إلى الفطور. صارت البطاطس المقلية على المائدة. سريعاً...".

أجاب فلاديمير غاضباً بعد أن فتح الباب:"ـ اخرس، ولتذهب أنت وفولديمارك المجنون إلى الشيطان. هل رأيت ما يحدث في الشارع؟".

رد إيليا بغير اهتمام، وهو واقف عند العتبة، مرتاحاً بعد أن نام جيداً، وممشطاً شعره بعد الاغتسال، ومرتدياً كنزة تزلج صوفية شدت بطريقة رياضية على صدره ذي العضلات البارزة: "ـ رأيت، رأيت. وماذا في الأمر؟ يجلون مصنع مصابيح الراديو. لنذهب، سنفطر، ثم إلى اللجنة العسكرية".

لفَّهما غاز العوادم في الشوارع ـ وقف رتل الشاحنات، التي كانت محركاتها تعمل من غير أن تتحرك، في صف طويل على شارع لوجنيكوفسك، وقد أعاقها انسداد ما غير مرئي في الأمام. أما الناس فراحوا يتجمعون معبرين عن انقباض متجهم، ويسيرون ويركضون باتجاه زاتسيبا. لم يحتمل إيليا وصاح اعتباطياً:

". إلى أين أنتم؟"...

لكن أحداً لم يرد عليه.

تجمع الحشد في شارع بولشايا تاتارسكايا قرب بوابة المصنع المفتوحة على مصراعيها، وتكاثف و هدر ساداً الطريق والأرصفة، وهنا توجه فلاديمير مدفوعاً بنفاد صبره إلى رجل محدودب ومغطى بالتجاعيد، يرتدي معطفاً من الجوخ ويدخن بحمية

تحت المصباح سيجارة لفها بنفسه بمزقة صحيفة.

". ماذا؟ هل يجلون؟"...

رفع الرجل في المعطف الجوخي شاربيه الخفيفين: ". ألا ترى بمقلتيك؟ يركضون، صارت عيون الجميع كمصابيح السيارات. هل رأيت؟"...

". إلى أين هم ذاهبون؟"...

". كيف إلى أين؟ ما بك ـ هل أنت فانيا من بريسنا؟ ألا تعلم أن الألمان اخترقوا الجبهة ويندفعون إلى موسكو؟ والحكومة ـــــ هل سمعت أين هي؟ يقولون في كويبيشيف، نعم هناك... هل فهمت؟"...

تدخل إيليا في الحديث: ". إنها أقاويل لإثارة الذعر يا عم. من قال إن الحكومة في كويبيشيف؟ هل أفرطت في قراءة حكايات الأطفال التي يكتبها كورني تشوكوفسكي؟"...

بصق الرجل في معطف الجوخ، وتوتر وجهه المليء بالتجاعيد غاضباً:

". أنت يا ابن الكلبة، أيها الجرو الخنوصي، تتجرأ وتعلمني؟ أروي لك الحكايات؟ أثير الشائعات؟ من أنت حتى تريد أن تعلم الشعب العامل؟ سأقتلع أذنيك أيها الرضيع عديم المخ".

". إنك تشتم عبثاً أيها العم".

قال إيليا ذلك رابط الجأش، وعيناه المضيقتان تبتسمان بخطورة، ثم أمسك بسرعة البرق يد الرجل كثير التجاعيد، التي امتدت في سورة حنق لم تضبط إلى أذنه، وشد عليها بقوة جعلت هذا الأخير يتأوه كاشفاً عن أسنانه التي أفسدها التدخين، ثم أضاف بخيبة أمل: "ـ أما هذه فهي من عادات ما قبل الثورة تماماً. صارت قديمة منذ زمن. كانوا يقتلعون الآذان في القرن التاسع عشر، كما هو معروف، وفي أسر التجار فقط".

". آه منك أيها الرضيع. ما بك تتزعرن؟ هل أنادي الحراس؟ الحراس؟...".

". الوداع أيها العم، أتمنى لك الصحة. ناد الحراس"

ماكان ممكناً تفسير الحنق الجارف، الذي أصاب هذا الرجل ذا الشاربين

الخفيفين، والذي كان، احتكاماً إلى عمره، في منزلة والديهما، ولم يكن واضحاً أيضاً لماذا حاول "اقتلاع أذنيه". بيد أنهما نسيا حالاً أمر هذا الاشتباك العارض، إذ جرفهما الحشد المندفع نحو مدخل المصنع، مضيقاً المكان حولهما على نحو خانق، وضاغطاً إياهما من الجهات كافة مقابل البوابة المفتوحة، كما لو أن الناس كانوا ينتظرون أخباراً جديدةً. تعالى حولهما ضجيج الأصوات، وراحت الوجوه تبحث بتعطش وعصبية وتتطاول إلى حيث وقف عند المدخل عمال يرتدون الستر القطنية وعلى أكمامهم أشرطة حمراء. أما خلف البوابة فبدا الفناء المقفر وأبنية الورشات الآجرية وسيارة "م.ك." خفيفة في المجال المعبد بين الأقسام، ومجموعة أناس حول رجل قصير سمين يرتدي معطفاً جلدياً. التفت هذا الرجل غاضباً على نحو ما، مطيحاً بطرفي معطفه الجلدي، ومشى مسرعاً نحو المدخل بصحبة مجموعة الناس، ثم توقف عند البوابة، ورفع قبضته، وصاح، وقد احمر وجهه القيادي الصارم والمستدير، بنبرة سلطوية صادرة عن رجل اعتاد إصدار الأوامر:

"ـ أيها الرفاق العمال." سرى في الحشد حالاً تموج الهمس المتخامد: "ـ المدير، المدير...."، وتحرك الناس، وتقدموا راصين كتلتهم نحو البوابة، وباحثين بنظرهم، وقد ظهر الأمل لديهم، عن المعطف الجلدي وهذه القبضة الصغيرة التي طارت في الهواء من أجل اللكم.

". أيها الرفاق العمال. واضح لكم جميعاً أن قطعان الألمان الفاشيست قد اقتربت من أسوار العاصمة، والوضع فائق الجدية. القضية تدور حول حياة السلطة السوفييتية أو موتها، حول حياتنا وموتنا. العدو قرب موجايسك ومالوياروسلافيتش. لذلك أدعوكم إلى التزام الانضباط الحديدي، وإلى الحذر والنضال الحازم ضد مثيري الرعب والفارين والهامسين، الذين يقوضون ثباتنا ويزرعون عدم الثقة والوهن في صفوفنا...".

قال إيليا مفكراً، وقد راح يشق طريقه في الحشد أمام البوابة: "ـ كان ينبغي، بالمناسبة، أن يساق ذلك الفرد ذو الشاربين من جلدة رقبته". كان واضحاً أنه آسف فعلاً على القضية غير المكتملة حتى النهاية: "ـ سحنة مثيرة للريبة جداً. ألم تلحظ أن

واجهته واجهة جواسيس؟ كأن شاربيه مثبتان بلاصق. هل نعود ونتحقق؟".

". كفاك سخافة...".

نهره فلاديمير غير منصت إليه، ومتابعاً من فوق أكتاف الناس المتجمهرين وظهورهم القبضة الصلبة، التي كانت تقسم الهواء مع الكلمات المتقطعة:

"ـ.... علينا أن نشرع في تشكيل السرايا والكتائب الشيوعية والعمالية... آن أوان..... الاختبارات الصعبة لنا جميعاً....".

وصلتهما كلماته من بعيد ـــ شقا طريقهما أخيراً خلل جمهرة الناس عند بوابة المصنع، وبقي الحشد وهديره وصوت أنفاسه خلفهما، وصار الشارع حتى التقاطع فارغاً على نحو غريب، وانتصبت أشجار الزيزفون سوداء في كل مكان، وبدت الأوراق الملتحمة بالجليد الزجاجي قاتمة على قارعة الطريق. لكن إقفار هذا الشارع وأبنيته الساكنة وأسيجته الخشبية المحيطة بالأفنية الزاموسكفوريتشية الهادئة، وتوتر الحشد الذي انعكس عليهما جسدياً للتو ولدت لديهما معاً لسبب ما شعوراً بالتغيير المحسوم في حياتهما، فراحا يتبادلان النظر. دفع إيليا فلاديمير بمرفقه:

". فهمت؟"..

". فهمت"..

****

كان فناء اللجنة العسكرية مليئاً بالناس، علا الضجيج، واحتشد في كل مكان تحت أشجار الحور فتيان في ستر قطنية جديدة، ومعاطف خريفية يرتديها أهل المدن، وراحوا يدخنون في كل مكان ويتبادلون أطراف الحديث بأصوات غير عالية، منهم من جلس على درجات المدخل القديم والوسخ، ومنهم من راح يتمشى على الأسفلت بأقدام متجمدة في الأحذية الصيفية، ومنهم من راح يقرأ مقطباً أوامر قائد مدينة موسكو وتوصياته الملصقة على اللوحة قرب صحيفة "البرافدا"، حيث بدا واضحاً للعيان عنوان ضخم: "العدو يتابع الهجوم". حضر تقريباً كل من كانوا في هذا الفناء بناء على بلاغات التعبئة التي استلموها، وراحوا ينتظرون جميعهم مناداتهم، كل بدوره، إلى الغرفة السادسة والعشرين في الطبقة الثانية إلى الرائد خميلنيتسكي،

كما استفهم إيليا، وحين فهم اقترح خطة العمل لتجاوز "الازدحام الجنوني"، الذي لن ينتهي حتى المساء. كانت الخطة بسيطة وصحيحة ومليئة بالجراءة: الصعود إلى الطبقة الثانية، إلى الغرفة السادسة والعشرين، وإخبار الواقفين عند الباب أن المتطوعين يُسجَّلون من غير الوقوف في الطابور، فيعبران على هذا النحو إلى الغرفة السرية، إلى الرائد خميلنيتسكي.

نجحت الخطة الموضوعة بسهولة غير عادية، لكن حين دخلا، وأعلنا من غير تحضير أنهما يرغبان في تسجيلهما كمتطوعين في الجيش، رفع ببطء الرائد الثقيل الأصلع، المستقر على نحو متين خلف المنضدة قرب الملازم الفتي ذي الأنف المدبب، عينيه الفارغتين بسبب من النعاس، ونظر كالأعمى فوق رأسيهما، أما الملازم الذي كان يفتش بأصابعه الأنثوية الماهرة في كومة المصنفات فكف عن عمله الورقي وبيّن بفرح أسنانه النظيفة الضاحكة كما لو أنه يستقبل شركاء قديمين له.

قال بلهجة صبيانية مدرسية: ". إليك أيها الرفيق الرائد. هل سمعت؟"...

رد الرائد متذمراً: ". واضح." وسأل إيليا من غير أن يبدل تعبير عينيه: ". كم؟"...

". ماذا أيها الرفيق الرائد؟"...

". أسألك كم سنة منذ المخاض؟ وأي شهر؟ إياكما والكذب. سأتحقق من الوثائق. أجب. بدقة واختصار ومن غير لف ودوران. واضح؟".

". سبعة عشر. ولدت في العاشر من أيار".

تكلم الرائد باستحسان لا مبال، ونظر نعسا إلى جهة فلاديمير:

". واضح، لم تكذب. وأنت؟ أيضاً سبعة عشر؟ أم ستة عشر؟".

قال فلاديمير مستاءً: "ـ لا، سبعة عشر. ولدت في آب. لماذا فكرت أن عمري ستة عشر؟".

"ـ اذهبا إلى منزليكما أيها الشابان. والأفضل ارحلا أيها الصبيان عن موسكو. إلى أبعد مكان ممكن. هاكما نصيحتي".

جس الرائد الأصلع متعباً صدغه الأشيب المقصوص على نحو حثيث، وجهّم

وجهه (كان رأسه يؤلمه على الأغلب)، أما الملازم مدبب الأنف، الذي كف عن عرض أسنانه الضاحكة باستحسان فقد حاول جاهداً أن يشرح خلسة من خلف ظهر الرائد شيئاً ما بإيماءات من رأسه الفتي المتورد، ورفع عينيه نحو السقف قبل اللحظة التي قطع الرائد فيها هذه الإشارات السرية.

".لا تومئ بعينيك أيها الملازم غولكين، ولا تتنفس عند قذالي. ناد على التالين ذوي البلاغات".

أسرع فلاديمير مفعماً برفض حار لعدم مبالاة الرائد الأصلع، وقال: ".انتظر. كنا عند الخنادق قرب موجايسك أيها الرفيق الرائد، و....عدنا كي نذهب إلى الجيش. لا نريد الجلاء"....

غطى الرائد بكفه فمه، وراح يتثاءب مرتجفاً حتى برزت الدموع على أجفانه الحمر، ثم تمتم بزفير قصير: ".آها . ها أيها الصبيان، أيها الأخان الجنديان. يا للجنون المقدام في رأسيكما الفارغين. تغنيان الأغاني كلها أيها العندليبان عديما الذيل. هل سمعتما بلاغ مكتب الإعلام السوفييتي اليوم؟ هل تعلمان أن الألمان قرب موسكو نفسها؟ هل تعيان أن الوضع على الجهة الغربية قد ساء على نحو جدي؟ لماذا تتعبان رأسي؟ إلى أين سآخذكما قبل السن القانونية؟ قولا لي أيها الصبيان الزاموسكفوريتشيان. مسموح تسجيل المتطوعين من سن الثامنة عشرة وحتى الخمسين، أما أنتما فستبلغان الثامنة عشرة بعد عام كامل. عـ. ام." مط كلامه، وعبر وجهه المدعوك النعس عن سأم لا حدود له: ".ألن يخرج تشابايف[1] من رؤوسكم؟ والزلاجات والسيوف وأمثالها من الألعاب التافهة؟".

تدخل إيليا معتداً بنفسه: ".لا، أيها الرفيق الرائد.إننا نعرف هذا: لن تسير ضد الدبابة بالسروال الداخلي...".

لم يتمالك الملازم مدبب الأنف نفسه وأطلق ضحكة، لكنه أخرج منديله على الفور وتمخط بهيئة جدية وتكلم بصوت رنان:

---

[1] بطل من أبطال الجيش الأحمر في أثناء الثورة (المعرب).

"ـ لدينا أيها الرفيق الرائد طلب إلى مدرسة المدفعية. طبعاً، يقبلون هناك مَنْ في سن الثامنة عشرة، لكن....".

قاطعه الرائد منزعجاً: "ـ يالك من بوق وشفيع. نسر لا يعرف إلى أين يطير. أخاف أن تكون قد فكرت، أنت أيضاً، بالاندفاع إلى مكان أمرح ما. أنتما طفلان، طفلان، يصول الهواء في علياتكما ويجول. أنتما أيها اللوحان سليمان كما تدل هيئتكما إلا أنكما تعيشان لحظتكما. حسناً، إن لم تعلمكما النصيحة والكلمة فستعلمكما الحياة، وليس دفعة واحدة بل ستنقر مؤخرتيكما كلهما، حينئذٍ ستفهمان كم يكلف تنشق التبغ. إلى المدفعية إذن؟ قبل السن القانونية؟ عوضاً عن الجلاء؟" سأل الرائد بانزعاج وضجر، تكاثفت التجاعيد الثقيلة وتدلت كالأكياس تحت عينيه الناعستين، اللتين تفهمان كل شيء، وحين رأى الانشراح الفرح على وجهي فلاديمير وإيليا أمر مقطباً حاجبيه وبصوت مفخم جداً: "ـ سجل أيها الملازم غولكين عنوانيهما. سنستدعيهما بعد يومين إن ظل كل شيء في مكانه، وإن لم تغيرا رأيكما".

خرجا من مقر اللجنة العسكرية يعتريهما اهتياج فرح لأناس كان من الممكن أن لا يحالفهم الحظ، لكنه حالفهم كما لم يحالف أحداً من قبل، ولم تكن في هذه المحالفة مصادفة بل رحمة القدر وختام حياتهما السابقة وبداية حياة جديدة، جدية، مرحة، منتظرة....

هتف فلاديمير مضطرباً: "ـ لولا الملازم لضاع كل شيء. ماكان الرائد، قطعة الخبز اليابسة، ليرضى حتى بالتحدث إلينا. الجلاء وانتهى الأمر".

أيده إيليا وهو يشعل في الشارع سيجارة على نحو لا يخلو من الاستمتاع: "ـ نقار خشب . شاب لا بأس به. ضعيف احتكاماً إلى سحنته، عصيدة من السميد، ابن أمه، أما في الواقع . فيعي كل شيء كما ينبغي. اسمع يا فولديمار، ثمة اقتراح." تكلم من غير تكليف منشرح النفس وهو يتفحص برضى مبنى اللجنة العسكرية ذا الطبقتين، المتقشر، خلف أشجار الحور النفوذة في الفناء: "ـ ليس لدينا ما نفعله في المنزل، فلنجر نفسينا في موسكو، ولنلقِ نظرة علّ شيئاً ما يتضح، ولنأكل شيئاً ما في أحد محلات الخدمة السريعة".

"ـ أظن أنني قلت لك منذ زمن: فلتذهب إلى الشيطان أنت وفولديمارك. أين استنبطت هذا الفولديمار المجنون ومتى؟"...

". كفاك ركلاً. أقولها تحبباً يا فولودكا، تحبباً".

ملأت هذه الحركة المستمرة والمنتفخة بوضوح، والمتوحدة بأرتال الشاحنات والسيارات الخفيفة، زاتسيبا وشارع فالوفايا، وقد تدفقت وتدفقت من غير نهاية عبر شارع سادوفايا وساحة سيربوخوفسك باتجاه محطتي كورسك وكازان للقطارات. تيار العربات سداسي النسق بمحركاتها الهادرة، والشاحنات المحملة بمعدات المصانع والأراشيف. الناس السائرون كالسلسلة في معاطفهم الرثة. رائحة برد الشمال، والرماد الذي فقد حرارته، والمتساقط كندف ضئيلة، كغبار فحمي، فوق ندى الصباح المتجلد على الحواف أسفل النوافذ. دروع الألواح الخشبية في واجهات المحلات المغلقة، و"القنافذ"، عند التقاطعات، والممرات المفتوحة في المتاريس المقامة من أكياس مليئة بالرمل. هيئات مثيرة للريبة لأشخاص يذهبون ويجيئون حاملين دلاءً و علباً من الكرتون في الأزقة قرب معمل الشوكولا، ومجموعات من رجال ثملين غير حليقين، يتدافعون غير بعيدين عن المسلخ، وصيحات رجال الشرطة المهددة في عمق الأفنية، وأصوات طلقات حادة ترددت بكامل قوتها بين الأسيجة كصدى في الهواء التشريني. الحراس العسكريون المسلحون، والتأكد من الوثائق عند المنعطفات. الطوابير الصامتة والمضغوطة على الجدران قرب المطاعم، حيث راحوا يوزعون بالقسائم وجبات غداء زهيدة، تفوح منها رائحة المرغرين المحروق قليلاً. مرة أخرى حركة لا تنضب للسيارات الهادرة عبر شارع ساودفايا. مداخل المؤسسات المقفرة المغلقة بإحكام. زئير أجوف وخوار الأبقار وسط ساحة كالوجسكايا، والتجمع العشوائي للحيوانات الجائعة، المطرودة من القرى التي شغلها الألمان قرب موسكو، أو التي تتعرض للقصف المدفعي، وأصوات الرعاة الغاضبين، وفرقعة السياط قرب النوافذ وأقواس الأبنية، وقرقعة جرارات الكولخوزات على الأسفلت، وقد راحت تجر مقطورات فيها حصادات ومذارٍ خلف القطعان. الحريق المفاجئ غير المفهوم تماماً في حانوت الكاز على شارع ساموتيوك، ورنين السيارات الحمراء التي مرت مسرعة وصفيرها، وتلألؤ الخوذ الذهبية القلق، والحشد الخفيف على مبعدة عن الحريق

والطوق المؤلف من مدنيين يتخللهم رجال شرطة، والأحاديث الحذرة في الحشد عن المخربين وحملة القنابل المضيئة في المدينة ("أمس قبضوا على أحدهم في العلية، وكان معه مسدس ومطلق قنابل مضيئة"، "نظر المناوب في أثناء الغارة ليلاً ــ على السطح مقابل محطة توليد الطاقة الكهربائية ثمة مصباح جيب يبرق. هذا معناه أنه أعطى إشارات للطائرات ليدلها إلى أين تقصف"، "سيبدأون الآن قصف الجسور، المخربون...."). طريق إينتوزياستوف السريعة، المليئة تماماً بالسيارات، والتي تحولت إلى مزيج من هدير وصراخ ووجوه وعيون مصابة باستعجال محموم، وأناس حائرين ومتجهين، مع أشيائهم التي جمعوها على عجل ليلاً، من موسكو إلى الطريق خارجها وإلى السكك الحديدية في الشرق ــ باتجاه الفولغا وكويبيشيف وغوركي وكازان، إلى حيث أجليت في ذلك اليوم ومن غير إبطاء بضعة مصانع ومؤسسات. الضواحي الغربية المقفرة، إلا من أرتال الكتائب العمالية على القارعة المرصوفة بالحجارة الملساء ووقع الخطوات المدوي، والأوامر العسكرية، وصوت أوراق الشجر الساقطة والمتجلدة، وقرع عجلات المدفعية الثقيل على حجارة الطريق، وأحياناً دوي الدحرجة المتواترة لعجلات عربات النقل المتتابعة. البيوت الخشبية الأخيرة والعنابر والحقل الخريفي المنحدر نحو الوادي الضيق والمغطى بالندى المثلج، حيث تلمع البلورات بين بقايا السنابل القاسية. عربات الـ"م.ك." المحدبة على الطريق السريعة إلى اليمين من الحقل، والسماء المنخفضة، المنتفخة على نحو غير مريح بالشتاء القارس والثلج في الغرب، الذي بدا وكأنه محدود بخط الغابات البعيدة الأسود، من حيث تقدم نحو موسكو ذلك الشيء المميت والمخيف والغريب، الذي لم يكن في مقدور أحد حتى أن يفكر به قبل أسبوع على أمل أن تبدأ فجاءة تفعل فعلها قوة ما خاصة، قادرة على أن توقف الجبروت الألماني وتحطمه.

وكان ذلك اليوم الغائم كله، وكل ما شاهداه، لا نهائياً وموجزاً مثل الزمن بين اليأس والأمل. كان ذلك كله في موسكو المهتاجة، القريبة من الجبهة، والجديدة عليهما، والمستثارة بالخطر القريب جداً، وبتوقع الأحداث الرئيسية غير الواضحة حتى النهاية كما يحدث في التاريخ في لحظات انعطاف الكثير من المصائر أمام تهديد

المجهول.

قال لهما أحدهم إن محلات المواد الغذائية تعمل في حي أربات، فعبرا أزقة أربات مرتين بحثاً عن حانوت خبز أو بقالية مفتوحة. لكن الأقفال كانت معلقة على الأبواب في كل مكان، وسدت الواجهات بدروع خشبية، وفي أحد الأمكنة تكومت شظايا الزجاج المحطم على الرصيف تحت لافتة محل مجوهرات، وراح شيء ما في الفراغ المكفهر يشد من الشق، كما من غرفة مهجورة، ويغري ويدفع إلى إلقاء نظرة على البرد الحجري غير المأهول، حيث ارتكبت كما هو واضح جريمة الليلة الماضية. كانت أزقة أربات هادئة وميتة، وقد عصف الخريف فيها وساق مزق الصحف وأشلاء اللوحات الإعلانية قرب الأسيجة ودفعها على الأسفلت جامعاً إياها كقمامة ورقية حول المصابيح، وقرب الفيللات الجميلة القديمة المغلقة والمزينة بالأجساد المحدودبة ذات العضلات البارزة للأطالسة الذين يسندون الشرفات بأكتافهم من غير أن يتعبوا، تماماً كما كانوا يفعلون منذ مائة عام.... وهنا، خلف منعطف الزقاق في قبو يكاد لا يلحظ، ومن غير لافتة، وبعد أن فقدا الثقة في العثور على حانوت، اكتشفا من رائحة اللحم المشوي محل شواء مفتوح بأعجوبة، فهبطا فرحين إلى الصالة الخانقة والمليئة بالضجيج ودخان السجائر، والغاصة بالعسكريين والمدنيين. تعرَّقت النوافذ الصغيرة تحت السقف المعقود بسبب من الهواء الفاسد، وتسرب النهار الرمادي التشريني إلى هناك بصعوبة، وشعت المصابيح على نحو ضبابي في دخان التبغ الخانق، واصطدمت الأصوات الثملة مجتمعة بجدران القبو الحجرية ـ وسبحت فوق ذلك كله رائحة الشواء ضاربةً الأنوف على نحو مدير للرأس، حتى أنهما بلعا لعابهما متخيلين مسبقاً كيف ستنغرز أسنانهما بشهية بقطعة اللحم الغضة.

وجدا بصعوبة مكاناً متطرفاً في الصالة قرب باب المطبخ، الذي هبت منه رائحة البصل، والذي ركض خارجاً عبره طوال الوقت نادلان غير فتيين، وجهاهما مهمومان ويرتديان مئزرين وسخين فوق سروالهما القطنيين، ناشرين روائح زكية من الصحون الحديدية. أوقف إيليا النادل بإيماءة حازمة غير متكلفة في الممر وناداه وطلب سريعاً وجبتين مزدوجتين مع كأسين من النبيذ الأحمر (أياً كان، بورتفين أو مز)، ثم شرعا يدخنان جائعين بانتظار الشواء، ومتفحصين القبو والجيران خلف المناضد. أكمل

شاب فتي متعرق كثيراً، أبيض الشعر، غطاه النمش مثل بيضة العقعق، فاتحاً على صدره الفروة الدافئة، التهام الصلصة في الصحن الحديدي باستمتاع غير خفي، فكان يبل قطعة الخبز الأسود ثم يغمض عينيه وهو يمصها بشفتيه الملوثتين بالسمن، مصدراً صوتاً رناناً. راح إلى جانبه يعمل آلياً بفكين كمجرفة البلدوزر رجل شبيه بحجر كبير، وكانت عيناه الكالحتان والمتورمتان مقيدتين على نحو لا يتزحزح إلى نقطة واحدة على المنضدة، وقد ضغط بمرفقه قبعته الفرائية الرثة على نحو متين.

قال إيليا مشيراً بحاجبيه إلى الشاب الأبرص: "-أعر انتباهك إلى هذا الصعلوك. هل ترى كيف يغرف؟ صوت مضغه أفضل على الأرجح من ألحانه الموسيقية. تعجبني طاقته المثيرة للحسد."

نظر الشاب الأبرص من الأسفل بعينين فاتحتين طفوليتين بعد أن سمع بحساسية كلمات إيليا، وصار يلعق بتلذذ حافة الصحن: "-وماذا؟ هل أعيقك؟ وماذا لو كنت جائعاً، وماذا لو كنت أرغب في أن آكل؟" ثم شرع يتكلم على نحو مشاكس، وقد راح يمص أصابعه الواحد تلو الآخر: "-لم آكل كما ينبغي منذ يومين. وأنا إنسان أيضاً. لا يمكنك أن تدس نفسك في أي مكان من غير قسائم، وأنا لست موسكوبياً، وليس لدي أي أقارب هنا."

سأله فلاديمير مندهشاً من هذه الـ" و" المشاكسة:

"-ماذا؟ هل أنت من القادمين إلى موسكو؟"

"-أنا من كالوغا. اندفعت نحو العاصمة حين اقترب الألمان، وبقيت جدتي العجوز العتيقة وحدها، ولم تذهب معي. قالت "ليس لدي مكان أذهب إليه ما عدا الأرض الرطبة." أما أنا فأطلقت ساقي حين قصفت الدبابات الفاشية مركز المدينة. وفي الطريق أجلسني جندي أحمر مسن في شاحنته، ثم أكملت مشياً: مشيت وحدي ومشيت حتى موسكو نفسها. ومنذ أربعة أيام وأنا هنا..."

قال إيليا مستحسناً، ومد بتوددٍ متساهلٍ علبة سجائر "المدفع" الفاخرة المفتوحة، التي اشتراها اليوم بسعر غير سعرها من المارة قرب محطة المترو: "-عافاك. أنت تعرف جيداً الحرف "و". تفضل أيها المايسترو من كالوغا. هل تدخن؟"

امتنع الشاب مطيحاً شعره الفاتح على جبينه: "-لا، لا أمارس الغباء، ولا أنصحك."

هتف إيليا:"-يا الله. يا لك من أحمق ما دمت تقدم النصح."

استوفز الشاب على نحو مفاجئ، وراحت عيناه الواضحتان تغمزان وقد استعدتا للدفاع:

"-وأنت كذلك منذ الولادة. ما بك تشتم مثل تيس مسن؟ لا ألمسك، فلا تلمسني أيضاً."

استحسن إيليا مرة أخرى: "-عافاك. يبدو أنك تحسن الغضب. هل الجميع كذلك في كالوغا؟ أربعة أيام في موسكو ولا زال الأدب لديك ضعيفاً. تدس يدك حتى المرفق في فمك، وتمضغ بصوت موسيقي ببساطة. يا للروعة. كيف يسمونك؟"

نطق الشاب باستياء ومسح أصابعه الملعوقة بركبتيه تحت المنضدة: "-أنت الروعة. وإن كنت فانيا[1] فماذا إذن؟... لو نمت ليلتين على الرف في أحد مخازن البيع لديكم لعرفت على الفور ما هو موسيقي وما هو عقيقي. من يسمعك يظنك معلماً. تقضي الليل في محطة القطار تحت المقعد، فماذا يحدث- تهرب في الصباح: ينفذ البرد إلى العظام، ويتحققون من الوثائق من غير نهاية، ويطردونك إلى الشارع- وانتهى. وأية وثائق لدي ما دمت لاجئاً؟ ساقوني مرتين إلى الإدارة، أي أنني طلبت بنفسي أن يسوقوني- وإلى القائد- كي أشرح له: أرسلوني إلى الجيش. أريد الذهاب إلى هناك. وهم: أي جيش وعمرك ستة عشر عاماً. ينقصك عامان- وفجاءة يرسلونني إلى القطار المتجه للجلاء، إلى مكان ما في كازاخستان... حسناً، أطلقت ساقي. تظنون أنني في أمس الحاجة إلى الجلاء. ليس لدي أي أطفال بعد كما أظن، وجدتي بقيت في كالوغا. لا يوجد مكان تتحرك إليه. سرت أمس في موسكو، وكنت أرغب في أن آكل، وكان المزاج أسوأ من مزاج المحافظ، وفكرت: ماذا عليّ أن أفعل، وإلا ليس أمامي سوى الجلاء، ونظرت: العساكر ببنادقهم يغنون في الشارع: "أوكرايينيا الذهبية، روسيا البيضاء الغالية." وخطا المساعد ذو الشارب الكبير كالديك جانباً، أما وجهه نفسه فكان صارماً

[1] فانيا تصغير اسم ايفان (المعرب).

وساقاه في جزمة من جلد الكروم نحيلتان كعودي ثقاب. فكرت: لأنضم إليهم من الخلف. قد لا يلحظني أحد. كان بعضهم يرتدي ستراً قطنية في الصف. انضممت، وصرت أصدح بالأغنية مع الجميع، ووصلنا إلى الثكنة نفسها، وهناك في الفناء بدأوا يتحققون وينادون بالجداول. ثم حدق المساعد على عودي الثقاب باتجاهي، بعد ذلك تقدم نحوي وكان شارباه الطويلان كشاربي صرصور: "من أنت؟ من أين؟ لست منا؟ أرجو أن يترك الغرباء الصف" و-من عند الباب ارجع يا حباب. سرت وفكرت: هل سأقضي الليلة تحت المقعد في محطة القطار مرة أخرى؟ وهنا، قرب مسرحكم، أكبر الجميع[1] عبر فتيان الطريق مسرعين، ونادوني لسبب ما: "هيا بنا" اعتبروني واحداً منهم كما بدا. أما أنا فخلفهم. كانت الأبواب مفتوحة في مخزنكم المركزي، ولم تكن أية أقفال، ولم يكن فيه باعة أو أي أحد. تسلقنا، أنا والفتية، بهدوء إلى طبقة ما مليئة ببضائع من كل لون- أشياء كثيرة لا تحصى. قال أحدنا، واتضح أنه لاجئ من موجايسك، "لسنا لصوصاً، إننا ننام هنا. ابْسُطْ لفافة من الصوف أو المخمل، والتف بها وشغّل آلة النوم. ستشعر بالدفء في اللفافة "قضيت ليلتين هناك مثل ابن الملك، وأمس ساقونا من تلابيبنا جميعاً.."

تكلم الرجل الشبيه بالحجر وذو الوجه الكبير بصوت أجش من غير أن يزيح الثقبين المكفهرتين- عينيه- عن نقطة وحيدة على المنضدة. أما فكاه فظلا يتحركان كالبلدوزر على نمط وحيد لا يتغير:

"-الوضع."

نظر الثلاثة باتجاهه، لكن هذا الأخير لم يعرهم أدنى اهتمام، ورمى في فمه آلياً قطعة خبز أسود، وقال وهو يمضغها بغباء وبالصوت الأبح نفسه:

"-الوضع..."

وافقه الشاب الأبرص متنهداً: "-هذا صحيح. وضعي أسوأ من وضع العجول، وما العمل؟"

---

[1] المسرح الكبير أو مسرح البولشوي (المعرب).

قال إيليا ساخراً: "-اشتر مبولة أطفال ليلية، وماذا أيضاً؟ عليك أن تجلو مع روضة أطفال ما. إلى الجيش؟ لا، لن يأخذوك يا صديقي فانيا. ستضطر إلى أن تنتظر عامين. اجلس على المبولة عامين".

انتفض فانيا، وراح يغمز برمشيه الأبيضين مضطرباً: "-مرة أخرى؟ تشاكسني مرة أخرى؟ لماذا لا تحترمني على هذا النحو؟ لم ترق لك سحنتي؟"

"-كف عن الاستفزاز يا إيليا. لماذا؟"

قال فلاديمير ذلك مدافعاً لا إرادياً عن فانيا، لكنه مع كلمات هذا الأخير "لم ترق لك سحنتي "لم يكبت ضحكه، وكان لهذا الضحك، الذي انتقلت عدواه لإيليا ومن بعده للشاب نفسه، وقع غريب على الرجل الشبيه بالحجر ذي النظرة الهامدة.

أوقف أخيراً عمل فكيه القويين، ونظر مستفهماً حوله، وتشوه وجهه الكبير ذو العروق الحمراء.

قال غاضباً: "-ما بكم تضحكون يا جياد؟ ما الذي يفرحكم هكذا؟ هل يُصَفِّر الهواء في رؤوسكم؟ لو تفكرون بعقولكم." وقرع الرجل باصبعه الخشن المصفر من الدخان على جبينه: "-لو تفكرون ماذا سيحدث لكم إذا ما أخذ الألماني موسكو؟ لماذا تقهقهون من غير معنى حين ينبغي أن تبكوا؟ لو تفكرون بأمهاتكم..."

لا، لم يفكروا بأمهاتهم ولا بالوضع الحرج على الجبهة، ولا بالظروف متناهية الدقة في موسكو. لم يصدقوا أن الخطر عظيم ومميت، ولم يتصوروا أن الألمان قادرون على دخول المدينة وعلى أن يصيروا أصحاب هذه الشوارع التي يعرفونها كلها منذ الطفولة، وأصحاب تقاطعات الترام وشارع سادوفايا والساحة الحمراء وأربات وشارع غوركي وحديقة نيسكوشني ساد وأزقة زاموسكفوريتشيه الشهيرة صيفاً بأشجار الزيزفون المزهرة وبأفنيتها الخلفية ذات النسائم الباردة والعنابر وأبراج الحمام... لم يكونوا غير قادرين على تصور كل هذا خاضعاً لقوة غريبة معادية وحسب بل كانوا يكادون، وهم لما يختبروا حتى النهاية خوف الموت ومحصنين بإيمانهم الذي لم يفقدوه بعد بشبابهم، لا يصبرون على الشك بالآخرين، محتقرين الضعف ونابذين إياه كتخاذل جبان.

سأل فلاديمير: "-أيعقل أنك تظن أن الألمان سيأخذون موسكو؟" وتبادل النظرات مع إيليا، الذي راح يدخن غير مستعجل، معبراً بتموضعه عن برودة أعصاب كسولة.

تكلم إيليا من غير أن يوجه حديثه إلى أحد:

"-ازداد عدد مثيري الذعر كثيراً، ولا يكفون عن التذمر. على الرغم من أمر قائد موسكو الجنرال سينيلوف- إعدام المتذمرين والهامسين والمخربين رمياً بالرصاص فوراً."

"-هكذا إذن؟ تهزآن أيها الغران. أيها البطلان المغفلان؟"

نفث الرجل الشبيه بالحجر الهواء من منخريه وقد احمر، وراح فكاه المغلقان الشبيهان بمجرفة البلدوزر يدحرجان تلال العظم الوجني القاسية- برز شيء ما مهدد وقاتم في هيئته الضخمة كلها، فهتف فانيا الخائف بصوت غنائي متداركاً صداماً غير حكيم:

"-لماذا احمررت أيها العم الجيد كالسرطان المسلوق؟ لم يمسك أحد فاجلس ما داما لا يقولان إلا كلاماً. تشعر باهتمام- تحدث إلينا، وقل شيئاً ذكياً لنا، وسنستمع إلى رجل كبير مسن."

تأوه الرجل الشبيه بالحجر، وتحرك على الكرسي، ثم تكلم بصوت كصوت البوق وقد برّدت أعصابه مداخلة فانيا المحترمة:

"-آه منكم. عشب بستان أنتم. علماء مقدامون أنتم. لا مفر منكم. ما بكم- تركتم الحلمة للتو؟ رضّع؟ في موسكو تركض أقوام مختلفة قطعاناً مندفعةً نحو محطات القطار، أما أنتم فلا تفقهون؟ إليكم من يثيرون الذعر، إليكم من يجب رميه بالرصاص. أقاموا في شارع سادوفايا سدادة بستة صفوف من السيارات. كلها منطلقة إلى غوركي وكويبيشيف."

دس إيليا مصطنعاً عدم الحماسة: "-الجلاء. ما العمل..."

"-يا لك من شيطان ذكي. ثمة من يفكر بالجلاء وثمة من يفكر بالمرق الدسم في هذه الضجة الكبيرة. ذهب محاسبنا مع عامل الصندوق إلى المصرف لجلب الرواتب، ولم ترهما سوى روح الكلاب. اختفى الاثنان بعِدْلٍ من النقود، إليك... المصنع من غير

مواد لليوم الثاني، والراتب حجز جنازة لدى الرب الإله. علَّم المجانين الذكاء، أما محاسبنا سيميون بوريسوفيتش فأخاف أن يكون الآن في غوركي يشرب الشاي مع الفودكا على نفقة النقود الحكومية العمالية. لا شأن له إن أنتج المصنع قنابل مضادة للدروع أم لم ينتج. هاك ماذا يفعل جلاؤك. فهمت- لا تعرف رأسك من مداسك..."

صمت الرجل الشبيه بالحجر، ودحرج عينيه الداميتين نحو باب المطبخ، الذي فُتح مصدراً صريراً وظهر من وراء الستارة الملوثة بالدهون النادل المسن في مئزره الوسخ، مذعوراً، ومختنقاً بصراخه، وقد توترت عروق رقبته:

"-أيها المواطنون، غارة جوية. أيها المواطنون، غارة..."

سمعت أصوات في المكان: "-ماذا، ماذا؟ لماذا تصرخ على هذا النحو السخيف؟ هل أذاعوا بالراديو؟ أم تهيأ لك؟"

بدأت ضجة أصوات الناس تهدأ تدريجاً في القبو، التفتت الرؤوس نحو النادل المسن، ثم حدثت حركة سريعة عند باب الدخول، وانزلق بضعة أناس واحدهم تلو الآخر إلى الخارج، وتردد صوت وقع أقدام راكضة إلى الأعلى على الدرجات الحجرية، ولاحت على الرصيف قرب النوافذ، ثم قال أحدهم من وراء المنضدة المجاورة متوجساً:

"-يا للجنون. أين المفر من الموت؟"

"-اندفع الشباب نحو محطة مترو أرباتسكايا."

"-يا لكثرة ما صاروا يغيرون. عموماً، تحتاج طائرات اليونكرس إلى بضع دقائق طيران من موجايسك، وهم يقلعون من مطار موجايسك."

"-ليس المكان هنا أسوأ من المترو. انظر، السقف اسمنتي مسلح كما في الملجأ. لا بأس. سيحـ- حتمل."

"-أية واحدة؟ ذات الخمسة كيلوغرامات أم ذات الطن؟ متندر، ظهره في قوقعة."

"-ولم الهرب، قل لي؟ في مقدورنا أن نجلس على نحو مؤدب معاً. لن يحدث ما هو أسوأ من الموت."

"-إه، ضقت ذرعاً من الجري في أوقات الإنذارات."

"-ماذا نفعل إذن؟ هل سنجلس؟"

صاحوا كالمتوحشين من خلف زاوية القبو على النادل، الذي راح يتلفت مشتتاً نحو المناضد بوجهه النحيل المغطى بالشعر القصير الخشن: "-ما بك تقف كالزجاجي؟ هيا، اجلب شواءك الشبيه بالنعل المشوي قبل أن يقصفونا. هاته ركضاً."

تراجع النادل نحو باب المطبخ وهو يمسح، لسبب ما، يديه الراقصتين بمئزره غير الجديد، فاشتبك بالستارة، وصار يتخلص منها بمرفقيه المترددين إلى الأمام وإلى الخلف، ثم اندفع نحو المطبخ ترافقه قهقهة عصبية مستفزة من وراء المناضد. قال إيليا متساهلاً:

"-أيها الأرنب الرمادي الجبان." وصرخ هنا في أثر النادل مغتاظاً: "-اسمع أيها الرفيق، إننا نموت جوعاً. إلى متى سننتظر؟"

زجره الرجل الشبيه بالحجر الكبير بشدة: "-لماذا أنت غاضب؟ وترفع صوتك وكأنك كبير؟ أهو الجبان؟ ألا يكون لديه أطفال أصغر من الصغار؟ الجميع أبطال حين ينمو على الخطم نصف شارب. يسهل إبراز الصدر حين لا يكون ثمة شيء خلف الظهر- لا زوجة ولا أطفال. صغار أنتم، صغار. لو تشمون ما معنى إطعام أسرة؟ البطولة في رؤوسكم؟ الحرب كاللعبة... هاك كيف تصنع الألعاب المضادة للدبابات ثلاث عشرة ساعة في اليوم." وعرض لإيليا كفه الأيمن المغطى بتلال المسامير الجلدية البنية، وأضاف: "-لو أهشم بهذه المطرقة رأس المحاسب. ماذا إذن أيها الأبطال، هل سنصنع المآثر هنا؟ أم إلى المترو كالعاقلين؟"

قال فلاديمير متغلباً على صمت إيليا: "-إننا نموت جوعاً."

أعلن فانيا الأبرص منهكاً: "-وماذا؟ لقد أكلت، وكرشي يفرقع. صحبتكما لا تناسبني كثيراً. سأتدفأ في المترو على الأقل. أما في هذا القبو فيتخدر المرء برداً ولا

يشعلون ناراً."

"-هيا أيها الغر."

انتزع الشبيه بالحجر قبعته الفرائية المدعوكة عن المنضدة، وحين تحرك نحو المخرج بدا غير طويل جداً، لكن منكبيه ورقبته كانت عريضة على نحو لا يصدق، وبدأت جزمته الرخيصة القديمة تصفق محتدمة غضباً على الأرض الإسمنتية قرب خطى مالك الحزين القصيرة لفانيا النحيل. صفق الباب وراءهما، ثم خطت الجزمة الرخيصة بصلابة قرب النوافذ ومن خلفها ساقان فتيتان نحيلتان. في تلك اللحظة (لم يتسن بعد لفلاديمير أن يزيح ناظريه عن النافذة) خرج النادل المسن بوحشية جامحة من وراء ستارة الباب المندفعة جانباً، ناشراً رائحة البصل المحروق واللحم المفرط في الشواء، ورمى صحنين حديديين على منضدتهما مصدراً رنيناً، ووضع كأسين من النبيذ الأحمر. ضحك إيليا مندهشاً، وهتف: "-أوه، فلنفترسها" ثم شم الهواء بتلذذ مصوراً الغبطة التي حلت أخيراً، والتقط بالشوكة القصديرية ذات الأسنان المنفرجة قطعة لحم ملتصقة بالبصل، وغرز فيها أسنانه.

فكر فلاديمير: "غارة جوية إذن؟" وكان غاضباً من نفسه لأنه شعر، كما هو واضح، بالقلق أكثر من إيليا بسبب من الهدوء البارد في الشارع، والضوضاء التي خفت شيئاً فشيئاً في القبو، لكنه مع ظهور الصحنين على المنضدة تناول (متخذاً هيئة الرائد المقدام) الكأس الباردة الزلقة، مع أن أية خمرة كانت مقززة له حينذاك، واجترع بشجاعة جرعة من السائل الأحمر، الذي كان مذاقه مذاق الحديد البارد الكريه، وقال: "- رائع." وشرع يلتهم الشواء الذي راحت قشرته المحترقة الفواحة تتكسر بين أسنانه.

في اللحظة التالية قفزت الكأسان على المنضدة راشّتين النبيذ، وبدأت الصحون تصطك: بدا وكأن طلقات المدافع المضادة للطائرات راحت تتردد بجنون، وترن، وتصفق على نحو مصم تحت النوافذ وعلى بعد مترين من الباب، وبدأت تقصف المدافع الرشاشة باستعجال وعلى نحو معدني متقطع. لكن شيئاً صدم الأرض حالاً وأرجحها بهدير مرعد مدمر، فخفت الضوء الكهربائي في القبو وانطفأ. انهمرت من

السقف المتعرق قطرات ضخمة كزخ المطر، وارتطمت قطع الطينة بالمناضد، وقال أحدهم بصوت مخنوق: "- على الكريملين... سيرمون الآن مرة أخرى..." وتسمر الجميع. تأرجحت المصابيح المطفأة كالنواسات على الأسلاك فوق الرؤوس، أما الوجوه التي صارت كلسية فقد همدت مرفوعة إلى السقف من غير حراك. ثم بدأ بريق دهني كدر يكسو تلك الوجوه المنتظرة برعب انفلاق جسم السقف الإسمنتي، المخترق بجذع حديدي مميت لقنبلة ثقيلة ساقطة من السماء.

أحس فلاديمير بشد كريه في معدته، انتابه في أثناء القصف عند المخاضة قرب موجايسك، لكن هذا كان أيضاً فضولاً جشعاً تجاه نفسه وتجاه تعبير أعين الآخرين، وتجاه انتظار الموت في جمهرة القبو ("لا، لا، لن يحدث الآن شيء خطير، يجب أن لا يحدث.") نظر إلى إيليا، وقد أضناه النفور من هذه الرائحة الحامضة الفائحة من ثياب الناس المتزاحمين الوسخة، ومن العرق الدهني على وجوههم ومن رائحة رعب ما قبل الموت، وصاح به وهو يشعر بالمرح من حزمه:

"-لنذهب وننظر في الشارع."

أجابه إيليا بنظرة جاهزة مستعدة للتنفيذ وهو يخرج بالشوكة قطعة طينة من كأس النبيذ، ثم عد بسرعة النقود من فئة الثلاثة روبلات، وبحث بعينيه عن النادل المسن غير أنه لم يجده، فدس النقود تحت حافلة الصحن المصطك الذي لم يؤكل الشواء فيه حتى النهاية، ونهض وهو يتكلم بصوت يتصنع البهلوانية الهزلية:

"-أيها المواطنون المحترمون. احتكاماً إلى نظرية الاحتمالات لن تقسط القنبلة هنا. أتموا التهام شوائكم بهدوء."

انطلقت في إثرهما من المناضد الأخيرة بضعة نداءات فزعة: "-هيه، إلى الوراء أيها الولدان." وحين فتحا باب القبو الثقيل وتخطيا العتبة اصطدما هنا على الفور، وقد أصابهما بالصمم دوي نيران المدافع المضادة للطائرات، وصوت إطلاق المدافع القريبة العجول، وقرع الرشاشات الثقيلة المخنوق، وأصوات الانفجارات الجوية المشدودة، برجل يرتدي معطفاً وعلى كمه شريط المناوب الأحمر، وكان يطل بنظره من تحت المظلة الحديدية رافعاً رأسه ومضيقاً عينيه كما لو أنه ينظر إلى نور مبهر.

صاح الرجل مكشراً عن أنيابه، ودفعهما نحو الباب: "-هيه... ممنوع. إلى أين؟ قفا هنا، ممنوع الذهاب إلى هناك، ممنوع. ألا تريان- يقصف المركز. تركوه يمر، السافل."

شاهدا من هنا، من تحت المظلة، جزءاً من الشارع وأشجار الحور العارية خلف الحاجز الحجري، وشاهدا فوق الأسطح جزء السماء المحفورة في كل مكان بثقوب في الغيوم سوداء وبيضاء كالثلج، وببريق كبريق النجوم متكرر، وبدا وكأن رذاذاً بارداً راح يتساقط في الأعالي مفجراً الأدخنة وراشاً نيراناً ممزقة، وكان كل ما أمكنت رؤيته في الأعلى من هنا مدروزاً في اتجاهات مختلفة بخطوط الرشاشات المضادة للطيران، التي تلاقت وتناثرت كمروحة يدوية، وتدافعت وتصالبت، وخطت نحو السماء متلمسة الهدف غير المرئي في مكان ما وسط النجوم المتساقطة والمذنبات. ابتعدت الخطوط المنقطة اللامتناهية عن الأرض مندفعة، واخترقت طبقات الغيوم الأولى، ثم سبحت بعد ذلك في الأعالي السماوية بنيران ياقوتية بطيئة، حتى صار محالاً إبعاد الأنظار عن هذه المخاريط النارية المتحركة في الأقاصي، وعن هذه الزينة الضوئية الشريرة وغير الطبيعية فوق المدينة. ومن هناك شق بصعوبة طريقه صوت غريب مغرغر، ومخمد بفرقعة الألعاب النارية الجنونية ورنينها وهديرها، وحمل في السماء ثقلاً حديدياً كبيراً، متميزاً بوجوده الخطر وسط تهلل مطر النجوم المجنون والمصم هذا ووسط ومضات النور المنقط السابح وراء الحدود. وعلى الرغم من أن هالة ليلكية شاحبة انتشرت من اليسار بين الأسطح البعيدة، وعلى الرغم من أن السماء كانت تحترق هناك، وتورم كل شيء في الأسفل بشدة، وتلون بلون أحمر ريان، فإن فلاديمير لم يشعر بالرعب الذي يقتلع الروح كما لو أنه كان مؤمناً بخلوده وخلود الناس، وأحس كيف سحره على نحو غريب هذا الجمال الشرير، الذي تبدى كسريان فوضى ضوئية وكانحناءاتها ونبضاتها.

أثار الدهشة أيضاً أنه في وقت متأخر على الجبهة، وبعد أن خبر الخسائر والمصادفة والخوف الدبق، كان يقف أحياناً في هدوء الليل، حين يتفقد الحرس، ووجهه نحو الهالة التي تملأ الأفق، وينظر إليها طويلاً كما ينظر إلى الغروب، وكان في تلك الهالة سلام وغبش هادئ ورائحة الأكاسيا...

في موسكو لم يعرف فلاديمير حينئذ ولم يخطر في باله من أين أتى هذا السلطان غير المرئي عليه- من أعماق الغرائز من هاوية الدفاع البيولوجي الذي لا يسمح قبل الأوان بفهم إمكان حدوث الكارثة الشخصية وموت الذات في الكارثة وموت الآخر، لكن إحساساً بزخم نيران المضادات المرح والموحي بالنصر في الوقت نفسه ملأه، فقال مهتاجاً لإيليا:

"-يا للمنظر الجميل. يا للشيطان."

قال إيليا على نحو غير محدد، وهو ينظر إلى الأعلى نحو المظلة الحديدية، التي راحت الشظايا المنهمرة تقرعها وتنقرها وتحفها: "-آها، كرنفال خريفي في حديقة الثقافة والراحة. انظر وحسب أية أشياء جميلة تنهمر من السماء." وتناول من على الدرجة شظية طويلة لقذيفة مضادة للطيران، قطعة معدن رمادي محززة، سقطت هناك، من على المظلة المائلة: "-هل تعلم يا فولودكا؟ لو أصاب هذا الشيء الساقط من عل رأسك لجندلك بكل حماقة. إليك ماذا ينتج: ينتج أنك تأذيت بشظيتك."

مس فلاديمير الشظية التي لم تكن قد فقدت دفأها بعد، والتي كانت حوافها حادة وتخز الأصابع، وتفحصها باهتمام شخص وجد ذرة من جسم فضائي، وقال على نحو لا يخلو من الأسف:

"-قذائف كثيرة، لكن لماذا لا تسقط ولو واحدة؟"

"-لا يخطر ببالك أيها الشاب ذو الهيئة المريحة ما معنى إسقاط اليونكرس..."

رمى المناوب عينيه إلى السماء من غير أن يكمل جملته، وكأنه يستمع بنظره مصلياً إلى الجنون الذي لا يهدأ فوق الرؤوس. أما هناك فقد سقطت عربة ترامواي من مكان ما من الدهاليز الجوية غير المرئية ومن متاهات الأعالي، واندفعت شاقولية نحو الأرض بأقصى سرعتها، وراحت تهبط وتهبط على سكة زاعقة زعيقاً جنونياً، ومخترقةً الهواء بحدة ومصدرة زعيقاً وصريراً وصوت عويل جسم حديدي هائل، حتى ثقب الآذان ألم حار حاد من هذا الصوت الوحشي الذي غطى الأرض.

انقطعت السكة الشاقولية فوق الأسطح- اندفعت عربة الترامواي متشقلبة نحو الأرض من غير صرير عجلاتها على السكة. وصل الزعيق الحديدي حد الجنون، بعدئذ

ارتطم ذلك الشيء الهائل والثقيل بالأرض على نحو أصم، ورج بأرجحة محسوسة الأرض الإسمنتية تحت مظلة القبو، وهز هدير الإعصار خلف الأبنية الشارع كالزلزال. أعمى الانفجار الأبصار بإعصار ناري ورن الزجاج في الجوار وتحطم، ورفعت الريح في الجو أوراق الأشجار الصفيحية وكتل أوراق الإعلانات ومزق الصحف عن قارعة الطريق- فاح المكان بدفء حديدي جوفي كما لو أن الأرض انشقت حول أربات.

ورأى فلاديمير، الذي رماه ارتجاج الأرض الشديد نحو الدرجات، هولاً قاحلاً في نظرة المناوب المصعوقة، ورأى وجه إيليا الغاضب والشاحب والموجه نحو جدار البناء المجاور، الذي تصدع على نحو مائل وقطعه خط التشقق المنكسر كاشفاً خلف طينة الواجهة عن الجوف الأحمر للطوب، وقد راح الغبار ينهمر منه كالشلال.

قال إيليا بصوت عالٍ، ونظر إلى فلاديمير بعينين لا تضحكان: "-أصابه. لو سقطت هنا لما بقي منا سوى الغبار..."

"- لم تسقط هنا."

نطق فلاديمير هذه الكلمة عنوة، وفي نيته أن يرد على إيليا بنبرة غير قلقة، لكن، وفي لحظة، اختفى الاهتياج من المنظر المتشكل بنيران المضادات، التي لم تمنع الطائرة الألمانية من أن ترمي على مركز المدينة شيئاً ما هائلاً ومريعاً انتشر كالزلزال في الشوارع المجاورة كلها.

قال إيليا، وشتم: "- هل سيسقطون هذا السافل أم لا؟ أين يصوب أولئك المساطيل؟"

أخبرهما المناوب هامساً، وقد راح ذقنه يقفز، ولم تكن نظرته تخفي تصلب الرعب فيها، أما الهالة خلف الأسطح فاتسعت وكبرت، وراحت الغيوم المثقلة تغلي محمرة وقد أججتها من الأسفل نار حريق كبير:

"-رمى قذيفة تزن طناً. صوّب نحو الكريملين لكنها انحرفت يساراً.. أصاب بناءً سكنياً."

قال فلاديمير ناقماً: "- هل يعقل أن لا يسقطوه؟ ما هذا؟"

أما السماء فأرعدت كالسابق وبرقت بالشظايا على نحو رهيب، وراحت الخطوط

تخترقها والطلقات تدرزها، وكانت ممزقة كلها بالمعدن الهادر، الذي بدا الخروج من خلله مستحيلاً، لكن هدير القاذفة المغرغر، الذي يصعب إدراكه راح يبتعد متحرراً، وينسل بهدوء في هذا الكيس السماوي الحديدي المتوهج.

فيما بعد طارد فلاديمير زمناً طويلاً التصور الواضح لهذا الكيس السماوي المليء من الأرض وحتى السمت بطوابير طلقات الرشاشات وشظايا القذائف التي ابتعدت في ازدحامها غرغرة الطائرة المنيعة.

... عند الغسق عرجا على ماشا سيرغييفنا.

كان واضحاً من غرفة الدخول أن الفوضى التامة سادت المنزل، وكأنهم راحوا يحضرون أنفسهم للسفر طوال النهار من غير أن يستطيعوا ذلك. ربما لهذا السبب عدّ إيليا من الضروري أن يقول عند العتبة إنهما "اقتحما المكان من غير دعوة". بيد أن ماشا ضمت راحتيها أمام ذقنها ضاحكة، كما لو أنها تشكر الله على اللقاء المفرح غير المتوقع، وهتفت: "-كم أنا سعيدة بكما أيها الولدان. لا يمكنكما، ببساطة، أن تتصورا." ثم قبلت وجنتيهما، كلاً بدوره، بشفتيها اللتين فاحت منهما رائحة شيء ما حلو، وقادتهما إلى الغرفة غير المرتبة وهي تقول مسرورة:

"- اسمعوا، يا لحسن ما سارت عليه الأمور. تعرفا من فضلكما- هذا إيليا وفلاديمير، صديقاي، وأرجو أن تحباهما أيها الخال إدوارد وأنت يا فسيفولود. انظري يا ماما من جاءنا. لقد كانا عند الخنادق".

رد النقيب النحيل هازئاً، وكان متوسط السن مرتدياً قميصه العسكري من غير الحزام:

"- مسرور جداً، للغاية، على كافة الأصعدة. سعيد على نحو فائق، بكل المعاني." وأحنى من جديد رأسه ذا الشعر الممشط على صلعته، فوق الحقيبة المفتوحة على المنضدة، وانشغل بتعبئة الأشياء والحاجيات المنثورة في كل مكان في الغرفة. تكلم بإلحاح متابعاً على الأرجح الحديث المقطوع من غير أن يعير أي انتباه لإيليا وفلاديمير: "- عليك أن تفكري الآن يا تامارا، لأن الوقت غداً سيكون متأخراً. نعم، أن تفكري

وتقرري يا غاليتي. أنت الآن في حال ما من التردد السرنمي[1]..."

استلقت أم ماشا، تامارا أركادييفنا الممثلة، على الأريكة متدثرة بمعطف من الفرو الأبيض فوق البطانية الصوفية، وراحت تقرأ مجلد كوبرين السميك مسندة ذقنها، ولافة عنقها بشال أورنبورغي موبر، كما لو أنها مريضة بالتهاب اللوزتين (كانت ثمة مساحيق وزجاجة عليها لصاقة صيدلانية على الخزانة الصغيرة قرب رأسها) وقد بهت وجهها الدقيق ذو العينين الشبيهتين بعيني حورية، واللتين كان فلاديمير يخاف النظر إليهما حين يلتقيها في الطريق، وأصابه الهزال، وبدت الظلال الزرقاء، التي برزت تحت رمشيها البطيئين، قاتمة وموحية بالمرض. ابتسمت تارمارا أركادييفنا لهما مرحبة، ونظرت مستفهمة إلى ماشا، ثم حل من جديد هم حزين على عينيها المصوبتين نحو الكتاب. جلس متقوساً هناك أيضاً عند طرف الأريكة فتى هزيل لا يعرفانه، وقد لفت النظر بركبتيه الحادتين واكتئاب جفنيه الغامزين، ففكر فلاديمير: "ومن هذه البثرة أيضاً- فسيفولود؟"

تابع النقيب النحيل، الذي سمته ماشا إدوارد أركادييفيتش حديثه، وهو يضع في الحقيبة على سبيل الاحتياط ألبسة داخلية وعلب قهوة وألواح شوكولا وكاكاو مع الحليب المكثف، وكانت هذه الأشياء قبل الحرب ثروة كاملة تلمع ببطاقاتها الآسرة: "- نعم، يا حلوتي الذهبية، يا شقيقتي الحسناء غير المنظورة، سيفوت الأوان بعد غد. أن أطير غداً صباحاً إلى يوغسلافيا فهذا ليس هرباً يا تاماروتشكا وليس جلاءً، بل توافق ظروف مفرح، وأنا سعيد لأنني سأصور نشاط الأنصار حتى اللحظة "ن". حتى اللحظة "ن"، هل تفهمين يا أختاه؟"

سألته تامارا أركادييفنا من غير أن تتحول عن الكتاب، وقد لازمت التجعيدة ما بين حاجبيها الأملسين: "- وما معنى اللحظة "ن"؟ هل تظن فعلاً؟..."

"- أظن يا ذهبيتي أن كل فرد الآن... في هذه الأيام يقرر مصيره... في الواقع- نحن أمام معضلة مأساوية ثنائية الوجه.."

قالت ماشا في هذه اللحظة:

---

[1] *السرنمة هي مرض السير في أثناء النوم (المعرب).*

"- لن نسمع الجدالات الشؤمية. منذ أمس والقيامة قائمة في المنزل وكأن الألمان دخلوا موسكو، أما أنا فلا أصدق، لا أصدق، لا أصدق. لا بل من المضحك سماع هذه المعضلات المأساوية ثنائية الوجه. الأفضل أن نقضي على شوكولا خالي. تحدثا، تحدثا من فضلكما. كيف أنتما؟"

تناولت عن المنضدة في أثناء سيرها لوح الشوكولا المفضوض والمغلف بالفضة الرقيقة الفاخرة، وقادتهما إلى منضدة الكتب قرب السرير المغطى بغطاء من المخمل- إلى الركن الخاص بها من هذه الغرفة الكبيرة ذات السقف المزركش، فأجلستهما على الأريكتين، وجلست هي على السرير قبالتهما، وصارت، وهي عابسة بمرح، تكسر لوح الشوكولا إلى أقسام متساوية مخشخشة بغلافه الفضي.

همست مشيرة بعينيها الرماديتين الضاحكتين إلى إدوارد أركادييفيتش، الذي راح يرص الأشياء في الحقيبة برشاقة: "- خالي صغير طيب. سيرسلونه مع البرنامج الإخباري إلى يوغسلافيا. المهم أنهم أعطوه تعييناً ملوكياً من النواشف. هاكما. امسكا وكلا حتى النهاية. ليكن في معلومكما- "البطاقة الذهبية". هل تذكران كيف استلقت هذه الألواح كمروحة يدوية خلابة في واجهة حانوت الحلويات على شارع سيربوخوف؟ أما الآن فطارت.. لا أثر لها... حسناً، متى رجعتما؟ أمس؟ اليوم؟ متى؟ تكلما..."

أجاب إيليا: "- ليلاً. وكما ترين بصحة تامة، وقررنا أن نزورك."

"- أيها العزيزان، كم أنا سعيدة بالنظر إليكما. صار وجهاكما فظين نوعاً ما وبنيين مثل وجوه الجنود..."

صفرت، ودست في يد كل منهما قطعة من اللوح المكسور، فشعر فلاديمير برائحة الشوكولا الدافئة الممزوجة بالرائحة الحلوة المنبعثة من صدرية ماشا الفرائية حين انحنت نحوهما، ناشرة بابتسامتها نوراً مشاكساً تآمرياً، وتذكر أمسية كانونية من أمسيات ما قبل الحرب، والصقيع العاصف في الشارع، والمدفأة الهولندية غير المشتعلة، وهدوء هذه الغرفة الشتوي، حيث استلقيا شاعرين بخدر مدير للرأس على السجادة وقد فاحت منها رائحة الغبار والعطور (كانت السجادة مفروشة في الغرفة الآن أيضاً)، ثم تذكر متسمراً الإحساس بشفتيها المرنتين الرقيقتين- فهزته إبر

القشعريرة الخشنة من داخله. لم يستطع نسيان أي شيء من تلك الأمسية السعيدة، التي حدثت منذ عامين، أما هي، وكأنها لا تذكر شيئاً، فلم يكن في نظرتها وفي صوتها وفي ابتسامتها ولو طيف خفيف لذلك التقارب الطفولي العصي على الفهم بينهما، والذي لم تدعه من بعده ولو مرة واحدة إلى منزلها.

قال فلاديمير: "- لا أحب الشوكولا." وكان يحاول التغلب على المقاومة التي لا سبب لها لكل ما فعلته ماشا أو ما كان في مقدورها أن تفعله الآن، وقد فكر: لهذا السبب كانت شفتاها حلوتين حين قبلت وجنتيهما، ثم أكمل حديثه بفظاظة متعمدة: "- لا أفهم كيف يمكن تناول هذه التفاهة المفرطة في الحلاوة."

قال إيليا بتفوق مازح: "- أما أنا فأحبها. هاتها إلى هنا." وانتزع مازحاً من فلاديمير حصته، ثم ضم القطعتين معاً وقضمهما بشهية وتلذذ جعلا ماشا تضحك، وتغطي أذنيها بيديها وهي تقول بصوتها الممطوط:

"- أوي. لا تحرج الحسناوات أيها الحوذي المسكين من الحانة البطرسبورغية من القرن التاسع عشر. كف عن التحامق (واتخذ إيليا على الفور هيئة حسناء متدللة، وصار يمضغ بحذر ضاماً شفتيه على نحو مقزز ونزوي) كف عن هذا، كف حالاً وإلا رغبت في البكاء لا في الضحك. (نظرت إلى إدوارد أركادييفيتش وأمها، وبرقت عيناها توسلاً) احكيا لي من فضلكما ماذا رأيتما هناك؟ هل شاهدتما ولو ألمانياً حياً واحداً؟ يقولون إنهم... لا، انتظر يا ايليوشا... أعطني المشط. هل لديك؟ كم نما شعراكما عند الخنادق. مثل سكان الأدغال. النظر إليكما مرعب. هات المشط حالاً."

بحث إيليا في جيوبه متهاوناً، ومنصاعاً للعبة الجديدة غير جاد طبعاً، ثم قدم المشط لها بعد أن نفخ عليه بلباقة مبالغ فيها، واستمر في التعبير عن الطاعة، أما هي فقفزت عن السرير واقتربت منه حتى التصقت به وهو جالس على الأريكة، وبدأت تمشط ببطء شعره الأسود إلى الخلف. نظر إيليا الصاغر على نحو مصطنع والمبتسم من غير حراك إلى الزر الذهبي (أمام وجهه تماماً) على صدريتها، التي نشرت رائحة الفرو الجديد الزكية، وكان في حرية ماشا غير المعهودة هذه، وفي وقوفها وهي تمس تقريباً بركبتها إيليا القادر على أن يقبل تحت صدريتها غير المزررة كنزتها، التي فاحت

برائحتها، عذابٌ مسكرٌ ما وعيب مخادع كما في ذلك الحلم المفرح، الذي رآه فلاديمير مرة في أمسية كانونية قبل رأس السنة. لم يعرف إيليا، كما بدا، هذا الشعور، فكان يعبث بهدوء مع ماشا، من غير أن يبذل أية جهود، كما يفعل دائماً، ليستحوذ على رضاها- لم تعد تهمه منذ فترة "السو-سو، والكو-كو البريئة على مقعد حديقة المدرسة"- وكان مفهوماً أنه لم يستطع أن يعرف أمر تلك الأمسية الشتوية في هذه الغرفة الهادئة، حين حاولت هي، ماشا، أن تجسد على نحو رائع دور امرأة طائشة من مخيلتها، أما هو، فلاديمير، المصعوق من الشعور بالرقة نحوها، والغارق في ضباب حار فقبّل برودة نهدها الصغير المخملية.

سمع صوت ماشا: "- هكذا أفضل على نحو ما. بدأت أعرفك الآن." ورأى كيف اتحد صفاء عينيها المشع لحظة واحدة مع السخرية المتهاونة في نظرة إيليا، ثم التفتت نحو فلاديمير ومست شعره باصبعها: "- وأنت؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟"

-أنا؟ لا أنظر. "وأزاح رأسه، ولكي يبرر حدة كلماته اللاإرادية قال غاضباً: "- لا أحب أن يمشط أحد شعري مثل قطة ما."

استلقى إيليا على الأريكة، وراح يتفحص الغرفة من غير حياء. كان يحسن التأقلم سريعاً، ويتمتع بمقدرة تثير الحسد على تخطي العوائق والمنغصات في أي ظرف:

"- إن كنت أشبه القطة فإن دقة ملاحظتك هائلة. ماشا، لقد تسكعنا منذ الصباح في موسكو، وعرجنا كي نتحقق إن كنت قد رحلت. الفناء خاوٍ كله. انسل الجميع إلى الجلاء. ألن تسافري؟"

جلست ماشا على السرير وهي تلف نفسها بالصدرية الواسعة عليها، وقالت: "- لا أعرف، لا أعرف شيئاً. إذا كنا سنسافر فمع أمي حين ستتعافى. لن نتحدث عن هذا. لا أريد، لا أريد. الأفضل أن تقولا لي أيها الولدان ما هذا الذي يحدث في ضواحي موسكو؟ أيعقل أن كل شيء مرعب هناك؟"

مررت ذقنها على فراء الصدرية بانتظار الجواب، وظن فلاديمير أن شفتيها تجمدتا برداً، وتخيل مرونتهما الكرزية الباردة، وشعر مع قشعريرة داخلية برنة صوتها، وقرْبِ وجهها وركبتيها المائلتين إلى السمنة الآن، والمشدودتين بالجوربين الصوفيين المتينين،

وهب عليه نسيم الفرح النافذ، الذي يحبس الأنفاس كلما رآها، لكن كان لهذا النسيم الشبيه بانتظار العيد وكذلك للإحساس بوقوع الكارثة سلطان كبير عليه، حتى أنهما بدلا فيه حالاً شيئاً ما، وجعلاه حاداً وفظاً على الرغم منه.

صار إيليا يروي نصف جاد عن حفر الخنادق قرب موجايسك، وكيف راحوا مرة ليلاً، وقد تسلحوا بالمجارف، يحاولون، من غير أن ينجحوا، التقاط المخربين الألمان، الذين رمتهم الطائرة في الحقل، وكيف أنهضوهم جميعاً قبل أسبوع بعد أن التفّت حولهم الدبابات من اليمين واليسار، وكيف خرجوا من الحصار نحو موسكو عبر الغابات مع بقايا فوج رماة مدحور..

تكلم إدوارد أركاديفيتش ممسداً جبينه المتعرق: "- يا أيها الهراقلة، يا أيها الاسكندريون المقدونيون، يا أبطال هذا الزمان الهائلين." ومال بحدة عن الحقيبة غير المرتبة نحو المنضدة، وملأ قدحاً بالكونياك، ودحرج متعذباً عينيه الجاحظتين نحو السقف، وشرب، وقال مرة أخرى: "- هراقلة هائلون." وشرع من جديد يمسد جبينه متألماً ويدحرج عينيه متعباً، ويسير في الغرفة من المنضدة نحو الأريكة حيث راحت تامارا أركاديفنا تقرأ مهمومة حزينة، وقد تدثرت بالبطانية والمعطف الفرائي، ثم تكلم فجاءة بلهجة لاذعة متجهمة وهو يلثغ بعض الشيء متصنعاً: "- قصتك الهائلة أيها الشاب تهز أعماق النفس. يا لفترة الطفولة والشباب البديعة. في الأمام طبعاً حياتان سعيدتان، أما الشباب والصحة فخالدان. الأصدقاء كلهم جميلون ونبلاء وخالدون، أما الأعداء فمعوجو السيقان والخطم وعاجزون. كم رغبت وكم حلمت أن أعيش يوماً واحداً، ساعة واحدة، بضع دقائق في حال الطفولة العزيزة هذه والهائلة تماماً. في جنة الكلمات الزرقاء واللازوردية هذه. يا للفترة السعيدة حين كل شيء في الدنيا- أيتها الراحات، أيتها الراحات، أين كنت- لدى الجدة[1]. هل تسمعين يا تاماروتشكا[2] العزيزة؟ حقاً لا أريد الوجود في حال التفكير الناضج والمتعقل والعملي، بل أريد الطفولة. اغفر لي يا ربي أحلامي العبثية، يا أيتها الفترة العزيزة، سحر العيون[3]. أظن

---

[1] يردد مقطعاً من حكاية أطفال شعبية روسية (المعرب).

[2] تاماروتشكا هي تصغير اسم تامارا (المعرب).

[3] يردد مطلع قصيدة مشهورة لبوشكين (المعرب).

أن بوشكين قالها هكذا أيها الفتيان القرعان؟"

قال فلاديمير وقد احمر متكدراً: "- أنت مخطئ. لم يقلها بوشكين هكذا." الفترة الخريفية سحر العيون"، و... أي "فتيان قرعان، نحن أيضاً؟"

تدخل إيليا لمساندة فلاديمير: "- لقد أبدعت خصوصاً فيما يتعلق بالأحلام الزرقاء اللازوردية، وفيما يتعلق بالراحات وبوشكين."

صاحت ماشا منزعجة: "- لماذا تستمع إلى حديثنا يا خالي؟ لا بل إنه أمر غريب، يا للخجل، ليس من عادتك أبداً، و... ببساطة، ببساطة لم تتصرف هكذا؟"

رفع إدوارد أركادييفيتش يديه نحو السقف المزركش وهو يهزهما كما لو أنه يستسلم للأسر من غير مقاومة:

"- سامحيني، سامحيني يا ابنة قيصر قوم القيرغيزكايساتسكيين، يا شبيهة الآلهة. لقد سمعت حديثكم مصادفة. ليكن في معلومك أنني حمار هائل، فأذناي يا عزيزتي ليستا أميتين." واتجه بحيوية نحو المنضدة، وتناول زجاجة الكونياك، لكنه، وقبل أن يصب لنفسه، صوَّب عينيه الجاحظتين باتجاه إيليا وفلاديمير متريثاً تريثاً ساخراً: "- ألا ترغبان أيها الفتيان في أن نقرع أقداح الكونياك الأرمني غير الرديء أبداً؟ اعذراني، فرأسي يتحطم لليوم الثاني، والكونياك مفيد أحياناً. أتريدان؟ آ، لا، أفهم، الوقت مبكر، الوقت مبكر. سيئين الأوان، وستجربان كل شيء. ستجترعان مرارة المعرفة، والحزن العظيم، وستفكران في أثناء الأسى الكبير بوجودكما. أوه، يا للروعة، رائحة الشمس." أنّ، وراح يفرغ القدح بجرعات صغيرة متذوقة، ويقضم قطعة شوكولا باستمتاع، وقد ظل يسير طوال الوقت في الغرفة بقميصه العسكري من غير الحزام، ثم قال وهو يتحسس سريعاً بأصابعه المرنة كما لو أنه يتحقق إن كان ألم الرأس قد فارقه أخيراً: "- نعم، بالمناسبة، فيما يخص الماضي والحاضر. أين هو صباح ما قبل الحرب، الماضي، العزيز، الصافي؟ الماضي- مجاز. الحاضر- معتم، متجهم، مأساوي في عصيانه على الفهم. المستقبل خلف سبعة أبواب. أوه، يا للشيطان. الرأس ينفجر. لا البيراميدون ولا الكونياك يفيدان على الرغم من أنني كنت متماسكاً كرجال الإطفاء ولم أشرب أمس. لم أشرب. الأرجح أن الأمر عصبي تماماً، نسائي، فرويدي. لا

أستطيع، لا أملك القوة كي أنسى يا تامارا حديثي الصباحي مع أحد أصدقائي. عرجت عليه في طريقي من الستوديو. تخيلي اللوحة: منذ وقت قريب كان أنيق الملبس وممتعاً ونظيفاً، أما الآن فغير حليق ووسخ وينتعل جزمة لبد طويلة، ويجلس في أريكة قرب المدفأة ويحرق أوراقاً وصوراً ما. أما العينان- فملتهبتان، مجنونتان، ويتمتم بكلمة واحدة فقط: "كذب، كذب..." سخافة هائلة، مشهد من دوستويفسكي. عفاريت. وأما ابنه الطالب في معهد الطيران، والأعرج منذ الصغر بعد شلل الأطفال، وهو ولد ذكي ووسيم، فقد راح يمزق الأوراق أيضاً قرب المدفأة الهولندية، ولم تكن هيئة الاثنين، لو تدرين، مرعبة بل وحشية. سألته: "ماذا يا جينيتشكا[1]، هل سترحل إلى ألما آتا أم ستبقى يا عزيزي؟" أما هو فضحك ضحكاً جنونياً نوعاً ما، هستيرياً، لو تدرين، وقال: "ناوبت اليوم ليلاً بدوري، ورأيت جيداً، جيداً جداً كيف لغموا الجسر على نهر موسكو. وقفت الشاحنة عند البوابة، وكانت مليئة بصناديق المتفجرات. هذا معناه أنهم لغموا الجسور كلها تماماً، وليست الجسور وحدها. إنهم يحرقون الأراشيف في لوبيانكا[2] وفي المركز. هذا معناه أننا خسرنا الحرب، وأن موسكو قد قضي عليها." وقال: "ما يخصني، فاعذرني، لأنني لا أصدق شيئاً إطلاقاً. محال توحيد القطيع البشري، كل يقتطع لنفسه قطعة. قميص المرء أقرب إلى جسده. رموا للفقراء شعاراً: "اضربوا الأغنياء، انزعوا الملكيات، خذوا ما لديهم." فأخذوا ونزعوا واقتسموا، فهل صارت الحال أفضل؟" ثم أعلن لي: "قررنا، أنا وابني، أن نبقى. لست حزبياً، أما ميشا[3] فكومسمولي، حسناً، لكل زمن أغنية. سيدفن ميشا بطاقته الكومسمولية وسيعمل بهدوء. "لو تدرين، راح ميشينكا الأعرج والكسيح يومئ برأسه موافقاً: "نعم، سأدفنها وسأعمل بهدوء. أنا معاق ولا أحد يحتاج إلي..." جنون هائل، كابوس من كوابيس قيام الساعة. لا أستطيع يا تامارا أن أقتلع هذا الحديث مع جينيا من رأسي، لست قادراً على أن أتخيل كيف حزم أمره. أمر يبعث على الجنون. مع أن..." مسد إدوارد أركاديفيتش صدغيه مشعثاً شعره المشط من الجانبين على صلعته،

[1] جينيتشكا وجينيا تصغيران لاسم يفغيني (المعرب).
[2] المقصود مبنى مديرية الأمن والمخابرات.
[3] ميشا وميشينكا تصغيران لاسم ميخائيل (المعرب).

وصـمت، وراح ينظـر بعينـين جـاحظتين رمـاديتين حـزينتين إلى الفضـاء فـوق رأس شقيقته، التي تحولت عن الكتاب ونظرت إليه نظرة ضعيفة، راجية إياه أن لا يمس المحظورات وما لا يجب أن يسمعه الغرباء. أما إدوارد أركادييفيتش فتابع حديثه غارقاً في حال من العزلة المشتتة: "- مع أن الأوضاع على أعلى درجة من المأساوية." قال ذلك وأدار لها ظهره: "- غير مفهوم. غير معقول. أمر لا يدركه العقل. أعلنوا في السادس عشر من تشرين الأول أن الألمان اخترقوا الجبهة، وبدأ الهلع. الألمان قريبون- فكروا فقط. أخذوا كالوغا، إنهم في البيوت الريفية في ضواحي موسكو... الجنود الألمان يجلسون في قطارات الضواحي ويستبدلون أحذيتهم- صور هائلة. لكن هذا محال، محال. أما في موسكو فيجري ما يسمى آخر جلاء. إنهم يخرجون المصانع. الشعب يركض حاملاً الصرر نحو طريق غوركي السريعة. بدأ النهب، أعوذ بالله، على الرغم من أن أوامر الجنرال سينيلوف معلقة عند كل ركن. يرمون بالرصاص في الأفنية مباشرة العملاء واللصوص، أما الألمان فيهجمون. في مقدورهم أن يكونوا في موسكو غداً، غداً. لا أحد يضمن شيئاً. غداً؟... أم بعد غد؟... كابوس هائل. ما الذي حصل؟ وكيف حصل؟ من يعطي جواباً؟ "صاح إدوارد أركادييفيتش بصوت محبط، ورفع يديه نحو السقف على نحو موح: "- كن مستعداً للعمل والدفاع. أبْعَدَ من الجميع، أعلى من الجميع، أسرع من الجميع. كم قيل من الكلمات الهائلة، فماذا حصل؟ الألمان عند القناة، عند سد ايسترينسك. قرب خيمكي. هل تستطيعين أن تجيبي يا تامارا العزيزة؟ هل تستطيعين أن تشرحي- بأي شكل؟ أم في مقدوركم أيها الكومسموليون الفتيان أن تجيبوا بشيء ما؟ كيف؟ بأي شكل؟"

قالت تامارا أركادييفنا بصوت منخفض مزكوم، وهي تصحح مضطربة وضع الشال الأورينبورغي الموبر على عنقها: "- أظن أنك لست في حاجة إلى طرح المزيد من الأسئلة. لا تقحم الأولاد في هذا كرمى لله، فهم ليسوا مذنبين."

ضم أصابعه الثلاثة وضغطها على جبينه، ثم أبعدها وفتحها في الهواء: "- افهمي، افهمي. لا ينبغي عليك، ولا على ماشا، أن تبطآ. لا ينبغي البقاء هنا. هذا جنو-ون لا يمكن شرحه. التهاب اللوزتين ومصيرك- أليس مضحكاً؟ أرغمي نفسك يا أختاه العجيبة. أن تبقى امرأتان في الجوع والبرد والمجهول، ولو أسبوعاً من غير موارد

جدية... وحدهما في بناء فارغ تقريباً- فهذا ليس مخاطرة وحسب، وإنما انتحار على أقل تقدير. تصوري ما هو أسوأ. لم تستطيعا الرحيل، وحلت الكارثة على موسكو. بأية موارد ستعيشان- ستبيعان الخواتم والأقراط وسقط المتاع والخرق؟ كم ستكفيكما؟ وبعد؟ ستعرضان نفسيكما على رصيف شارع أربات؟

سامحيني، سامحيني. إنني مهتاج طبعاً، لكن الجوهر يكمن، على هذا النحو أو ذاك، في شيء واحد. الإصابة الآن بالتهاب اللوزتين في موسكو ترف لا يمكن السماح به. يجب الرحيل إلى طشقند يا أختاه الذهبية. عليك اللحاق بالمسرح، أن تسافري غداً فوراً، غداً، السفر."

قالت ماشا بهدوء، وهي لا زالت تلف نفسها في صدريتها الفرائية، وكأنها تشعر ببرد شديد: "- لا أفهم يا خالي. تتحدث كما لو أن الفاشيين سيدخلون موسكو غداً... غداً. أيعقل أنك تفكر على هذا النحو؟ هل سيدخلون؟"

هتف إدوارد أركادييفيتش مندهشاً: "- ماشا، يا ابنة أختي العزيزة الغالية. لا يعرف هذا إلا الرب الإله. ولن يقول أحد أو يخبر مسبقاً، يا للأسف، حتى لو حاصرت الدبابات الألمانية موسكو وقطعت الطرق. لكن الدلائل كلها تشير إلى أن الوضع فائق الجدية على نحو لم تعرفه ذاكرتنا بعد. نعم يا ماشينكا، يا مخلوقتي الفتية الساحرة. سنك يعني التفاؤل الذي لا يتزعزع، لكن أن يكون المرء متغافلاً في مثل هذه الأيام فهذه خفة عقل شبيهة بالموت... هل تفهمين يا ماشينكا ما معنى أن تظل امرأتان في مدينة قد تنشب فيها حرب شوارع. ستذهبان إلى المتاريس مثل جان دارك؟ الممثلة وابنتها- الجنديتان الشجاعتان..."

انبعثت من كلمات إدوارد أركادييفيتش وحيوية أصابعه، التي كان يمسح بها جبينه العالي تارة، وتارة يطقطقها بعصبية فترات طويلة ويداه خلف ظهره، ومن صوته، الذي بدا وكأنه يرش حوله إبراً سامة، حدة الخطر الخانقة، واحتدم النفور منه في داخل فلاديمير كنار حارقة. استمع إيليا بانتباه شديد إلى إدوارد أركادييفيتش مضيقاً عينيه، ومن غير أن يدع كلمة تفوته، وكان فمه مضموماً بصبر وكأنهم يدعونه إلى عراك لا ينبغي قبوله فوراً، غير أن فلاديمير لم يحتمل:

"- إنك تجبن ببساطة..."

(أوه، ما كان سيقول هذا بعد سنوات عديدة، لكن حينئذ، في فترة تشرين الأول من عام واحد وأربعين، كان الصفاء الصادق، وإيمان الشباب الساذج بعدالة عالم الإنسان ونقائه، هذا الإيمان الذي أشعل بعدئذ مواقد إحراق الذات أربعة أعوام.)

انحنى إدوارد أركادييفيتش وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة، كاشفاً عن تسريحته البارعة على صلعته المبكرة، وتابع حديثه على نحو مسالم: "- أشكرك أيها الشاب، أشكرك. أنا جبان؟ ممتاز، رائع. في مثل سنك يا صديقي اعتبرت جميع من هم في سني الحالي بغالاً مسنة لا يفهمون في الحياة شيئاً. كانت هذه الكلمة على الموضة حينئذ. حسناً، أتعاطف معك تماماً وأشاركك استياءك النبيل مشاركة تامة." قام بانحناءة أخرى تجاه فلاديمير وهو يشع بالعرفان الساخر، بعدئذ وقف عند رأس تامارا أركادييفنا، وشرع يتحدث بلهجة حماسية مقنعة: "- لكن مهما بدوت جباناً أمام البطلين الشابين فإنني ألح يا أختاه على رحيلك مع ماشا في قطار الصباح. أتوسل إليك أن تجهزي نفسك اليوم. آ، هاتي، هاتي من فضلك. سأنظر بنفسي. إنك تقيسين الحرارة بغير نهاية." انتزع باندفاع ميزان الحرارة منها، ونظر إليه مرتين غير واثق، ثم هزه وتكلم وهو يضم كتفيه محتاراً: "- يا عزيزتي، لا أعرف ماذا أفعل- سبع وثلاثون وتسعة. لكن عليك أن ترغمي نفسك، أن تتماسكي، أن تقسريها على اتخاذ القرار أخيراً. افهمي، لن يكون ممكناً تصحيح هذا..."

نهضت تامارا أركادييفنا على مرفقها، وانثنى حاجباها بحزن، وقالت وهي تتنهد شاكيةً: "- افهمني أنت أيضاً. إنني خائفة... أريد السفر لكنني لا أستطيع. أنهكتني الحرارة المرتفعة طوال الأسبوع. إنني خائرة القوى ببساطة. سأموت في الطريق في مكان ما. هل تريد أن يدفنوني في مقبرة قروية ما؟.. لا تكفيني القوة يا إدوارد..."

صاح إدوارد أركادييفيتش مفرجاً بين أصابعه المتحركة، وهازاً إياها: "- هائل. جميل... والأولاد؟ هذه قلة عقل، جنون. البقاء مع الأولاد على حافة الهاوية... ماذا بشأن فسيفولود؟ ماذا بشأن ماشا؟ هل فكرت بمصيرهما؟"

ضغط فسيفولود، الحدث ذو الوجه الكئيب كثير البثور، الذي ظل الوقت كله

صامتاً ومتقوساً عند قدمي تامارا أركادييفنا، واستمع الوقت كله بوجل إلى حديث إدواردأركادييفيتش المتواصل والمشبع بالقلق المالح، قبضتيه على خديه فجاءة، وبدأ يخور بصوت غليظ أصم فتي، ويرتجف متشنجاً، وينحني متأرجحاً إلى الأسفل نحو ركبتيه، كما لو أنهم يلوونه من الخلف من رقبته، ثم راح يكرر هامساً: "- كيف ستكون حالي؟ إلى أين سأذهب؟" ورأى فلاديمير هنا كيف تشوه وجه ماشا الشاحب بتصعيرة اشمئزاز، ورن صوتها باستياء:

"- كفى من فضلك يا فسيفولود. مظهرك مخجل وأنت تتحول إلى امرأة. وأنت يا خالي، كف عن تعذيبنا. لن نذهب إلى أي مكان ما لم تشفَ ماما، إلى أي مكان. لقد اختلقت شيئاً مخيفاً. سنظل حالياً هنا، وسيبقى فسيفولود معنا، والآن اصمت وإلا سأزعق ولن أدعك تتكلم. هكذا، هل تسمعني؟"

زعقت على نحو يائس ومؤثر، ثم ضحكت عنوة، وقفزت على عجل، وجلست على الأريكة قرب أمها، واحتضنتها من كتفها مدافعة عنها ومهدئة إياها، وقبلت شعرها (أغمضت تامارا أركادييفنا عينيها ونشجت، واستدارت نحو الجدار)، وفكر فلاديمير أن وجوده مع إيليا هنا صار من غير معنى، وأنهما ضيفان قدما في وقت غير مناسب، ولكي يتخلص من إحراج الجدال الذي جرى أمامهما، ولكي لا يسمع مرة أخرى زعيق ماشا اليائس، الذي لا زال يطن في الآذان، قال لإيليا بغير تكليف مفرط:

"- تحية أم ماذا؟"

كانت هذه الجملة معروفة في المدرسة، وترمز إلى الوداع الاضطراري في الظروف الخاصة، فوقف إيليا بعد أن فهم، وقل بنبرة حاسمة:

"- قرأنا اليوم في أمر قائد مدينة موسكو: يرمى المخربون ومثيرو الذعر بالرصاص في أمكنتهم. ألست منهم؟"

أحرق بنظرته إدوارد أركادييفيتش، وضرب من غير اكتراث طرف المنضدة وهو متجه نحو الباب بحافة يده كما لو أنه يستعرض في الاستراحة في المدرسة حركة جيدو، فرنت زجاجات الكونياك التي أحاطت بها علب الكونسروة، ثم قال بتبجيل لتامارا أركادييفنا، وقد نظرت إليه مذهولة:

"- سامحينا، جئنا إلى ماشا ولم نعلم أن لديكم حديثاً أسروياً صاخباً."

سألته تامارا أركادييفنا هامسة: "- ماذا، ماذا؟ لماذا "صاخب"؟ لماذا "أسروي"؟ عم تتحدث يا إيليا؟ إنك تسلك سلوكاً غير مهذب وفظاً..."

تكلم إدوارد أركادييفيتش بخوف تهريجي، وصلّب بحمية بهلوانية، وراح يمثل لاهثاً الشروع في فقدان الوعي: "- آه، أي فارسين هائلين لديك يا ماشينكا. مثلهما قادر على الضرب أيضاً. فلينجنا القدر من الالتقاء بهما في زقاق معتم. ارحلا كرمى لله. اخرجا، ارحلا قبل أن... قبل أن أطلب الحراس أو الشرطة. اذهبا، اذهبا بعيداً أيها الشابان ولا تتدخلا في شؤون الآخرين. أتوسل إليكما..."

صرخت ماشا: "- كف من فضلك عن التهريج يا خالي." وزعقت من جديد على نحو مصم وخارق، حتى أن أمها ألقت رأسها على الوسادة وضغطت متألمة الشال الموبر على أذنيها. أما إدوارد أركادييفيتش فسقط في الأريكة وأدخل عينيه تحت جبينه طالباً الرحمة بيديه. ثم صاحت من غير أن يتضح إن كانت تبكي أم تضحك: "- هاك، هاك على ما فعلته بصديقيّ. لن أدعك تقول كلمة واحدة، ولا كلمة، ولا حرف."

أطلق إيليا ضحكة ساخرة، وأومأ لفلاديمير الصامت: "- لنرحل بعيداً، أحضروا العربة لنا أحضروها. لنرحل إلى حيث يوجد ركن للمهانين."[1]

خرجا إلى الشارع المسائي المليء بأوراق الأشجار المتجلدة الملتصقة بالأرصفة، وهناك أدركتهما ماشا وقد رمى الهواء البارد شعرها، وأطاح بطرفي معطفها الطويل غير المزرر وألصقهما بساقيها. لا بل بدا لفلاديمير أيضاً أن البرد الذي هب بحدة قد ثنى أهدابها القاتمة الكثيفة وأجبرها على أن ترد رأسها إلى الوراء، وقد وقفت أمامهما، وراحت تمعن النظر في وجهيهما، جاهدة كي تبتسم وتتكلم بمرح، ثم صارت في رمشة عين ماشا السابقة التي تحبس الأنفاس من نظرة واحدة.

شرعت تتحدث بصوتها المرن مستعجلة: "- ما كان عليكما أن تعيرا خالي انتباهاً. إنه ليس على ما يرام طبعاً. فسيفولود ابنه بالتبني من زوجه الأولى، وهو يريد أن

---

[1] *يرد بيتاً من قصيدة ألكسندر سيرغيفيتش غريبوييدوف الهزلية "مصيبة بسبب من العقل" (المعرب).*

يرحل معنا. هل تفهمان؟"

أجاب إيليا: "- ليس ثمة ما يستحق الفهم. أظن أن خالك فائق الروعة ما هو إلا ثمرة من شجرة ناشري الذعر."

أكد فلاديمير: "- يا له من شخص، لا بل إنه كذاب من الطراز الأول أيضاً."

قالت ماشا ماطة الكلمات: "- أي أحمقين غبيين أنتما، ومع ذلك فإنني أحبكما، أنتما الاثنان أيها الأحمقان الجيدان الغريبان اللذان لا يفقهان شيئاً."

مسدت بلطف وجنة إيليا باصبعين من يدها اليسرى، ومست بيدها اليمنى ذقن فلاديمير ففاض عليهما الإشعاع اللطيف من عينيها الملتهبتين تحت أهدابها المثنية، وشعر فلاديمير وكأن الأرض تهتز من ملامسة أصابعها الدافئة ومن هذه الهاوية المشعة في نظرتها غير المفهومة التي تعد بشيء ما مفرح وسري وخاطئ جعل البرداء تصيبه وجعل أسنانه تبرد. سألتهما:

"- ماذا ستفعلان في موسكو؟ هل ستبقيان؟ لم يدعونا نتكلم بسبب من ضوضائهم الجنونية هذه. أريد أن أعرف ماذا ستفعلان."

قال فلاديمير بصدق خالٍ من الحرج: "- نحن؟ إلى الجيش." ثم أخرج علبة سجائر "المدفع" وعرضها على إيليا وتابع قائلاً: "- كنا اليوم في اللجنة العسكرية."

أيده إيليا على نحو عابر وهو يتناول سيجارة بسرور ويشعل عود ثقاب ويقربه من فلاديمير ليشعل سيجارته أولاً: "- فولودكا لا يكذب. لقد حللنا هذه المسألة تقريباً."

استغربت ماشا: "- هل تدخنان أيها الصبيان؟ هل تعلمتما هناك عند الأعمال الدفاعية؟ يا لكما من غريبين. صرتما كبيرين حقاً... إلى الجيش. لقد حزرت أنكما ذاهبان إلى الجيش." كررت ذلك وعضت شفتها: "- آه، كم أريد أن أذهب إلى الجيش أيضاً. لكن لا بأس، لن أنجح. لا أستطيع أن أترك ماما."

قال إيليا مضيقاً عينيه من دخان السيجارة، وبدا وكأنه لا يفكر بأي شيء صعب: "- أنت جميلة جداً على الجيش يا ماشينكا. ستبدأ المبارزات بين الرجال. لذلك اجلسي مع أمك وانتظرينا، والأدق، انتظري فولودكا، فأنا لدي خمس شامات على كتفي الأيسر- هذا معناه أن مصيري مصير متجول يجوب الدنيا كما تنبأت لي إحدى

الغجريات، وإذا قتلوني فلن تكون المصيبة كبيرة: سيبكون قليلاً ثم سيكفون. أليس صحيحاً؟"

(لماذا قال هذه الجملة القدرية حينذاك؟)

نظرت ماشا إلى إيليا مباشرة، وكأنها حزرت تماماً سبب إصراره على أن يكون غير جاد وسبب مزاحه الطائش حول أمور لا تجوز السخرية منها، لكنها قالت أيضاً بنبرة استخفاف وتغافل:

"- كم كل شيء مضحك على نحو غير معقول. خمس شامات على كتفك الأيسر؟ كم هذا شاعري، روايات ميريميه الإسبانية. أليست كارمن هي من تنبأت لك يا إيليا؟"

تنهد إيليا متصنعاً: "- أسوأ، مع أن الغجرية كانت جميلة جمالاً خيالياً، طول أهدابها متران وساقاها ساقا إلهة."

خفق رمشا ماشا الكثيفان: "- أسوأ؟ أسوأ ممن؟ كيف نفهم "أسوأ"؟"

نقر إيليا السيجارة بأظفره متأسفاً، كما لو أنه يفكر بشيء يقوله ليجرح شعور ماشا:

"- أسوأ بمعنى أن مثيلات كارمن ما عدن موجودات في الدنيا. اضمحل الجمال وعلينا أن نرسل أي مشاعر جياشة إلى المتحف منذ زمن طويل. صارت قديمة مثل الفأس الحجرية."

استقامت ماشا متوترة:

"- غباء، حتى أن هذا لا يثير الشفقة. عرفت دائماً أنك فظ مثل حجر. قبضتك وعضلاتك دليل كاف على ذلك. ما هذا المتحف الذي افتتح؟ أين؟"

غاص في الدخان، وراح يضحك مبيناً أسنانه السوية الممتازة: "- سيفتتح. متحف المشاعر الجياشة. إننا نعيش في قرن القوة الفظ. عموماً، إنني لا أمزح، لقد فكرت فعلاً في أنك قد تثيرين بلبلة في الجيش، فالحمقى المخبولون لا زالوا كثيرين، وكل منهم يظن نفسه الوسيم الذي لا يقاوم، و أنه مخلوق من أجل تفاهة مليئة بالمشاعر الجياشة."

هتفت ماشا وهي تضم كتفيها مندهشة: "- ها هو الغباء الذي يهز أعماق روحي. ألا.. ألا تغار عليّ؟"

قال إيليا: "- صحيح."

"- ومنذ متى؟"

"- لا يهم."

"- لماذا لا يهم؟ الأرض مليئة بالشائعات عن مغازلتك التي لم تخل من نجاح لمدربة الكرة الطائرة في المدرسة الرياضية. الحسناء الشقراء التي لا تقاوم. لا أذكر اسمها... أظن بولينا؟..."

أكمل إيليا تدخين السيجارة ورماها على شبكة المزراب، حيث تألقت باكفهرار قشرة الجليد وبرزت منها أوساخ الطريق المتجمدة التي لم يغسلها المطر، ثم جذب ماشا من مرفقها وبدأ يتكلم كلام الكبار الخالي من الكلفة، والذي تصعب فيه معرفة إن كان جاداً أم يمزح:

"- أنت صغيرة جيدة. لا أعرف ماذا بشأن فولوديا، لكنك تعجبينني قليلاً. رمشاك أطول كثيراً من رمشي تلك الغجرية."

برقت عينا ماشا على وجه إيليا الثابت، ورفعت ياقتها شاعرة بالبرد، ودست يديها في جيبي المعطف: "- ما معنى هذا؟ مزاح لطيف؟ اعتراف بالحب على غرار دون جوان أم ماذا؟ لماذا تقول ذلك؟ آه، فهمت. استعراض العجرفة... ألم يختلط الأمر عليك بيني وبين بولينا، أو أية خاطئة أخرى مغرمة بك من المدرسة الرياضية؟"

قال إيليا باللهجة مدعية الخبرة نفسها: "- لم يختلط الأمر، وليس ثمة أي استعراض. علينا أن نتوادع. هيا بنا نتبادل القبل..."

رمت ماشا رأسها إلى الخلف.

"- ماذا يعني أن نتبادل القبل؟"

"- يقبل الأطفال الصغار بعضهم جبين بعض. أما أنت فيجب أن تُقبل شفتاك

طبعاً. هل أريك كيف؟"

"- هذا أمر مسل. جرب إن كنت ستنجح في ذلك."

وقفت دافعة رأسها إلى الخلف، ونظرت إليه من غير أن تخرج يديها من جيبيها، واضعة شفتيها المتسائلتين والمدورتين بابتسامتها عرضة لهول قريب ما. أما هو فجذبها من مرفقها من غير أي حرج، وكأنه معتاد على التصرف هكذا كل يوم، وراح يضغط شفتيه ببطء على شفتيها المبتسمتين مقبلاً إياها قبلة جريئة طويلة حتى أنها صارت تنحني إلى الخلف قليلاً، وأخرجت يديها من جيبيها وأنشبتهما في صدره وراحت تدفعه حذرة، ثم حررت أخيراً فمها الخائف وهي تلهث وغطته باصبعها، وتكلمت هامسة همساً غريباً:

"- لماذا تتصرف بفظاظة؟ إذا كنت تودعني فهل يعقل أنك تريد أن أتذكر فظاظتك؟ لا، أنت غوريللا ما، إنسان غاب..."

ضحك إيليا بلطف: "- حقاً؟ فظاظة؟ إنسان غاب؟ لديك شفتان لذيذتان وحسب. ممكن أيضاً؟.."

"- لا، لا لزوم." وتنحت مصفرة، واقتربت من فلاديمير باستعجال كاذب ومبالغ، فسقط على الفور في أعماق نظرتها الضبابية، وغرق متعذباً في حدقتيها: "- عليّ أن أودعك أنت أيضاً؟ حسناً، قبلني من فضلك..."

شد تشنج شائك على حنجرته، ولم يستطع أن يصدر صوتاً واحداً حين راح إيليا يتحدث إلى ماشا ويقبلها من غير أن يخجل من حضوره وكأنه عد الأمر طبيعياً تماماً لكونهما صديقين، وكان رد إيليا على كلماتها عن الفظاظة بابتسامة لطيفة نابعة عن خبرةٍ رجولية، وفزعها من إلحاحه العابث واندفاعها لتوديع فلاديمير من أجل الخلاص، وكل شيء مكشوفاً وغير مفهوم حتى العجز، مع أن نظرتها فضحت كل شيء وكذلك ارتجاف أهدابها وعض شفتها الحائر- أدار رأسه جانباً كي لا يشاهد وجهها، وسار صامتاً في الشارع خوفاً من أن لا يتماسك ويكتشف ما يخجل منه. حجبت الدموع أنفاسه على نحو خانق، وكان يحتاج على الأرجح إلى التخلص منها ليرتاح، لكنه لم يحسن ذلك...

غطت الظلمة المبكرة الشارع، وفاحت فيه رائحة الندى المثلج المعدنية، ورائحة الرماد الورقي، الذي تدفق وتدفق في الهواء، وانسابت الهالة الحمراء الناجمة عن الحريق في المركز فوق الأسيجة مبرزة سواد شبكة الأغصان العارية.

*****

الفصل التاسع

رن جرس الباب.

قال فاسيلييف مشتتاً: "- فلننه عمل اليوم." وضع لوح الألوان على المنضدة وفتح الباب (كان يقفل على نفسه في أثناء العمل). دخلت فيكتوريا المرسم قارعة الأرض بكعبي جزمتها، ومرتدية معطفاً منغوليا محشواً بفراء أبيض، فانتشرت على الفور رائحة هواء الشارع وطراوة الصقيع الصباحي. قبلت بشفتيها الباردتين وجنة أبيها غير الحليقة، ونظرت بعينيها الرماديتين القاتمتين، عيني ماريا، إلى شيغلوف المتموضع في الأريكة، وقالت:

"- مرحباً يا بابا، مرحباً أيها الخال."

نهض إدوارد أركادييفيتش فوراً برشاقة فائقة، معبراً عن الإعجاب والحب والوفاء الفروسي، وهرع نحو فيكتوريا بانبهار يفوق الحدود، وبمشية طائرة كراقص باليه، وسرواله الأخضر الضيق، الذي لا يعيبه شيء، يبرق، ثم انبرى يقبل يديها متأثراً وهو يتكلم في أثناء ذلك بصوت مخرخر:

"- يا جميلتي، يا ذهبيتي، يا جوهرتي التي لا مثيل لها، يا أذكى فتاة رائعة في العالم. ماذا، ماذا أفعل لك، هل أجد لك طائر النور أو فردة الحذاء الذهبي؟ هل أوقف الحصان السائر وأدخل الكوخ المحترق؟"

ضحكت فيكتوريا محررة يديها: "- كف أيها الخال، لو أطلب منك الآن مائتي روبل فإنك ستخرج محفظة نقودك وتتأوه وتقول: يا للأسف، محفظتي نظيفة كضميري.

أليس صحيحاً؟ لكنني مع ذلك أحبك يا خالي على فوضويتك."

خرخر إدوارد أركادييفييتش صاغراً، وقام بإيماءة أسف حار: "- إنني يا مليكتي ودرتي وفرحتي مذنب دائماً، وعديم النقود دائماً، مثل الكلب. كنت سأستدين بنفسي، مسروراً، مبلغاً ما، لكن المكانة والسنين لا تسمح يا عزيزتي. حسناً." وصار يشعر بحيوية أكثر، فشرع يتأوه ويخور بحماسة حلوة، وأمسك معصم فيكتوريا الدقيق بكلتا يديه، وبدأ ينقره بلطف بأنفه مبيناً صلعته الشاحبة وشعره المشط بمهارة وغندرة من الأذن حتى الأذن: "سأنطلق، سأختفي، سأطير لأنني سأتأخر على التدريب، حيث سيتم حديث ضخم جداً مع إحدى الممثلات، مشعوذة حقيقية، سامحني يا ربي. سن تلك العزيزة تقارب الستين، والشيخوخة لاحت من النافذة منذ زمن طويل، لكنها تطمح، ساق الملفوف القديمة، وتسعى، المُهْرةُ القديمة، طوال الوقت إلى لعب دور فتاة في العشرين. لن تعزفي، لن تعزفي على البالالايكا[1] إذا ما كانت في يدك مقلاة. أقبلك بحرارة يا فلاديمير ألكسييفيتش."

ارتدى باستعجال معطفه ذا التربيع الكبيرة فاتحة اللون على الموضة، وشد القفازين الجلديين، وركض بعد أن أرسل قبلة هوائية عند العتبة، خارجاً من المرسم كمحام متأنق نشيط يترك المسرح: "- فلتزدهرا يا عزيزيَّ."

فُقد في المرسم بعد رحيله شيء ما وانطفأ، وكأن تيار هواء هب في الغرفة بمروره السريع، فصفق الباب ليحل الصمت من جديد، ولتعود حال الهدوء المعتاد، أما لوحة البورتريه غير المنجزة فكانت غامضة، إذ برقت خلف العدستين العينان الجاحظتان، وتثنت قليلاً جداً، كالأفعى، حافة الفم المسن، الذي لا زال متيناً، والمستعد للجملة السامة أو الساخرة، مع شيء من حزن يكاد لا يلحظ ويبرز أحياناً وقتاً قصيراً حين يسهم في منتصف الحديث.

فكر فاسيلييف: "ومع ذلك، فلماذا أشفق عليه؟ يبدو لي أنه يهرب طوال الوقت من نفسه."

قالت فيكتوريا، وقد وقفت عند المنصة، ثم جلست من غير أن تخلع معطفها في

---

[1] آلة موسيقية وترية روسية (المعرب).

مقعد القش المهزاز خلف فاسيلييف: "- أظن لا بأس."

سمع صرير المقعد وحفيف المعطف مفكوك الأزرار، ثم التفت متوقعاً مسبقاً حديثاً مفاجئاً مع ابنته، التي لا يراها عنده في المرسم كل يوم.

سألته فيكتوريا: "- ممكن يا بابا؟ لديك، كما أظن، "فيليب موريس"؟" وسحبت بأظافرها المصقولة القاتمة سيجارة من العلبة من غير أن تنتظر الإذن- هكذا تُخرج ماريا السجائر- أما هو فأحس فجاءة بانقباض حزين في صدره مع رؤيته نار القداحة بين أصابع ابنته الضعيفة والواهنة، ومع رؤيته دخان السيجارة الذي أطلقته شفتاها الفتيتان البريئتان، ولحظ عنقها الأبيض الشبيه بعنق طائر التم، والذي كشفته ياقة المعطف المدفوعة، فبدا أيضاً ضعيفاً لا يحميه شيء، ومعرضاً لخطر غير مرئي، وفكر أنه عاجز عن منع أي شيء عن ابنته، وأنها بدأت تدخن بعد مرضها ذاك، وبعد ذلك الشيء غير المنسي والغامض الذي حدث لها منذ عامين خارج المدينة، والذي ما عادت تذكره لا هي ولا ماريا لاحقاً.

سألها فاسيلييف، وقد اقترب منها مجانباً وقبّل شعرها الخفيف الفواح برائحة النظافة والدفء العزيز: "- إنك تريدين أن تقولي لي شيئاً ما على الأرجح؟ فأنت لا تأتين إلي كثيراً يا فيكا..."

قطبت حاجبيها مفكرة بشيء ما يخصها من غير أن ترفع عينيها.

ثم قالت بصرامة: "- أردت أن أحدثك عن هذا تحديداً يا بابا. لم نرك في المنزل منذ أربعة أيام. صرت تقضي الليالي في المرسم دائماً لسبب ما. لا أدري ماذا يجري بينك وبين ماما، غير أن كل شيء غريب. هي صامتة، لكنني أرى كيف تتعذب. هل تفهم يا بابا؟ لن تشكو لأحد وإن صارت حالها سيئة جداً. لا، لا تظن من فضلك. " صححت حازمة: "- لا أريد معرفة أية أسرار، لكن ثمة أمر ما حدث لكما بعد إيطاليا. صرتما غريبي الأطوار، ولا أفهم يا بابا ما بكما. يسود المنزل هدوء الموت ببساطة. هل تعلم كيف كتبوا سابقاً الملحوظات في المسرحيات: الهدوء في المنزل كهدوء ما قبل العاصفة. من أين العاصفة يا بابا؟"

نظر مستفسراً، أما هي فرمت تحت نظرته السيجارة في صحن السجائر مع تعبير عن الغضب، وكان انثناء عنقها الرقيق والشحوب المرضي على وجهها الدقيق،

وعيناها الرماديتان الواسعتان على نحو غير طبيعي في ظل أهدابها الكثيفة القاتم- وكل شيء، هشاً وعزيزاً وشبيهاً بماريا، ومكرَّراً على نحو مدهش فيها، في ابنته، مكرراً بحبه لماريا وبالسحر الغامض للشيفرة الوراثية، التي خضعت منذ عشرين عاماً خلت لهما فقط، وسرى في روح فاسيلييف شعور بشيء من الشفقة وشيء من الرقة.

مسَّد بجهة يده المعاكسة غير الملطخة بالألوان وجنة ابنته، وقال:

"- لم أصر إنساناً آخر يا فيكا." ابتعد نحو المغسلة، وانبرى يغسل الريشات بماء مصوبن: "- لا بل أكثر من ذلك." قال هذا وهو ينظر إلى فيكتوريا بابتسامة مذنبة، ويفكر في الوقت نفسه بفجائية الشعور البسيط الذي يعيه الآن: "هل هذا الذي يجلس في المقعد الآن هو ابنتي، هل فيها جزء من ماريا وجزء مني، جوهرنا، أملنا الوحيد، استمرارنا في العالم؟ ماذا عليّ أن أفعل من أجلها كي تفهم أنهما- ماريا وهي- أغلى من كل شيء، وأنني ما كنت قادراً على العيش لولاهما..": "- لا بل أكثر من ذلك يا فيكا. قولي لماما هكذا: إنه يحبنا أكثر من ذي قبل، لكن عليّ أن أبقى قليلاً هنا، في المرسم، لأعمل وأفكر فترتاحا مني قليلاً." ثم كرر: "- عليكما أن ترتاحا مني قليلاً. ينبغي ذلك."

"- قل يا بابا بصراحة: ألم يحدث شيء بينك وبين ماما مؤخراً؟"

فكر: "هل حدث شيء حقاً؟" وشعر بتساوي الحقيقة مع الكذب في حاله هذه، إذ لم يحدث ما يخل بحياته السابقة، ومع ذلك فقد حصل شيء غير مريح لكليهما، تشكل منذ بعض الوقت على نحو غير ملحوظ، حتى صار صعباً عليهما تخطيه حين يبقيان وحدهما، وكان، حين يرحل عن المنزل ويغلق على نفسه في المرسم، يقنع نفسه بأن عليه أن يجتاز هذا الأمر أيضاً بالعمل والوحدة.

قال فاسيلييف مازحاً تقريباً: "- كل شيء على ما يرام يا ابنتي. لم تحدث بيني وبين ماما أية أحداث مخيفة. ربما نحن متعبان قليلاً."

"- صارت ماما تدخن بكثرة مرعبة، حتى أنها هزلت."

"- وأنت أيضاً تدخنين. هل ثمة لزوم لهذا؟"

لم تجب.

وضع الريشات على المنضدة الملطخة بالألوان، ولحظ هنا نظرتها المصوبة مجانبةً إياه نحو بريق الشمس في النافذة الضخمة المغطاة بالجليد. جلست بمعطفها المفتوح

متكئـة بمرفقهـا ومسـندة ذقنهـا بسـبابتها، ونظـرت عيناهـا المخترقتـان ببيـاض لـون الصقيع إلى مكان ما في صباح شهر شباط، وكانتا مهمومتين وبعيدتين وحزينتين- وراح تشـنج الشـفقة المعـروف لفاسـيلييف يشـد على حنجرتـه على نحـو خـانق، كما لـو أنـه المـذنب في مرضـها الـذي أصـابها منـذ عـامين، وفي شـحوبها، وفي هـذا الشـرود الـذي أخافه. سألها بنصف صوته:

"- هل أنت معافاة يا عزيزتي؟"

ضمت كتفها: "- لست في المنزل يا بابا."

"- ألا تريدين أن تجيبي؟"

أغمضـت عينهـا وأرجعـت قذالـها نحـو مسـند المقعـد، وهمسـت همسـاً مرحـاً غير طبيعي: "- معافاة مثل فيلة. غير أن الروح مريضة بعض الشيء يا بابا. تتذمر بصوت منخفض، ولا تكف. لكن هذا أمر تافه سيزول. هل تفهم يا بابا؟"

"- ما معنى "تتذمر بصوت منخفض" يا فيكا؟"

"- لا أعرف ماذا سيحدث لي. هذا كل شيء."

قال فاسيلييف قلقاً: "- والمعنى؟ لم أفهم يا ابنتي." لكنه سرعان ما تدارك نفسه، وشرع يتكلم على نحو سوي مهدئ: "- ربما، واضح تماماً ما قد يحدث لك خلل هذه الخطة الخمسية. ستنهين معهدك التمثيلي، ثم تبدأين التصوير وتتزوجين..."

تكلمت فيكتوريا باشمئزاز، وثنت حاجبيها: "- دعك من هذا يا بابا. بمن سأتزوج؟ ولم؟ أمر يثير قهقهة وحشية. بأولئك الرضع طويلي الشعر أم بالصبيان المنزليين ذوي الثياب المكوية جيداً وربطات العنق الأجنبية، الذين يحلمون بالمكانة المرموقة؟ يدرس أغلبهم، لسبب ما، في المعهد الديبلوماسي. أمر مضحك. فراغ يا بابا، المكان حولنا مقفر، فطور فقط، مناكب ضيقة وسيقان دقيقة وعيون حلوة.... خيالة معاصرون، فرسان حمايـة، خـاطبون موسـورون. أوه، يـا للقـرف. بالمناسـبة، لـو تـدري يـا بابـا. قـدم لي سفيتوزاروف الطائش ما يشبه عرض الزواج أمس، وبجدية متناهية. إنه، طبعاً، ثرثار ومغفل والهواء يصفر في رأسه. أظن أنه متزوج مرتين أو أربع مرات، وقد أثمرت زيجاته عـن أكثر مـن عشـرة أطفـال... حتى أنـه لا يـذكر أسـماءهم." قهقهـت فيكتوريـا فجـاءة، وراحت تتأرجح في المقعد الهزاز وتنظر تائهة إلى السقف: "- يا له من طائش، طائش. لكن

التعامل معه سهل ولا يتطلب التفكير، فهو يكذب ويقول إنه يكذب. إنه بالون منفوخ في يوم عيد. والأصح- مغامر خفيف العقل قرب التنانير النسائية. خليط السو-سو المتزلفة والثرثار العاطفي في الثلل."

سألها فاسيلييف: "- وبماذا أجبته؟"

"- بماذا أجبته؟ سألته ألا يرغب في العيش الرغيد على حساب نقود أبي، الفنان المشهور فاسيلييف، وتخيل- لم يشعر بالاستياء: "ماذا في الأمر؟ لِم لا؟" قلت له إنني سأفكر بجدية، وسأزن الحسنات كلها والسيئات كلها، وسأحصي بدقة متناهية عدد زوجاته السابقات وأولاده كي أعرف بمن أستبدل حريتي الثمينة..."

قالت هذا بحيوية أول الأمر، وتأرجحت برتابة في المقعد متسلية بحديثها نفسه، ثم اختفت الحيوية عن وجهها المهموم، واستبدلت بتصعيرة الاحتقار الساخر، ثم صمتت متأرجحة أبطأ فأبطأ.

قالت بصوت ملؤه النفور العميق: "- كم هذا تافه وكريه يا بابا، وكم كل شيء رذيل وغير ممتع في هذا الحب الأحمق. تصور: تتزوج الفتيات الغبيات الآن من أجل الوجاهة. نجني يا إلهي من الخاطبين الحمقى، الذين لا أطيقهم."

عرف أنه لا يستطيع أن يساعد ابنته ذات العشرين ربيعاً بأية كلمات على أن تخفف من ضراوتها اللامبالية والباردة. لقد نفذت برودتها إلى روحه وصار حبه لها يشتد كلما شعر باغترابها عن من هم في مثل سنها، والذين، وكم كان ذلك غريباً، يحومون حولها دائماً.

تكلم فاسيلييف بنبرة ليست جدية جداً، مع أنه كان يعي عدم وجود أي دافع للمزاح: "- ألا تبالغين في الحماسة- النسناسة؟ ربما لا يستحق الأمر تعقيد أي شيء؟ الحياة هي الحياة، وهي رائعة في مثل سنك خصوصاً..."

ظلت فيكتوريا تنظر إلى السقف وهي تصر بالمقعد بانتظام، أما عيناها الرماديتان القاتمتان، المخترقتان بالشمس، فكانتا بعيدتين في فضاء خارج الحدود، وقد انثنى عنقها الضعيف الدقيق إلى الخلف قليلاً- تموضع اللامبالاة والتعب والتنائي الغامض- كان كل شيء فيها معروفاً، قريباً له، مأخوذاً من ماريا، من فترة شبابها قبل الحرب، وفي الوقت نفسه كان هشاً ومثيراً للرثاء وضعيفاً أمام العالم كله.

كررت فيكتوريا، وحبست أنفاسها كما لو أنها تصلي في الواقع بحماسة شديدة: "- نجني يا إلهي." ثم سألته من غير أن تدير رأسها نحوه: "- ألا يحدث أن تخرج عن طورك بسبب من الناس يا بابا؟ مفهوم، تنقذك مهنتك، عليك أن تحب الجميع، أما أنا فلا أستطيع، وكم تصير الأمور صعبة يا بابا، وكم يصير الاستيقاظ صباحاً أمراً لا يطاق أحياناً."

سرت على وجهها ظلال مبهمة، فصمت عارفاً بما تفكر، ثم تكلم بخفة خرقاء:

"- ثمة في سنك وسيلة رائعة واحدة يا ابنتي، أن تعيشي كما يملي عليك القانون الحيوي.."

نظرت إليه مستفسرة: "- لم أفهم يا بابا. ما معنى القانون الحيوي؟"

"- النظرية جافة يا صديقي في كل مكان، أما شجرة الحياة فتخضر بكثافة."

حركت فيكتوريا كتفها باحتقار: "- هل هو حبيبك غوته أم ماذا؟ "ثم قالت بحزم: "- شجرة؟ تخضر بكثافة؟ يكذب شاعرك العظيم، وإذا لم يكذب كثيراً فإن الشجرة الكثيفة ازدهرت في وقت ما من القرن التاسع عشر، أما الآن فقطعوها في مناطق التحطيب من أجل تنفيذ الخطة." كفت عن التأرجح في المقعد الهزاز، وارتجف حاجباها وكأنها تضحك: "- ألم تلحظ كيف يحاول الناس أن يتكلموا على نحو جميل؟ ألم تعر انتباهك؟ أما أنا فأعرف لماذا. كي يتقنعوا كما ينبغي، وها أنت أيضاً، المسمى فناناً تقدمياً، تهديني لأتسلى لعبة من الألعاب التي تعلق على شجرة رأس السنة: "أما شجرة الحياة فتخضر بكثافة". لماذا يا بابا الطيب، ما المغزى؟"

قال فاسيلييف: "- مهما قلنا، أنا وأنت، يا فيكا فإن حياتنا كلها مزحة تثير الفضول، والشباب هدية رائعة سرعان ما ينتزعها الزمان منا يا للأسف. لا زالت هذه الهدية لديك، وليذهب بعيداً أي قتل للذات. هكذا تحديداً يا فيكا، هنا تحديداً مغزى القانون الحيوي."

قالت فيكتوريا وتنشقت بأنفها معبرة عن دهشة الرضا الخطابي الغبي: "- يعيش القانون الحيوي في ظروف النهوض العملي والفكري الذي يجسد في الحياة ما خطط مسبقاً. عاصفة من التصفيق والهتاف- وبعد. أيتها الإوزات، أيتها الإوزات، غا، غا، غا... ألا تريدين أن تأكلي؟ نعم، نعم، نعم، حسناً، طيري. لا نستطيع، فالذئب قرب

الجبل...[1] حماقة. لا يخيفنا الذئب الأشهب." هتفت فيكتوريا بابتهاج يحاكي بسخرية ابتهاج النصر، ونهضت بخفة موقفة المقعد الهزاز، ولفت نفسها بالمعطف كما لو أن كل شيء انتهى بفرح ونجاح: "- سنتقبل الحياة ضاحكين."

اقتربت ضاحكة من المرآة القديمة المصفرة، التي انبثق منها اللون الثلجي ليوم مشمس من أيام شباط، وصارت تتفحص وجهها مجعدة قصبة أنفها على نحو نزوي، ثم مسدت بخنصرها حاجبيها، وسألت بمرح:

"- هل تنتظر ضيوفاً يا بابا؟"

"- لا."

"- ألن يأتي إليك أحد؟"

"- لا، لماذا تسألين؟"

مست شحمتي أذنيها، حيث راح قرطان يلمعان بلونهما الفضي:

"- هل يمكنني أن أنهبك يا بابا؟ إنك تدرك عم أتحدث، وإذا لم يكن لديك فإنني سأتفهم: لا، لن أستاء. سأعيش حتى المنحة... مع أن ما رأيته يساوي خمس منح كمنحتي. تدليل، إفساد، أمر غير تربوي، تضليل الجيل الشاب. آ... ممكن؟"

سألها فاسيلييف، ومسح يديه بالخرقة، وفتح باب الخزانة الصغيرة، وسحب الدرج حيث وضعت النقود: "- وما سبب النهب؟ أليس سراً يا فيكا؟"

"- أقراط ذات زمردات رائعة على القسم المتدلي. عموماً، لا، لا لزوم لها. إنها ليست جيدة، حتى أنها خالية من الذوق ومظهرها غبي على نحو لا يوصف. لن تكف النساء الشبيهات بالخزائن والحبّارات البرجوازيات الصغيرات عن إيقافي في الطريق وسؤالي من أين اشتريتها. أوه، أي قبح.."

استدارت عن المرآة بمقاومة مشمئزة، لكنها ابتسمت من جديد حين التقت بالنظرة المهمومة لفاسيلييف، الذي لم يدفع حتى النهاية الدرج إلى داخل الخزانة، واقتربت منه بسرعة، فلم تقبله، بل مست وجنته بحافة أنفها قائلة:

---

[1] تردد لعبة يلعبها الأطفال، تتمثل في أن يلعب أحدهم دور ذئب والآخرون دور إوزات (المعرب).

"- تذكرنا قليلاً يا بابا. لسنا سيئتين إلى هذا الحد، ولسنا جيدتين، لكننا امرأتان مع ذلك، وأنت الوحيد لدينا، إلى اللقاء."

رن الهاتف في تلك اللحظة، حين اتجهت فيكتوريا إلى الباب، فالتفتت نحو أبيها، وسألته بحزم مشاكس بحاجبيها المرفوعين: "هل تحتاج إلى مساعدة، آ؟" ثم رفعت السماعة ونطقت على نحو ممطوط ومتأنق: "نعـ م." وبعد فاصل استمر دقيقة تكلمت بنبرة تعال وعجرفة، مستمتعة بدور ما تلعبه:

"- أنت مخطئ. فيكا ليست في المنزل. توجد فيكتوريا- بالأحرى فيكتوريا فلاديميروفنا. تفضل، أقبل اعتذارك، وأرجو أن لا تسميني هكذا في المرة القادمة: على حد علمي فإن فيكا هي عشبة ما مثل البرسيم أو نوع من الحمص. هل تعلم ذلك؟ قلت إنني أقبل اعتذارك الفروسي. لا، ليس في المرسم، خرج. لا أعرف متى سيعود، ماذا أنقل له؟ من اتصل؟ آه، ستتصل مرة أخرى؟ أتمنى التوفيق."

وضعت السماعة وقالت على نحو عابر:

"- لم يسم نفسه. أظنه كوليتسين. صوته السمين الشبيه بصوت مغن ناجح من المسرح الغنائي. لا شك أنه يحتاج إليك." ابتسمت ولوحت بأصابعها مودعة: "- لا تنسنا يا بابا. أنا ذاهبة."

"لا أريد أن أرى أحداً في هذا العالم الكريه." تذكر صرخة ابنته المنتحبة في أثناء مرضها قبل عامين، لكنه تذكرها من غير حدتها السابقة، وبألم متثلم، حين صمت قرع جزمة فيكتوريا في الممر وفكر أنها بخفتها المتكلفة الجسورة تبعد عن نفسها ذلك الشيء الذي لم يلتئم تماماً وتخمده فيها، وأنه، هو نفسه، لم ينس أيضاً يأس ابنته المريضة الذي هزه حينئذ، ابنته، التي بدا أنه لم يعرفها قبل ذلك المرض معتبراً إياها طفلة عزيزة، غالباً ما تُظهر كبر السن.

سار فاسيلييف بعد ذلك في المرسم، وراح ينظر من الجانب إلى بورتريه شيغلوف غير المنجز وغير الدقيق في انتقالاته العصبية جداً والقاسية والمستعجلة، ثم عاد بأفكاره من جديد إلى ماريا وفيكتوريا غير راض وغير مسرور إطلاقاً من صباح هذا اليوم. لم يفارقه ضعف روحي، أقلقه بهدوء، كأنه ذنب قديم لا يمكن التخلص منه، وقد صار يتكرر شعوره به في الأعوام الأخيرة من وقت إلى آخر، حين يتعب من العمل

ويكون وحيداً.

حطم رنين الهاتف صمت المرسم مرة ثانية، وصرخ فيه على نحو لا يرحم. رفع فاسيلييف السماعة متردداً وشاعراً برجفة تعب داخلية، ومتوقعاً وخائفاً لسبب ما من أن يسمع صوت ماريا (كان هذا رنينها)، وقال على نحو غير واضح: "- أنت يا ماشا؟" لكن صوتاً جهورياً غضاً ذا ذبذبة ممتعة تردد في السماعة مدحرجاً كلمات متدثرة بملابس مريحة:

"- فلاديمير ألكسييفيتش، عزيزي فولوديا. أطلب منك المغفرة لأنني أقتحم خلوتك منذ الصباح وفي ساعات العمل. أوليغ كوليتسين يتكلم ("حزرت فيكا- إنه هو، وهو قد اتصل بضع مرات، ماذا يريد؟") فلاديمير، يا عزيزي، لقد أقلقتك حينئذ ليلاً. كنت متعباً جداً كالكلب، ومهتاجاً ومتوتراً حتى الجنون، لذلك لا تذكرني بسوء، وسامحني بطيب خاطر، أما إن كنت قد تساخفت وفهت بما يسيء فإنني، إن شئت، قد أركع وأطلب المغفرة أمام عموم الشعب؟ "ضحك ضحكاً رناناً نابعاً عن إنسان غير حقود ورحب الصدر، وينوي معاقبة نفسه، وفكر فاسيلييف أنه لا يريد حقاً أن يذكر أي شيء عن مجيء كوليتسين إليه ليلاً وعن الحديث الذي دار بينهما: "- عليك في مرة أخرى يا فلاديمير أن تطرد زوارك المملين من تلابيبهم ببساطة حين تريد أن تنام، لا أن تعمل بلسانك. إن اتصالي بك هذا من أجل العمل، وبناء على طلب ملح من لجنتنا الأجنبية... ألا تستطيع أن تستقبل أجنبياً مندفعاً إليك بحماسة؟ والأصح هو سائح واحد، إيطالي، والأدق- مهاجر من روسيا، روسي الجنسية. لا تخف، لا تخف... سبب الزيارة: شاهد معرضك في روما وفينيسيا، ويريد أن يزور مرسمك إذا منحته الموافقة طبعاً. كرمى لجميع القديسين، جد وقتاً له يا فولوديا، فأنا لا أرجو..."

لم يسمع فاسيلييف بعد ذلك كلمة واحدة. فَقَدَ صوت كوليتسين الجهوري صبغته اللونية متعددة الطبقات وتشبعه بالعصائر الصوتية فوراً، وانساب في شريط رمادي متموج، وبرز من خلل التأرجح المتزعزع لصوته، الذي فقد شكله ومعناه، إدراك غير دقيق جداً بَعْدُ وغير محدد تماماً بأن إيليا رامزين، الذي قدم إلى موسكو، يبحث كما هو واضح عن لقاء معه، ولم يعد فاسيلييف يرغب في الشك بهذا الإدراك. مع أنه بدا من المستحيل ببساطة أن يتصور المرء أن إنساناً روسياً، لم يعد عام

خمسة وأربعين من الأسر إلى وطنه، يتمكن فعلاً من القدوم كسائح، ويحصل على تأشيرة، وأخيراً، على إذن من وزارة الخارجية بالدخول إلى البلاد... بعد لقائه مع إيليا العام الفائت في فينيسيا، وخلل زيارته السفير السوفييتي في روما، نقل فاسيلييف على الرغم من كل شيء، في أثناء حديثه عن انطباعات الرحلة، وعلى نحو غير صلب وبإلحاح غير شديد طلب تأشيرة الدخول من قبل صديق طفولته السابق، الذي اكتشف على نحو غير منتظر بين الأحياء وعلى الأرض الأجنبية في إيطاليا الخريفية الضبابية، الأمر الذي بدا شبيهاً حينئذ والآن بحلم، وبأوهام خيال ملتهب. فسأل فاسيلييف بصوت أبح وهو يسمع في السماعة على نحو غير واضح صوت كوليتسين الجهوري السابح مبتعداً:

"- من هو- قلت إيطالي؟ من أصل روسي" هل لقبه رامزين؟"

اكتسب صوت كوليتسين غير المرئي في السماعة إشباع ألوانه التام فرحاً بهذا السؤال:

"- نعم، نعم، نعم. السينيور رامزين. اسمه واسم أبيه إيليا بيتروفيتش. ماذا، هل تعرفه؟"

أجابه فاسيلييف: "- ما أهمية ذلك؟"

بلله عرق الاضطراب، وشعر برغبة في الجلوس والارتماء خائر القوى في الأريكة مغمض العينين، وفي تذكر الحديث الذي جرى العام الماضي في أثناء الإفطار في الفندق الفينيسياني ذلك الصباح التشريني المشمس، الذي اتصل عبر عود خشبي دقيق ومتقلقل ومتقوس فوق الهاوية مع صباح آخر، صباح أوكراييني صيفي حار من صباحات عام ثلاثة وأربعين، حين بدأ كل ما لم يحسب، لا إيليا ولا هو، حسابه.

*****

الفصل العاشر

جلسوا على الجذور الدافئة عند طرف تلة الصنوبر، وفكوا أزرار ياقات قمصانهم العسكرية، وراحوا يتنشقون باستمتاع نفحة البرودة المنعشة الآتية من الأسفل، من الجدول، الذي كان مرئياً في الأمام على امتداد ردمية السكة الحديدية. ابيضّت الطريق الترابية المقفرة من اليمين صاعدة من المنخفض نحو الجسر الخشبي نصف المهدم، وانقطعت على تلك الضفة حيث برز عند المعبر حاجز طريق مخطط. أما إلى اليسار تحت الردمية فبدت قمة سطح محماة بحر القيظ، واخضر بكثافة بستان ممتد حتى المياه، وقد تبرقش بالظلال الشبكية على عشبه.

قال الرقيب شابكين بحيوية، وقد استند إلى صنوبرة وراح يليح بقبعته القماشية كالمروحة أمام وجهه المتصبب عرقاً: "- بعد هذا يبدأ الخط الحيادي على ما يبدو. أمس كانت في هذه المنطقة فصيلتنا مشاة. قبعوا هنا مع رشاش "مكسيم"، ولم يكن غيرهم عند السكة الحديدية، لا جماعتنا ولا جماعتكم، وها هي هناك مدفعيتنا الحبيبة." قال هذا وقذف رأسه مبتهجاً إلى اليمين، حيث برزت كالتلال أكوام التراب الطازج: "- أما المشاة فابتلعتهم العفاريت. أمر مضحك، المدفعية تقف عوضاً عن المشاة..."

فكر فاسيلييف وقد حرف نظره نحو إيليا: "ما به شابكين مبتهج هكذا؟ ما المضحك في اختفاء المشاة؟"

جلس إيليا على الجذور مزيحاً إلى الخلف قبعته القماشية عن شعره القطراني

الملتصق بجبينه، وراح ينظر إلى ردمية السكة الحديدية وإلى الطريق الترابية قرب الجسر، مضيقاً عينيه مع تعبير عن الاهتمام بمخاطرة متوقعة يمكن انتظار حدوثها هنا.

قال إيليا: "- إذا كان الألمان عند الردمية فإن قناصيهم يقبعون في مكان ما، وهذا معناه أن الجدول والبستان والسكة الحديدية- والخط الحيادي كله على مرمى منهم. هل ما أقوله صحيح يا فولودكا؟ في هذه الحال لن تفسر الخريطة شيئاً. فلنذهب إلى المدفع ونتحقق، ولننظر إلى الأمور من هناك؟"

وقف سريعاً، ونهض في إثره بعنفوان شابكين، بجزمته الألمانية وسروال الخيالة الألماني المتأنق ذي الحاشية النافرة الذي يرتديه، وكان حاذقاً ومتيناً كالفطر بعينيه السماويتين ومشيته المقدامة التي تولد انطباعات عن لعبة لا تعرف الخسارة، وليس فيها موت أو خوف، بل أمر وحيد: ازدراء جسور وصارم للحياة. كانت هذه اللعبة تثير اهتياج فلاديمير على مرأى من الجميع، ربما لاندفاع شابكين الاستعراضي، غير أنه كان معجباً بحيويته وطبعه الخفيف وزهوه الصبياني غير المتكلف. لقد نال الأوسمة بجدارة بعد كل معركة، وكان يبرز بحدة صدره، الذي يرن ويتألق ويلمع كالذهب، ويقول ضاحكاً إنه حين سيعود إلى أوستاشكوف من الحرب سيعلق "ميدالياته العسكرية" وسيتخطر في الشارع، فتتساقط الفتيات فاغرات الأفواه من النوافذ إلى قارعة الطريق. لم يُخفِ أيضاً أنه (إذا حالفه الحظ طبعاً) سيحصل على نجمة[1] في الفرصة المناسبة، وسأل مرة إيليا بحضور فلاديمير إن كان يحق لأحد الضباط أن يزكيه لنيل لقب بطل على أعماله المستحقة بالدم.

ومع ذلك لم يحبه فلاديمير حتى النهاية بسبب من ضجيجه وصوته العالي والهرمونيكا الألمانية المزينة بالفضة، التي لم يحسن الرقيب شابكين العزف عليها (كان يصفر ويطنطن بها)، لكنه حملها طوال الوقت في جيب صدره عارضاً إياها، ومصوراً بهيئته ومشيته الشاب الذي يصلح لكل شيء. ها هو فلاديمير يفكر الآن أيضاً، حين نهض شابكين باندفاع خلف إيليا ورنت أوسمته بالذهب العائد إلى الحياة، أن هذا

---

[1] *النجمة هي جائزة الحائزين على لقب بطل الاتحاد السوفييتي (المعرب).*

الرقيب يمثل أمام الضباط، هنا على خط الحياد، الشجاعة التامة، فقال غيرراض:

"- سيصيب قناص من الردمية حائط أيقوناتك، حينئذ ستعرف. لا أفهم، لماذا لم تنزع أوسمتك؟ أظن أن الفتيات لا ينظرن من النوافذ."

رد شابكين بعدم ترو، كما لو أنه يدعو إلى تسلية أخرى: "- لن يحدث لي أي شيء. لا، لا يطلق النار هنا الألمان الأحياء. لقد شممت شيئاً ما هنا مساء أمس. من أين تظن أنني حصلت على البندورة؟ من السوق؟ لا، من تلك الجنائن. هل ترى على تلك الضفة حيث ينتهي البستان؟ لقد زحفت إلى هناك- خضت في الجدول ووصلت إلى هناك. أما المشاة... فعددهم هناك صفر وصفر بالعشرة، وثمة رشاشان يدويان تحسباً للظروف..."

قال إيليا باستحسان جاف قليلاً: "- عافاك يا شابكين. ما بك توقفت يا فاسيلييف، قدنا إلى مدفعك."

كان منتصف النهار، وكان الجو قائظاً. وهبّ على وجوههم هواء حار مشبع برائحة الهشيم الذاوي والقطران الساخن، ورائحة التراب النهرية، وبدا غريباً أن لا تكف الجداجد على ذلك الجانب عن الصرير على العشب، فكان البستان المغمور بالشمس الأوكرايينية والمصاب بكسل الظهيرة، والذي أعمت الأبصار فيه الأوراق المغبرة على أشجار الحور عند السياج المجدول بالأغصان، مليئاً كله أيضاً برنينها الحاد.

نادوهم بصوت منخفض من الخندق على التلة قرب بداية الغابة، وبرز رأس مكرهاً من خلف المتراس ثم اختفى: "- من الذي دفعه الشيطان إلى هنا أيضاً؟ إن كنت صديقاً فاعبر جانباً، لا عمل لك لدينا، وإن كنت غريباً فسأطلق النار على مسعطك وستبقى من غير وثائق، واضح أم لا؟"

صاح شابكين مشاكساً، وهو يقفز إلى الأمام ويتحدث مقهقهاً: "- أنت يا لازاريف؟ هذا أنا، صديق، قادم مع ضابطين. ما بك، هل تريد أن تصب النار على أصدقائك؟ هل أتخمتم من شرب الشنابس[1]؟"

---

[1] *مشروب روحي ألماني (المعرب).*

"- كف عن الثرثرة يا قفا القنفذ. اقفز إلى خندق الاتصال ما دمت تقود الضباط إلى هنا."

حفر هنا على التلة منذ وقت قريب خندق اتصال قليل العمق، يبدأ عند الغابة، فدخلوا عبره إلى خندق المدفع الترابي البارد، حيث استلقى رجلا مدفعية على بطنيهما بين الركيزتين قرب قدر مليئة عن آخرها بأقراص العسل الطازج، وبدا أنهم فطروا متأخرين هنا أو تغدوا باكراً. كانت على المشمع المفروش كومة كبيرة من ثمار البندورة الحمراء اللامعة تحت الشمس والخيار الفتي ذي القشرة الحبيبية ورؤوس الخشخاش الليلكية، وقد وضعت جانباً قِدر مستوية فيها ماء.

سأل فلاديمير مندهشاً من اختفاء الناس في الساحة قرب المدفع: "- أين البقية؟"

رمى قائد جماعة الاستطلاع، المساعد لازاريف، الضخم وكبير الوجنتين، وذو الشعر المجعد الطويل فاتح اللون، وفتحتي المنخرين الشريرين المائلتين، القادمين بنظرة من تحت كتفه، غير أنه لم يفكر في أن يقف (كما يقضي النظام عند تحية الضباط) وتكلم مستلقياً بصوت غليظ أجوف كصوت الدب: "- نائمون بعد صخب الأمس، يثوبون إلى رشدهم. أكل الروسي والألماني والبولندي سلة يوسف أفندي. اعبرا إلى هنا أيها الضابطان، وكلا معنا."

سأل الملقم كالينكين محابياً، وكان ضيق العظام كثير العروق، طويل الشعر أيضاً، وذا عنق نحيل عار ممدود دائماً إلى الخارج من ياقة القميص العسكري المشبعة بالعرق: "- أخاف أن أياً منكما لم يذق بلسانه العسل في الأقراص؟ تناولا الأقراص وأتبعاها بالخيار. تفضل أيها الرفيق الملازم ما دمنا أغنياء، وإلا فلن تبقى سوى الذكريات."

وأخرج من القدر رقاقة صفراء ذهبية تقطر عسلاً، فقضم نصفها، وشرع يمضغها ويمصها متمطقاً. راحت القطرات الكهرمانية تنفصل عن القرص وتنزلق على ظهر كفه المشعر والوسخ نحو كمه الملوث بالدهون، أما هو فلم يشعر لسبب ما بهذا الدبق القابض وبهذه الدغدغة اللزجة على معصمه.

اهتم إيليا للأمر، وانتقى مع شابكين من غير استحياء قطعة كبيرة من القدر،

وشرع يمص منحنياً، كي لا يلوث قميصه، رقاقة العسل بشهية وهو ينظر إلى لازاريف، ثم سأله ساخراً:

"- من أين مخزون الأغذية؟ هل خربتم منحلة، أم رماها الألمان بالمظلات؟ أم أن مطبخنا العزيز يزود بالعسل؟"

قال المساعد لازاريف متكاسلاً: "- انظر ايها الملازم. نحن فتيان قنافذ لنا في كل سد منافذ. انظر هناك، في تلك الجهة أيها الملازم. هل ترى السطح تحت الحديد؟ وهل ترى البستان؟"

"- فلنفترض، وماذا بعد؟"

رد لازاريف على نحو لاذع وبصوت غليظ وخشن قليلاً: "- أما بعد فلا تسمح الكتفان أيها الملازم. دسست رأسي، لكن الكتفين، ولا بأية حال. قاعدتنا الغذائية هناك، عند الخط الحيادي. هل فهمت؟"

تدخل فلاديمير: "- لم تدر المعركة في تلك الجهة من الجدول، ولم نصوب نيراننا إلى هناك."

صار الآن فقط مرئياً خلف سياج أشجار الحور وسط خضرة البستان حدور السطح الحديدي، اللامع تحت الشمس، وجدار المنزل المبيَّض والمبقع بظلال أشجار التفاح، والذي نمت عليه شجرة لبلاب حول طنف المدخل- وراح ذلك المكان يجذب مغرياً بدفء غريب مجهول كالهواء الساخن.

سأل إيليا ممسكاً قرص العسل بيد ممدودة: "- من في المنزل؟ أفترض أن الألمان غير موجودين ما دمتم تزحفون وراء الغنائم إلى هناك؟ إذن أين الألمان؟ وراء الردمية؟"

دوّر لازاريف منخريه بغضب فجاءة، والتفت نحو شابكين، الذي غرز أسنانه بحبور في لب ثمرة بندورة مفرطة في النضج: "- عليك أن تعرف ذلك من جندي الاتصال. كان يكسب رزقه بنفسه عند الخط الحيادي. سيحدثك بكل شيء كما يقضي النظام."

قال إيليا ببرود: "- النظام يقضي بأن يعرف هذا قائد جماعة الاستطلاع، لذلك سألت هذا السؤال."

تكلم لازاريف، وهز منخريه المائلين: "- لست مجبراً على الإجابة عن أسئلة أحد. من كنت أجيبهم ليسوا هنا. دفناهم أول أمس."

ابتسم شابكين مهادناً، وأمسك ثمرة بندورة أخرى: "- ما بك تكشر أيها المساعد؟ يسألونك كرجل أيها الأخرق في عيد رأس السنة."

غرز فمه بشهوانية في ثمرة البندورة فرشّ عصيرها صدره، ثم شرع يتكلم وهو يمضغ ويمسح بكمه أوسمته الرنانة:

"- الألمان غير موجودين هناك. لا يوجد حي واحد في المنزل أيها الرفيق الملازم. حين زحفت إلى هناك أول ما فعلت هو أنني ألقيت نظرة على المنزل- كل شيء نظيف، وعلى أحسن وجه. الأثاث في مكانه والمناشف معلقة، ولا توجد روح حية. يبدو أنهم هربوا إلى مكان ما حين بدأ إطلاق النار من حولهم. هذا ما أفترضه."

لم يوافق لازاريف: "- ليس الأمر كذلك. في المنزل امرأة."

هتف شابكين وهو يتلاعب بعينيه السماويتين ملمحاً: "- انظروا إليه. لم ألحظ ذلك. وهل هي فتية؟"

برّد لازاريف من حميته: "- وما شأنك؟ ما بك فرحت مثل العجل؟ أرى أنك لم تجمع سدى عِدْلاً من الأوسمة والحدائد. أنت بطل على النساء أيها الرقيب، بطل..."

أنذره شابكين، وقد دفع وجهه إلى الأمام دفعة واحدة، وضم أذنيه مثل وحش مفترس يستعد للانقضاض: "- لا تمس أوسمتي بسوء أيها السجين كبير المنخرين. هل جننت أم ماذا؟ لا تمسنا، نحن جنود الاتصال أيها المستطلع، فسرية التأديب لا تخيفني... هل فهمت؟"

"- فهمت كل شيء منذ زمن. حين رحت تزحف بسرتك العارية على نثرات الخشب."

نهر فلاديمير المساعد بصوت جاف: "- ألست ثملاً قليلاً يا لازاريف؟" ثم قال لإيليا

عابساً: "- جلبوا من المطبخ ليلة أمس جالوناً من الفودكا للفصيلة كلها، لكنك تعرف كم كانت الخسائر..."

غمس لازاريف خيارة بالعسل السائل من الأقراص في القدر، وقضم نصفها، وراح يحرك فكيه بكسل ورباطة جأش رجل واثق من نفسه، وهو يغمز إيليا:

"- هكذا، جلبوا الفودكا للفصيلة فحصل عليها طاقم مدفع وحده. عيشنا رغيد كما في الجنة. نهجم منذ شهرين، ونغتسل بالدم، نصيح "أورا"، "أورا"، ثم نشرب الفودكا على روح الموتى" صاح بصوت جهوري: "- ألا تسمع يا كالينكين ما أقول. رش من الجالون للضابطين فأعصابهما متوترة جداً. إنهما قلقان جداً بشأن الألمان، يسألان أين هم. يشعران بالملل من غيرهم."

قال إيليا متفحصاً البستان على الضفة الأخرى: "- لا معنى للرش. لن أشرب، آه، ها هم الفتيان القنافذ." ثم سأله من غير اهتمام: "- نعم صحيح، أين هم؟"

"- ستراهم الآن أيها الملازم. انظر إلى طرف البستان الأيسر."

"- كيف أفهم هذا أيها المساعد؟"

"- انظر، قلت لك انظر."

قال إيليا، الذي مسته نبرة قائد جماعة الاستطلاع المليئة بالثقة الفظة بالنفس: "- هل ستستمر هذه الثرثرة طويلاً يا لازاريف؟" ثم كرر بجفاف: "- أسألك هل ستستمر طويلاً؟"

أجاب لازاريف بخشونة وبصوت ميت، لكنه نظر في الحال إلى ساعته اليدوية المغتنمة، ورمى ما بقي من الخيارة بين قدميه من غير أن يكمل مضغها: "- لست أنا من يثرثر، بل الأحمق. قلت لدينا هدنة مع الألمان. قلت لك انظر، سيخرج الألمان زاحفين الآن. هذا وقتهم."

أنهض بصعوبة جسمه القوي الثقيل، ووقف ملاصقاً إيليا تماماً، أخرق، تفوح منه رائحة البارود والعرق الشديد، وقذف اصبعه باتجاه طرف البستان الأيسر:

"- ها هناك، خلف شجيرات توت العليق توجد بندورة وخيار وحقل جبَس صغير.

مرعانا هناك. نحن قبل الغداء والألمان بعده. هاك، هاك أحدهم يزحف من الردمية... انظر إليه أيها الملازم."

ساد الهدوء الصيفي هنا، ولم يخل به أحد- لم تطلق القنابل المضيئة ليلاً والطلقات الدورية نهاراً- منذ مساء أمس الأول، بعد أن انسحب الألمان أخيراً عند الغسق، وانتهت المعركة ودفنوا القتلى. أما الآن فبدا وكأن رغد حرارة تموز وصرير الجداجد ورائحة العشب الدافئ وبرودة التراب، وخضرة بستان التفاح قد دفعت الحرب والألمان والمعركة ونتن التولين ودمار المدفع الثاني إلى سابع أرض- وحين رأى فلاديمير حركة غير واضحة وسط الظلال الكثيفة بين شجيرات توت العليق عند طرف البستان الأيسر، حيث دس اصبعه لازاريف، لم يعر أهمية جدية لكلمات هذا الأخير، وظن أنهم يسخرون بعدائية منه، هو قائد الفصيلة، ومن إيليا، الذي عين اليوم في مركز قائد البطارية. فسأل لازاريف بصرامة:

"- ما هذه الهدنة؟ ما هذا الهراء؟"

قال إيليا: "- نعم، اجتمع لديك شبان مرحون يا فاسيلييف... يستطيع المرء أن يضحك حتى الموت. إذن أقمتم هدنة؟ هل هم هكذا عندك دائماً؟ هل دعوت قائد جماعة الاستطلاع إلى فصيلتك من أجل الضحك خصيصاً؟ لماذا يطيل المساعد المكوث عند مدفعك؟"

صمت فلاديمير، وقد صدمه على حين غرة ألم ارتفع إلى عينيه مثل ضباب قاتم، وشعر بشد الغثيان وبدوار وضجيج في أذنيه، وسبح كل شيء متماوجاً أمامه. تهالك إلى الخلف على صندوق القذائف، والتصق ظهره وقذاله بالجدار الترابي لخندق المدفع أملاً في أن تبرده ملامسة التراب وتذيب الألم المثير للغثيان، الذي راح يعذبه بعد الارتجاج الذي أصابه أول أمس. كانت نوبات دوار الرأس هذه تهزه كالملاريا، فتصطك أسنانه ولا يعرف كيف يدفئ أصابعه الباردة ذات الأظافر المزرقة كأظافر الموتى.

فكر فلاديمير: "لا، لا، هذا ليس ارتجاجاً. تسممت بالبندورة ببساطة." وجعد جبينه حين راح يتذكر كيف أتخم أفراد الطاقم كلهم حتى القرف نهار أمس في الهدوء السائد بالبندورة التي جلبها لازاريف في أكياس الأمتعة من وراء الجدول، وكيف بدأ

فيما بعد يقطع بحربة ألمانية على صندوق القذائف جبستين صغيرتين، طريتين بسبب من الشمس، وملوثتين بالتراب، فرش جزمته ومشمع التاربولين المفروش بالبزور والنتف الزلقة الحمراء اللينة. بدا جوف الجبستين المفتوح دبقاً على نحو منفر، ومالحاً كالدم، أما الحربة الألمانية المثلمة والوسخة، فاسودت أيضاً بدم قديم متخثر كالصدأ في أخدودها، وهنا تقيأ فلاديمير بتشنج شديد أول مرة بعد الارتجاج، وصار الألم يصدع رأسه بنوبات كانت قد أجبرته اليوم فجراً على أن يتجه إلى المؤخرة القريبة بحثاً عن السرية الصحية فلم يجدها. لكنه عاد إلى المقدمة مع إيليا، الذي عين في منصب قائد البطارية المستشهد في معركة أول أمس.

تكلم إيليا هازئاً، وراح، من غير أن يلحظ شفرة الألم المستعصي الضيقة في حدقتي فلاديمير، يتابع باهتمام غير واثق اهتزاز شجيرات توت العليق عند طرف البستان قرب المنحدر نحو الجدول، حيث تكورت خلف أشجار التفاح أجسام الجبس المخططة وسط أوراقها: "- ها، يا فاسيلييف؟ ماذا تقول؟ راح الفتيان يكشفون عن مؤهلاتهم فيما كنت تتمشى في المؤخرة. حسناً، من أقر الهدنة؟ الرب الإله، قائد الجبهة، أم أنها فصيلتك على الرغم من كل شيء؟"

أكره فلاديمير نفسه على النظر إلى هناك، وهو يشعر بألم حاد فوق حاجبيه وبطنين في أذنيه بسبب من الشمس اللافحة، وبدت له بوضوح مفاجئ ثمار الجبس في المزرعة حمير وحش صغيرة، أضناها القيظ، فاستلقت متعبة تحت الأشجار التي ظللت المكان مثل شجرات نخيل واطئة تحمل ثماراً حمراء. "لا، لست على ما يرام." شعر كيف حمي رأسه من الشمس، واحترق عبر القميص بحدة ظهره الذي لم تبرده الأرض، وكيف ضربته برداء لا تقاوم متحدة مع الحرارة الشائكة، ولم تكفه الإرادة كي يتغلب على ارتجاف أسنانه. فكر فاسيلييف: "ما الذي يحدث لي؟ سأقع الآن؟" ونهض شاعراً بتمايل خدر، وخطا نحو ساتر الخندق وسقط بمرفقيه على الحافة محاولاً أن يراقب إلى جوار إيليا. لكن وميض الأوراق المغمورة بالشمس، الشبيه بوميض المرايا، وحركة البقع الشمسية على العشب تحت أشجار التفاح بهرته بسطوعها الحارق. لم ير بوضوح جيد ما هيّج انتباه إيليا، وبعد أن دلك عينيه المتألمتين حرر أخيراً المنظار

من بيته. اقتربت في الحال على نحو أشبه بالوهم شجيرات توت العليق ووجه فتي، صبياني تماماً، برز شاربه كالخط، وقد ارتفع نحو تلك الشجيرات ماطاً على نحو ساذج ومضحك شفتيه الملطختين بالعصير، وراح يلتقط بهما برقة الثمار الكبيرة والريانة والناضجة والممتلئة بالرطوبة الحلوة العطرة حتى صارت مرنة، وكانت عينا هذا الصبي الألماني المضيقتين قليلاً في تيار أشعة الشمس فرحتين على نحو غريب، وكذلك بدت خصلة الشعر الملتصق بجبينه المتعرق. استلقى بإعياء هانئ على الأرض تحت الشجيرات في ذلك الجو الخانق الراكد، وكانت سترته العسكرية الخضراء مفكوكة الأزرار حتى الحزام، ووضعت قبعته القماشية المليئة عن آخرها بثمار التوت على العشب مثل قارب، وراح يتلذذ، مستمتعاً بالهدوء والنهار الذهبي والأمان، بتناول الثمار المتدلية فوق وجه ، وبدا وكأنه يلاعبها بمط شفتيه الضاحكتين اللطيف نحوها. برزت في وعي فلاديمير وهلة ألمانيا الفائحة برائحة الخزام، ومنزل نظيف مدبب الذروة في بستان مقصوص العشب، ورمل أصفر على طرق سوية، والصبي الألماني هناك بجوربين أبيضين وقبعة بنامية بيضاء... أين رأى هذا؟ هل في الصور التي وجدها في وثائق القتلى؟

بان كل شيء في المنظار بأدق التفاصيل، وكان وجه الألماني قريباً، وكذلك قطرات العرق على جبينه وعنقه غير الملوح بالشمس والمكشوف بسترته العسكرية مفتوحة الياقة، حتى تهيأ له أن جزءاً من حياة أخرى وسهو إنسان آخر مكشوفان له مصادفة. لكن تمثل في الوقت نفسه في تسليته غير المؤذية ورضاه الصبياني والتقاطه الفرح للثمار الناضجة بفمه المبتسم شيءٌ ما محرم وممنوع، لم يكن يرغب في أن يراه الآن.

قال إيليا بقسوة بعد أن أمعن، على الأرجح، النظر جيداً إلى الألماني تحت شجيرات توت العليق: "- يرعى مثل عجل. آه منك أيها النذل اللطيف." ثم أمر بصوت غير عال طاعناً ظهر لازاريف الثابت بسواد عينيه الخطر: "- أعطني قربينتك يا شابكين. هل هي محشوة بالمتفجرات؟"

رد شابكين بشجاعة فائقة: "- بالمتفجرات دوماً. رؤوس الرصاصات مطلية

بالأحمر."

وقفز هازاً كتفيه المدورين نحو إيليا، ورمى في يده قرينة ألمانية جديدة ما كان يفارقها أبداً، ويحملها عادة في حزامه وفوهتها نحو الأسفل.

كرر إيليا: "- تزحف هناك وترعى؟ آه منك أيها النذل اللطيف." ثم التقط القرينة الجاهزة وكأن وجهه الأسمر قد تجمد، وأسند مرفقيه المتباعدين على حافة الساتر المغطاة بتراب ممزوج بالعشب والجذور، وصوب ضاغطاً وجنته الحليقة على الأخمص المصقول.

لم يتسن لأحد أن يقول له شيئاً، ولم يتسن لأحد أن يوقفه- تدحرجت الطلقة، واقتحمت الصمت هادرة، وأفلتت في الغابات المجاورة مصحوبة بالصدى، وانتفض الألماني في الوقت نفسه خائفاً ومتلفتاً غير فاهم، وراح يزرر سترته على عجل. التقط بعد ذلك قبعته القماشية المليئة بتوت العليق عن الأرض والقدر المسطح المليء بالبندورة، الذي ظهر بجانبه، وصار يزحف إلى الخلف على ركبتيه حذراً، ثم اختفى بضع ثوان خلف شجيرات توت العليق وركض مباشرة على حين غرة من تحت أشجار الحور المتطرفة في البستان، واندفع إلى الأعلى على الردمية المشمسة شديدة الانحدار مجدفاً ومنزلقاً بجزمته على التراب، وحاملاً قبعته المليئة بتوت العليق بيد وقدر الألمنيوم المليئة بالبندورة باليد الأخرى. فرقعت الطلقة الثانية فوق الأذن في الحال، وضربت الأنف رائحة البارود، وقفز الألماني على الردمية قفزة غريبة، وترنح إلى الخلف ورفع يديه كما لو أنه يريد أن يمسك خائفاً برأسه وشعره الفاتح المشعث. تدحرجت القدر المنفلتة على الردمية نحو الأسفل ناثرة حبات البندورة، وهوت القبعة مع توت العليق على الرمل. ركض متعثراً في كل خطوة يخطوها، عائداً إلى البستان بعد أن استدار لسبب ما بوجهه المتشوه من الدهشة الذليلة نحو جهة الإطلاق، وهناك، تحت أشجار الحور المتطرفة، سقط، ودفن وجهه في العشب، وراح كتفاه يهتزان كأنه ينتحب، وكان مخيفاً النظر إلى شعره الأشقر، الذي راح يلمع مع العشب من حوله ببقع حمراء سميكة تحت الشمس الحارقة.

"- جاهز، الفرخ الألماني."

رمى إيليا القرينة على الساتر، ورمق حانقاً شابكين، الذي قال هذه الجملة، ثم اصطدم بنظرة فلاديمير المشتتة، وبعيني لازاريف الثاقبتين كمثقبين فولاذيين، وجلس مبدياً رباطة جأش على صندوق القذائف وسط صمت عام، وقد فاضت وجنته بسمرة دقيقة.

قال إيليا بصوت مشدود: "- أبسبب من البندورة القذرة أقمتم مع الألمان هدنة؟ هل نسيتم كيف دفنا نصف فصيلتكم أول أمس؟ هل نسيتم مقبرة إخواننا وراء هذه الغابة؟ يا للقنافذ الجيدة لديك يا فاسيلييف. يبيعون أمهاتهم من أجل الطعام. ألم تشاهدوا مثل هذه القذارة؟.."

شتم، والتقط من القدر حبة بندورة ذات قشرة مرنة لامعة، وقذفها بكل قوته نحو جدار فجوة القذائف الترابي. سال عصير البندورة الأحمر على الجدار، وتقاطر لبها على غطاء الصندوق الخشبي، فاندفع الشعور بالغثيان نحو حنجرة فلاديمير مرة أخرى. تسنى له أن يركض خارجاً من فسحة المدفع. ثم أجبره الإقياء والسعال عند طرف الغابة على أن يتمسك بجذع صنوبرة. تعذب طويلاً وهو يكاد يبكي عجزاً، وخنقه النفور من شيء كثيف ما، أحمر، يلمع فاقعاً هناك في البستان تحت أشجار الحور، وهنا على جدار الفجوة وألواح صندوق القذائف.

مرت في تلك اللحظة زوبعة مدوية فوق رأسه، ولمع البرق، الذي أفقدته الشمس لونه، عند المدفع، وفرقعت الرصاصات على مقربة بصوت رنان غض، وتناثرت أوراق الصنوبر المقتلعة على قبعة فلاديمير. اندفع عائداً نحو الموقع الناري وهو يمسح شفتيه والدموع في عينيه، من غير أن يعي بعد من أين أطلق الرشاش الألماني الثقيل رشقته نحو المدفع.

نظروا في الموقع الناري جميعهم باتجاه واحد، إلى حيث ترامت الغابة إلى اليسار وراء ردمية السكة الحديدية، وإلى حيث تلألأت من بعيد جذوع أشجار الصنوبر البنية وازرقت السماء بين الأغصان والأوراق على نحو يعمي الأبصار. لكن الهدوء الصادح بصرير الجداجد ساد في كل مكان، ولم يكن مفهوماً من أين أطلق الرشاش نيرانه- لم يستطع فلاديمير أن يتبين الخطوط البرتقالية والهدير المدوي لرشقات الطلقات رداً

على طلقتي القرينة. "عليّ أن أنام جيداً اختلط كل شيء في رأسي. أي هذيان هذا..."

نطق إيليا بنبرة لا تقبل النقاش: "- صار واضحاً الآن أين تخندق الألمان، لكن ليس واضحاً لي لماذا عقدتم أواصر الأخوة معهم. مشاتنا غير موجودين في الأمام، أما أنتم فأرى أنكم تعيشون حياة جيدة أيها الفتيان."

سأله لازاريف بملل، وقد تحجر وجهه ضخم الوجنتين مهدداً: "- لِم أطلقت أيها الملازم؟"

وضع إيليا غير مستعجل قدمه المنتعلة جزمة التاربولين على صندوق القذائف، وراح يتفحص ببطء ردمية السكة الحديدية: "- وبعد، أيها المساعد. تابع، إنني أسمعك أيها المساعد."

كرر لازاريف نافخاً منخريه: "- لِم عكرت صفونا من غير سابق إنذار. لديك فصيلتك فلتتأمر هناك. ألا تشعر؟ لم ينادك أحد إلى هنا أيها الملازم."

لم يرفع صوته، لكن نظرته صارت ثقيلة، وتوقفت عند الجزمة المصنوعة من جلد التاربولين، التي انتعلها إيليا الجالس على ساقه بسلام (قايض بهذه الجزمة في مؤخرة فوج الرماة مسدس بارابيللو مغتنم)، ورأى فلاديمير أيضاً الجزمة الضيقة ذات المظهر الأنيق، الموضوعة على صندوق الذخيرة، وقد لطخها التراب وأوراق الأشجار من الجانب. سعى إيليا على نحو حثيث وخاص منذ مدرسة المدفعية، وكذلك الآن في الوفج، إلى أن يرتدي زياً جديداً وكتافيات ميدانية، ويبطن ياقة قميصه بحشية سيليلويدية لم يعرف أحد من أين حصل عليها (حلم الضباط الشبان كلهم)، وكان هذا الزي لائقاً عليه وملتصقاً على نحو أملس ومن غير طيات بكتفيه وصدره القوي المشدود بالحمالة الممررة تحت الكتافية المغسولة جيداً أو الملوثة كلها بالتراب. أما فردة الجزمة الموضوعة بثقة على صندوق القذائف فبدت وكأنها تؤكد قوته المستقلة الخفيفة، التي استفزت على الأرجح لازاريف، الغاضب غضباً شديداً بسبب من طلقتي إيليا غير المتوقعتين، اللتين أخلتا دفعة واحدة بالهدواء والطمأنينة قرب المدفع.

أنذره لازاريف، وقد انتفخت بشدة عروقه على عنقه العريض والسمين: "-

ألبست ساقيك جزمة وتظن أيها الملازم أن الجميع في البطارية سيسيرون أمامك على قوائمهم الخلفية؟ تريد أن تدوسنا بالنظام ايها الملازم؟ تريد أن تسحب أمعاءنا من أنوفنا كي نخافك من بعيد؟" تكلم لازاريف وهو يقهقه قهقهة مخنوقة: "- إنك لا تعرفني جيداً. كنا في فصائل مختلفة، ومع أنك ضابط فإنني قادر على الإساءة بشدة على نحو غير متوقع إذا ما حاول أحدهم أن يضغطني بظفره نحو الأرض، هل فهمت؟"

قال إيليا غير متفهم بعض الشيء: "- الإساءة؟ بشدة؟ إليّ؟ على ماذا؟ يا لك من أحمق يا لازاريف. حسناً، مرحباً ما دمت عصبياً هكذا. هات يدك، ما بك تنظر؟" ومد للمساعد يده كاشفاً عن أسنانه السوية بابتسامة باردة من غير أن يرفع فردة جزمته عن صندوق القذائف: "- مرحباً، أيها المحترم، مرحباً..."

"- ماذا؟"

"- أقول مرحباً."

نظر لازاريف حانقاً إلى اليد الممدودة له، وبدا واضحاً أنه لم يفهم هذه الإيماءة، لكنه، بعد أن قرر، كما بدا، في لحظة واحدة أن يلقن الملازم الغريب مرة وإلى الأبد درساً لا ينساه، ضرب في الحال بقوة راحته الهائلة الوعرة براحة إيليا، فصدر صوت لسع شديد، وأمسك بها كما بالكماشة، وراح يضغط على أصابعه.

توعد لازاريف مقهقهاً بصوته الأبح نفسه، ودعا الجميع إلى اللعبة المقترحة، غامزاً بجفنيه المتدليين على شكل طيات كالينكين وشابكين، الذي جلس على ركيزة المدفع منتظراً بدهشة، ودافعاً قبعته القماشية نحو قذاله:

"- إذن انظر أيها الملازم. سأحطم أصابعك مثل فتاة."

نظر إيليا بهدوء خطرٍ قاسٍ إلى عيني لازاريف السئمتين عمداً، وسمح له قائلاً: "- حطم يا لازاريف، لا ترحم."

وقفا قرابة الدقيقتين متقابلين ومتحدين في نزال منافٍ للطبيعة، وأحدهما يشد على كف الآخر ويفتله مصافحاً، وقد راح المساعد لازاريف يلوي أقوى فأقوى ومن

غير رحمة أصابع الملازم، محاولاً أن يضفي على وجهه ضخم الوجنتين تعبيراً نعساً وسئماً، وهو ينظر ببلادة إلى جبين إيليا الشاحب والمغسول بقطرات العرق.

قال إيليا فجاءة: "- تعال، تعال إلى هنا يا ميكولا سيليانينوفيتش."

وجذب لازاريف نحو الفجوة حيث كان المكان أرحب، ووقفا متقابلين مرة أخرى ومتشابكين بمصافحة عدائية.

بعد ذلك، وبعد أن باعد لازاريف بين ساقيه الشبيهين بجذعي شجرة في جزمة رخيصة، نطح كتف إيليا برأسه على نحو لا يخلو من ثقة متكاسلة، مقترحاً عليه بدأ المصارعة، لكن هذا الأخيرة التفت نصف التفاتة بمرونة وعصبية، وتأرجح نحو الأمام، ورمى بسرعة البرق ذراع لازاريف من خلل كتفه وشده بحدة حتى فرقع المفصل، ثم دفع حالاً الجسم الثقيل من الجانب بطريقة ما نحو ساتر فسحة المدفع، مقطباً بسبب من صرخة انطلقت من حنجرة المساعد عبر أسنانه المكشرة. قام بخطوة نحو لازاريف المطروح أرضاً، واستقام فوقه وهو يتنفس بعمق، ويصحح على صدره الحمالة التي سقطت في أثناء العراك. أما لازاريف المبلل بالعرق كله فراح يتنشق الهواء بنشقات شرهة، وانتفخ عنقه العريض، ثم شرع ينهض بصعوبة، مستنداً على مرفقه، وكرر لاهثاً:

"- معنى ذلك أنك أردت أن تحطم عنقي؟ أليس كذلك؟ معنى ذلك أنك أردت أن تحطم عنقي بحركة ممنوعة."

"- صحيح، أردت. لكنني لم أحطمه. في المرة القادمة سأفعل، وسأرسلك إلى المشفى أيها الشيطان الأحمق."

تكلم إيليا بنصف صوته جاذباً قميصه العسكري وكأن انعدام الرغبة المنفر في شرح أي شيء كان يكبحه، أما عيناه المضيقتان فكانتا ملتهبتين بنار لا ترحم فيها تفوق مقنع.

تابع إيليا كلامه بمهابة لا تقبل المماحكة: "- إذا كان في رأسك ولو تلفيفان فاسمع يا لازاريف وتذكر. أولاً- لقد قابلت أمثالك منذ أيام المدرسة ومدرسة المدفعية، وأؤكد

لـك أنني كدسـتهم على المجرفـة. ثانيـاً- ستنصـاع لأوامـري صـاغراً. واضـح؟ أنـا- قائـد الفصيلة الأولى، وقد عينوني لأقوم مقام قائد البطارية، واضح أيضاً؟ هل فهمت كل شيء أيها المساعد؟ أم ليس تماماً؟"

وقف لازاريف قبالة إيليا لاهثاً، وقد برز شعره المجعد على نحو مدهش على وجهه الغاضب المتجهم، بيد أنه وجد في نفسه القوة كي ينطق بنبرة الحقد اللطيف.

"- ربما تعلمني هذه الحركة الماهرة أيها الملازم؟"

"- لن أعلمك."

"- رويدك، لا ترتكب الهفوات. سيأتي يوم تطلب فيه صداقتي، فأنا فتى قنفذ لي في كل سد منفذ. اليوم أنت الرابح، أما غداً فأنا."

قـال إيليـا مجيبـاً بمجاملـة متكلفـة، وربـت براحتـه متصـنعاً الرقـة على منكـب لازاريـف الضـخم، الـذي وقـف ضـاغطاً فكيـه وحسـب: "- سـي- لا- في[1] كمـا يقـول الفرنسيون... اتفقنا؟ أم يحتاج الأمر إلى دلائل أخرى؟"

****

لـم يُخـفِ إيليـا في اشـتباكه المفـاجئ هـذا مـع المسـاعد تفوقـه السـاحر على قائـد جماعة الاستطلاع الأكبر منه سناً بما يقارب العشرة أعوام، والمغتر بقوته، والمجبر مع ذلك على الانصياع له، هو الضابط- الصبي، القادم إلى هنا، إلى الموقع الناري بصفته الجديدة كقائد البطارية، والذي أخل في رمشة عين بالنظام السائد هنا.

عـرف فلاديمير مـن المدرسـة ومـن مدرسـة المدفعيـة قلـة صـبر إيليـا تجـاه أيـة قـوة جسـدية لأي كان، وعـرف أنـه مـارس بولـع منـذ الصـف السـابع الجمبـاز تـارة وتـارة في قسـم الملاكمـة، ممرنـاً عضـلاته بالتمـارين المسـتمرة والتمـارين على العارضـة وبالضـغط الدائم في قبضته على الكرة المطاطية- وفي الصف التاسع صار مشهوراً بأنه الأقوى في "البنـاء الرابـع"، ولـم يحـاول أي مـن المنافسـين في أزقـة زاموسكفوريتشـيه أن يـدعوه بصلـف إلى "الصـدام" وجهـاً لوجـه. حين أصابه الـهزال في مدرسـة المدفعيـة بسـبب من

---

[1] هكذا هي الحياة (بالفرنسية).

التعيينات المتواضعة، وخيل أنه نسي هواياته السابقة، صار يدلك نفسه من جديد بالثلج في الرياضة الصباحية، ويداوم مساء على تمارين السامبو، وقد بدا هذا الأمر غير ضروري ومضحكاً مثل التلاعب المغرور بمهارة الجسد المدرب جيداً أمام أعين الفتيات في الصالة الرياضية قبل الحرب، ومرة حدثه فلاديمير بذلك، لكن إيليا تقبل ملحوظته بطيب نفس تقريباً، وأجاب أن تنمية العضلات ضرورية للمرء ليس في فترة الطفولة وحسب بل في بعض الفترات في الحياة حتى لا يذل بقوة الآخرين.

كان إذلال لازاريف واضحاً، وكادت الإرادة لا تكفيه كي يتعامل بذكاء مع سورة الغضب الجنوني العاجز، التي كانت ستذله أكثر في نظر الضابطين، غير أن عقله الخبير أوحى له باستعادة هيئة التوازن على الأقل وبتخفيف الهزيمة، فصدح صوته الأجش بجنون معسول:

"- ربما نحاول الاتفاق بالسكاكين أيضاً؟ على عادة الغجر. أرى أن خنجرك وطني، أما خنجري فمغتنم. الفرق كبير إذا ما تعاركنا حتى تسيل أول قطرات دم."

وأخرج من الغمد خنجراً دقيقاً مع أخدود لتصريف الدم، وكأنه يخرجه من ضحية يحقد عليها، وبصق على ظفره ومس الشفرة الفولاذية، أما إيليا فخطا بمرونة نحوه وهو يفقد تمالك أعصابه، وقال ملتوياً غيظاً:

"- كفى، فلتنه هذا السيرك الرخيص يا لازاريف وإلا سأكسر عنقك فعلاً. واضح؟"

مسح لازاريف الخنجر بكمه على نحو لا يخلو من حذر طقوسي، وراح يهز بإيجاب وبحلاوة زائدة وجهه عريض الوجنتين.

"- لقد عمل الخنجر عمله. اختُبِر."

كرر إيليا: "- أسألك- واضح؟ أم لا؟.."

وكان في صوته من السلطة قدر ما يملك من الثقة في تصرفاته واستعداده للإقدام على أي شيء من أجل انتظامه النفسي ومن أجل انتظام شكل العلاقات المتبادلة، حتى أن لازاريف، كما بدا، قد وعى بذهن صاف في تلك اللحظة ما قد ينوي عليه قائد الفصيلة الأولى المعين في وظيفة قائد البطارية.

رد لازاريف، وقد أدخل الخنجر في غمده: "- واضح. هذا ما سنكتب، واضح."

نصحه إيليا بحدة: "- هكذا تماماً. أنصحك بأن تهتم بالأهداف من أجل البطارية، وأن تجهز نقطة المراقبة قبل أن يفوت الأوان، وليس عقد أواصر الأخوة."

ثم قال لفلاديمير: "- علينا أن نتحدث يا فاسيلييف."

سارا في الغابة على الطريق المغطاة بأوراق الصنوبر المتساقطة والمرقطة بالجزر الشمسية، وتدفق في كل مكان دفء القطران المداس، وطغت من خلف كتف الطريق رائحة توت العليق الساخن، فتذكر فلاديمير مرة أخرى كيف مط الصبي الألماني الأشقر شفتيه نحو الثمار الناضجة، وكيف أصابته الطلقة الثانية على الردمية المكشوفة، وكيف سقط ودفن وجهه في العشب موقعاً قبعته وما فيها من توت العليق، وصار شعره يتورم بالدم السميك.

قال فلاديمير شاعراً بتوعك: "- لماذا؟ ما كان ثمة لزوم..."

"- أنت حنون القلب يا فولودينكا كما أرى. أم أنك- وقعت ولازاريف هدنة مع الألمان؟ ويسمونه قائد جماعة الاستطلاع. انتقل إلى فصيلتك ويتظاهر بأنه في المقدمة. يلتهم الطعام ويتواجد فيها، أما أين طلائع الألمان فلا يعرف. مدفعك في موقع التسديد المباشر كما أفهم، فأين الألمان؟"

"- كانوا على الردمية."

"- أين- على الردمية؟ رد رشاش واحد على طلقتيّ من مكان ما من اليسار- واحد فقط. أين حد الألمان الأمامي أمامك؟ إلى أين ستطلق؟"

فكر فلاديمير المهزوز بالبرداء والمكتسح، الذي لم يستفق بعد من معركة أول أمس، ولم ينس مدفعه المدمر وأفراد طاقمه المستشهدين في أثناء هجوم الدبابات المضاد على بعد كيلومترين تقريباً خلف غابة الصنوبر هذه: "إنه غاضب مني أيضاً."

عارض فلاديمير، وقد أجبرت كلماته المدعوكة باصطكاك أسنانه إيليا على أن يلتفت إليه بسرعة:

"- لا تقلق بـ. شـ. أني... من فضلك."

"- اسمع. ربما عليك أن تذهب إلى المشفى بارتجاجك هذا؟ ما بك ترتجف؟"

تمتم فلاديمير: "- لا، الأمر عادي. لا بأس، ارتجاج غير قوي، سيزول."

فك إيليا ياقة قميصه، وتلكأ قرب شجيرات التوت البري النامية خلف حافة الطريق وقد فاحت رائحة أوراقها الحارة ورائحة جو الغابة الخانق القديم، فقطف بضع حبات ضخمة ورماها في فمه.

"- قذارة... يا لها من ساخنة كيف راح يلتهمها؟"

بصق بقرف، وتسللت يده نحو علبة السجائر المعدنية الألمانية، التي رسم على غطائها رسم غوطي، وأخرج منها سيجارة. مر في عينيه ظل مكفهر لذكرى سيئة، فضغط شفتيه متسلطاً، كما كان يفعل دائماً حين لا يريد أن يشعر بأنه غير محق.

تكلم إيليا، وهو يجلس على صنوبرة مقلوبة غير بعيدة عن الممر، وكان مرئياً من فوقها المدفع المموه بالمشمع والجنديان المستلقيان على العشب، وقد غطيا وجهيهما بقبعتيهما القماشيتين وأغفيا متدفئين تحت الشمس المحرقة: "- إليك التالي يا فولوديا. إليك أين يكمن غباء الوضع. مشاتنا غير موجودين أمامك، والألمان غير موجودين على الردمية. يشرف مدفعاي على هذه الطريق بعد المعركة، وكما ترى فالجنود يتشمسون. الأوامر أن نتوقف، ونحن متوقفون كالعميان. هل تظن أن الدبابات ستسير نحو هذه الغابة؟ لا يبدو الأمر كذلك. كان كل شيء واضحاً أول أمس. هجمنا نحو وولوا الأدبار هم. أين الألمان الآن- خلف الردمية أم ابتعدوا أكثر من ذلك- الله أعلم. على هذا النحو سنخرج مدفعيّ من هنا ونضعهما على بعد مائة متر من مدفعك عند طرف الغابة. سيكون هذا أجدى، فإذا هجمت الدبابات فإنها ستندفع عبر معبر السكة الحديدية ثم عبر الجسر..."

أشعل السيجارة ومضغ طرفها، وبرزت خرزات العرق فوق حاجبيه المزاحين بسبب من الهواء الخانق المشبع بالبخار، وفاحت هنا رائحة التوابل والتحلل الثقيلة، وأزت الذبابات الخضر الناعسة فوق الطريق، وبرقت كالنقاط تحت الشمس، وحطت على مواد معركة أول أمس المغروزة بالعجلات في التراب- أسطوانات مضادات الغاز الألمانية المضلعة، التي فلطحتها العجلات، والعبوات الحديدية التي تحفظ بها الألغام،

وعلب السجائر المدعوكة ورقائق الكحول الاصطناعي البيضاء وسكرية اللون المتناثرة- مواد أجنبية غامضة أثارت فضول فلاديمير بالحياة المختلفة المسجونة بها، والتي تحمل رائحتها الخاصة ومعناها الخاص.

قال فلاديمير شاعراً بنسمة جسد متحلل في الهواء المشبع بالبخار، وكأن أزيز الذباب الأخضر هو الذي حملها إلى هنا: "- ثمة قتلى على مقربة."

جعد إيليا جبينه، وغرز بكعب جزمته مخزن بندقية آلية ألمانية فارغاً في التراب، ثم أكمل حديثه مهتاجاً: "- يكمن غباء الوضع في أننا، أنا وأنت، مرتبطان بلازاريف في أمور كثيرة، وأنا لا أطيق الإبهام."

"- سيختار لازاريف نقطة مراقبة على الردمية ليلاً، وسيكون كل شيء على ما يرام."

"- لا."

"- ماذا "لا"؟"

قال إيليا: "- لا، أولاً- الوقت طويل حتى الليل، وثانياً- لا أثق كثيراً بلازاريف. أظن أنني سأضطر إلى تمريغ خطمه بالتراب أكثر من مرة. أفكر في أن أعين شابكين قائداً لجماعة الاستطلاع، ولازاريف مكانه في الاتصال. هذا أضمن، أما هناك فسنرى."

تسلم إيليا من غير تردد قيادة ثلاثة مدافع من مدافع الفوج، وتسعة عشر جندياً، الباقين بعد معركة أول أمس، التي استشهد فيها قائد البطارية الملازم أول دروبيشيف وقائد فصيلة التوجيه الملازم كوروتشكين مع طاقم المدفع الرابع كلهم. لقد قتلوا جميعهم بإصابة مباشرة- حدد مدفعان سياران اتجاه الطلقات وتسللا عبر الجناح على نحو غير ملحوظ إلى مرتفعين مغطيين بالشجيرات، وضربا من على بعد مائتي متر المدفع المكشوف. تمركز المدفع الثالث عند تقاطع الطرق الميدانية، على بعد مائة وخمسين خطوة تقريباً إلى اليمين من المدفع الرابع، لذلك نقل المدفعان السياران نيرانهما نحوه من غير إبطاء، وحين ثاب فلاديمير، الذي أصمه الدوي الهادر وغطاه التراب، إلى رشده مختنقاً بسعاله فإنه رأى حافة كتف الطريق مدمرة كلها،

ومقطوعـة بحفـر القـذائف المدخنـة، وقـد بـرزت حـوافي الشـظايا الحـادة مـن التربـة المحروقة، ولـم يحفـظ لـه حياتـه في تلـك السـنتيمترات القليلـة مـن الفـراغ، الـذي سـلم مـن القصـف، سـوى المصير السـعيد والحـظ وتسـاهل القـدر. أصيب بالارتجـاج، وراح صرير الجداجـد المتحـول إلى رنـين خـالص يمـلأ أذنيـه مـن وقـت إلى آخـر كمـا لـو أنـه مستلق على سـطح العنبر في ليلـة صـافية في القريـة، وكان الصـمم التـام يحـيط بـه أحياناً، ويشـعر بألـم وثمالـة في رأسـه فلا يعود يسمع صوته. أما ما بقي من أفـراد المدفع الرابـع، ومـا وجـب جمعـه فيمـا بعـد أشـلاء أشـلاء ودفنـه قـرب المدفع المحطـم في قبر محفـور بسـرعة، فكان مخيفاً وبشـعاً إلى درجـة اسـتحال معهـا معرفـة أي كان ولـو من الثيـاب، أو تسـمية أي كان باسـمه، وكان مسـتحيلاً التفريق بين الملازم أول دروبيشـيف والملازم كوروتشـكين. ألغى الارتجـاج، الـذي حجـب وعي فاسـيلييف، الواقـع، فاسـتولى عليه جنـون مسـعور، وراح يشـتم غاضبـاً وهـو يصـدر الأوامـر للمـدفع الوحيـد البـاقي مـن فصـيلته، ويبكـي ويمـرغ بقبضـته الـدموع على وجهـه المخطـط بخطـوط مـن سـخام البـارود.

انطلـق المشـاة إلى الـهجوم بضـع مـرات، وكـانوا يسـتلقون ثـم ينهضـون مـن جديـد مصحـوبين بالصـفير والصـيحات والقنابـل المضـيئة، وسـرعان مـا اسـود الميـدان الممتـد حتى خنـادق الألمـان بكثافـة بجثـث القتلى، وكان الـهجوم الأخير منهَكاً تمامـاً- انفصـلت أجسـاد نـادرة عـن الأرض وتحـركت في فـوضى نيران الرشـقات الخطاطـة.

انتهـت المعركـة في الظلمـة، وصـمت كل شـيء. اسـتولى المشـاة، الـذين فقـدوا خلـل النهـار نصـف التعزيـزات التي أتتهم منـذ وقـت قريـب، على خنـدق الألمـان أخيراً، وامتـدوا نحـو الغابـة، واحتلوا في وقـت متأخـر مـن المساء محطـة القطـار خلـف الغابـة.

اسـتلمت المدفعيـة أمـراً بالانتقـال، وبـأن تشـغل فصـيلة رامـزين الأولى الموقـع في منطقـة الممـر قـرب الطريـق باتجـاه تهـدده الـدبابات، أمـا فصـيلة فاسـيلييف الثانيـة (المـدفع الوحيـد المتبقي) فتقـف على مرمى مباشـر قبالـة معبر السـكة الحديديـة. مع حلـول منتصـف الليـل جهـزوا الموقـع النـاري، وحفـروا الخنـادق الصـغيرة بكامـل شـكلها،

وأمضوا اليوم التالي الراكد والقائظ كله في حال من النعاس، فلم يرغب أحد في الحركة وفي تناول الطعام والتحدث، وملأ الطنين رأس فلاديمير، الذي لم يخرج من خندقه، وراحت تسبح في ذاكرته مزق الثياب المدماة وأزرار الضباط المعدنية عليها، وحفر القذائف بين ركائز المدفع وشيء ما هلامي أحمر التصق على شكل خثرة مشعثة بدرع المدفع الجانح، وانتشرت في الميدان كله أجساد القتلى من التعزيز الأخير- معاطف جديدة ظهورها قاسية على نحو لا يعقل ولفائف سميكة على الأقدام لم تهترئ بعد...

أيقظه صباحاً قائد المدفع الرقيب ديمين، ودعاه إلى الطاقم لتناول فطور ملكي- عسل وخيار وبندورة وجبس- لكن فلاديمير رفض رفضاً قاطعاً: برزت أمام عينيه طوال الوقت تلك الخثرة السميكة الهلامية على درع المدفع المدمر، وبدأ يشعر بالغثيان دفعة واحدة وبتقلب معدته الفارغة، وأصابه سعال تشنجي ونفرت من عينيه دموعه الغزيرة المهينة، التي كان يخجل من ذرفها أمام الجنود.

لم يرغب في أن يتذكر معركة أمس الأول، ولم يرغب في أن يعرف إيليا بالارتجاج الذي أصابه، شاعراً بالحسد من وجهه الأسمر الحليق على نحو متحذلق، ومن قوته التي لا تعرف التردد حين راح يؤكد جدارته في مركزه الجديد كقائد للبطارية، وكان صوته الآمر، الذي أعلن به الآن عن عدم ثقته بقائد جماعة الاستطلاع، مليئاً بالحزم والإصرار.

قال إيليا: "- أظن أن الملازم كوروتشكين، ليكن مثواه الجنة، قد أفرط في تدليل لازاريف حتى صار لا يطاق. كان يقوم بكل شيء عنه، أما هو فيذر الرماد في الأعين، واسؤال ما حاجتي إلى استطلاع كهذا من أجل المدفعية؟ لا يعرف بدقة أين طلائع الألمان، ويسير في البطارية مثل ديك رومي."

"- تعرف أن لازاريف كان في السجن قبل الجبهة، وهو، عموماً، شخص مشكوك فيه ولا أحد يريد التعامل معه."

"- أعرف، ولا أريد هذه المعرفة. لا يهمني من كان. ما يهمني من هو الآن. يجب طرد لازاريف من الاستطلاع. يجب طرده حالاً من تلابيبه. يدهشني، طبعاً، أن هذا المساعد

الظريف يعتبر نفسه محور البطارية. لا يريد الانصياع كما ترى. غبي، سأجبره على تنفيذ مهامه مثل جندي أنموذجي أو سأحطم عموده الفقري، الأحمق."

"- أظن أنك فعلت ما فيه الكفاية."

"- هذا ما كان يحتاج إليه. عموماً، فأنا لا أنوي أن أغفر له شيئاً."

"- أنت أدرى يا ايليا. الاستطلاع والاتصال تحت إمرتك."

"- هكذا تحديداً، تحت إمرتي."

****

"هل يمكن الموافقة على أن قرار إيليا في ذلك اليوم من شهر تموز عام 1943 قد لعب دوره في تحديد مصيره، وغيّر مجرى حياته كلها؟ وأنني لم أستطع أن أفعل شيئاً أو أتنبأ بشيء؟ لكن هل كان في الإمكان إيقافه؟"

****

رجعا إلى المدفع، وأعلن إيليا عن تبديل قائدي جماعتي فصيلة التوجيه. بعد أن سمع لازاريف الأمر شمل بنظرة من عينيه المصوبتين والمتلألئتين قامة شابكين المتينة من رأسه إلى قدميه، ثم بصق من فوق الساتر بغيظ كسول، وجلس قرب قدر أقراص العسل وهو مقتنع ظاهرياً قناعة راسخة بوقوف الحق إلى جانبه. لم يبدل هذا التغيير في الجوهر أي شيء في حياة لازاريف (الاستطلاع واتصال البطارية وجهان لعملة واحدة) لكن، احتكاماً إلى جلوسه على ركيزة المدفع وقد وسع منخريه، وراح يمضغ الأقراص وينظر باهتمام مصطنع إلى الدبابير الحائمة حول القدر، واحتكاماً إلى صمته العنيد، كان واضحاً كم كلفه من جهد الانصياع التام لإرادة قائد البطارية الجديد الصارمة، الذي حطم وضعه المتين المستقل عن قادة الفصائل النارية. انهمك كالينكين بتقطيع الجبس على مشمع التاربولين ماداً عنقه العاري، فيما استلقى الباقون في ظل الساتر، وهم يقضمون الخيار بصوت غير عالٍ، من غير أن يحزم أحدهم أمره وينظر إلى وجه لازاريف، الذي كف تدريجاً عن المضغ وتصلب عظما وجنتيه.

تكلم إيليا بصوت رجل آمرٍ لا يشك في شيء: "- ... إليكم ماذا سنفعل. سنحرك المدفعين من الغابة نحو بدايتها، باتجاه مدفع فصيلة فاسيلييف. انتهت الهدنة مع الألمان. جدير بك أن تعي ذلك يا لازاريف. انتهى التقاعس أيضاً. على شابكين أن يشغل نقطة المراقبة على ردمية السكة الحديدية وأن يجهزها فوراً. في منطقة البستان والمنزل. أمنحك ساعتين للتجهيز. أمنح لازاريف الوقت نفسه ليتصل بالمشاة."

****

أبلغوه بعد ساعتين تماماً أن نقطة المراقبة اختيرت على ردمية السكة الحديدية، وأنهم أقاموا الاتصال بين المدافع الثلاثة المتخندقة عند طرف الغابة، والاتصال مع كتيبة رماة الميمنة، التي تشغل محطة القطار ثم انتقل إيليا إلى الجهة الأخرى من الجدول، نحو الردمية كي يتمركز في نقطة مراقبة البطارية.

وسال مجدداً السكون الصيفي لهذا النهار المشمس قادماً من أدغال غابة الصنوبر، فلف المدافع بالحر والهدوء وبأزيز الدبابير أحادي النغمة، وزحفت غشاوة النعاس اللزجة فالتصقت أجفان الجنود بعد الطعام. جلس الحارس كالينكين على ركيزة المدفع الأخير، وراح يتثاءب من وقت إلى آخر باسترخاء شهواني وعلى نحو ممطوط، مصفقاً كالنساء بيده الخشنة على فمه، أما الرقيب ديمين الوسيم ذو الصدر المتين والشعر الأصهب فاتخذ لنفسه مكاناً تحت الساتر، دافعاً قبعته على جبينه وضيق عينيه بسبب من الغيوم المتراكمة التي لمعت حوافها في زرقة السماء. تفرق الجنود الباقون هاربين من الشمس المحرقة، التي لفحت المكان المكشوف عند المدفع، فمنهم من زحف إلى الخنادق المحفورة الصغيرة ليقتربوا من برودة التراب، ومنهم من زحف إلى حفرة القذائف التي غطيت بمشمع التاربولين.

استلقى فلاديمير على المشمع المفروش عند بداية الغابة قرب شجرة صنوبر ضخمة (سرت هنا من الأرض برودة تكاد لا تلحظ)، وشعر كيف راح ألم الرأس يفارقه، فبدا وكأنه يذوب كله في كسل ساعة الشبع المسالم، وفي برقشة بقع الضوء، وفي هناء هذا الصيف الخالي من أي صوت من أصوات الحرب، هذا الصيف الواعد وعداً ملحاً بالحياة الدائمة المليئة بالأيام الخضراء وغزيرة النور، والمشبعة بالحب

والفرح كما كانت في وقت ما في فترات الغسق الريفية في مالاخوفكا المحجوبة بأدخنة السماورات الرمادية الزرقاء، وقد صدحت فيها أصوات الحاكيات من الأزقة التي نما الليلك فيها، وهدير قطارات الضواحي الكهربائية المتأخر خلف الغابة المنارة بنور القمر.

أشد ما آلمه هو أن إيليا كان يستلم الرسائل من ماشا والمثلثات المطوية من أوراق الدفاتر المدرسية المسطرة، فيقرؤها رافعاً حاجبيه بسخرية، ويقول بشيء من الدهشة: "آ"- ثم يدسها في حقيبته الميدانية على نحو لا يخلو من قلة اهتمام، وكان فلاديمير يعجز في كل مرة عن مقاومة رغبته في السؤال عن ما كتبته ماشا من طشقند، فيضيف إيليا ساخراً كل مرة بعد أن ينقل تحياتها له: "- تخيل، لا زالوا يجلسون على المقاعد ويحلون المسائل في الهندسة الفراغية، ذهول، حنان، زقزقة عصافير في البساتين. بم أجيبها؟" أما نحن، لو تدرين يا ماشا، فنقصف الدبابات"؟ الأفضل أن تجيبها أنت. هل تريد؟"

كان في علاقته برسائلها سأم متساهل لرجل ناضج تجاه كلمات طفولية، كتبتها تلميذة قابلها على نحو عابر منذ سنوات كثيرة، وهو الآن لا يرغب كثيراً في أن يتعب نفسه بمراسلتها بانتظام. أما فلاديمير فكان يكتب لها راغباً، والأدق كان يجيبها عنه وعن إيليا، لكن رسائلها، كما من قبل، لم تأته هو، فكان يعاني من الشعور بالاستياء والظلم من وقت إلى آخر. كان عليه، كما هو واضح، أن لا يتذكرها كثيراً. آن الأوان كي يتعامل مع الماضي المدرسي الساذج كما يتعامل ايليا- بتساهل ودي صادر عن ضابط فهم في الحرب أكثر كثيراً مما فهمه هو- خلل تسعة أشهر من الدراسة في مدرسة المدفعية وخلل اثني عشر شهراً في الجبهة، حيث قادا، هما الاثنان، فصيلتين ناريتين، وقل ما افترقا وهما يدعمان الكتائب المختلفة بالنيران.

كان إيليا، احتكاماً إلى طبيعته، مستعداً منذ زمن لقيادة البطارية. لم يحمل قائد البطارية السابق الملازم أول دروبيشيف، الرجل الذي لم يعد فتياً وضيق الأفق والأخرق، والذي دعي إلى الجيش من الاحتياط "خرقة مدينة"، على محمل الجد، بيد

أنه نفذ أوامره بتلك الحماسة المصطنعة ذاتها التي ساعدته على أن يخفي نفوره الخاص.

فكر فلاديمير، الذي خدره النعاس وهو مستلق على المشمع تحت أغصان شجرة الصنوبر: "سيجبر الجميع في البطارية الآن على الاستماع إليه. سيجبر الجميع على تنفيذ واجباتهم، ولن يصبر على أي تماد."

تلاشت في الأعالي خلف الذروة الخضراء العريضة تكورات الغيوم المشبعة بالنور مثل دخان رقيق، وتهيأ له أنه استلقى بعد السباحة هكذا في قارب في يوم قائظ، مسبلاً المجدافين، منصتاً إلى صوت تلاطم الماء على الجانبين. فاحت طوال الوقت رائحة النهر الصيفي الرائعة ورائحة المنشفة المبللة، وانسابت جانباً ضفتا كليازما الريفيتان، وسبحت الغيوم المستديرة الساقطة في الماء على امتداد خمائل القصب النهري.

وتذكر في غفوته نهاية الصيف في موسكو، حين بدأوا يتقاطرون إليها مع افتتاح المدرسة- أمسيات آب الطويلة في الفناء، التي راحت تُرجع دفء الاسفلت في أزقة زاموسكفوريتشيه، وتصاعد الغبار الزهري عند الغروب فوق ملعب الكرة الطائرة الغاص بالناس في حديقة المدرسة، وكيف كان يرى، حين يستقبل الكرة المرسلة من ماشا، كيف يتطاير شعرها المحروق، وتلمع عيناها المستمتعتان والضاحكتان لإحساسها بمرونة جسدها الطيع الفتي ولمعرفتها سلطانها على أولئك الذين نظروا باهتمام فائق إلى كتفيها الذهبيتين الملوحتين والشبيهتين بالشوكولا عند الغسق، بسبب من مياه البحر وشمس الجنوب...

تحرك فلاديمير قليلاً، ثم جلس متهالكاً على جذع الصنوبرة. هبت عليه موجات من هواء قطراني، واستلقى كل ما حوله في سبات نعس لدن فرضه صرير الجداجد. تناهى إلى مسمعه من المدفع ومن فجوة القذائف ومن تحت مشمع التاربولين شخير الجنود نافحاً إياه بشعور راسخ، منزلي، وكأن الطاقم الرابع لم يدفن كله أول أمس في مقبرة أخوية.

تثاءب الحارس كالينكين طويلاً، وقد وضع وهو جالس على ركيزة المدفع وسناً

القرينة على ركبتيه، وراح يدير عينيه الحمراوين، وردَّ بصيحة استياء حين أيقظته فجاءة دفعة من قدم ديمين:

"-هل جننت أم ماذا؟"

حينئذ رفع ديمين عن الأرض رأسه الجميل ذا الشعر الأصهب، ونادى على نحو لا يخلو من استعطاف هزلي: "- كالينكين."

"- نعم."

"- أنت كالغنم."

شرع كالينكين يتكلم بصوت لائم هادئ، وانكمشت كالمذنبة شفته العلوية المقطوعة بشظية والشبيهة بشفة الأرنب: "- هل عدت إلى ألاعيبك مرة أخرى؟ ماذا فعلت لك؟ لماذا تسخر مني؟ أنت ابن مدينتي يا ديمين، كم عددنا نحن الفارونيجيين.. واحد، اثنان، وانتهى. لا تسئ إلي كرمى لله.. لم يبق سوانا من المدينة نفسها. أول أمس سقط ماكاروف... من ماليخ دفوريكوف. أصابته شظية في صدره فخربته. أنا وأنت الأخيران."

أما ديمين، الذي راح يتمطى على الأرض بجسده الشاب مستمتعاً بعدم القيام بأي عمل وباسترخاء الشبع، فناداه مجدداً متصنعاً الرزانة:

"- كالينكين. هل تسمع يا كالي. ينكين؟ أم أنك أصبت بالصمم كالقطا؟"

"- ماذا؟ نعم؟"

"- أنت كالغنم. ذكي جداً. لذلك يغلبك الشخير في موقع الحراسة. رأسك ماكر، من أين لك هذا المكر؟"

سأله كالينكين شاكياً، وتجعدت شفته العلوية المشوهة بما يشبه الابتسامة: "- لأجل أي هدف تضايقني يا ديمين؟"

تكلم ديمين ممتلئاً حبوراً مصطنعاً، وأطلق زفرة من صدره الواسع: "- راعي الحمام. ما إن تكف عن التفكير فأنت لا تفكر، وما إن تفكر فبماذا تفكر؟ الحظ حليف الصناديق من قريتكم دائماً. خصوصاً إذا كانت الآذان كراعي الحمام." ظل

ديمين يمط الكلام ساخراً، وهو يراقب فرحاً تغير الغيوم في السماء: "- أما ذوو تلك الآذان لديكم فتجدهم خلف كل سياج. نصف القرية كالينكينيون. يا للغرابة، أينما بصقت فإنك ستصيب كالينكيناً ما. كل البقرات دونكا وكل الكلاب شاريك، وغيرهم لا يوجد في العالم حمقى."

تمتم كالينكين خجلاً: "- ما الذي لا يروق لك فينا؟ قريتنا صغيرة، خمسة عشر فناء فقط. الناس جيدون، محبون للعمل. عندكم في ميخائيلوفسك يتعارك الشبان دائماً، أما لدينا فالأفنية هادئة، يعزفون على الهرمونيكا والفتيات يغنين. نحن- هادئون، ولدينا بساتين ومزارع كثيرة. إننا لا نسيء إلى أحد."

قال ديمين وقد راح صدره يهتز ضاحكاً: "- لقد قلت لك- أنت قديس من قديسي القصر. سوف تعزف على الهرمونيكا مائة عام بعد الحرب، وبعد ذلك سوف تصعد إلى السماء- ومباشرة إلى الجنة."

ناداه بعد دقيقة بصوت سئم: "- كالينكين."

"- ما بك؟"

"- الفأر في ثيابك."

"- هل عدت إلى ألاعيبك مرة أخرى؟ ماذا فعلت لك يا ديمين؟"

"- أسألك بلغة روسية جدية يا كالينكين، على أي أساس يسمون الكلاب كلها في كولخوزكم شاريك؟"

كانت تلك الساعات من ذلك اليوم من أيام تموز فارغة وخالية من الهموم، وقد انحفرت في ذاكرة فلاديمير مثل بريق شمس محرق قبل الظلمة الحالكة...

****

الفصل الحادي عشر

حين بدأت الغيوم الرمادية الثابتة تغفو بعد مغيب الشمس في الماء المسائي الزهري القاتم، وحين انتشرت رطوبة العشب من المنخفض اتصل إيليا المرح من نقطة المراقبة، وقال: "- كفى نوماً. تعال واشرب الشاي مع الخشخاش في المنزل المعروف تحت الأشجار." تفقد فلاديمير الحراس عند المدافع، وعبر الجسر المقام من جذوع الأشجار إلى ضفة الجدول الأخرى، التي صارت مظلمة، وانحدر متحسساً طريقه على المنحدر الشديد نحو البستان. فاحت هنا الظلمة برائحة التفاح الناضج وبجفاف الأسيجة المجدولة من الأغصان، التي لم تبردها بعد برودة الطقس.

كان المنزل محجوباً بأشجار التفاح، وضرب لون سطحه تحت ضوء النجوم بين مجاهل أوراق الأشجار إلى الزرقة الصفيحية القاتمة، وسكنت على الجدار المبيّض آثار العنب البري الضعيفة الشبيهة بالبراثن، وتلألأ على نحو زئبقي على بعد ثلاث خطوات عن المدخل دلو قديم مصقول على ساعد "المكبس" المحاصر بظلمة البستان- كان كل شيء هادئاً ومريحاً على الطريقة القروية، وقد راحت ثمار التفاح المفرطة في النضج تسقط مصدرة نقراً أصم. صاح الحارس المتخدر في وحدته، بصوت مكبوت قرب المنزل: "- قف، من القادم؟" وخطا على الممر بين الأشجار وهو يقضم تفاحة بصوت عال، ثم شرع يتكلم وقد أفرحه الشعور بالنشاط، الذي بثه الحديث فيه:

"- أي هناء، ويا للغرابة... لا قنابل مضيئة ولا طلقات، وكأن الألمان غير موجودين

إطلاقاً. الجداجد وحدها تطلق الرشقات. لبستها العفاريت."

تحدث بملء فيه، مبتلعاً لب التفاحة وهو ينشق بأنفه- كان في تلك الأصوات أيضاً شيء قديم ما، مهدئ، قادم من أعماق القرون- وتخطى فلاديمير عتبة المنزل شاعراً باضطراب مبهم.

فاحت عليه في النصف الأول رائحة بخار الماء المغلي في السماور، وأنار مصباح الكاز العالي على المنضدة الصحاف التي وضعت فيها قطع دهن الخنزير، وزجاجة خضراء مسدودة بخرقة، وعرمة من ثمار التفاح الضخمة وجبسة مقسومة إلى نصفين، وقد اسودت بالبذور، وعسل برتقالي في الصحون- ثروة كاملة، عبقة، وفيرة، ذكرته بعيد الأحياء الذي بدأ أول أمس ولم ينقطع، والذي دفع بعيداً ساعة القدر بغض النظر عن الناس.

جلس إيليا وراء المنضدة في الركن الأحمر بقميصه المفكوك وحشية ياقته السيليلويدية، تحت أيقونة مزينة بمنشفة مطرزة، وراح يبتسم بلطف ولباقة لصاحبة المنزل، المرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً، التي ابتسمت في المقابل ابتسامة وديعة بشفتيها الكبيرتين الساطعتين رداً على نظرته المرحة، وقد تلألأت في ابتسامتها الرطبة هذه الطاعة المذنبة.

أخذ المساعد لازاريف يذهب ويجيء مع جندي الاتصال قرب جهاز الهاتف، ويتصل ليجرب الخطوط الواصلة بين المدافع وينظر مستفسراً خلل كتفه إلى إيليا والمرأة، لكنه لم يشارك في الحديث ممتنعاً بحكمة عن التدخل في شؤون قائد البطارية الجديد.

تكلم إيليا بحيوية كعادته حين يكون في مزاج جيد، كأنه لم يمارس في حياته كلها شيئاً سوى تحطيم قلوب النساء، وأحاط بعينيه السوداوين عنق المراة المستدير وصدرها الممتلئ: "- ها هو أخيراً الملازم فاسيلييف. تعرّف يا فولوديا بصاحبة المنزل المضياف الفاتنة. هل ترى أية حسناوات لا زلن في هذه الدنيا؟ كنت تقول إنهن قد انتهين منذ القرن التاسع عشر... هاك، كانوا سيقتلوننا من غير أن نشاهد هذا

الأنموذج الرائع. حسناً، سنمضي الأمسية كلها في تقبيل يديك يا نادينكا[1]."

لقد بالغ في ما يخص جمال المرأة الفتية الخارق، لكن بدا جلياً أن مزاجه كان ممتازاً إلى حد لم يعهده فلاديمير منذ زمن طويل، إذ راح يتحدث بنبرة مازحة ممتعة، ولم تكن نبرته هذه تسيء إلى أحد بل على العكس جذبت الجميع للاستماع إلى حديثه.

فكر فلاديمير، وهو يهز رأسه لصاحبة المنزل دلالة على قيام التعارف: "ومع ذلك، حسن أنني وإياه في بطارية واحدة."

بعد أن ردت المرأة على فلاديمير بهزة خجولة من رأسها قالت بصوت خفيض، وهي تنظر إلى الإبريق الذي ملأته بالماء المغلي كثيراً من السماور، فانتشرت مع البخار حرارة أوراق عنب الثعلب المفرومة: "-إنك تسخر مني يا إيليا بيتروفيتش." ثم دلت فلاديمير على المقعد تحت النوافذ المغطاة بطبقة من الصحف القديمة، وقد لفه صوتها برقة بموجة من لطف نافذ رخيم: "- اجلس من فضلك هناك. سترتاح في هذا المكان. تفضل وكل..."

تابع إيليا، وقد أمسك كفها الملوح الفظ قليلاً، ثم نهض بظرافة وقبله بجراءة: "- إنني أتكلم جاداً يا نادينكا، ليس ثمة مزاح هنا."

"- ماذا دهاك؟ ماذا دهاك؟... لا لزوم لهذا..."

اعترضت واحمرت من خلل سمرتها، وقامت بمحاولة ضعيفة لتحرير كفها، لكن إيليا لم يتركه، بل ضغط بشدة أكبر على أصابعها، وقبله مرة ثانية مبتسماً، وناظراً مباشرة إلى عينيها العسليتين المتسمرتين. لم يخجل من مغازلته المكشوفة لهذه المرأة، التي أعجبته كما بدا، وشعر فلاديمير بنوايا غير بسيطة في لعبته هذه.

سأل لازاريف باهتمام بريء من غير أن يلتفت عن الهاتف: "- ألم يقبّل الألمان

---

[1] نادينكا ونادنا تصغيران لاسم ناديجدا *(المعرب)*.

أيدي النساء حين كانوا عندكم؟ أم ماذا؟ الألمان معلمون كبار في ما يتعلق بالتيتي ميتي. ليس سدى أن يحملوا معهم أينما حلوا لوحات تشبه الإرشادات."

سأله إيليا ببراءة أيضاً: "- لم أفهم. ماذا قصدت تحديداً يا لازاريف؟ هل أردت أن تقول إن الخرائط الطبوغرافية الألمانية لا تعجبك؟"

تكلم لازاريف على نحو معسول من غير أن يعير اهتماماً لجملة إيليا المخففة: "- أقول إنهم أفسدوا بضعاً من نسوتنا... وأصابوهن بالعدوى." ثم سألها مرة أخرى وقد صب في نبرته المعسولة سماً محلى، لم يكن محضراً من أجلها بل من أجل إيليا من غير شك: "- هل وقف الألمان عندك هكذا أيتها الحسناء؟ وقبلوا يدك؟ أم كيف؟"

أغلقت المرأة الصنبور، وغطت الإبريق بغطائه، وصارت تقرب الفناجين المغسولة جيداً، وذات الحواف المكسورة، من السماور، ثم أدارت وجهها بوجل نحو الظل، حيث علقت على الحائط بين النافذتين وفوق الخزانة الصغيرة المغطاة ببساط مزركش بالدانتيلا بضع صور قديمة، كانت من بينها في الوسط صورة لشاب ذي وجه صارم وكبير الفكين، يعتمر قبعة رجال السكك الحديدية، وعلى جيب سترته شارة من ما قبل الحرب. قالت المرأة بصوت مضطرب:

"- أقاموا في المحطة، أما عندي فلم... بيتي واقع جانباً، وهم لا يحبون البيوت المتطرفة. جاؤوا أربع مرات تقريباً على الدراجة النارية: "أعطنا أيتها الأم دجاجة وبيضاً ودهناً"، اغتسلوا عند البئر وهزوا أشجار التفاح، ثم أخذوا عسلاً ورحلوا."

انتفض منكبا لازاريف المائلان.

"-و- من غير أعمال وحشية؟ ألم يتحرشوا؟ ترالا-لا؟"

"- عذبوا المعلمة في المحطة وشنقوها... أتت إلينا عام واحد وأربعين. من كييف. كانت زرقاء العين حسناء.."

كان واضحاً أن لازاريف لم يستطع أن يغفر لنفسه ذله الذي مزق روحه، والذي اضطر إلى أن يراه اليوم، فراح يثأر من إيليا على نحو غير مباشر. أما هذا الأخير، الذي أدهش الجميع بابتسامته الطيبة، التي لم تفارقه فنظر إلى المرأة الشابة، وقد أحنت رأسها وراحت تحرك الفناجين بغباء ومن غير هدف، تحت صنبور السماور، من غير

أن تحزم أمرها لسبب ما على أن تصب الشاي، فصار وجهها النشيط ذو العينين البنيتين معذباً في رمشة عين.

قال إيليا فجاءة على نحو سوي، وقد أكدت لهجته كلامه الذي لا يقبل الجدل: "- أنت شاب قوي أيها المساعد. أعرف ذلك. لكن إن فهت يا لازاريف الآن بشيء ذكي مرة أخرى فسأرمي رأسك من النافذة كي لا أسمع نفساً من أنفاسك هنا. واضح؟" ثم تابع حديثه بهدوء ولطف جاف، وراح يقرع بانتظام المنضدة بإظفر سبابته: "- افهم أخيراً أيها الذكي. لم أمارس الملاكمة والسامبو عدة سنوات كي أدع أمثالك يجلسون علىكتفي. واضح أيضاً؟ حسن إن لم ألقن طبعك المثقف والمرهف اليوم العقل فسأفعل ذلك غداً في الوقت الذي يناسبنا."

انتفخ منخرا لازاريف الغاضبان وتكورا، وابيضت عيناه حتى أقفرتا، وقال بصوت أبح:

"- شُدَّ أيها الملازم واضغط، لكن انظر، فأنا أيضاً قادر على أن أقلب الدب، فأنا محب للصيد... وقد ردمتُ..."

مست يده الضخمة مصادفة، وعلى نحو ثقيل ومنزلق، غمد الخنجر وتركته حالاً، وكان النظر إلى الصحراء البيضاء في عينيه اللتين التهمهما الحقد يبث الرعب، غير أن إيليا وقف مكرهاً من غير أن يكمل سماع تهديده المبطن، وأمره بنصف صوته وهو ينفذ بنظرة فضولية إلى حدقتيه الملتهبتين:

"- سر إلى نقطة المراقبة أيها المساعد، وقلل من ظهورك على مرأى مني حتى تصير ذكياً."

كشر لازاريف: "- وماذا في الأمر؟ في مقدورنا. فوراً. إلى نقطة المراقبة، فلنذهب إلى نقطة المراقبة." ورفع عن المقعد البندقية الآلية منتصباً كما يقتضي النظام، واقترب من صاحبة المنزل المذعورة متمايلاً: "- شكراً لك أيتها الحسناء على الضيافة، سأذكر حتى اللحد الشاي والدهن والساموغون[1]. شبعت حتى التخمة."

---

[1] *الساموغون هو مشروب روحي منزلي الصنع (المعرب).*

تكلمت صاحبة المنزل بحيرة، ناظرة إلى ظهر لازاريف الكبير وهو يخرج: "- لكنني... لكنك لم تأكل بعد، لكنك لم تشرب..."

قال إيليا من غير اهتمام، وأخرج الخرقة من عنق الزجاجة، وصب الساموغون في الفناجين: "- لا ضير في ذلك، فأمثاله لا يموتون جوعاً يا نادينكا. حسناً، أظن أن في مقدورنا أن نشرب مائة غرام، آ؟ ماذا يا نادينكا، هل ستقرعين قدحك معنا؟ " ظل إيليا يتكلم بطيبة نفس، ثم وجه الحديث إلى صاحبة المنزل رافعاً فنجانه: "- هل تسمحين يا نادينكا أن نشرب نخبك... نخب صاحبة المنزل اللطيفة المضيافة. كيف يا فولوديا؟ هل تؤيد نخبي؟ نخب ناديا، ونخب الحظ الذي حالفنا بلقائنا هذه المرأة اللطيفة."

أراد أن يعجبها، وكان مستثاراً بهذا الغزل الجنوني، وبهذه الثرثرة الخفيفة التي لا تلُزم بشيء، وبهذه الراحة المدنية في هذا المنزل النظيف الذي لم تمسه الحرب والذي عاشت صاحبته فيه حياة وحدة غامضة، وهي ترد الآن على كلماته المرحة بابتسامة حائرة ومرتجفة على شفتيها الطويلتين. سألها فلاديمير على نحو أخرق حين نظر إلى صورة الشاب الصارم في قبعة رجال السكك الحديدية فوق الخزانة الصغيرة:

"- هل زوجك في الجبهة؟"

أجابته بصوت رخيم واهن: "- رحل حين بدأت الحرب، ولا أثر له ولا خبر عنه. عشنا معاً سنة واحدة فقط. لقد قتل..."

××××

استيقظ لأن أحدهم هزه من كتفه وراح يهمس له: "- انهض يا فولودكا."

ارتمى على المقعد بعد أن استفاق من نومه، وسمع في جو البيت الخانق صوت الأنفاس المنتظم الصادر عن جندي الاتصال الغافي قرب الهاتف في هدوء الليل العميق: أنار مصباح الكاز على المنضدة المكان بنور غير قوي وفاحت رائحة الزجاج المحروق والمسود.

"- انهض، هيا."

وقف إيليا قربه بقميصه المفكوك ومن غير الحمالة، وقد تعثر همسه ببحة

لطيفة، وأضيء وجهه في هذه الظلمة الخفيفة بإرهاق الرضى الخفيف.

سأله فلاديمير بسرعة: "- ماذا؟ ما بك؟"

قال إيليا، ودفعه من كتفه: "- اذهب، إنها تنتظرك."

لم يفهم فلاديمير: "- من التي تنتظر؟"

أجاب إيليا وجلس قربه على المقعد حاراً ومتعرقاً: "- ناديا. إنها عند مقلب القش في الفناء." ثم ضحك باقتضاب: "- يا لها من امرأة." مس شفته وتكلم مضيقاً عينيه باهتياج: "- سيحالفني الحظ إن لم تبق غداً آثار أسنانها. ليست امرأة بل شيطانة. لكنها، لو تدري، تسمح بكل شيء، ولا تخاف إلا من هذا... اسمع، أي صدر فاخر لديها وأي فخذين... اذهب، قالت إنني لست أنا من يعجبها بل أنت. اذهب ما بك تنظر يا فولودكا؟ أقول لك إنها تنتظرك."

احتضنه إيليا من كتفيه ودفعه بتشجيع ودي:

"- اذهب."

"كان الآن عند مقلب القش مع تلك المرأة اللطيفة الشابة، وراح يقبل شفتيها الطويلتين هناك... وهو يريد الآن أن أذهب أنا؟ أن أذهب إلى ناديا بعده؟ أمن الممكن تقبيل امرأة بعد رجل آخر؟ لا، لن تكفيني الجراءة، لن أقدر..."

لكن هذه الناديا الغريبة أعجبته هو أيضاً، وحين جلست معهما وراحت تقدم لهما الطعام وراء المائدة شعر أحياناً بالضيق والخوف المضني من قرب صدرها الممتلئ وفخذيها المتينين وجسدها الفتي الأنيق، وانحبست أنفاسه من قرب عينيها البنيتين الرقيقتين والصاغرتين أحياناً ما إن يتلاقى نظراهما وهو يتناول من يديها الأنثويتين الخدومتين فنجان منقوع عنب الثعلب.

"- ألم تستيقظ؟ ما بك جالس كجذمور الشجرة؟ اذهب، كفاك تفكيراً. مقلب القش في العنبر، ستراه حين تخرج. هل عليّ أن أرافقك أم ماذا؟"

"- كف عن التحامق يا إيليا. أعرف بنفسي ماذا علي أن أفعل."

دفعه فلاديمير بخفة، ونهض وخرج عبر المطبخ الصغير، المشبع برائحة الخبز، والمتلألئ بفضل النافذة الصغيرة فيه، إلى ظلمة البستان والهواء الندي. كان كل شيء

هادئـاً ومنعشـاً: حـط بـرد الليـل الأصـم الرطـب على العشـب وعلى أوراق الأشجار، وراحت نجوم تموز تلعب وتتلون بألوانها المختلفة فوق الأغصان.

لـم يكـن الحـارس موجـوداً قـرب المنزل، ولـم يسـمع وقـع خطواتـه وحفيفهـا على العشب- كان على الأرجح واقفاً أو جالساً في مكان ما من البستان وينصت إلى صمت هذه الساعة من الليل.

ظهر العنبر مثل بقعة سوداء في آخر الفناء، وهناك كانت تنتظره على مقلب القش تلـك المـرأة الشـابة، التي سـماها إيليـا مـن غير خجـل ناديـا ونادينكـا، والتي احمـرت وابتسمت لهما بخفة بعينيها الخجولتين تارة والمتسعتين على وجهها الملوح تارة أخرى، مبقيـة ظهرهـا مسـتقيماً مع عنقهـا المسـتدير وخصـل شـعرها الدقيقـة والفاتحـة، وكأنها انتظرت وحيدة زمناً طويلاً كي تعجبهما هي أيضاً بقامتها الأنثوية المصونة، وبأناقتها التي لم تدمر بالعمل القروي في المنزل.

"- هـذا- جبن. يا للسـهولة التي غازلها بها إيليا، وكم كل شيء صعب علي. لِم كل هـذا؟ لا أريـد... إنني أفكـر بماشـا، ولا أسـتطيع الـذهاب إليهـا... لكـن مـاذا سـيظن بي إيليا؟.."

كان العنبر مع مقلب القش على بعد عشرين خطوة عن المنزل، لكن كان عليه أن يمر بمحـاذاة أشجار الحـور قـرب البئر وسـط الفنـاء، ويقترب من البـاب نصـف المفتـوح ويهتـف هنـاك بصـوت منخفض: "ناديـا"، فـلا يعـود يشـعر بالخجـل هنـاك في الظـلام الدامس، ويسـقط معها، مع جسـدها المتين، إلى مكان ما، إلى الخـوف المميت للسـديم الحلو، الذي جربه مرة قبل الحرب على نحو غير تام كما لو أنه كان يحلم.

ناداهـا محـاولاً أن ينطـق اسـمها مازحـاً كمـا نطقـه إيليـا، لكـن التقليـد كان مكرهـاً ومغتصباً، فتابع هامساً في فتحة الباب التي أرهبته:

"- نادينكا... ناديا... ناديا، اسمعي..."

"- تعال إلى هنا أيها الشاب، تعال..."

صـار يتحسـس الجـدار بيـده مصـغياً إلى قفـزات قلبـه المجنونـة، ثـم صـر البـاب متأرجحاً، وتهادى على مفاصله القديمة مدفوعاً نحو جدار العنبر، أما من الأمام، من

الظلام الحالك، الفائح بالروائح القروية، فتناهى إليه خلل ضربات الدم في رأسه همس مبهم ورخيم وسريع في العبق العسلي المخدر للقش الجاف، واصطدم فجاءة باليدين الماهرتين الحارتين اللتين جذبتاه إليها، وبأنفاس الشفتين المفتوحتين الحارة، وأحس بقرب النهدين الممتلئين الباردين المؤلم، وملمس بطنها الحريري، ورائحة عنقها وكتفيها النظيفة الشبيهة برائحة الخيار الطازج. سقط وإياها معاً على البطانية المفروشة على القش، وشعر كيف تقدمت ركبتاها تحت ركبتيه، وأحس بالبرودة فجاءة بسبب من أسنانها الرطبة ومن حركة حضنها الملاطفة وغير الخجولة ومن همسها السابح المتموج، الذي لفه بدوائر برتقالية.

"- وا مصيبتاه أيها الشاب... ذلك الملازم... المقحام... قال إنني أعجبك، إذن قبلني أيها الشاب اللطيف..."

همس مرتجفاً من البرداء، وغير عارف لماذا لا يستطيع أن يسميها نادينكا كما استطاع ذلك بإتقان إيليا: "- ناديا." ثم كرر في ضباب خجله، الذي جعله يرتجف: "- ناديا، ناديا... أنت جميلة، أنت رائعة..."

سمع صوتها المكبوت والمتوسل: "- سامحني يا إلهي. قتل زوجي منذ زمن، وأنا وحدي مثل سمانة. أنا الزوج وأنا ربة المنزل. يا إلهي..." تكلمت مرة أخرى بصوت لا هو ضاحك ولا هو باك: "- أي شاب واضح ووسيم... اسمك فولوديا؟ يا إلهي، وامصيبتاه. فولودينكا، أيها الشاب.."

صاحت شاكية من غير أن تنهض، وفي تلك اللحظة برز وجهها في الظلمة وأنير بضوء أخضر وظهرت عيناها الكبيرتان المفتوحتان والدموع فيهما- اندفع الضوء الغريب عبر باب العنبر المفتوح، وبرق في البستان ثم خمد كل شيء.

لم يفهم أول الأمر ما هذا الضوء الذي ارتفع خلف البستان مخترقاً العنبر وشقوقه، لم يفهم لأنه لم يسمع الطلقة. لكن صوت تحطم زجاجة وفحيح متصاعد تردد في مكان قريب جداً، وتفتت مذنب أحمر وأخضر في الأعلى على مساحة واسعة فوق ردمية السكة الحديدية، متناثراً على ذرا أشجار الحور كغبار آخذ في الانطفاء، وبرز من جديد وابيض وجه المرأة نصف العارية المرفوع، ذو العينين المتسعتين

والدموع غير المذروفة. نهض فلاديمير على قدميه، بعد أن وعى من غير تركيز تقريباً لماذا هو هنا، ومتوجساً شيئاً ما مفاجئاً وحتمياً يجب أن يحدث الآن، وراح يشد حزامه في أثناء سيره، وركض خارجاً تحت المطر الناري المتساقط بفعل القنبلة المضيئة الثالثة، التي أنارت بسطوع لا يطاق الفناء كله والبئر ومكبسها والتفاحات الضخمة على الفروع المثقلة وردمية السكة الحديدية في الأعلى خلف أهرامات الحور.

تراءت لفلاديمير في هذا الفاصل القصير، الممتد بضع ثوان، بين النور والظلمة حركة أجسام على ردمية السكة الحديدية، وتناهت من هناك في الحال صرخة وحشية غير مفهومة، كما لو أنها صادرة عن حنجرة مقتلعة، ثم انطلقت في الأعلى رشقات البنادق الآلية مصحوبة بدوي حاد قاطعة تلك الصرخة ومخمدة إياها. اندفعت خطوط الطلقات مثل زينة ضوئية قرمزية فوق ذرا البستان، وانفجرت بين الأغصان بأنوار بنفسجية. سقطت قرب السياج تفاحتان ناضجتان، قطعتهما الطلقات، وتدحرجتا على الممر ثم اختفتا في العشب.

رأى فلاديمير التفاحتين بدقة غير عادية في الفوضى العاصفة التي أثارتها القنابل المضيئة المنطلقة في الأمام، وراحت الألعاب النارية تتأرجح وتهدل خلف السكة الحديدية، وهناك أزت المحركات مدوية على نحو متقطع وهي تندفع نحو الغابة وتتوتر أكثر فأكثر بذبذبة حديدية. صعق فلاديمير: "من أين ظهرت الدبابات؟ كان المكان هادئاً خلل اليومين..."

كاد يصطدم قرب باب المنزل بإيليا. قفز هذا الأخير خارجاً إلى الفناء وقد ارتدى زيه كاملاً وشد الحمالة المتصالبة على صدره، وراح ينظر هو يركض إلى السماء الممتلئة بالقنابل المضيئة ويصيح لفلاديمير:

"- بدأوا؟ ليلاً؟ هذا ليس من عادة الألمان. تعال معي إلى نقطة المراقبة. هناك أوضح."

حين ركضا خارجين من البستان تحركت بسرعة تحت أشجار التفاح من جهة أشجار الحور المتطرفة النامية على امتداد كتف الطريق هيئة قاتمة مهتاجة، وهي

تحف المشمع بالأغصان، وانطلقت صيحة مذعورة:

"- من هناك؟ سأطلق النار."

ناداه إيليا بصوت رنان: "- إلى الوراء أيها الحارس. أصدقاء. أسألك إلى أين اندفعت؟ اركض إليّ حالاً."

هرع الحارس إليه متعثراً بقدميه وتحشرج صوته على نحو متقطع:

"- ظننت أيها الرفيق قائد البطارية أن الألمان... ظننتكما ألماناً..."

"- هل جننت؟ أنى للألمان أن يظهروا في البستان؟"

"- خيل لي منذ بعض الوقت وكأن حصاة نقرت على الردمية."

"- متى "منذ بعض الوقت"؟"

"- منذ عشر دقائق بدأت تنقر..."

فكر فلاديمير: "- بدا لي أيضاً أن ثمة حركة ما على الردمية في أثناء القنبلة المضيئة الثانية. هل خيل لي أيضاً؟"

تكلم إيليا بغضب مشمئز: "- لماذا إذن لم تعلن الخطر من قبل أيها الحارس؟ كنت تحلم أيها الشيطان المجذوب؟" ودفع بيده اليسرى الجندي من صدره، فسقط هذا الأخير على قفاه وقد تعثرت جزمته بالعشب، وصاح بصوت ضيق:

"- لم أنم أيها الرفيق قائد البطارية، لم أنم."

شتم إيليا بنفور: "- هيا اغرب عن وجهي أيها القذر."

حين تسلقا منحدر الردمية نحو خندق الاتصال القصير، وحين شاهدا هنا في خندق نقطة المراقبة، ما أزال الشكوك كلها بحدة لا تلين، بدا لهما للوهلة الولى أن الألمان قد عزلوهم والتفوا من المؤخرة- طارت قنبلتان مضيئتان مرتفعتين فوق طرف الغابة على ضفة الجدول الأخرى، غير بعيدتين عن مواقع المدافع الثلاثة، وتلألأتا بغموض ثم انطفأتا في الماء المشتعل لحظة. كانت هاتان القنبلتان خلف نقطة المراقبةغير متوقعتين وخطرتين إلى حد خيل لفلاديمير معه أنه يسمع بوضوح صيحات أوامر ألمانية عند طرف الغابة حيث تمركزت المدافع، فقال وهو يكاد لا يلتقط

أنفاسه:

"- كل شيء واضح يا إيليا. أظن أن الألمان التفوا حولنا. أنا ذاهب إلى البطارية."

أمره ايليا ناظراً سريعاً إلى الخلف، نحو طرف الغابة: "- على رسلك، سنتبين الأمر. لا تذعر..." واندفع يساراً نحو حافة الخندق: استلقى هناك الرقيب شابكين بصدره على الساتر وراح يطلق رشقات قصيرة من بندقيته على امتداد السكة الحديدية. صاح إيليا: "- هل يلتفون من اليسار؟ ماذا؟ الرماة؟ يحاصرون نقطة المراقبة. أين الراميين من المشاة؟"

التفت شابكين كاشفاً عن أسنانه الوردية بتكشيرة وحشية، لكنه لم يستطع أن يجيب بشيء واضح وراح يرمي برأسه وحسب في الفضاء المليء بخطوط الطلقات وهدير المحركات وأقواس القنابل المضيئة المحترقة وإطلاقات نيران المدفعية التي أضاءت الظلمة بسطوع.

رأى فلاديمير في فواصل تناوب النيران والظلام هذه الميدان الذي يبتدئ إلى يمين الغابة خلف ردمية السكة الحديدية والمغطى بأكداس القش الطويلة، وقد راحت الدبابات تسير بينها وتزحف خارجة من الغابة وتتحرك بزاوية متطاولة إلى اليمين في الحقل على امتداد الجبهة نحو محيط المحطة، اما في جوار أبنية المحطة المتطرفة خلف تلاع خنادق المشاة فراحت تصفق من غير صوت مدافعنا عيار 45مم، وترد باستعجال محموم، غير أن الدبابات سارت حصينة، وصارت تقترب شيئاً فشيئاً من محيط المحطة، وكانت ظلالها في نور القنابل المضيئة ممطوطة على نحو مهول ومتكسرة، وقد راحت تقذف الطلقات من قرون استشعارها السميكة نحو الأبنية.

أمر إيليا فلاديمير: "- هيا إلى المدافع. مدافع الـ45 لا تستطيع أن تضرب سوى الذباب. أخرج المدافع إلى الرمي المباشر وضعها على الردمية. سيكون الرمي من هنا أفضل. هيا..."

"- أيها الملازم، قائد الكتيبة على الهاتف. أيها الخامس، المشاة يطلبونك."

برز من تفرع الخندق شبح المساعد لازاريف الأخرق، وسمع فلاديمير وهو يركض خارجاً من خندق الاتصال كيف صاح إيليا "للخامس" في السماعة، وأوضح له أنه لا

يسمح لأحد بأن يصرخ في وجهه كالمذبوح، وأنه يرى الدبابات وسيدعم الآن المشاة بنيران مباشرة، ثم تدحرج على حدور الردمية بعد أن سمع سبابه المخنوق الموجه للازاريف، واتجه إلى هاوية البستان المظلمة، التي راح ينيرها وميض القنابل المضيئة طوال الوقت.

اندفع نحو الجسر مباشرة من غير أن يميز الممرات، ورأى في الفناء مكبس البئر تحت الأشجار، والعنبر ببابه المفتوح، الذي تدفقت عبره على وجهه منذ قليل رائحة القش الفتي والحليب الطازج وحيث انطلق حينئذ من الظلمة همس المرأة الحار ويداها الجاذبتان وحركة جسدها الصريحة التي ألهبته خجلاً- وخطر في باله هنا، في الحال، أن عليه أن يقول لها من غير إبطاء ويحذرها من أن المعركة قد نشبت، وأن البقاء هنا خطر، فأطل بنظره وهو راكض على عتمة العنبر العسلية الخانقة، وصاح بصوت مخنوق: "ناديا، هل تسمعينني؟" لم يرد عليه أحد. استدار في اللحظة التالية نحو المنزل المعروف وفتح بابه بدفعة من كتفه، وصاح من جديد في هالة مصباح الكاز البرتقالية في ركن المطبخ الصغير: "ناديا، ارحلي من هنا، ارحلي حالاً." وبعد أن تأوه صوت شاك، وحجب شبح امرأة ضوء المصباح ارتد عن الباب وانطلق مباشرة إلى طرف البستان منزلقاً على العشب، واطئاً ثمار التفاح المتعفنة، وحين قفز فوق السياج المقلوب سابحاً في عرقه ووصل إلى الجسر لم يعد الهواء يكفيه، وارتدت ضربات الدم مصحوبة بالألم في رأسه المصاب بالارتجاج، وراحت تتراقص ألعاب القنابل المضيئة على شكل قفزات من الخلف، من وراء الظهر، وتندفع فوق البستان نحو ذرا تلة الصنوبر، وتبهر العيون وهي تتناثر في الأمام، عند طرف الغابة، حيث بدت المدافع وكأنها تقفز خارجة من الظلمة إلى النور العاري، وأخذت هيئات أشخاص تنحني حولها متحدبة كالتلال وتقفز وتجلس القرفصاء في رقصة غير مرئية.

اتجه نحو المدافع مباشرة على ساقيه المعوجتين، مترنحاً ومتخبطاً بجزمته في التراب اللزج وهو يصيح آمراً:

"- عربات الجر إلى البطارية."

خطر خاطر في رأسه المقيد بالألم النابض: "- لا أسمع شيئاً مرة أخرى." لكنه رأى على مقربة بقع الوجوه البنفسجية المتراقصة بجانب المدافع وعامت على نحو غير

دقيق أصوات الجنود والأوامر المتكررة والقرع الحديدي للركائز المسحوبة وصوت المذخر كالينكين الغنائي المقطوع لسبب ما، والذي يخترق الآذان:

"- ماذا يحدث، ماذا يحدث..."

لم يثب الحوذيون، الذين أنهضهم الخطر الداهم، إلى رشدهم تماماً على الأرجح، إذ خرجت عربات الجر من مخابئها في الغابة وهي تتمايل يمنة ويسرة على التلة، ثم تدحرجت أخيراً نحو مواقع المدافع، وهناك صفوا العربات على نحو لا يدل على المهارة وهم يصيحون على الجياد ويتلفتون على السروج بغباء، ثم أرجعوها بخط منكسر إلى الخلف، وربطوا المدافع بالخطافات مقرقعين، حتى أن عرائش العربات ارتفعت شادة معها رؤوس الجياد. قفز فلاديمير على درجة عربة المدفع المتحركة أولاً وتسلق الرقيب ديمين الدرجة الأخرى في الوقت نفسه.

"- خببا، إلى الطريق. عبر الجسر. نحو المعبر."

زعق ديمين وهو ينحني إلى الأمام نحو الحوذيين: "- إلى المعبر ثكلتكم أمكم. بسرعة."

ساط الحوذيان الجياد، فاندفعت من أمكنتها، وصر التراب تحت العجلات العالقة خلف خط النار مباشرة، ثم راحت العربة تنقذف يمنة ويسرة بسبب من وعورة الطريق، وتمكن فلاديمير من الثبات بصعوبة بعد أن تشبث بحاجز العربة. بعدئذ راحت حوافر الخيول تقرع بقوة الطريق السوية ثم ضربت على نحو أصم الجسر المقام من جذوع الشجر فوق الجدول، وبدأت تقترب من الأمام مباشرة خطوط المعبر. اندفعت هناك، خلف ردمية السكة الحديدية، صاعدة كالشلالات أسراب القنابل المضيئة المخترقة بالطلقات الخطاطة المعترضة، أما من اليسار، في الأسفل، فظهر واختفى في قفزات الضوء بستان التفاح والمنزل وسط الأشجار، حيث كانت المرأة ذات اليدين عديمتي الحياء والصدر الممتلئ...

خطر لفلاديمير: "سنقطع المعبر الآن وننعطف يساراً نحو نقطة المراقبة.."

وأراد أن يصدر الأمر للحوذيين، لكن ذلك لم يتسن له ولم يفهم ما حدث في اللحظة التالية...

قفزت عربة جر المدفع نحو المعبر على الردمية وكأنها تحلق في السماء فوق الحرائق في البلدة قرب المحطة وفوق هياكل الدبابات الزاحفة في الأمام والممتدة من اليسار إلى اليمين، نحو المنازل المتطرفة- قفزت العربة نحو المعبر، وحينئذ ضربت الآذان قرقعة حديدية، وأعمى الأبصار لهيب انفجار تحت حوافر الخيول. هوى الجوادان الأماميان المنطلقان بأقصى سرعة على قوائمهما الأمامية، وطار الجوادان الخلفيان فوقهما مطلقين شخيراً، فانقذفت العربة وانقلبت على جانبها، وفهم فلاديمير بغموض، مبتلعاً التولين الألماني والدخان المتصاعد ضفائر ضفائر، ومذهولاً، وقد ألقته على الأرض دفعة قوية مخيفة، أنهم أطلقوا النار على المدفع عن كثب، ومن مسافة قريبة على نحو لا يعقل، لذلك لم يسمع صوت الطلقة. أجهد نفسه محاولاً النهوض ليصيح للمدفع الثاني ويأمر طاقمه بالتوقف في الأسفل وعدم الخروج إلى المعبر وإلى هذا المكان المكشوف- ورأى في تلك اللحظة على بعد ستين متراً تقريباً إلى اليمين، على ردمية السكة الحديدية مباشرة، جسم الدبابة الهائل الثابت القاتم ذا السبطانة المرتجفة الطويلة المنكسة.

أصابت القذيفة الثانية منتصف العربة الثانية تماماً، فشب الجوادان الأماميان على قوائمهما الخلفية، مدفوعين بالنار المندلعة من الأسفل، وسقط الحوذيان عن السرجين، فيما سحب الجوادان الخلفيان العربة إلى مكان ما يساراً، جارين المدفع على حافة المنحدر، فانكفأ على إحدى عجلتيه وتحطم الخطاف مصدراً صريراً معدنياً، وانفصل عن العربة التي تدحرجت مع الجوادين الخلفيين إلى الهاوية.

أطلقت الدبابة، التي صعدت إلى ردمية السكة الحديدية، النار عن قرب على المدافع التي لم تدخل المعركة بعد، وفاح عجز ما قبل الموت برائحة برد القبور، ورأى فلاديمير، وهو يوجه ويصيح ويصدر الأوامر، الجنود الزاحفين نحو المدفع من غير أن يرى أياً منهم بمفرده، وشعر بالكراهية نحو نفسه ونحوهم على زحفهم هذا الشبيه بزحف النمل امام الدبابة، التي قصفت من غير رحمة المدافع على الدرمية قبل أن تطلق طلقة واحدة.

برقت في رأسه: "لو نستطيع إطلاق قذيفة واحدة، لو نطلق على الدبابة طلقة واحدة." وراح يكرر أوامره للجنود وهو مستلق على المعبر من غير أن يسمع صوته،

ويطلب منهم ويرجوهم أن يدخلوا المدفع في المعركة، ويلقموه جاثين، ثم شتم غاضباً، وشعر أنه يبكي ذارفاً دموع العجز.

سمع بعد ذلك طلقة الدبابة الثالثة. رمت الدبابة على المدفع الثالث، الذي انعطف بعد الطلقتين الأوليين عن ردمية السكة الحديدية إلى خارج الطريق. سارت عربة جر المدفع على المنحدر نحو المنخفض مباشرة، نحو سياج البستان، وانطلقت قذيفة الدبابة خلف الدرع من غير أن تمس لا المدفع ولا الطاقم الذي تشتت في المنخفض.

فكر: "لو نستطيع إطلاق طلقة واحدة، لو نستطيع..." وراح، وكأنه يهذي حاثاً الجنود، ويداه تصطدمان بالمناكب والظهور المتعرقة، يساعد في دفع حديد الركائز الثقيلة، فرحاً لأن الدبابة تركت المدفعين اللذين أوقفهما على المعبر خارج مرماها وراحت ترمي على المدفع الثالث، الذي خرج من تحت الانفجارات. أصابته ثواني التقاط النفس هذه، الممنوحة له مصادفة كمحاولة أخيرة للخلاص من هذا الحلم الغبي المميت، برجفة الجنون من فكرة وحيدة: "لو نستطيع إطلاق طلقة واحدة، ولو طلقة."

لم يعرف حينذاك أن أبدية كاملة ومئات المصادفات الممكنة وحياة البشرية كلها ونظرة من أحدهم استغرقت ثانية واحدة في موجِّه التصويب قد حالت بينه وبين تلك الطلقة. لكنه حينئذ عرف بدقة تامة أن مدفعه بارز كالهدف التدريبي على المعبر على بعد ستين متراً أمام الدبابة، ومتميز بتحدب درعه الواضح والأسود كالفحم- و("ساعدني يا إلهي") بدا كل شيء مكشوفاً تماماً أمام برد الموت الحديدي. لم يكن مستعداً آنذاك للموت ولهذا الظلم الهائل، ورأى كدر الرعب واليأس الغبي وانتظار اللحظة الأخيرة في عيون الجنود ووجه الرقيب ديمين الهامد بضراوة، وقد راح يزحف كالوحوش على أربع نحو الموجه، وفوهة خزنة المدفع المفتوحة والركائز المفرَّج بينها والمسندة كسكك المحاريث في مسامير السكة الحديدية المصقولة وذقن كالينكين المرتجفة، وقد انحنى متقوساً فوق صندوق القذائف المتداعي، الذي سقط عن القاعدة حين اصطدم الجوادان الخلفيان المصعوقان من الانفجار بالجوادين الأماميين المقتولين بالشظايا.

رغب فلاديمير في أن يفهم: "أين إيليا؟ عليه أن يرى من نقطة المراقبة ما حدث لنا عند المعبر." وكان يصدر في ذلك الوقت الأمر نفسه الذي يحمل لدى الجميع معنى الفناء العام، ثم التقط في سورة جنونه وفقدانه الذاكرة، متخطياً كالينكين، قذيفة وأدخلها في الخزنة وهو يزحف على ركبتيه حول الركائز.

حين ضرب وجهه هواء البارود المحترق الحامضي لم يقدر، وقد أعماه برق الطلقة، على أن يحدد إصابة قذيفته، غير أن زوبعة نارية صفرت في الحال فوق رأسه وصفعت الحديد، وتأوه أحدهم قرب المدفع وصاح: "ماذا يحدث، ماذا يحدث، يضربون من الخلف." والتفت الرقيب ديمين عن الموجه بعينين مجنونتين. راحت الجياد تصعد بالمدفع الثالث خبباً إلى المعبر، وركض إيليا أمامها والبندقية الآلية معلقة برقبته، وأخذ يصيح بشيء ما للحوذيين المنحنيين على ظهري جواديهما خوفاً، أما من الخلف، من عند بداية تلة الصنوبر حيث كانت المدافع متمركزة قبل قليل، فراح يرميهم رشاش يدوي ألماني برشقات خطاطة. وفهم فلاديمير أن إيليا، بعد أن شاهد من نقطة المراقبة ما حدث عند المعبر، اندفع للقاء المدفع الثالث كي يخرجه إلى الموقع الناري ضد الدبابات الزاحفة نحو البلدة المجاورة للمحطة. لكن مشهد إيليا الراكض على الطريق بالبندقية وعربة جر المدفع ورشقات الرشاش الألماني القريبة من الخلف ومض لحظة فقط- واختفى كل شيء في قفزات اللهب والصرير والدوي والعويل، وفي التولين الألماني الخانق. قذفت قوة الانفجارات الهائلة المدفع على المعبر، وارتفع الدخان الممزق بأسنان النار فوق الدرع، وابتعد أفراد الطاقم زاحفين قرب الردمية وهم يسعلون ويكادون يختنقون، وصار ظهر الرقيب ديمين المحدودب يظهر ويختفي في هذا اللهب المبهر، وميز فلاديمير، الصائح صياحاً مخنوقاً ("ديمين، ديمين")، والمدفوع عن المدفع بهبات الهواء المتوهج بوحشية، التي سدت فمه وأنفه، ملامح رؤوس الجياد المرفوعة إلى السماء وهي تقفز جارة عربة المدفع الثالث نحو المعبر، وعيني الحوذي الأمامي الخائفتين والمنحرفتين نحو إيليا. أما إيليا فراح يشد بعناد الجوادين الأماميين المجفلين من عنانيهما وهو ينظر بغضب إلى أفراد الطاقم المنبطحين بسبب من الانفجارات "نهوضاً، نهوضاً، إلى المدفع." انطلق الصوت البشري ضعيفاً من فوضى الأصوات الزائرة والصارة- اقتلع الدوي العوارض حول المعبر،

وهـدم التراب إلى اليمـين مـن المـدفع وأمامـه، وخيـل لفلاديمير أن بضـع دبابـات قـد خرجت من خلف الأكداس إلى الحقل عازلة البلدة المجاورة للمحطة وصعدت من المـنخفض نحـو ردميـة السـكة الحديديـة، حيـث راح الـدخان يتصـاعد بكثافـة مـن الدبابة الأولى ("أصبتها، أصبتها...")، وانفجرت خطوط القذائف المتقاطعة كالإعصار من الجانبين عند المعبر. أراد أن يحدد بدقة من أين ضربت الدبابات، فرفع بصعوبة رأسه، الذي صار ثقيلاً جداً، ورائحة الحريق تكاد تخنقه.

لم تكن عربة جر المدفع الثالث موجودة ولا الحوذي الأمامي ذو الوجه المشوه من الخـوف والملتفـت نحـو إيليـا. ولـم يكـن أيضـاً إيليـا نفسـه، الـذي شـد يائسـاً عنـان الجوادين الأماميين- كل ما ظهر عند المعبر قبل دقيقة تدحرج على المنحدر مثل شلة خيطان سوداء متشابكة إلى هناك، نحو المنخفض من حيث أخرج إيليا العربة للتو عبر الطريق. جر المدفع، الذي لم يوقفه أفراد الطاقم ("أين هم؟ هل قتلوا جميعاً؟")، خلفه بفعل الثقالة الحديدية العربة بالعرض على الطريق والجياد الأربعة، التي راحت تصهل من غير الحوذيين صهيل الألم وتقف على قوائمها الخلفية وتسقط على ركبها وتكسـر قوائمهـا. تـدحرجت العربـة المتشـابكة والمرتعشـة، التي مـا عـاد الحوذيـان يسوقانها، على الردمية نحو الأسفل، أما عند بداية التلة، والآن من البستان، فراحت تدرز العتمة رشقات بنادق الألمان الملتفين من الخلف، منغرزة في هذه الشلة الهائلة ومجهزة على الجياد الهائجة من ضربات الدبابات.

"الموت؟... ههنا؟ الآن؟" دقت هذه الكلمات على صدغي فلاديمير المضغوط بالزعيق وتوهج الشظايا على العوارض، أما العوارض فكانت تنتفض تحته وتدفعه من صدره، ولم ينتظر، وهو المصاب بالارتجاج وبتشنجات الغثيان في معدته، ألم الجسد الممزق بالشظايا وهذا الشعور بمفارقة الجسد، بل انتظر ضربة تلسع الرأس، وسقوطاً فورياً في السـواد... حـاول، حاقـداً على انزلاقـه الكريـه إلى لجـة الخـوف، الـذي ضغطه على الأرض، أن يعي أن عليه النهوض إلى المدفع والاستمرار في إطلاق النار، وحاول أن يرفع رأسه. "إيليا، أين إيليا؟ أين إيليا؟ أين ديمين؟ أين كالينكين؟..."

"- فولودكا. أنت حي؟.."

سقط أحدهم على نحو ثقيل إلى جانبه، وهزه من كتفه بقوة غاضبة، ورأى قربه

عيني إيليا المتلئتين حنقاً، وفمه المعوج، وشعره الأسود الملتصق على نحو مائل بصدغه المتعرق. صاح غاضباً: "- لم أنت مستلق؟ هل سننفق؟.. ضابطان عند المدفع وننفق؟ ذخر، ذخر، ذخر يا فولودكا، ذخر..."

ونهض على ركبتيه، مرتدأ عن كتف فلاديمير، وتطاول نحو الموجه، لكن يده اليسرى زحفت نحو عجلة التوجيه بدفعات خرقاء، وكان كفه وكم قميصه ملطخين لسبب ما بالتراب حتى السواد، ولم يستطع أن يمسك بعجلة آلية الرفع إذ اصطدمت أصابعه الملطخة بالطين كلها كالميتة بالحديد.

صاح فلاديمير وهو يرمي القذيفة في الخزنة جاثياً: "- ماذا؟ ماذا؟ ماذا يا إيليا؟"

همس إيليا بصوت مسعور أبح: "- ذخر. سننفق فيما بعد. فيما بعد..." وانحرف بهيكله كله مدوراً عجلة التوجيه بالتناوب، وضغط مستعجلاً جبينه على منظار الموجه وصرف بأسنانه وضغط زر الإطلاق.

دخلت الدبابات الأمامية البلدة، والتهمت الحرائق المنازل المتطرفة، وتدحرجت أعمدة الدخان الأحمر في الطرقات مع أرجوحة الشرار، وغمرت المنخفض، واقتربت من ردمية السكة الحديدية قرب بناء المحطة، حيث أخذت أشكال بشرية رمادية تذهب وتجيء في المزيج الناري، وتصادمت خطوط طلقات البنادق، وراح صهريج نفط في الطرقات خلف سطح مستودع البضائع يحترق مسوّداً السماء بدخان كثيف، وهناك، قرب مستودع البضائع، صعدت الدبابات المنارة بالحرائق نحو السكة الحديدية، وعبرت الردمية، وخرجت إلى ضفة الجدول الأخرى مخترقة دفاعات مشاتنا.

... استطاعا إطلاق صندوقي قذائف على الدبابات. أصابهما الصمم من دوي الطلقات، ولم يسمع واحدهما أوامر الآخر، وراحا يخمنان غريزياً تقريباً دقة الإصابات ويسبان بأقذع كلمات الحقد مع اندلاع اللهب القرمزي على دروع الدبابات، لكن هدوءاً لا يمكن تخيله قطع فجاءة دوي الطلقات. ضربت رشقات البنادق الآلية الآتية من الخلف واليمين جسم المدفع مصحوبة برنين متقطع. تنحى إيليا الجاثي على ركبتيه جانباً، ونظر بعينيه المضيقتين المبهورتين بخط الطلقة إلى الجهة التي انطلقت

منها، وسقط في الحال ببطنه على الأرض بين الركائز مخرجاً مسدسه من قرابه، ووجهه غير معروف من الغضب الذي شوهه:

"- آ، الأنذال. التفوا من الخلف."

ثبت على الركيزة يده الممدودة، وأطلق بضع طلقات على التوالي باتجاه حركة الناس الجماعية فوق الجسر المقام من جذوع الأشجار، من حيث انطلقت الومضات النابضة، ولحظ فلاديمير في تلك اللحظة، في بريق الحرائق على الردمية، سلسلة من الألمان الذين تحركوا على امتداد السكة الحديدية نحو المعبر ناثرين حزم الرشقات، أما من الأسفل، من البستان، فصعدت على المنحدر ظلال راكضة، ودرزت نيران البنادق الطريق والجسر والردمية قرب المعبر وأحرقتها- تراقصت نيران الطلقات المنفجرة المتكاثفة، والمنهمرة بوحشية، بين عشب المنحدر وعبر السكة الحديدية ناشرة إعصاراً حاراً مميتاً- ولم يكن في الإمكان رفع الرأس.

"- لقد عزلونا يا إيليا. هل ترى؟"

تناهى إلى مسامع فلاديمير صوته الأبح المختنق: "- انتهى. حاصرونا، الأنذال. لننسحب. انتهى. عبر الجدول، عبر الجدول. نحو المحطة... اتبعوني..."

*****

الفصل الثاني عشر

لم يتذكر تماماً كيف تسللوا إلى الجدول، وكيف تدحرجوا على الردمية إلى الأسفل، وكيف مكثوا هنا في المنخفض بضع ثوان بانتظار الباقين، وكيف نهض أحدهم بأمر من إيليا لمناداتهم ثم انبطح من جديد على الطريق وقد ضغطته على الأرض النيران المنطلقة من ثلاث جهات. وهنا، في المنخفض، وفي لحظة التقاط النفس هذه، رأى فلاديمير أخيراً أن كف إيليا اليسرى التي اصطدمت أصابعها على نحو خال من الحياة بعجلة توجيه المدفع قبل البدء بالإطلاق، لم تكن ملطخة بالوحل بل بالدم، وفهم أنه جريح. دس إيليا مسدسه خلف حزامه بعد أن جلس أرضاً ومزق بأسنانه كيسه الشخصي، وراح يلف معصمه بالشاش باستعجال. بدا وجهه في أثناء ذلك مشوهاً على نحو مأساوي، وأمر فلاديمير بإيماءة منه، وهو يتلوى، بأن يربط نهاية الشاش المتأرجحة، وشتم بكلمات سريعة:

"- تخدرت السافلة مثل الخشب."

وكان ذلك آخر صوت سمعه فلاديمير بوضوح مع أصوات الطلقات. سبح كل شيء في الصمم اللزج الرنان. رأى التلويح الآمر بالمسدس في يد إيليا اليمنى، ثم وجهي ديمين وكالينكين المضرجين بالهالة والمتوترين، وعيونهما الجاحظة، والفم المصلوب باللهاث على وجه المساعد لازاريف، الراكض على المنحدر بقفزات متعثرة، والتكشيرة الوحشية الحمراء كالدم على وجه الرقيب شابكين مع ومضات البندقية الآلية، التي كثيراً ما كان هذا الأخير يرميها نحو كتفه، ويرتد بطريقة ما جانباً بعد كل رشقة، منزلقاً على

المنحدر نحو ضفة الجدول.

أما فلاديمير فكان يغوص في طنين الأجراس السابح والأصم تارة، وتارة يطفو فجاءة على فاصل الواقع المصم، وحينئذ كانت تنتصب في وعيه فجائية الليل القاسية، لكنه لم يشعر بقسوة هذه الظروف كاملة إلا بعد أن ركضوا كيلو مترين تقريباً في منخفض الجدول، وتسللوا إلى الغابة، فأوقفهم هنا إيليا جميعاً، مسنداً يده الجريحة، ولف الجنود بعينيه الكارهتين، وتكلم وهو يكاد يختنق:

"- هل معنى هذا أننا تركنا المدافع؟ نحن؟.."

صاح شابكين بصوت رطب وهو يمسح العرق عن عنقه بقبعته القماشية: "- أيعقل أيها الملازم أنك تريد الوقوع في الأسر؟ ولو تأخرنا قليلاً لـ-"هيند، هوه، بيتة" لقد دَحَرَنا الألمان.."

نطق ايليا والكراهية لم تنطفئ في عينيه: "- سفالة، سفالة، سفالة..."

بقيت أصوات المعركة خلفهم، لكن الإطلاق ودوي الانفجارات سرعان ما راحا يقتربان من الأمام واليسار، وحين تخطوا شريحة الغابة انكشف الحقل المخضوضر في هواء الفجر الرمادي، وانكشف المرتفع المغطى بأشجار الصنوبر وسط الغابة. وقفت هناك على الطريق، عند سفح المرتفع، مدرعتان مغبرتان، وراح الجنود غير البعيدين عن منحدر كتف الطريق يظهرون قرب سبطانات مدافع الهاون المرفوعة إلى الأعلى ثم يقفزون مبتعدين لحظة الإطلاق. حلقت قذائف الهاون مصحوبة برنين قاس في سمت السماء، ورفعت الانفجارات التراب في نهاية الحقل، حيث كان مشاتنا ينسحبون على شكل قفزات، وقد تخندقوا وتمركزوا على حدور المرتفع قرب الطريق السائرة خلل حقل القمح حتى المحطة نفسها. كانت البلدة المجاورة للمحطة، التي حاصرها الألمان ليلاً واحتلوها مع بزوغ الفجر، تحترق خلف حقل القمح هذا، وخلف السكة الحديدية، مغطية بالأدخنة السماء، التي بدأ الضوء يتسلل إليها، وراحت

الدبابات من تحت هذه الأدخنة تتخطى ردمية السكة الحديدية بمربعات عريضة، وتزحف إلى مكان ما على يسار المحطة نحو طرف الغابة، وكانت الرشاشات الثقيلة ترمي من الردمية الحقل كله والمرتفع.

احتشدت قرب المدرعتين مجموعة من ضباط المشاة المتعبين، الذين نمت لحاهم خلال هذه الليلة الساهدة. كانوا يدخنون بنهم مصدرين الأوامر لجنود الاتصال، ويراقبون المحطة بالمناظير، وراح أحدهم، وكانت عيناه مدورتين على نحو رهيب، يصيح آمراً ومخرجاً يده من تحت حافة المشمع:

"- من هؤلاء الرجال؟ من أين؟" واندفع في الحال نحو إيليا بعد أن عرف رجال المدفعية، ونطق مندهشاً: "- آه، بطارية الفوج؟ أين المدافع إذن؟ أين المدافع أيها الملازم؟ يا للعجب، إلى أين تقود الناس؟ ألا تقودهم إلى نزهة في الجوار؟ أين المدافع؟"

تكلم إيليا بصوت مضغوط ما كان ليتكلم به من قبل على هذا النحو المهين أمام ضابط أعلى منه رتبة، وارتجفت ذقنه مع ارتجاف صوته: "- عليّ أن أقدم تقريري لقائد الفوج."

أنزل الضباط المشغولون بالمراقبة مناظيرهم، وحرفوا أنظارهم المليئة بالشك والعداء نحو إيليا ورجال المدفعية المتجمهرين، المهلهلين والمتعرقين والمتنفسين بصعوبة والملوثين بالتولين المحترق وذوي النظرة الجائسة المقلوبة إلى الداخل، التي تظهر لدى من لا زال جلدهم يذكر نفس الموت الذي ألقى نظرة على أرواحهم- وانعكس منظر الجنود الرث وأحزمتهم المائلة وأغوار وجناتهم المغطاة بالشعر القصير الخشن على وجوه ضباط المشاة نفوراً غاضباً، وقال أحدهم بصوت مزقزق مصدراً حكماً ساحقاً:

"- تركوا المدافع وولوا الأدبار، الجبناء؟ هاتهم إلى المشاة أيها النقيب غوجافين، وبعد المعركة إلى المحكمة الميدانية."

شعر فلاديمير بالتشنج في حنجرته. لم يرغب في رؤية الجسد البشري لهذا الصوت المزقزق، الذي أصدر حكمه بهذه اللامبالاة الخالية من الرحمة، وكأن كل شيء قد

تغير منذ هذه اللحظة وخضع لقانون الحرب غير المكتوب، مجرداً حياتهم من كل قيمة في رمشة عين، ومعرياً أمام ضباط المشاة الغرباء شيئاً ما بشعاً ومعيباً ومذلاً، فلم يعد الآن في العالم ثمة تفهم أو غفران بعد الجريمة المخجلة المرتكبة.

أمر النقيب غوجافين: "- إلى المشاة. الجميع. ما عدا الضابطين. هيا إلى هنا."وأشار بعينيه الرهيبتين لهم ليسيروا باتجاه المرتفع حيث تخندق المشاة خلف الطريق: "- ركضاً."

خطا إيليا نحو النقيب وقال، وقد ابيض وجهه: "- كلا. لن أعطيك رجلاً من رجالي ما لم أقدم تقريري إلى القائد..."

صاح غوجافين بصوت ثاقب، ورمى بحدة طرف المشمع وأسقط يده اليمنى على قراب المسدس: "- صه -متاً. سأسوقهم عنوة كالفارين إن فهت بكلمة واحدة."

زعق إيليا في جنونه الجائح، وكان واضحاً، احتكاماً إلى سحبه المسعور من القراب المفتوح للمسدس، الذي راح يرتجف بين أصابعه، وإلى تضييق شفتيه المزرقتين، أنه مستعد للمضي إلى أبعد حد في مقاومته الحانقة:

"- أنت أيضاً . صه. متاً."

"-ماذا قلت أيها الملازم؟ ماذا؟"

"- ما سمعته أيها النقيب."

أحس فلاديمير أن شيئاً ما لا يمكن تصحيحه سيحدث الآن بين النقيب غوجافين وإيليا، لكن كل ما عانوه ليلاً- مقتل جياد العربات والمدافع المصابة من قبل الدبابات عند المعبر وخروج ثمانية أشخاص، هم الباقون من البطارية، أحياء من الحصار- بدا كله في عيون ضباط المشاة هرباً، وإنقاذاً لا يغتفر للحياة، ثمنه هو المدافع المتروكة، وكانت مقاومة إيليا هذه في عيونهم محاولة تافهة لا معنى لها للدفاع عن النفس.

قال النقيب متمهلاً، وبموافقة ساخرة لا مبالية:

"- هيا، هيا أيها البطل، قدم تقريرك للقائد. سيرشحك لنيل وسام على شجاعتك. ستحصل على تسعة غرامات لفتح الشهية أو سيعينك طليعياً في الكتيبة التأديبية كهدية. فلنذهب، سأقودكم إليه، فلنذهب. أيها البطل من مدينة الهاربين. وتظهر الشجاعة أيضاً، يا مثقف المربيات. أنت- مقدام..."

قهقه غاضباً، وقفز من على كتف الطريق، وخطا صاعداً المرتفع حازماً لا يلين، منقلاً بمتانة وصلابة جزمته المصنوعة من جلد الكروم.

سار إيليا خلفه واضعاً المسدس في القراب، ومترنحاً بخفة وكأنه في فراغ اللاوعي، وراح العشب يحف مبللاً جزمته، أما ضباب ما قبل الصباح فكان يدخن وينساب خصلاً على المنحدرات ويتنقل بين الشجيرات بطبقات دخانية ممزقة.

لم تهدأ المعركة في الخلف، لكن المكان هنا، على المرتفع، كان مقفراً ومكفهراً، وغسل هواء الصباح الوليد الرطب والبارد والدبق وجه فلاديمير المتعرق، ولم يكف تشنج الغثيان طوال الوقت عن شد معدته بسبب من صمت النقيب السائر في الأعلى على المنحدر بصلابة ثأرية ومن انطوائية إيليا العابس، الذي راح يصرف بأسنانه ولم يلتفت مرة واحدة إلى الجنود المتخلفين بتهيب خلف ظهور الضباط. وظن فلاديمير أنهم يسوقونهم إلى الإعدام وأن أي شيء لن يساعدهم، وأن أي واحد منهم لن يقدر على تبرير الوضع الذي نشأ عند معبر السكة الحديدية وتلك الدقائق التي لم يعدها أحد ولم يعدها شيء حين عزل الرماة البطارية وحاصروها، وحين اضطروا إلى ترك المدافع المستهدفة عن قرب من ثلاث جهات... "ما هذا؟ ماذا حدث لنا كلنا؟ لم لم نبق نقاتل في الحصار ونستشهد هناك؟.."

****

وقفت على قمة المرتفع، وسط الأشجار، ثلاث سيارات "ويليس" وسيارة أركان

خضراء فتح بابها الجانبي وتردد منها صوت التفريغ الكهربائي لمحطة الإرسال. راح أربعة جنود في قمصانهم العسكرية وأحزمتهم المفكوكة يحفرون قرب السيارات الخنادق الصغيرة المخصصة على ما بدا لضباط الأركان المتجمهرين فوق الخريطة المفروشة على جذمور، راح جنديا اتصال يضعان قربه جهاز الهاتف ويؤرضانه. استقر بجانبهم على المشمع ثانياً ساقه تحته الرائد فوروتيوك النحيل، ذو الوجه المدبب والصدغين الأشيبين. كان يلتهم باشمئزاز شطيرة من خبز جاف أبيض مدهون بالزبدة، ويحتسي بعدها باشمئزاز أيضاً الحليب من كأس حديدي، رامياً باتجاه الضباط عينيه النافذتين، البنيتين، المغروستين بجانب أنفه المعقوف مما أضفى عليه هيئة باشق تثير في النفوس الرغبة في تفادي حدقتيه. جلست على مقربة شقراء مزيحة ركبتيها المتوترتين والمفتوحتين بسبب من تنورة الجوخ المشدودة الضيقة، وبدت هذه الممرضة الفتية من الكتيبة الصحية وكأنها مكونة كلها من عظم أبيض ثمين. كانت "الصديقة الجبهوية" لقائد الفوج، كما يقول الضباط الآخرون، والأدق- زوجه، التي أحبها الرائد من غير وعي، واصطحبها معه أينما حل من غير أن يخجل من تأنيب القيادة. لقد غفر الكثير للرائد فوروتيوك، الضابط المنفذ الأشجع في الفرقة، الذي كانت كتائبه تحمل على عاتقها دائماً الصليب العسكري الأثقل (احتلال المرتفعات، عبور الأنهار الأولي، الاستطلاع بالمعركة) خصوصاً وأن مرض القرحة كان يتيح له من غير أية عوائق أن يستلقي في المشفى للعلاج، وهذا ما كان يأبى فعله حتى في فترات الهدوء.

كانت شفتا فوروتيوك المستويتان ملوثتين بالحليب، إذ راح يشربه من الكأس غير راغب فيه كالدواء. تناولت الممرضة الشقراء فطورها أيضاً، مسبلة أهدابها بصمت تحت النظرات المسترقة من قبل الجنود الشبان الذين كانوا يحفرون الخنادق، فراحت تقضم قطع الخبز الجاف بصوت غير عال غامسة إياها في صحن العسل، الذي وضعه مساعد الفوج المهموم على المفرش الملقى وسط المرج وغير العادي باتساعه النظيف على العشب، وبطعام الحمية- الحليب والزبدة والخبز الجاف- الذي استمتع به الرائد فوروتيوك.

لم يلتق فلاديمير مرة واحدة في مثل هذه الحال بقائد الفوج المشغول بفطوره على نحو اعتيادي، في الوقت الذي كانوا ملزمين فيه بأن يقدموا له تقريرهم عن معركتهم الليلية الفاشلة عند معبر السكة الحديدية، وعن المدافع الثلاثة التي تركوها في وضع لا مخرج منه- وسرت برودة الخطر الداهم في ظهره الرطب، في تلك اللحظة توقف النقيب غوجافين أمام مدى المفرش الأبيض مخرجاً يده اليمنى من تحت المشمع، وبدأ يدلي بتقريره بغضب حازم لفوروتيوك. رمى الرائد عينيه الكاسرتين الثاقبتين على إيليا ثم نقل نظرته إلى مجموعة رجال المدفعية المستمرين بترقب مذنب، وراحت تتوهج في هذه النظرة المفترسة المصوبة حدة معدنية لا تعرف الرحمة. حينئذ خطا إيليا المنفصم عن ذاته خطوة للقائها، وتكلم على نحو أصم:

"- أيها الرفيق الرائد.."

نطق فوروتيوك بصوت أجش دقيق يكاد لا يفهم، ووضع كأس الحليب على المفرش قرب كومة الخبز الجاف: "- اصمت. ستجيب حين أبدأ أسألك. لقد عينتك قائداً للبطارية أيها الملازم رامزين فارتكبت خطأ. هيئتك هيئة خيّال أما روحك فروح أرنب. ماذا، هل ركضتم حتى التصقت سيقانكم بأدباركم؟ ولم تطلق النار على جبينك للخلاص من العار؟" دلك بأصابعه الطفولية بطنه، حيث راح الألم على الأرجح يزعجه، وصمت غارزاً حدقتيه الحادتين في وجه إيليا: "- هل تعرف جيداً ماذا يفترض بالضابط الفار من ميدان المعركة أن يفعل؟"

استقام إيليا باستعداد، ووقف صامتاً أمام الجميع، على بعد ثلاث خطوات عن قائد الفوج، وكان ملحوظاً كيف توتر لوحا كتفيه تحت قميصه المتشبع عرقاً حتى آخر خيط فيه.

كرر فوروتيوك بصوت دقيق قاطع وهو يطعن بناظريه فلاديمير، ثم مجموعة رجال المدفعية:

"- وأنتم، أنتم، يا آلهة الحرب، هل عرفتم جيداً ماذا يفعلون بالفارين؟ هل عرفتهم حين هربتم من عند المدافع أنكم لم تعودوا محاربين بل موتى؟ هل عرفتم أنكم سترسلون إلى الشيطان كجبناء فارين وفاقاً للأمر مائتين وسبعة وعشرين؟ فأي طلقة أحلى- الألمانية أم الروسية؟ لقد اعتبرت أنكم استشهدتم كالأبطال.. كالأبطال. أطلقتم القذائف كلها واستشهدتم تحت جنازير الدبابات، ولم أظن أنكم ذهبتم، أنكم هربتم... آه، أيها الجبناء، أيها الجبناء."

لفظ الكلمات الأخيرة بأسف متقزز، بيد أن كل شيء في هيئته- في قده النحيل الشبيه بقد صبي أشيب، وفي صدره البراق كله بالذهب والفضة وفي وجهه المدبب نحو الأسفل- كان راسخاً ومشحوذاً وبارداً.

"- هل تسمح أيها الرفيق الرائد بقول الحقيقة كلها؟"

"- ومن هذا أيضاً؟ أية حقيقة أيضاً؟"

"- ما كنا لنذهب أيها الرفيق الرائد لو لم يأمرونا..." تردد صوت ثقيل متقطع بسبب من التنفس الكثيف، وخدش إحساس مفاجئ بمصيبة حتمية صدغ فلاديمير بمخالبه الخانقة، وارتد في رأسه على شكل ضربات: "ماذا يقول لازاريف؟ عم يتحدث؟ عن أي أمر؟": "- لولا الأمر لوقفنا حتى آخر فرد فينا، ولما سمحنا بمرور الدبابات نحو المحطة. لكن أمر الضابط قانون للجندي..."

قاطعه الرائد فوروتيوك بصيحة نافدة الصبر: "- من تحديداً أصدر الأمر بترك المدافع؟ من تحديداً؟"

طن لازاريف طائعاً: "- ما كنا لنذهب أيها الرفيق الرائد. ليست المرة الأولى التي نصد الدبابات فيها. الملازم رامزين هو الذي أمر إن أردت الحقيقة كلها..."

تفتتت في الأسفل انفجارات قذائف الدبابات مخمدة برنينها الهادر أصوات رشقات الرشاشات. أما على أطراف المرج فتصاعد فوق العشب ضباب خفيف،

واقتلعت غرابة المفرش النظيف كالثلج، الممدود على العشب لسبب ما، وكومة الخبز الجاف، والقدر المملوءة بالحليب الضارب إلى الزرقة، والقد الصغير الواضح لفوروتيوك الجالس بساقه المضمومة، وأهداب زوجه الشقراء المسبلة بحصانة، وقد كفت عن قضم الخبز الجاف، وهذا الصوت الغليظ والخشن والوقح بعض الشيء الصادر عن المساعد لازاريف المتعطش، كما بدا، للعدالة والحقيقة، فلاديمير من حال التسمر بقوة الخطر غير المنتظر، ولم يستطع أن يميز بوضوح كاف لازاريف الذي تقدم إلى الأمام، ربما لأن عينيه، اللتين فتك البارود المحترق بهما، قد آلمتاه، همد مبللاً بالعرق كله وملطخاً بالوحل حتى الحزام (اضطروا إلى الركض أول الأمر عبر ضفة الجدول الضيقة) على بعد ثلاث خطوات عن المفرش في وضع الاستعداد، وقد تدور منخراه الشريران.

سأل فلاديمير ببطء غير فاهم: "- عن أي أمر تتحدث؟ لم أرك قرب المدافع حين رحنا نقصف الدبابات..."

رفع لازاريف طنين صوته الغليظ، وفي الوقت نفسه، حاول متزلفاً أن يستحوذ بوجهه كبير الوجنتين على اهتمام فوروتيوك: "- اسمح لي إذن أيها الرفيق الرائد أن أقول الحقيقة كاملة، لا تسد فمي. لو لم يقض الرفيق الملازم رامزين... أرجو المعذرة أيها الرفيق الرائد، لو لم يقض ليلة حب مع المرأة لتسنى لنا أن نشغل الموقع الناري على الردمية، ولفتحنا النيران المباشرة على الدبابات... تأخرنا في إطلاق النار."

قاطعه فوروتيوك مرة أخرى كاشفاً عن أسنانه الدقيقة السكرية، ورنا بنظره نحو وجه زوجه الشابة المتورد متكدراً من شرح لازاريف: "- أية امرأة أيضاً؟ بم تهذي أيها المساعد؟ من أين ظهرت المرأة في بطاريتكم؟"

نفخ لازاريف صدره العظيم بالهواء، وأجاب بنبرة مخفضة مليئة بالبساطة البريئة:

"- امرأة شابة كانت في المنزل قرب نقطة مراقبتنا أيها الرفيق الرائد. بدأ بينها وبين الملازم رامزين حب. هجم الألمان ولم يكن الملازم رامزين في نقطة المراقبة. كان يمرح مع المرأة في مقلب القش..."

برق في رأس فلاديمير المندهش من صمت إيليا: "إنه يفتري على إيليا." أما هذا الأخير فظل واقفاً كالسابق في مقدمة الجميع ضاماً عقبي جزمته من غير حراك، وشاداً كتفيه ومتحجراً في هيئة نظامية لضابط أنموذجي مدرب ومذنب أمام القيادة العليا.

تكلم فلاديمير بصوت فاقد القوة ولا شكل له كصوت الهذيان، حين تصطدم الصرخة المندفعة تلقائياً بالحنجرة، لكنها تخرج على هيئة صوت ضعيف: "- أي هراء... أنا من كان مع المرأة وليس الملازم رامزين." تحدث فجاءة بمرونة محلقاً كالمغمى عليه إلى الحدود السماوية الخارجة عن السيطرة للجسارة الملتهبة اليائسة، وواعياً لا بعقله وإنما بخجل ضرورة قول الحقيقة إن لم يكن لأجل شيء فلأجل فكرة أنه قد يخون إيليا والماضي وموسكو والمدرسة وكل ما بينهما، وموافقاً على العار الذي سيلحق به وعلى أقصى حدود عقاب الذات الصادق، فتابع فلاديمير شاعراً بالألم المدمر في صدغيه: "- كان الملازم رامزين في نقطة المراقبة في المنزل، أما أنا فكنت... أنا من كان عند مقلب القش. حين بدأت المعركة أمرني الملازم رامزين بأن أضع المدافع في موقع جديد ضد الدبابات. لم يكن المشاة موجودين أمامنا... بدأ الألمان الهجوم وفتحنا النار عليهم. المشكلة ليست في التأخير... قتلت جياد عربات الجر. حاصرونا عند المعبر. ما شأن المرأة هنا؟"

شرع لازاريف يتحدث حديث حق مبرهن لرجل مقتنع بقدسية ما يقوله وصحته، وقد خطا في أثناء ذلك خطوة نحو فوروتيوك: "- اسمح لي بالتكلم أيها الرفيق الرائد. لست ضابطاً أيها الرفيق الرائد وقلَّ ما يصدقني أحد، غير أن الملازمين زميلا دراسة، وقد استخدما المرأة معاً أيضاً، أرجو المعذرة، لم أشأ أن أتحدث عن هذا... لكن كلماتي بدت وكأنها كاذبة أيها الرفيق الرائد. أريد أن أقول، وأقسم أن لا ذنب للجنود هنا، كان أمر الملازم رامزين- وتركنا المدافع..."

سأله فوروتيوك بهمس حار: "- إذن فقد نفذتم الأمر؟ هربتم؟ اتركوا المدافع؟ اهربوا؟ اسمحوا للدبابات بالوصول إلى المحطة؟ هاكم، انظروا أين هي... انظروا إلى

هنا سريعاً. انظروا جميعاً يا أولاد الكلب، يا رجال المدفعية التيوس." زعق، ونهض على قدميه، فبدا قصير القامة في جزمة أنيقة من مشمع التاربولين، وتموج ستار الأوسمة على صدره، وانحرفت شفتاه المستويتان: "- من كان عليه أن يوقفها؟ المسيح؟ من؟.."

"- أيها الرفيق الرائد... الأول يطلبك... قائد الفرقة..."

انتزع فوروتيوك مستثاراً السماعة الممدودة من يد جندي الاتصال: "- الأول؟" وتكلم مطلقاً زفرة: "- الرابع يسمعك." بدأ يمسد بطنه بعصبية، وصار وجهه النحيل أكثر حدة، واكتسب مسحة ضاربة إلى الصفار، وكرر بصوت رخيم: "- تماماً أيها الرفيق الأول، سأقوم بالهجوم المضاد. ساقوم بالهجوم. بطارية مدفعية الفوج استشهدت في التسديد المباشر فاقتحمت الدبابات المحطة. هذه خطيئتي وسأكفر عنها. اسمح لي بأن أطلعك على الموقف بعد ساعتين أيها الرفيق الأول؟"

صار المرتفع مرئياً بوضوح كله في الهواء الشفاف في فجر ذلك اليوم من أيام شهر تموز، وكذلك المرج المبلل والأشجار والخمائل والضباب السابح متموجاً فوق العشب البارد، أما في الأسفل، في تلك الجهة، إلى حيث هبطت مسرعة أشجار الصنوبر على المنحدر الشديد، واتحدت في المحطة أدخنة الحرائق التي أفقدها الصباح لونها، وتنقلت متدحرجة ضربات الانفجارات المتكررة، وبرزت الدبابات الألمانية سوداء ومحدبة بين المنازل المحترقة، وانغرز في الآذان مع دوي المحركات صوت الرائد فوروتيوك الدبق بعد أن أنهى الحديث مع قائد الفرقة:

"- من كان عليه أن يوقف الدبابات إذن؟ فجل فيل البحر الحار، أم فيل البحر من غير الفجل الحار؟ أسألك أيها الملازم، من؟ أنا؟ قائد الفرقة؟ قائد الجيش؟ أسألك، من؟ هل يعقل أن لا يوجد بينكم ماتروسوف[1] واحد؟ كان عليكم أن تلفوا أنفسكم بالقنابل وترموها تحت الدبابات ما دام لم يكن أمامكم مخرج آخر." امتصت عيناه المغروستان قرب أنفه إيليا، وصارتا وحشيتين وشديدتي العزم ومشوهتين، وقد ملأهما الغيظ: "- آه منكم يا أبطال فوجي. حاصركم الصعاليك الألمان أما أنتم

---

(1) ماتروسوف أحد الأبطال السوفييت المشهورين (المعرب).

فحملتم سيقانكم بأيديكم ووليتم الأدبار؟ أنقذتم حياتكم الثمينة؟ لم أنت صامت يا قائد البطارية؟ (وقف إيليا منتصباً كالحجر) إليك إذن أمري أيها الملازم، واسمعني بانتباه إن كنت تريد أن تعيش. عودوا جميعكم إلى المدافع. استطعتم أن تتركوها وستستطيعون استعادتها. افعلوا ما يحلو لكم- هاجموا، استردوها خلسة، أخرجوها أجزاء أجزاء من الحصار. افعل ما تريد يا قائد البطارية، المهم أن تكون المدافع في الفوج، أن تكون مثل الزوج الشاب يوم السبت. أن تكون هنا عند المرتفع. إن لم تسترد المدافع فستذهب إلى المحكمة العسكرية. ستذهب أنت تحديداً يا قائد البطارية، والجميع معك. أنت المسؤول عن كل شيء. هل كل شيء واضح أيها الملازم؟ اذهب وفكر أية طلقة أحلى، طلقتنا أم الألمانية. اذهب، سر من هنا. خذ الرجال وسر."

شق الهواء بيده قاطعاً بهذه الإيماءة أي حل ممكن آخر، ففكر فلاديمير في تلك اللحظة أن فوروتيوك لن يقف أمام أي شيء في سورة غضبه وإدانته البطارية التي لم توقف الدبابات عند مشارف المحطة المستولى عليها بنجاح قبل يومين من قبل فوجهم.

قالت الممرضة الشقراء: "- على رسلك أيها الملازم." ونهضت نحيلة مقطبة، وأمسكت إيليا من مرفقه، ونظرت إلى الضماد على كفه: "- اصبر، سأضع لك شاشاً نظيفاً وإلا فسيصيبك الكزاز."

حرر مرفقه من غير أن يجيبها.

كرر فوروتيوك باهتياج وهو يمسّد بطنه، وكأن نوبة القرحة كانت تثيره، لكن ما كان يثيره أيضاً هو استمرار إيليا في صمته متخذاً هيئة الضابط النظامي المدرب جيداً: "- هل الأمر واضح أيها الملازم؟ واضح؟ إذن تذكر أيها الملازم، إن لم ترجع المدافع فسأقدمك كفار وجبان أمام محكمة سريعة. أسألك، هل هذا واضح؟"

قال إيليا بغيظ هادئ مجنون، ولم يتضح إن كان يضحك أم أنه راح ينشج ذارفاً الدموع المحصورة في حلقه: "- واضح، لكنني لا أرغب في أن أمنحك هذه المتعة، أنت تحديداً أيها الرفيق الرائد."

نظروا نحوه جميعاً.

لم يصدر عن إيليا صوت واحد زيادة. استدار بحدة آلية وكأن نابضاً اشتغل في داخله، وهنا صار مرئياً وجهه المخيف بسكونه الجليدي، المشدود على عظميه الوجنيين، الذي فقد سمرته المعهودة وخلا من كل قطرة دم، وأضحى شبيهاً بوجه من حكم على نفسه بالموت ميتة القديسين المعذبين- وحين سار بسرعة مبتعداً عن فوروتيوك شمخ برأسه لتجد نظرته جسم لازاريف فأزاحه جانباً بدفعة حقد كأنها دفعة من يده.

تكلمت الممرضة بنصف صوتها موجهة كلامها غير الخالي من الادعاء لفوروتيوك: "- هذا المساعد مقرف. ألا ترى أيها الرفيق الرائد أنه يكذب؟ إنه يكذب مثل حصان رمادي مخصي."

نطق فوروتيوك: "- أن يموتوا كلهم أبطالاً حتى آخر فرد فيهم أفضل من أن يتحللوا في الأرض جثثاً. لا يغير شيئاً أمر من منهم الكاذب... تركوا الدبابات تمر- فليغسلوا ذنبهم بالدم، بالدم..."

قال إيليا بصوت أبح: "- اتبعوني." وتحرك خلفه كل من انتظر هذا الأمر وخاف منه، عائداً عبر هذا المرج والمنحدر المغطى بالأشجار إلى الأسفل، إلى حيث راح هدير محركات الدبابات يمزق كتل الضباب ويجزئها ويهزها في المنخفض، وراحت رطوبة الهواء المهشم الزاحفة تغرق الوجوه في برد تقشعر له الأبدان.

أشار الضابط في المشمع، النقيب غوجافين، الذي راح يقضم غاضباً عشبة في أثناء الحديث، باصبعه داعياً لازاريف، وانحدرا متخلفين عن الجميع.

*****

الفصل الثالث عشر

ركضوا في الغابة على امتداد خطة الجبهة أول الأمر، ثم ساروا من غير أن يتوقفوا أو يقوموا باستراحات قصيرة لالتقاط النفس. تدحرجت من اليمين باستمرار كالعجلات أصوات المعركة غير البعيدة، وأحياناً كان ينهال على طرف الغابة هدير الانفجارات. أما من اليسار فكان الهدوء الصباحي يرد بدوي الصدى في الأدغال الضبابية.

خطا إيليا في المقدمة ويده معلقة بالحمالة إلى عنقه، وكان وكأنه يسير على نابض، من غير أن يصدر أوامر أو يحث الآخرين أو يلتفت نحوهم. اسود قميصه العسكري على لوحي كتفيه ببقع العرق، والتصقت طبقات أوراق الشجر بالطين الجاف والغبار المسود على جزمة التاربولين التي كانت جديدة حتى أمس، وراح قراب مسدسه المفتوح يشتبك باستمرار بالشجيرات ويتأرجح على فخذه الأيمن مبيناً مقبض المسدس.

سار فلاديمير خلفه شاعراً بثقل خانق في هدوء إيليا المنيع هذا، وفي الانفراد الصامت لكل من سار خلفهما صاغراً ومنصاعاً لأمر فوروتيوك، الذي أهداهم بضع ساعات من الحياة قبل القيام بمحاولة إخراج المدافع من الحصار. "كيف نخرجها؟ من غير جياد؟ بأيدينا؟ والألمان؟.."

وراحت جملة فوروتيوك، التي قالها هناك، على المرتفع، لقائد الفرقة على الهاتف، والتي أخبره فيها أن بطارية الفوج قد أبيدت، تتردد في وعيه ملحة ولجوجة،

ولم يكن مفهوماً إن كان يحمي بجملته هذه عناصر المدفعية أم أنها سهلت عليه تبرير انسحاب كتائب المشاة وتبرير احتلال الألمان المحطة.

ناداه فلاديمير بصوت جاف: "- إيليا." ولحق به بعد أن سرع خطاه، وكلمه جاهداً: "- لا يمكننا العودة من غير المدافع، لكن لا لزوم لهذا الجنون: لن نستطيع إخراج ثلاثة مدافع من الحصار على ظهورنا. ماذا سنفعل؟"

قال إيليا بنبرة باردة خالية من الحماسة، وأدهشت فلاديمير ابتسامته العريضة التي غضنت وجنته السابحة في العرق: "- سنموت. أية طلقة أحلى؟ الألمانية أم الروسية؟ أ؟" ردد كلمات فوروتيوك التي لم تخرج من رأسه على الأرجح: "- لا، لا يحتاج إلينا أحياء. لقد أخبر القيادة أننا قضينا أبطالاً مداسين بالجنازير، ولذلك احتلت الدبابات المحطة. موتنا هو تبريره يا فولودكا. فوروتيوك لا يتراجع أبداً. لقد متنا مع المدافع. هل فهمت؟"

"- أفكر في هذا أيضاً."

"- كل شيء واضح مثل اثنين ضرب اثنين يا فولودكا. لقد دفنونا."

شد إيليا في الحمالة كفه الأيسر المضمد بالشاش الوسخ، ومسح العرق عن وجنتيه بحركة حادة من قبضة يده اليمنى، وأزال شعره القطراني الملتصق بجبينه تحت حافة قبعته، التي كانت مرتبة حتى وقت قريب، لكنها الآن متسخة، ثم التفت بحدة إلى الخلف فجاءة ونظر إلى الجهة التي صدرت منها صيحة بحاء:

"- أيها الملازم، أيها الملازم."

أوقفت هذه الصيحة الجميع، والتفت الناس وهم يتنفسون بضيق وقد أجفلهم الخوف من أن أحدهم، كما هو واضح، قد اكتشف الألمان في مكان ما وراءهم، فتصلصلت أسلحتهم استعداداً للفعل الأخير، وانطلقت الأصوات الصاخبة:

"- من هناك؟ من يصيح؟ هيه، ماذا؟..."

انفصل في الخلف آخر جنديين، واتجها يساراً نحو أشجار حرج الجوز. راح الرقيب شابكين المكتنز مثل الفطر يدفع بوحشية، من الأعلى إلى الأسفل، بسبطانة بندقية آلية ألمانية لازاريف من بطنه آمراً إياه ومهدداً: "- اليدين إلى الأعلى، اليدين إلى الأعلى."

أما هذا الأخير فرفع يديه كمن يتصنع الخوف، وتكلم بصوت صدري غليظ وخشن مصحوباً بقهقهة حذرة نصف مداهنة:

"- اضغط، اضغط الزناد. هات رشقة. أهلكني ما دمت يسوع القديس وتعرف الحقيقة، وما دامت الحقيقة حقيقتك مثل سروالك فهي تغطي مؤخرتك العارية."

صاح شابكين مرتجفاً غضباً وغارزاً بقوة أشد سبطانة البندقية في بطن لازاريف: "- أيها النذل الوضيع. أيها القحبة الخائنة. بم ملأت رأس الرائد؟ نلت الحظوة؟ وشيت بالملازم أيها الجاني القذر؟ وشيت بنا جميعاً؟ أيها الأخوة. تعالوا إلى هنا." أمرهم شابكين بذلك، ونظر بعينيه الزرقاوين الملتهبتين إلى رجال المدفعية المتوقفين: "- تعال إلى هنا أيها الملازم. دع هذا الكلب يقل للجميع لماذا وشى بنا؟ دعه يقل..."

لم يتحرك أحد من مكانه. وقفوا جميعاً متحفزين وصامتين، متنشقين الهواء وملتفتين جانباً بضيق. لم تكف المقدرة أياً منهم على إهدار ما بقي من قوة على هذا الحقد الثأري، الذي احترق شابكين بناره بعد أن فهم فجاءة ما حدث على المرتفع. كان وجهه الصبياني، المرح دائماً، والمتلقف لأي مزاح، مشوهاً، وتدحرجت قطرات العرق الضخمة على جبينه واستقرت عند حاجبيه المثنيين وقد صاح بحنق شديد:

"- قَتْلُ هذا السافل قليل أيها الملازم. لقد وشى بك وأساء إليك يا قائد البطارية. أراد أن يثأر منك وأعرف لماذا. أراد أن يسافر إلى الجنة على حدبة غيره، السجين الملعون. تبين أنه الأشجع بيننا، منعه الأمر من أن يرمي نفسه تحت الدبابة. إلى الأعلى، يديك إلى الأعلى وإلا سأفرغ الطلقات كلها في بطنك أيها الكلب الأجرب."

وراح في سورة حنقه هذه وفي الحبور المستثار بالحقد يضغط سبطانة البندقية مثل الحربة في بطن لازاريف، لافاً الزناد بإصبعه المتأهب. ("من أين له هذه البندقية؟ وأين قربينته الألمانية؟") أما لازاريف المضغوط بظهره على شجرة الصنوبر، رافعاً يديه على نحو أخرق، فلم يحد بنظره المقيد على نحو مقفر عن الإصبع المعقوف، الذي تراءى له آخذاً في الضغط أوضح فأوضح على زناد الإطلاق، وحاول مرتجفاً أن يكسو وجهه شيء من تفوقه المعهود لاهثاً بكلمات مدعوكة:

"- إنه حاميك يا قائد البطارية. اغمز له- فيقتلني... ويدخل الفرحة إلى قلبك.

يجبرني مثل الألماني على أن أرفع يدي. ينبغي تقدير أمثاله. يدك، أنت نفسك، تؤلمك..."

أصدر إيليا أمره الجاف الرنان، الذي اخترق صمت الغابة بصوت الصدى الصفيحي المقتضب:

"- دع هذه الجيفة يا شابكين."

وتفحص بعينيه الضيقتين لازاريف ووجهه المشعر ضخم الوجنتين وصدره ذي العضلات البارزة والوشم البنفسجي البادي من خلف ياقة قميصه العسكري المفكوكة والجزمة على قدميه المتينتين. تفحصه على مهل، ثم قال بفتور تقريباً لشابكين، الذي لم ينزل البندقية فوراً:

"- سيكون لدي متسع من الوقت لأختبر شجاعته."

كان في صوت إيليا المكبوح هذا تأجيل راسخ للحساب، مغطى بانعدام الحماسة الظاهري، وشعر فلاديمير هنا أنه لا يعرف إيليا معرفة تامة على الرغم من كل شيء، ولا يعرف عناده الحقود والمتأنف.

قال إيليا بصرامة حين تحركا من جديد عبر الغابة في مقدمة سلسلة رجال المدفعية المترامية: "- أراد الغبي أن يغرقني أمام فوروتيوك. يا له من أحمق، يا له من حثالة خطرة." ودفع بإيماءة حادة القراب المفتوح مقرباً إياه من فخذه، وتكلم بالصرامة السابقة نفسها: "- أرجو من الله شيئاً واحداً: أن أتمكن، إن حدث شيء ما، من أن أطلق نحوه رصاصتين، ورصاصة لي." ضحك مظهراً أسنانه البيضاء المتلاصقة: "-لا، لن أدع هذا الساقط يسير منتصرا فوق الأرض."

شتم فلاديمير المصدوم بضحك إيليا الخشبي المتقطع: "-فلتذهب إلى الشيطان لن يساعدنا رجاؤك في إخراج المدافع".

قال إيليا: "-كل شيء" جائز."

كمن خلف سواد عينيه البراق تعبير الحزم، التعبير الذي ظهر عليه بعد الشروح المهينة أمام الرائد فوروتيوك على المرتفع. بدا هذا الإيليا غير معروف، مسحوقاً، متهماً بالجبن والفشل كضابط لم يكن جديراً بمنصبه الجديد، وبدا جور قائد الفوج المذل، الذي لم يرغب في أن يعرف أية أسباب، والشعور بالذنب الشخصي لأنهم لم

يستطيعوا إيقاف الدبابات في موقع معبر السكة الحديدية، والغضب من فوروتيوك لأنه أبقى هذا الموقع عارياً ولم يغط البطارية لا بسرية مشاة ولا بجماعة منهم، والأمر المستحيل بإخراج المدافع من الحصار، وهذه العودة إلى مكان المعركة الليلية، وكأنها مجتمعة قد قوضت شيئاً ما في إيليا وقلبته. وانتقل بالهول الرمادي المنتصب في عينيه وتعبير الحزم على القيام بأي عمل من أجل استعادة احترام الآخرين له والبرهنة على أحقيته به إلى فلاديمير كتيار عصبي بارد وحدّه مع إيليا في خروجهما معا إلى ظلام الخطوة الأخيرة اللا محدود، حيث لا زال يحتمل وجود أعجوبة وتوفيق ومصادفة قدرية من نوع ما. لكن كل شيء في إيليا صار يوحي بالتنائي، وانبعثت منه الحدة الشريرة المنفرة حين قال فجاءة وهو يضحك بكراهية ضحكا متقطعا:

"-انظر إلى الخلف. أين يسير لا زاريف؟ لا أريد أن ألتفت.. كم كل شيء بليد يا فولودكا، كم كل شيء بليد..".

خاف من الالتفات لأنه لم يشأ، على الأرجح، أن يروا وجهه غير العادي، المشوه بالرجفة، وبهذا الضحك المفروم والمنتحب، وأسنانه المطبقة حتى شرعت تصرف، لم يقدر إيليا على تمالك نفسه، وجعله الشيء الجديد غير المعهود في هيئته، التي فقدت الثقة المتساهلة بالنفس، غريباً وأكبر من سنه ببضع سنوات.

كرر إيليا أمره بصيحة مهتاجة: "-قلت لك انظر إلى الخلف. أين لازاريف؟

"-سار خلفنا. ما لك وله يا إيليا؟"

"-أقول لك انظر".

لم يسمح له العرق الحار على حاجبيه بأن يرى بدقة شمس تموز الصاعدة خلف الغابة والتي تخللت مشعثة ذرا الأشجار، فظهرت جذوع الصنوبر من الضباب الآخذ في الزوال سوداء بسبب منها، وانتشرت في كل مكان فوضى ألوان قطرات الندى البكر المشعشعة- على العشب وعلى الأوراق وعلى خضرة حرج الجوز المعتمة. انبعثت من الغابة شرارات حية متحركة في كل مكان، وخيل لهم أن رنينا نحاسياً قد فاض وسبح عبر الشجيرات المبللة. ووسط هذا الرنين المتمهل وهدير الانفجارات البعيدة والرائحة القابضة المنبعثة من أوراق الشجر الرطبة الملتصقة بالجزمات المغسولة بالندى رأى

فلاديمير الثمانية الباقين كلهم من البطارية، السائرين في الخلف في سلسلة مترامية، بقمصانهم المدخنة، وكان لازاريف آخرهم، وقد سار وهو يقضم جائعاً ثمار الجوز غير الناضجة التي قطفها في الطريق منتقيا إياها من قبعته القماشية ويبصق القشور بين قدميه.

قال فلاديمير مجهدا نفسه على أن يبتسم: "-يسير أخيراً ويقضم الجوز، الديك الرومي." ثم أضاف: "- إليك ما سأقول: لا تعر هذا الدنيء انتباها".

رد إيليا مفكرا بشيء ما: "-يسير أخيراً. حسنا، واضح" وسأل مضيقا عينيه وكأنه يقدر مسافة الهدف: "-هل تعلم أنه يراقبني؟".

"-كيف يراقبك؟"

"-أوه، ساذج أنت، ساذج ولا أمل في إصلاحك، هل رأيت كيف راح ذلك النقيب غوجافين يهمس له؟ هل أعرت انتباهك إلى أنهما سارا معا؟".

"-وماذا في ذلك".

"-ساذج لطيف. ألم تفكر أبداً أين والدي؟".

"-ليس مهماً ما فكرت به. لقد خمنت شيئا ما في أقصى الأحوال".

"-أنت إنسان سعيد. تاريخ حياتك رائع."

"-كف عن التحامق يا إيليا."

أنزل إيليا يده اليمنى على كتف فلاديمير وعلى كتافيته المغطاة بسخام البارود المحترق:

"-إذن، اسمعني بانتباه يا فولودكا. إليك ما سأقول: لدي شعور جنوني ما.. أو توجس.. إن ظلّ احدنا حيا بعد هذه المعمعمة كلها فلا ينبغي أن يكتب لأمينا أية تفاصيل محزنة. واضح."

"-قل شيئاً آخر عن الله.. أرجو الله"...".

قال على نحو متقطع: "-لا، انتهى كل شيء الآن. لا أريد التحدث في أي أمر.. كل شيء مقرف ومقزز. تخيل – يعتبروننا جبناء، أمر مقزز" وجذب الهواء بفمه: -لكننا سنرى، سنرى .. وليساعدنا الله نفسه أو الشيطان أو ابليس أو الملاك أو الغواط.. هل فهمتني؟ هل فهمت؟ حسناً، فليذهب كل شيء إلى الجحيم، لن يحدث ما هو أسوأ من الموت. "قاطع إيليا نفسه وسأل بسخرية حادة: "-هل حدث شيء بينك وبين ناديا على الأقل؟"

"-أية ناديا؟ آه.. لا يا إيليا، لقد بدأت المعركة."

"-أشعر بالحزن بسبب من براءتك ونظافتك يا فولودكا، يا صديقي...".

حفظ في ذاكرته إيليا أيضًا في تلك الساعات حين وصلوا أخيراً إلى ذلك المكان المعروف من الغابة حيث حفروا مخابئ عربات جر المدافع قبل يومين في المرج قرب الطريق المؤدية إلى معبر السكة الحديدية. ظلت مطبوعة هنا على التراب إلى الآن مجاري العجلات الثقيلة وآثار الحدوات المنقوشة على طبقة أوراق الشجر التي غطت الأرض. سمعوا هناك من ناحية طرف الغابة أصوات الألمان العالية ورنين المجارف والضحك، فسقطوا أرضاً تنفيذا للأمر، وزحفوا نحو الدغل، واستلقوا بين الشجيرات تحت أشجار الصنوبر حتى حلول الظلام، وحتى تلك اللحظة الفاصلة المقطوعة بأمر إيليا بأن يتبعه خمسة منهم (ناداهم هامساً، كلاً بلقبه، مبقيا تحسباً للظروف اثنين منهم للتغطية مع بندقيتهما – الملازم فاسيلييف والملقم كالينكين)- وغاب الخمسة في الظلمة المخملية لتلك الليلة المليئة بالنجوم، وحينئذ رأى فلاديمير آخر مرة وجه إيليا الغاضب، المنشغل، الملتفت نحو الباقين، وسمع آخر مرة حفيف أمره المبتعد: "شابكين ولا زاريف- إلى الأمام".

أما هو فانبطح مع كالينكين عند طرف الغابة، وراحا يتنصتان معاً إلى عتمة المنخفض الصامتة، إلى حيث راحت تشده برودة الجدول وطراوة بستان التفاح. كف العشب هناك عن الحفيف، وضج التراب الرطب قليلا تحت أقدام المبتعدين، وخيل له أن الخمسة قد ذابوا في عمق الفضاء الذي لا قاع له أمام السكة

الحديدية، وغرق كل شيء هناك في صرير الجداجد المؤجج الذي شق الهدوء حتى طال النجوم.

"أرجو الله.." تذكر فلاديمير كلمات إيليا غير المعتادة، ولم يعد يميز الآن، بعد أن ضغط أخمص البندقية على كتفه وغرز مرفقيه المتخدرين في التراب المبرّد إن كان الطنين في رأسه المصاب بالارتجاج أم أن ليلة ما قبل الموت هذه، والنجوم، والجداجد بصريرها الحديدي تملأ أذنيه، وراحت تتكرر في وعيه فكرة وحيدة: "لو نسحب مدفعاً كاملاً واحداً، سأؤمن حينئذ بالحظ السعيد. فليحالفنا الحظ، فليحالفنا الحظ، فليحالف الحظ..".

ترددت بعد ذلك في الأمام نقرة حذرة وطارت من المنخفض كرة نارية عمودية في السماء المليئة بالنجوم، وسمع صوت فحيح متصاعد باضطراد، وانهمر شلال الضوء الكيماوي من السموات على الأرض، ودفع مخرجاً من الظلمة ردمية السكة الحديدية والجسر المقام من جذوع الأشجار على الجدول المضاء بزجاج أخضر والمعبر مع حطام الحاجز المنكس، وتحدبات جثث الجياد المقتولة على الدرب، والعربة المنحرفة وشبح المدفع المخروطي المدفوع عن المعبر قرب المنحدر- التقط شلال الضوء ذلك كله وجرفه حاملاً إياه إلى هاوية العتمة المتكاثفة. نبح في الوقت نفسه، مع موجة الضوء التي جرفت الأرض، نداء مهدد آت من مكان ما في الأسفل

Halt. Wer ist do? Halt[1]

"لحظوهم؟ اصطدموا بالألمان؟ أم خيل لي بعد الارتجاج؟

Ha-a-alt..."

لا، ما عاد يشك في أن طارئاً قد طرأ هناك، في الأسفل، حيث قاد إيليا الجنود، لأن نقراً تناهى إلى مسامعه من جديد، وصار فحيح القنبلة المضيئة الشبيه بفحيح الأفاعي يتصاعد، وصخ في الأمام من جديد صوت ألماني "هالت"- ثم سقطت على الطريق قرب المعبر قنبلة يدوية، وانفجرت ناثرة ريشاتها البنية، وانطلقت رشقتان عموديتان من بندقية على ضفة الجدول الأخرى واصطدمتا بالمعبر ("إنهم هناك. على

---

(1) قف من هناك؟! قف (بالألمانية)

الضفة اليسرى. لقد عبروا الجدول") ولحظ فلاديمير في مسحة الوساوس الضوئية الخفيفة كيف بدأت أشكال محنية تخرج قافزة من بوابة البستان الخشبية، الذي أنير لحظة واحدة ببريق قمري بنفسجي، وركضت هذه الأشكال على الردمية نحو المعبر ملقية على الحدور ظلالها المشوهة على نحو بشع ("الألمان. وناديا – ماذا حدث لها؟ الألمان عندها...").

"-ماذا يحدث، ماذا يحدث.. اصطدام جنودنا بالألمان.. حلت نهايتنا.. لن نسحب المدافع الآن..." زحف كالينكين مطلقاً زفيرا ناشجاً، زحف بمرفقيه على التراب وعلى جذور الصنوبر الظاهرة، التي استلقيا عليها، وأدار وجهه الطويل المخيف لوعيه ما حدث نحو فلاديمير مجعدا شفته الشبيهة بشفة الأرنب.

صاح فلاديمير هامساً همساً مخنوقاً وشاعراً بهول ما يحدث الآن وما لا يمكن تصحيحه هناك، في المنخفض: "-اصمت" .ثم تكلم يائساً: -انتظر القنبلة المضيئة. هل ترى بوابة البستان الخشبية؟ أطلق عليهم ما إن يركضوا خارجين. سأطلق أنا على الردمية. "

"-ماذا يحدث، ماذا يحدث..".

"-كف عن هذا. انتظر القنبلة المضيئة ثم أطلق. "

لم يذكر كم من الوقت استغرق إطلاق النار، وكم مرة أوقف ضغط اصبعه المتحجر على الزناد خوفاً من أن يطلق القرص كله، وكم مرة أمر كالينكين بأن يقتصد في الطلقات كي لا يخرج من المعركة بسبب من حمية متهورة ويبقى إيليا من غير تغطية، أما في السماء فانفجرت القنابل المضيئة متوالية بسرعة، الواحدة تلو الأخرى، وتضافرت فوق ضفة الجدول، وسقطت خطوط طلقات البنادق المتصالبة، ودوت القنابل اليدوية الألمانية مستعجلة، وخيل له أنه سمع أصواتاً ما غير واضحة، روسية وألمانية، حملها إليه الهواء الذي امتلأ بإعصار الرشقات. خفق هذا الهواء المصفر بأجنحته الخانقة حول رأس فلاديمير مسقطاً لحاء أشجار الصنوبر على كتفيه وظهره. انغرزت شظية خشبية صغيرة حادة كالإبرة في يده حتى سال دمه، فانتزعها غريزياً بأسنانه، شاعراً لحظة بمذاق الخشب القطراني. فهم هنا في اللحظة نفسها،

بانتظار الضربة الساخنة، أن هذا علامة الموت الذي يتنفس في وجهه، وفهم أن الألمان قد أطلقوا عليهما النار من الردمية، وأن عليهما أن يغيرا الموقع من غير إبطاء. صاح مبلغاً كالينكين بأن عليهما أن يغيرا المكان، ونهض واندفع يساراً من وراء الأشجار على امتداد طرف الغابة. ركض قرابة العشرين متراً، ثم سقط بصدره على الجذور الغليظة، وانطرح إلى جانبه أرضاً مثل عدل ثقيل كالينكين اللاهث، وقد فاحت منه على نحو خانق رائحة التبغ المفروم المحروق الغامضة.

"-ماذا يحدث، ماذا يحـ..".

غص بنهاية الكلمة، وتشبث بكم فلاديمير ماداً نحوه وجهه المتجعد: سقطت في المنخفض آخر قنبلة مضيئة، وعمّ الهدوء كل مكان. "النهاية؟ انتهى كل شيء؟ انتهى كل شيء هناك؟ أين إيليا؟ أين الآخرون؟ لماذا لا يطلقون؟".

سبح الهدوء في الليل – سبحت في صمته الخفيف مرارة البارود المثيرة للقشعريرة، وتأرجحت بصدى بعيد وحسب سطور الجداجد الدقيقة، ولم تعد القنابل المضيئة تحلق في أي مكان. لكنه سمع بعد ذلك أصواتاً غريبة متيقظة على الجانب الآخر من المعبر، وأنيرت مصابيح جيب، وتحركت باتجاه الجسر مادة مجسات الأشعة على الطريق، وتوقفت في سلسلة، على ما بدا، عند حافة المنحدر نحو الجدول. صُوبت الأشعة إلى الأسفل، وراحت تفتش يمنة ويسرة. حينئذ فقط فهم فلاديمير من حركة المصابيح الباحثة والمزدحمة أن إيليا وجماعته ردوا على إطلاق النار من تحت المخبأ على الضفة، حيث رموهم من الأعلى بالقنابل اليدوية.

وقف الألمان على التلة وسلطوا مصابيحهم نحو الأسفل متفحصين على الأرجح القتلى الروس، وكانوا يتحدثون فيما بينهم من بعيد ويتهاتفون باهتياج مرح، ورغب فلاديمير، بعد أن تخيل إيليا المقتول تحت المنحدر على ضفة الجدول، وقد طعنه فجاءة يأس الكارثة في أن يصيح لكالينكين "أطلق النار، أطلق"- وتنشق الهواء وكأنه يختنق ويبكي من غير دموع، وطوق بحقد الزناد الزلق باصبعه، وأطلق الرشقة

المتبقية على السلسلة المحتشدة على حافة المنحدر. رمى البندقية بقرصها الفارغ بعد أن نهض، وابتعد راكضاً بضع خطوات ثم سقط بين الأشجار، وجذب وهو مستلق قراب المسدس عن فخذه مقنعا نفسه بصوت مسموع وهو يكاد يفقد الذاكرة: "يجب أن لا أهدر الطلقات كلها الآن. ينبغي أن أبقي واحدة على الأقل...".

أطفأ الألمان المصابيح دفعة واحدة، وفتحوا النيران المضادة من غير أن يوقفوها قرابة العشر دقائق.

استلقيا منصتين الليلة كلها عند طرف الغابة بانتظار أن يلتقطا صوت تلاطم ماء أو حفيف عشب في المنخفض أو صوتاً يناديهما من العتمة. كانا لا يزالان يأملان في أن يعود أحدهم. غلبهما النعاس مع بزوغ الفجر لافاً الدماغ مثل ستار ضبابي، وبدأت الأرض تتحرك منزلقة انزلاقاً انسيابياً.

حين أفاقا، وقد أيقظهما النسيم الرطب وبرد الصباح، كانت هرمونيكا تعزف لحناً واحداً في مكان ما غير بعيد، ورأى فلاديمير في الحال، بعد أن انتفض، وجه كالينكين المدعوك والمذعور وعينيه الهالكتين، ثم رأى الألمان عند المعبر وسطح المنزل في البستان وذرا أشجار الحور المحمرة قليلاً بضوء الشمس المبكرة. كان كل شيء هادئاً، مسالماً، عادياً. الشمس تنشر الدفء في الشرق وجلس على حاجز الطريق المكسور والمسبل ألمانيان يرتديان مشمعين وعلى صدريهما بندقيتاهما، وقد أدارا ظهريهما وراح أحدهما يعزف على الهرمونيكا (ربما انتزعها من شابكين المقتول؟) فيما كان الآخر يدخن لافاً رأسه بدخان السيجارة. سار الألمان أيضاً في البستان الذي ظل ندياً في ظلال المنخفض، وراحوا يتحدثون ناعسين، وصرّ مكبس البئر، ورن هناك الدلو على السلسلة، وتصاعد من خلف أشجار التفاح دخان ليلكي، وانتشرت في هواء الصباح رائحة اللحم المشوي اللذيذة. شعر فلاديمير بسبب من هذه الرائحة ومن طنين الهرمونيكا بألم مر، وانقطعت أنفاسه، فقطب محاولاً التحرر من الخناق الكريه، وسعل وأنّ من غير أن يجد لنفسه مكاناً إذ كان الأسى اليائس يمزق صدره.

"هل يعقل ؟إيليا؟ إيليا؟ إيليا...؟"

بعد ذلك حل نهار قائظ تموزي على الغابة مرة أخرى وهناء كسول نشره الهدوء

الشمسي، والرائحة الدافئة المنبعثة من توت العليق الرخو، أما هما فسارا إلى حيث أرعدت انهيارات بعيدة، وكانت الغشاوة الساخنة المرتجفة تحجب من وقت إلى آخر الغابة والشمس والعشب، وتقفز في هذه الغشاوة وتتقاطع أشعة مصابيح الجيب الموجهة إلى المنحدر عند ضفة الجدول، حيث لم تعد تطلق من هناك أية طلقة- فشرع يلهث ويخدش صدره، وأحرقت الدموع وجنتيه، لكنه لم يشعر بالراحة.

*****

الفصل الرابع عشر

"نعم، سنلتقي الآن.. لكن أي سخف وأي أمر مناف للعقل أنه سيكون برفقة كوليتسين. لا يمكن أن يتم بحضوره أي حديث بيننا..."

غسل الريشات أسير العادة، وأزال الألوان عن اللوح بسكين مزج الألوان، وغطى بخرقة اللوحة القماشية على المنصب، بعد ذلك مسح يديه بالكولونيا وراح يتفحص مطولاً، مفكراً، الزجاجات في الخزانة الجدارية وعلبة سكاكر الشوكولا المحضرة مسبقا من قبل ماريا من أجل الزوار غير المتوقعين، ثم نظر من النافذة الواسعة. كل شيء مشمس فضي في البقع الشباطية الدائرية الذائبة، ورأى سيارة "الفولغا" السوداء كالفحم وهي تدخل الفناء ببطء بالقرب من الكتيبات الضاربة إلى الزرقة (" إنه هو –إيليا") –وأجبرته دفعة حارة في صدغيه على أن يعبر المرسم بضع مرات كي يكبح اضطرابه.

كان لزاماً عليه أن يجعل وجهه هادئا وبشوشا بالقدر الملائم ("ما بي – لست صادقا، مزيف؟ أريد أن أستقبل إيليا مثل أجنبي قادم لينظر بأم عينه إلى فنان سوفييتي ويشتري لوحاته؟) وأن يحييهما بشيء من الجفاف ، وأن يقول لكوليتسين أنه سيمنحهما أربعين دقيقة، بيد أن عليه أن يلتقي بإيليا لقاء حقيقياً فيما بعد بصحبة ماريا.

استقر فاسيلييف على هذا الرأي، لكن حين تردد وقع الخطوات في الممر وصوت قرع الباب، وحين دخل كوليتسين بمعطفه الفرائي مثيراً الضجيج، وقد تورد بسبب

من الاستثارة والكونياك وبدا سميناً بخديه المنتفخين، ثم تبعه رجل شاحب طويل القامة، حليق بعناية، بمعطف رمادي ويعتمر قبعة لينة، ومستقيم حتى أنه بدا رشيقاً، ولم يكن في الإمكان معرفة الملازم رامزين من العام ثلاثة وأربعين فيه مثلما كان ذلك غير ممكن في أثناء اللقاء الخريف الماضي في فينيسيا، حين أثار الدهشة بتصرفاته الغريبة غير المعهودة، وبثيابه ونبرة صوته، تكلم فاسيلييف بنبرة عملية متوازنة مسرفة وهو يتقدمه لا إرادياً ويمد يده أولاً:

"-مرحباً يا ايليا، لم ير أحدنا الآخر منذ أربعة أشهر. اخلع معطفك، علقه هنا، دعني أساعدك."

عارض إيليا بحيوية: "-نو، نو، نو. سأتدبر أمري بنفسي. "وعلق معطفه على المشجب في غرفة الدخول، ومس شعره الأشيب المصفف على نحو سوي عبر مفرق مائل، وخطا بخفة إلى المرسم المشمس وهو ينظر مضيقاً عينيه الضاحكتين والملتهبتين قليلاً إلى الجدران، ثم نقلهما إلى فاسيلييف: "-أوهو، المكان لديك لطيف ومريح جداً. هل تبدع هنا يا فلاديمير؟ هل تبتكر هنا"

صحح له فلاديمير مازحاً قدر المستطاع:

"-أبدع – هذا مدو. أعمل. الآلهة هي من يبدع وليس كل يوم".

تابع إيليا حديثه، وراح يدلك أصابعه ويدعكها على نحو حثيث وكأنه يدفئها، لم يلحظ فاسيلييف هذه الحركة أبداً من قبل: "-لكن المكان لديك ممتاز، ممتاز، فيه الكثير من الشمس أنا سعيد برؤيتك يا فلاديمير، وسعيد جداً بوجودي في مرسمك".

"-أنا أيضاً سعيد".

كان كوليتسين في تلك الأثناء منشغلاً في غرفة الدخول، فراح، من غير مناسبة، ينظف نفسه بالفرشاة بمرح ويمسح قدميه، وراح كذلك يخور مدندناً شيئاً ما على الموضة وكأنه يظهر طبع إنسان متغافل مرحب به جيدا هنا، وجاهز دائما لقضاء الأوقات الممتعة. تذكر فاسيلييف، حين سمع خواره الموسيقي، وجهه غير الصاحي والمهتاج بخديه الشبعين المنتفخين هذين، وتذكر مصارحاته المغتاظة في تلك الليلة التي لا تنسى، وفكر على نحو لا يخلو من أسى: "كم سيعيقنا الآن." خرج حالاً بعد أن

أجلس إيليا في الأريكة ("اجلس لحظة. سأعود حالا") إلى غرفة الدخول حيث كان كوليتسين لا يزال أمام المرآة يمسد بالفرشاة مدندناً بزته المحاكة على نحو ممتاز، وقال له بصوت غير عال:

"-اسمع يا أوليغ، هلا تركتنا ساعة لنتحدث، جئت به وشكراً لك، عدا ذلك فالحديث الآن، لو تدري، سيكون صعباً نوعاً ما ومتعباً لي".

رد كوليتسين إلى الخلف بجلال لبدته الشبيهة بلبدة الأسد، وتحولت عيناه المثلثتان إلى معينين، لكن خديه ظلا يعبران، وهما يتباعدان، عن بساطة مشاكسة لا تضمر حقداً، ثم أجاب هامساً:

"-لا تنس يا فولودينكا أنني أنا من يشتغل مع الأجانب". وخطا كوليتسين إلى المرسم مالئاً المكان بقامته الأنيقة وصوته الجهوري المخملي الرخيم، ومشعا بابتهاج خفيف ورضاً نابعين عن رجل مهذب محب لمجالس الرجال، ثم انحنى فوق أريكة إيليا بعد أن أخرج كما يفعل الساحر زجاجة كونياك أرمني من حقيبته: "-أظن أيها السيد رامزين أن ارتشاف الكونياك الأرمني الفريد ومشاهدة اللوحات أفضل من مشاهدة اللوحات من غير ارتشاف الكونياك الفريد."

ينبغي الافتراض أن ما قاله كان نكتة دنيوية ألقيت في مثل هذه الحال لتستثير الضحك في فيض من المزاج الجيد، بيد أن إيليا نظر إلى كوليتسين نظرة ود كما لو أن هذا الأخير قد كرر لعبة خفة مسلية وغير مفيدة، وقال مبتسماً:

"- أشكرك أيها السيد كوليتسين. لا أشرب مطلقا. لقد شربت منذ زمن المعيار المخصص لي في الحياة. "ابتسم لفلاديمير: "-وإذا قدم لي السيد فاسيلييف، صديقي القديم منذ فينيسيا، كأساً من الحليب فسأكون له من الشاكرين. الحليب هو مشروبي."

"السيد فاسيلييف.. السيد كوليتسين.. السيد رامزين.. صديقي القديم منذ فينيسيا. لا يريد أن يعرف كوليتسين أن أحدنا يعرف الآخر منذ زمن طويل. لكن إيليا، إيليا.. السيد رامزين؟ ها هو يجلس في الأريكة- ليس إيليا، بل رجل آخر تماماً. هذا السيد رامزين، وإيليا في الوقت نفسه، الذي ظل بعد الحرب في ألمانيا الغربية، والذي يقطن الآن في ضواحي روما والذي عاش حياة كاملة في الخارج، ما الذي بقي فيه من

الملازم إيليا رامزين، ومن تلك الليلة، ومن ذلك الصباح التموزي حين عدنا إلى المدافع المتروكة في الحصار؟ لم يقل في فينيسيا مع ذلك كيف وقع في الأسر. ومع ذلك –كيف؟"

قال فاسيلييف، وفي تلك اللحظة لم يكن قد فهم بعد لماذا كانت فكرة اللقاء الخريفي في فينيسيا تقلقه: "-يا للأسف، ليس عندي حليب. كم أشعر بالأسى لأنني لا أحوي الحليب في المرسم لا أشرب الحليب."

فتح كوليتسين الممتلئ بالمعارضة الطيبة زجاجة الكونياك ووضعها بحركة تمثيلية في منتصف المنضدة، وسأل: "-وهل تحوي أقداحا من أجل ضيوفك على الأقل يا رمبراندت؟ أبدا، أبدا." وحين التقط نظرة إيليا المتسائلة صاح بقلق مسرحي مصوراً بتدفقات صوته ممراحاً روسياً مضيافاً جالساً وسط أصحابه: "-لقد اتفقنا، لن نشرب إذن لن نشرب. سنملأ الأقداح وحسب احتفاء بهذا اللقاء ولن نقترب منها مثل الناسك الأفوني".

سأله إيليا: "-الناسك الأفوني؟ من هذا الناسك الأفوني؟".

وضيّق عينيه مرة أخرى فظهرت شعيعات التجعيدات القاسية الشبيهة بالنجوم إلى جانبهما، لكن وجهه لم يكتسب بسبب من هذا التضييق المعروف كما من قبل التعبير الواثق عن الأصرار على الفعل بل صار مهتماً ومتعباً ومصغياً.

"-كان الناسك الأفوني يستلقي كل ليلة بين عذراوين من غير أن يمس أية منهما . ها – ها. هل تتخيل عذاب الجسد المقموع؟

قال إيليا على نحو غير محدد: "-نـ- نعم، الناسك. قرأت عنه في مكان ما، قرأت، أليس في حياة القديسين؟".

"-تصعب عليّ الإجابة. نسيت في خضم الحياة".

"آه، إنه راغب في أن يعجب إيليا، لكن.. لماذا؟" عبس فلاديمير وهو يخرج من الخزانة زجاجة عصير السفرجل، ونظر إلى كوليتسين كثير الكلام الجذاب، وفكر حازماً أن أي حديث مع إيليا لا يمكن طبعاً أن يتم بحضوره، وأن الوقت سيهدر على نحو لا يغتفر على الثرثرة فقط. فقال فاسيلييف بغيظ مكبوح بلباقة، ثائراً فجاءة

على صبره الخانع الذي تجلى أيضاً آنذاك، ليلاً، حين سمح لكوليتسين بالمجيء ليسمعه، والآن، وقد شعر بغضب أشد من عدم تكلفه المفرط:

"-حكايتك عن الناسك يا أوليغ يفغينيفيتش ممتعة جداً والعظة فيها على أعلى درجة، لكن في الواقع.. ("عبثاً أقول له هذا. لا أستطيع الامتناع عن أن أكون حاداً، وأصنع لنفسي عدواً مدى الحياة.") .. لا وقت لدي يا أوليغ يفغينيفيتش. أرجو منك أن تمنحني إمكان التحدث بهدوء مع السيد رامزين ولو ساعة فقط..".

صب كوليتسين في تلك الأثناء الكونياك بمهارة، ولم يرد على كلمات فاسيلييف سوى برفع حاجبيه مدوراً إياهما نصف استدارة، و وزع الأقداح على ثلاث زوايا من زوايا المنضدة، وصدح بصوته الجهوري الرخيم:

"-نعم، لكن يا عزيزي..".

رجاه فاسيلييف متغلباً على الرغبة في أن يقول له إنه لجوج على نحو فائق بتمثيله الروح الطيبة لكرم الضيافة الروسي الأسطوري أمام السيد رامزين، الذي يعرف ذلك كونه نفسه روسياً: "-أتوسل إليك، من غير رفع كلفة غير مناسب. اعمل معروفاً "ثم تابع فاسيلييف على نحو لا يخلو من العناد: "-اسمع يا أوليغ يفغينيفيتش، لست في حاجة إلى أن تتلف خلاياك العصبية.. وأن تشغل الضيف بحديث ممتع، وأحدنا يعرف الآخر منذ زمن".

هتف كوليتسين بفرح وافر متجاهلاً كلمات فاسيلييف هذه التي مسته: "- صارت صداقتكما في إيطاليا معروفة، وهذا، تخيل، أمر محمود ورائع. إننا لا نجد كل يوم معجبين في الخارج." تناول عن المنضدة القدح مبرزاً خنصره ذا الظفر المصقول، ووجه نظره نحو إيليا ثم فلاديمير: "-نخب تعارفكما في فينيسيا الساحرة، الذي قادكما للقاء في موسكو...".

قاطعه فاسيلييف باهتياج: "-معرفة واحدنا بالآخر قبل فينيسيا".

"هل ثمة لزوم لأن يعرف هذا؟"

"-كيف "قبل"؟ آه، نعم، من لوحاتك التي عرضتها في إيطاليا سابقاً؟"

قال فاسيلييف بتلك الحدة المتحدية، التي خلصته فوراً من الازدواجية الكاذبة،

وجـردت كوليتسـين في الوقـت نفسـه مـن سـلاحه: "-البتـة. معرفـة أحـدنا بـالآخر منـذ الطفولة ما دمت لم تفهم شيئاً. آمل يا أوليغ يفغينيفيتش أنك أدركت لماذا لا لـزوم للانحناءات الدبلوماسية".

ضيّق كوليتسين المتوتر جفنيه المتورمين قليلاً، وأضاءت عيناه المثلثتان على نحو متفهم، وتجمدتا عند حد غير مرئي في الهواء فوق رأس فاسيلييف، ثم نطق بصوت مخفف غير طبيعي:

"-آ، هكذا إذن... ما كنت لأظن هذا أبداً، ما كان ليخطر في بالي. آه، هكذا إذن..."

قال فاسيلييف: "-ولم العجب، ما الذي يدعو إلى التأوه هنا يا أوليغ يفغينيفيتش. يعرف أحدنا الآخر منذ زمن بعيد".

أعـاد كوليتسـين القـدح غير المشـروب حتى النهايـة إلى مكانـه، وبـدت بنزاهـة على وجهه الأبيض البدين ذي الخدين المتدليين قليلاً استقلالية الرجل المهذب الأبية: "-أرجو المعذرة. نعم، لقد فهمت كل شيء. أقدم اعتذاري. سأتصل إلى هنا بعد ساعة... هل تمانع أيها السيد رامزين؟"

أومأ إيليا بشيء من الشكر المتكلف:

"-سيكون جيداً بعد ساعتين. هكذا تماماً أيها السيد كوليتسين".

"-سأتصل بعد ساعتين تماماً".

نفض كوليتسين شعره الطويل على نحو لا يخلو من عزة نفس ووقار بانحناءة للاثنين معاً، وخرج بخطوات مرنة إلى غرفة الدخول، وراح يغمغم وهو يرتدي معطفه الفرائي بنشاط، مردداً لحناً ما، ثم فرقع، بنشاط أيضاً، بقفل الباب الخارجي، فقطع إيليا حينئذ حبل الصمت أولاً:

"-السيد كوليتسين-رئيس الرسامين في القضايا الخارجية. أما أنت فسلكت سلوك مشهور متقلب الأهواء. هل هذا مقبول يا فلاديمير؟ ألن يسبب هذا ضرراً؟"

أشاح فاسيلييف بيده: "-أي مشهور متقلب الأهواء أيضاً" وأشعل سيجارة ثم سقط في الأريكة القديمة التي رنت نوابضها، وراح يتكلم باستعجال وبعدم رضا تقريباً: "-لست قادراً على أن أقول لك حقاً إن كنت سعيداً أم لا بقدومك. اعذرني على

صراحتي، لكن علينا، أنا وأنت، أن نتكلم من غير شهود. من غير عيون غريبة. لدينا أمورنا الخاصة".

"-قلت: لدينا أمورنا الخاصة؟ ماذا تقصد؟"

"-في طفولتنا لم يكن أحدنا يستطيع قضاء يوم من غير الآخر، وفي الحرب كنا في بطارية واحدة. كنت سعيداً لأننا معاً. لا يمكن القول إن لقاءنا العام الماضي في فينيسيا قد صعقني، بل على نحو ما... أسفت أعواماً كثيرة، أسفت طوال الوقت لأنك لست بين الأحياء... صديقي، الذي يمكن معه إلقاء النفس في النار والماء. كل شيء هكذا يا إيليا. لكننا لسنا كما كنا... في فينيسيا فهمت أن أي شيء سوى الذكريات لا يجمعنا. يا للأسف يا إيليا، لهذا السبب لن نزوّر الأمور: لم تأت إلى موسكو كي تشتري لوحاتي في فيض من المزاج المليء بالمشاعر الجياشة. بم أستطيع مساعدتك؟"

ارتد إيليا في الأريكة وضم راحتيه، وأسند ذقنه ساهماً بأطراف أصابعه، وقال:

-"الحياة شيء مخيف شيء مخيف... وكما يقول الفرنسيون لا يعرف أحد لماذا يحتاج الناس إلى الحقيقة، لكنهم يعرفون جميعاً لماذا يحتاجون إلى الكذب. أليس كذلك؟ لا يعرف الناس بعضهم بعضاً حتى القعر، حتى الأزواج المثاليين الذين قضوا الحياة معاً. أخاف يا فلاديمير أنك لم تعرفني حق المعرفة لا في المدرسة ولا في الحرب. وأنا أيضاً لم أعرفك".

ضحك إيليا ضحكة صفيحية قصيرة جعلته بعيداً وهرماً على نحو غير مستحب، وصعق فاسيلييف من هاتين العينين الملتهبتين غير المؤمنتين بشيء، اللتين أفرطتا في معرفة حكمة الحياة، ومن شيء ما غير معروف بتاتاً وغير شاب في عنقه، الذي لا زال متيناً كفاية، وربما في ثنايا الجلد فوق ياقة قميصه، ومن الجفاف والشحوب السوي على وجهه الحليق بعناية، ومن شعره الرمادي الضارب إلى اللون الأزرق –أي عمل دؤوب أداه الزمن، لقد بدا وكأنه شابَ أكثر خلل هذه الأشهر الأربعة.

"لكن من هو إيليا الحقيقي؟ ذلك الملازم، صديقي، الذي افتقدته طوال الوقت بعد الحرب، أم هذا الإنسان المتعب من الحياة والغريب عني؟ ومن أنا الحقيقي: هناك، في الطفولة، أم في تموز عام ثلاثة وأربعين، أم أنا هنا، في هذا المرسم، الرجل ذو الأربعة والخمسين عاماً، الذي لا يدهشني شيء؟"

تكلم فاسيلييف مقطباً: "-قلت إنني لم أعرفك. جائز... لقد آمنت ببساطة بنقاء الصداقة وقدسيتها، وآمنت بأن واحدنا لن يخون الآخر أبداً. عموماً، كان الشباب الجميل في هذا. لقد أعجبني في أوكراييني، حين عينوك قائداً للبطارية، كيف فرضت نفسك على نحو مدهش. هل تذكر: الحر والمنزل قرب الردمية والهدوء والألماني في بستان توت العليق، والهدنة التي أقامها المساعد لازاريف؟ بعد ذلك تبين أن في المنزل امرأة شابة. أذكر اسمها جيداً... كانت تدعى ناديا. حزمك كان غير عادي يا إيليا".

كرر إيليا وهو يدلك يديه مفكراً ويدعكهما قرب ذقنه: "-غير عادي؟ فولوديا، فولوديا. لم تكن تعرف أشياء كثيرة في ذلك الوقت. لكن أحد المدققين في الفوج عرف على نحو ممتاز ابن من كنت أنا. لست قادراً حتى الآن على أن أعقل كيف سلموني البطارية. أغلب الظن أن قائد فوجنا فوروتيوك الشجاع قرر المخاطرة كما كان يخاطر دائماً. أنا واثق من أنه كان سيرميني بالرصاص على النحو الجميل ذاته الذي عينني فيه. عافاه، كان رائداً مدهشاً. لا أستطيع منذ أعوام كثيرة أن أتذكره من غير رقة".

أضاف فاسيلييف: "-و، طبعاً، المساعد لازاريف؟ "ثم سأل ما لم يتسن له سؤاله في لقائهما الأول: "-قل، كيف مات لازاريف؟"

نظر إيليا إلى السقف من غير مبالاة بعد أن ابتسم ساخراً: "-موت الأبطال. ملكوت السموات له على الرغم من أنه لا يستحقه".

"-لم لا يستحقه يا إيليا. الموت في الحرب يجعل الجميع سواسية".

حمل إيليا القدح نحو ذقنه وتنشق أريج الكونياك، بيد أنه لم يشرب قطرة واحدة، وأعاد القدح إلى مكانه، وقال بوضوح: "-معه-لا. كان شخصية قوية معتدة بذاتها، بداية شيطانية، غينول[1] عموماً، وفي نهاية الأمر حثالة. لقد نسيت الكثير عنه، لكنك تذكرته هو تحديداً.."

"-عموماً، لقد كفّر بالموت عن خطاياه كما يقال. كفرّ عنها بمقتله حين وقعت في الأسر".

---

[1] *شخصية من مسرح العرائس الفرنسي ظهرت في القرن الثامن عشر. (المعرب).*

أجاب إيليا بجفاف: "- Auch [1]، لقد محوته من ذاكرتي، مع أنني وضعت الشموع أكثر من مرة على روح الفقيد. لقد قتل، وبقيت أنا حياً بغض النظر عن أي شيء، لكن... "نظر إيليا إلى فلاديمير بتريث استطلاعي، ثم شرع يتكلم من غير استعجال وبنبرة التعقل الضرورية لكليهما: "-لا يوجد لدينا سبب لنتذكر الحرب. ينعم لازاريف منذ زمن بعيد بالراحة الأبدية، فليكن الله معه. الموت-التكفير... لقد تجنب الأشد رعباً، الذي لم نتجنبه أنا وأنت- أن يعيش الحياة. الرب يعاقب بالموت والحياة، أليس كذلك؟"

"-هل تؤمن بالله يا إيليا؟"

"-علينا في سننا هذه أن نؤمن بشيء ما. سيؤول المآل الوحيد سريعاً جداً..."

"-ما المآل الوحيد؟"

"-الفراق مع كل ما هو أرضي. الفراق يا فلاديمير. الأوان غير بعيد –وسنضطر وراء البوابات السماوية إلى أن نعبد بطرس الرسول".

فكر فلاديمير: "أذكر جيداً ما قاله حين سرنا في الغابة. أراد أن يحتفظ بثلاث طلقات في مسدسه: طلقتان للازاريف وواحدة لنفسه، لم يطلق النار على نفسه ووقع في الأسر. لكن كيف... كيف قُتل لازاريف؟"

"-هل يعقل أنك تأمل في دخول الجنة يا إيليا؟ إنني، عليّ أن أعترف، لا أطمح إلى الراحة لدى الرب الإله".

"-إذا تسنى لي أن أكفر عن خطاياي الثقيلة فإن الرب لن يدعني أغيب في العذابات إلى الأبد. نعم يا فلاديمير، إنني لا أمزح. الحياة كلها اختيار لا ينتهي. كل يوم – من اختيار العصيدة وربطة العنق صباحاً حتى اختيار المساء بأكمله – بأية امرأة ستلتقي، وإلى أين تذهب، وكيف ستقتل الوقت الملعون، يحدث كل شيء بعد الاختيار: الحب، الحرب، القتل. أفكر كثيراً في الأعوام الأخيرة، ما الذي يتحكم بخياراتنا في الحياة؟ لكن من يعلم، هل سيكون ثمة خيار بعد الموت؟ الجحيم؟ الجنة؟ النوم؟ ماذا سيوجد هناك وراء الحافة؟"

"كم غيرته الحياة. غيرته هو؟ لقد فكرت به ولم أفكر بنفسي. إنه يتكلم وكأنه لا

---

[1] أيضاً (بالألمانية).

يريد أن يكشف شيئاً ما، أن لا يوضح نفسه كما أعرفه، بل يريد الهرب من الأمر الأساسي، لكن ماذا أريد؟ أن أفهم من هو إيليا الآن؟ أنه غير صادق ويكذب؟ لكن ما المغزى؟ لا أحد يعرف ماذا حدث لهم في تلك الليلة حين ساروا إلى المدافع. لقد فهمت الآن أخيراً ما الذي يثيرني: إنني أبحث في لا وعيي عن إيليا السابق فيه، أريد أن أرى وأن أعيد ذلك الإيليا الشاب، ذلك الملازم إيليا، لكن لا وجود له. لا يجتمع ذلك الإيليا الذي أحببت مع هذا الغريب في الجوهر. هل يمكن أن يكون الأمر كذلك؟ وهل أجتمع أنا مع نفسي، السابق؟"

سأله فاسيلييف: "-ما هذه الخطايا الثقيلة لديك يا إيليا؟" ثم تابع حديثه نصف جاد، متضايقاً من أسئلته التي قد تبدو لجوجة جداً: "-لا أؤمن بهناء ما بعد اللحد، وأتهم نفسي بخطايا مخيفة: أتهمها بانعدام الموهبة والجبن والعجز. عذابي منذ بضع سنوات هو الأرق. إنها الشيخوخة يا إيليا، صرنا فوق الخمسين".

"-اسمح لي أن لا أوافقك يا فلاديمير. الأمر أسوأ كثيراً مما يبدو لك. إنها الدورة الأخيرة قبل النهاية، وليست الشيخوخة. إنني ألهث، لكنني أركض بآخر ما أملك من قوة، أرى خط النهاية وأسمع صيحات التهليل التي تطلق بعد السباق..."

"-هل تحب المزاح الأسود؟ هذا مزاج متشائم جداً... إلى حد الخيال".

"-على العكس..."

تناول إيليا القدح ورفعه نحو عينيه اللامعتين بسوادهما، ونظر عبره إلى ضوء النافذة الشتوية الشمسي، وشم الكونياك مرة أخرى باستمتاع طويل، وقال باتزان:

"-أية روعة، أي حبور، أية حياة في هذا الأريج، لكن بعد قرابة عام أو عام ونصف العام في مقدورك أن تتنشق أيضاً الرائحة الزكية المنبعثة من أنواع الكونياك المختلفة، التي شربت منها الكثير، أما أنا فسأكون هناك... كم الأمر غريب ومخيف، أليس كذلك؟ ستظل ترسم لوحاتك أما أنا فلن يبقى مني شيء... هل كان؟ هل سار على الأرض؟ أمر لا يعقل، لا يدرك. تخيل أنني أعرف كل شيء عن نفسي، لكن، كما ترى، لا أصاب بمس من الجنون، ولا أمثل مأساة، لا بل لا معنى حتى للتحدث عن هذا".

"-لم أفهم يا إيليا".

"-هل تعرف ما معنى خداع الوجود يا فلاديمير؟ الأمل العبثي. ترقب الدمار. كلنا سياح عشوائيون في الدنيا، ولكل منا فترة معينة كي يغادر الرقم المحجوز له في الفندق، بالمناسبة، لن أطيل المكوث في ضيافتك أيضاً.. مع أنني أرغب جداً، جداً في رؤيتك".

ضحك ذلك الضحك الصفيحي المصطنع، الغريب عنه على نحو يثير الغضب، وربما لأن عينيه لم تضحكا، بل كانتا تصيران ضيقتين فقط، وباردتين وحزينتين وكأنه لم يكن يحتاج البتة إلى هذا الضحك.

قال فاسيلييف عابساً: "-مذنب لأنني لم أفهم شيئاً ما. أية فترة تذكرت؟ ما هذا العام أو العام ونصف العام؟ من تنبأ لك؟"

أجاب إيليا بهدوء كالسابق: "-لقد أنفقت كثيراً جداً من النقود على الطبابة حتى أصدق التنبوءات. أحمد الله أن الغد لن يكون آخر يوم. مقدر لي أن أزفر زفرة..."

"آخر يوم؟" فهم فاسيلييف بوضوح مفاجئ متخيلاً إيليا المتين ظاهرياً والناعم والأشيب بأناقة والجالس هنا في مرسمه ليس هنا في موسكو، بل في مكان ما من ضواحي روما القائظة، في فيللاه الفارغة في الطبقة الثانية، مستلقياً وحيداً على الملاءة المفروشة على السرير ويداه الشمعيتان متصالبتان، وشمس الظهيرة تنفذ عبر أغصان الصنوبر تحت النوافذ إلى هدوء المنزل الساكن حيث تفوح رائحة الهواء الخانق والموت.

"بعد عام أو عام ونصف العام؟ وهو يعرف ذلك؟ "-أمعن فاسيلييف النظر إلى كفي إيليا الجافتين والمعتنى بهما جيداً، بأظافرهما المطولة والنظيفة، واللتين كانتا سابقاً كفين قويتين صغيرتين (حين كان يمارس في شبابه الجمباز والملاكمة والسامبو)، وتصور في الحال ليالي السهاد التي يقضيها إيليا مع نفسه، في وحدته، واعياً بدقة فترته الأخيرة، وفكر أيضاً، شاعراً بكامل أسى هذه الليالي الذي لا مفر منه: "ما كان في مقدوري أن أنتظر على هذا النحو إعدامي الوشيك".

تكلم فاسيلييف: "-ما مرضك يا إيليا؟ القلب؟" آلمه السؤال الذي لم يستطع

تجنبه الآن، ساعياً إلى أن لا يسمي مرضاً مستعصياً مميتاً، يولّد مجرد لفظه القصير الواخز الإحساس بتزعزع كل شيء في هذا العالم.

قال إيليا ساخراً: "-لم يكن لي الخيار... لكن الأوهام انتهت. خضعت منذ أربعة أعوام لعمل جراحي يعيشون بعده خمسة أعوام، وفي أحسن الأحوال ستة. الطعن في الحكم غير ممكن. لذلك أعرف ما لم أعرفه من قبل. عموماً... لم أرغب في رؤيتك من أجل هذه الأحاديث. لا يستحق الأمر".

وراح يتفحص باهتمام الجدران والسقف المضاء بخطوط الضوء المنعكس من الثلج والكثبان في الفناء، ومن شمس ما قبل الربيع المتدفقة بسطوع عبر الخمائل الجليدية الشبيهة بخمائل الغابات على الزجاج الذي بدأ الجليد يذوب عنه، والمتدفقة على إعلانات المعارض، وعلى رفوف الكتب في المرسم الفسيح والمرح في هذا اليوم الصاحي من أيام شباط، وحين انتهى ضيّق جفنيه وكأنه كان يشعر بالفضول والألم من رؤية عيد الضوء الشتوي هذا هنا، وقال بحزن متهكم:

"-هل تذكر اليوم الشتوي في جبال فوروبيوف والصقيع والندى المثلج وقد رحنا نسير بالزلاجات مع تلاميذ الصف كلهم على ضفة نهر موسكو المتجلد. كان وقتاً سعيداً. هكذا كان، أليس كذلك؟ أو-المساء، والثلج يهطل حول المصابيح، وساحة التزلج في حديقة الأدب والراحة، وأنا وأنت وماشا نكاد لا نقدر على الوقوف على أرجلنا من التزلج، وقد دخلنا بالمزالج مباشرة إلى المطعم وشربنا الكاكاو الساخن، وتناولنا الكعك بالخشخاش، وكان شهياً جداً بعد البرد. كنتما، أنت وماشا، مغرمين آنذاك، ألم يكن ذلك؟"

"-لست دقيقاً تماماً يا إيليا".

صمت فاسيلييف غير راغب بالتحدث عن ماشا، التي لم تكن حينئذ مغرمة به بل بإيليا تحديداً. أما هو، إيليا، فلم يعر اهتماماً جدياً للفتيات، إذ كان مشغولاً بنزواته "العاطفية" السرية في قسم الجمباز ويرتدي قميص بحارة مخطط تحت قميصه وحزام بحارة ذا نوط نحاسي (هكذا كانت الموضة)، وحينذاك لم يكن يطيق المكاشفات العاطفية في أي نمط من أنماط تجلياتها.

"لكن... لم شرع يتكلم على ماشا؟ لا يمكن أن أغار عليها منه بعد هذه السنين. لا،

ثمة أمر آخر هنا. يبدو وكأنه يريد أن يبرر موقفه أمامي. أن يبرر ماذا؟ زواجه الغريب بالألمانية بعد الأسر؟ مصنع ما لإبر الحياكة أو إبر الحاكيات. وعدم عودته بعد الحرب. عطشه للحياة ومرضه إذا كان الأمر كذلك؟.. إنه يثير فيَّ فضولاً لا يمكن كبت جماحه، وأنا من يسأله، وليس هو الذي يسألني..."

سأله فاسيلييف مستوحياً من كل شيء أن إيليا لم يلتق رايسا ميخائيلوفنا: "-يبدو لي أنك لم تلتق أمك بعد؟ هل تعرف أنك في موسكو؟ هل ستمكث طويلاً؟"

تكلم إيليا غير واثق من نفسه، واتكأ على مسند الأريكة حاجباً عينيه براحته: "-أسبوعاً. هل تصدق يا فلاديمير؟ أخاف الذهاب إليها وحدي. إنها، كما أعلم، ليست بصحة جيدة، وأخاف أكثر من الموت أن لا تحتمل. لقد طلبت –هل تذكر في فينيسيا؟ -أن تلمحا لها ولو على نحو ضبابي عني... وأنني حي".

"-نعم، تحدثت ماريا إليها، كانت عندها في المنزل".

"-وماذا؟"

"-يمكن فهم ردة فعلها، قالت رايسا ميخائيلوفنا إنك قتلت وهي لا تريد أن تصدق المعجزات".

لم يجب فاسيلييف بذلك فوراً، وفكر بمرارة أن الرغبات الإنسانية لا تملك أية ضمانات، وحياة إيليا العائد من اللاوجود، إن كان حقاً مريضاً مرضاً جدياً، ستنتهي بعد فترة قصيرة، وكم يبدو تخيل ذلك مريعاً، هذا معناه أن الموت يقبع على أهبة الاستعداد في كل فرد منا، ويسير ملازماً إياه كظله بانتظار ساعته: "ويذهب كل شيء إلى الشيطان في لحظة: الشمس، هذا الثلج، أقمشة لوحاتي، الكلمات الرنانة عن الإبداع، ساعات العمل ههنا في المرسم، حبي لماشا وفيكتوريا، حبي لهاتين المرأتين في العالم كله، وكل ما كان... وما كان يمكن أن يكون. كم كل شيء معلق بشعرة دقيقة جداً".

نهض فاسيلييف، وشرع يسير في المرسم على الأرض المشمسة الملطخة بالألوان ثم سأل: "-ماذا عليَّ أن أفعل؟ بم أستطيع مساعدتك؟ هل أذهب إلى رايسا ميخائيلوفنا؟ هل أتحدث إليها؟ متى أنت مستعد للذهاب إليها؟".

أجاب إيليا على نحو أصم: "-غداً، لن تكفيني القوة اليوم، أرجوك يا فلاديمير أن تذهب معي... لا كمرافق. بل كـ.. كصديق سابق، سيكون الأمر هكذا أسهل... لها ولي". اصطدمت عيناه بنظرة فاسيلييف الساهمة والمكفهرة فرجاه بنصف صوته: "-اتصل بها وأخبرها أنك ستزورها غداً، وأنك لن تكون وحدك... اتصل بها الآن، بحضوري، لو أمكن. اشرح لها وقل إنني حي معافى، وقد أتيت إلى موسكو لأراها..."

فكر فاسيلييف من جديد: "سأقول لها هذه الجملة وأشترك مع إيليا بالخداع، لكنه ربما جاء إلى موسكو ليودعها. "وقف متجهماً بعض الوقت قبالة الهاتف الموضوع على الخزانة الصغيرة داساً يديه في جيبيه، وحين رفع السماعة وأدار رقم رايسا ميخائيلوفنا على نحو غير متتابع مخطئاً مرتين شعر وهلة بالهدوء التام خلفه وبالنظرة المسلطة على ظهره، التي جعلته يضطرب: طلب منه إيليا صراحة أن يساعده في لقائه الأول مع أمه، شاعراً بالشك على ما يبدو في أمر ما مهم له.

لم يقترب أي كان من الهاتف فترة طويلة.

شرع فاسيلييف يتكلم بعد أن سمع أخيراً الصوت غير القوي الممطوط بلين، الذي خيل له أنه دافئ ولونه بني، وراح يتلعثم على الرغم منه باحثاً عن الكلمات التي لم تنتظم في الصف الديبلوماسي اللازم:

"-رايسا ميخائيلوفنا، هذا أنا، مرحباً. نعم، هذا أنا يا رايسا ميخائيلوفنا. نعم، هذا أنا. لا لم أنسك. لم أتصل، لم أرك دهراً كاملاً، سامحيني. لكنني أردت أن أقول لك... أي ينبغي أن أعرج عليك غداً، ولن أكون وحدي، بل مع صديقي القديم، الذي تعرفينه أفضل مني... ("غبي، ديبلوماسي مضحك، غبي أنموذجي ببساطة، ما لزوم المرح التافه الذي لا يطاق هنا؟") القصة وما فيها أن... إيليا أتى إلى موسكو، وقد التقيت به يا رايسا ميخائيلوفنا. نعم، أتى إيليا من إيطاليا معافى ("هل أكرر كلمات إيليا؟") وهو مندفع إليك حالاً ("كاذب، كاذب"). أما أنا فأرجوه أن يرتاح عندي بعد الطائرة..."

نطق الجملة الأخيرة متلعثماً ولاعناً مشاركته الخرقاء والقسرية في هذه اللعبة المدبرة من أجل اصطناع الحقيقة، وفاح صمت رايسا ميخائيلوفنا الذي حل في السماعة بعد حركته الديبلوماسية غير الماهرة والساذجة، برائحة التعقيد المتوقع

الباردة، وخاف أن ينفجر هذا الصمت بصرخة ونحيب مخنوق يقطع بالدموع المنفلتة أسئلتها عن إيليا، فلم يسمع تقريباً صوتها المنزلق، الذي أضعفته الاستكانة المتعبة:

"-أعرف يا فولوديا. لقد وصل".

دهش فاسيلييف وانقطعت أنفاسه، وتردد أمام الخزانة الصغيرة ساعياً إلى أن لا يلتفت نحو إيليا: "-من أين عرفت يا رايسا ميخائيلوفنا؟ هل أنبأك أحدهم؟"

تكلمت على نحو غير واضح: "-حلمت حلماً سيئاً يا فولوديا. وقالت لي ماشا. كانت عندي منذ أسبوع..."

"-متى؟ منذ أسبوع؟ ماذا قالت؟"

"-قالت إنه سيأتي."

"-صار في موسكو يا رايسا ميخائيلوفنا. سنأتي إليك غداً... سنأتي غداً..."

"كيف عرفت ماشا بقدوم إيليا؟ كيف استطاعت أن تعرف؟"

وضع السماعة وقلبه يدق بشدة معيقاً تنفسه، وراح يقنع نفسه أن الأمر قد التبس على رايسا ميخائيلوفنا حين تحدثت عن لقائها بماريا قبل أسبوع ("لماذا أخفت ماريا عني هذا؟")، ثم قال لإيليا على نحو اعتيادي متعمد كي يكبت الشعور المهين بالشك:

"-لا شك أن صلب الحديث كان مفهوماً لك. إنها تعرف بوصولك. بم أستطيع مساعدتك أيضاً؟"

"-لا تستعجلني كرمى لله".

ظل إيليا باستمرار يمسح بالمنديل صدغيه المتعرقين طوال فترة تحدث فاسيلييف بالهاتف ("ماذا كان ينتظر؟ رفض أمه؟ هل ساوره الشك في رغبتها في أن تراه؟") وسقط واهناً على ظهر الأريكة، وقال بصوت أبح قليلاً:

"-هل تسمح بان أدخن سيجارة؟"

"-تفضل".

"-أشكرك، وأسمح لي بأن أصمت وأفكر بضع دقائق".

فتح إيليا على ركبته علبة السجائر الفضية المطعمة بالصدف، وأخرج من أعماقها السيجارة الوحيدة المضغوطة بقطعة مطاطية حريرية، وهي الأخيرة في معدله اليومي البالغ ثلاث سجائر (كما تذكر من فينيسيا)، وقرر فاسيلييف بعد أن رأى ارتجاف حاجبيه حين أشعل سيجارته بقداحة الغاز المعروفة، أن اللقاء برايسا ميخائيلوفنا سيكون صعباً على إيليا ومساوياً الكثير له، هذا اللقاء الذي انتظره وخاف منه.

طلب منه إيليا بصوت خافت، نافثاً الدخان باستمتاع ظاهر ومطول، ومتلذذاً بمذاق التبغ وحدته: "-أرني شيئاً ما وأنا أدخن. أرني ولو لوحة. تعلم أنني واحد من المعجبين بك، وكنت سأشتري لوحة لولا أنك..."

لم يكمل كلامه ومج السيجارة بنهم.

تمتم فاسيلييف آلياً وهو يخطو في المرسم: "-شكراً، لكن الأفضل أن أهديك شيئاً ما".وتوقف عند الرفوف خلف منصب الرسم قبالة اللوحات الموضوعة على الأرض والمدارة نحو الجدار، فسحب إحداها ونفخ عليها منظفاً إياها من الغبار، ثم أسندها إلى قائمة المنصب ودس يديه في جيبيه وابتعد نحو الجدار الآخر في المرسم وهو يقول مشتتاً:

"-إليك هذه القطعة".

عمل على هذه اللوحة بضع سنوات واهباً نفسه للأجواء السعيدة في نهار صيفي صاف ولخضرة الأرض ولشفافية الماء الساكن (بدت حصاة نهرية وكأنها تحت زجاجة مكبرة)، الذي استلقت قربه فتاة شابة مستسلمة للوسن، كانت طفلة حتى وقت قريب، وقد وضعت إحدى يديها خلف رأسها فتدبب نهدها العاري متوتراً، وانبعث من جسدها الفتي النحيل كله إشعاع من المتعة البريئة البارد، وإشعاع النظافة الصباحية والصدق الطاهر الذي لم يعرف الخجل بعد –حاول فاسيلييف في جميع الأشكال إزالة لغز الشهوة ولم يقدر على ذلك حتى النهاية، محققاً سيادة سر الجسد الأنثوي، من غير أن يرغب في مساسه باشتهاء متهور.

قال فاسيلييف حارفاً نظره من بعيد نحو اللوحة: "-مرة دخلت الصالة في معرض أوفيتسي عند الغسق وشعرت بوجنتي... نعم، نعم بوجنتي، بدفء كأنه حر المدفأة،

كأنه هواء دافئ... نظرت: كانت إلى يساري "فينوس" تيتسيان. شعرت بدفء جسدها. هذا أعجوبة، حقاً كان هذا أعجوبة. أما أنا... فحاولت أن أنقل شيئاً آخر... برودة النظافة وروعتها".

قال إيليا وهو يبتسم حزيناً:

"-تفوح من فينوسك عذرية غير معاصرة. حلم بالمنسي منذ زمن. على الرجال Streng Verboten.[1] "

"-إطلاقاً. الجمال مقولة أبدية كالقبح تماماً،" فعذراء سكستين" لرفائيل لا تثير الشهوة، وهي في الوقت نفسه مثال الجمال الأنثوي".

ألقى إيليا قذاله على ظهر الأريكة مسترخياً، وراح يتفحص اللوحة ببطء، ثم قال بنصف صوته مؤكداً على رضاه:

"-أنت وفي لنفسك كالسابق... عاشق لماريا وحدها. ربما ثمة شيء منها هنا أيضاً...".

حاول فاسيلييف أن يجيب مازحاً، وكان غاضباً في الوقت نفسه من هذا الرضى الكاذب في كلمات إيليا: "-ما يهمني أكثر هو أمر آخر. كيف الحال لديك؟ من هي؟".

أجاب إيليا: "-ليس لها وجود في الطبيعة." ثم أكمل حديثه على نحو لا يخلو من سخرية من نفسه: "-صار كل شيء من الماضي. قل ما تثير النساء اهتمامي".

"-ماذا؟"

"-كان عددهن كبيراً جداً".

دعك إيليا السيجارة المنتهية في صحن السجائر مستنداً على متكأ المرفق من الأريكة، وغطى جبينه براحته.

تكلم بانتعاش مبالغ فيه، وشمل فاسيلييف من تحت يده بنظرة خوف غير مصطنع متوسلاً منه المساعدة: "-سامحني يا إلهي، أنا الخاطئ. قل لي... كيف ستستقبلني؟"

قال فاسيلييف: "-أظن أنك لا تفكر بهذا الأمر".

---

[1] *ممنوع منعاً باتاً (بالألمانية).*

عارض إيليا: "-به، به. أخاف... لا مبالاتها أكثر من أي شيء. هل ستعرفني؟"

"-ماذا تريد أن تقول بذلك يا إيليا؟"

صمت إيليا حاجباً بيده جبينه الرطب، وكان واضحاً أنه خائف من التحدث عن هذا الأمر ولم يرغب فيه.

*****

الفصل الخامس عشر

أطلقا سيارة الأجرة عند زاوية زقاق فيشنياكوفسك، ونظرا مطولاً إلى الكنيسة الصغيرة حيث أضاءت بخفوت أنوار الشموع عبر زركشات شِباك النوافذ، وبدت أشكال العجائز السوداء على الطنف، أما حولهما فتورد زجاج الطبقات العلوية وكأنهما في مدينة هادئة غير مدينتهما، وتورد الثلج على الأفاريز، وأشعلت شمس ما قبل المغيب الصلبان فوق القباب السامقة التي هدمت قبل الحرب وأعيد ترميمها الآن. حلقت غربان الزرع فوق الأجراس بفرقعة قروية، وتذكر فاسيلييف فجاءة الهواء الرطب جداً، والبرد والنجوم ودوي الحديد في قمة الجرس حين عادا في الليلة التشرينية عام واحد وأربعين من حفر الخنادق قرب موجايسك، وخرجا عبر شارع نوفوكوزنيتسك إلى هذا الزقاق ليختصرا الطريق إلى المنزل بعد أن قطعا موسكو كلها.

لكن هنا عند الركن إلى اليسار كان يقوم في بناء من طبقتين حانوت صغير لبيع الأغذية والخبز، كانوا يركضون إليه دائماً قبل الحرب لجلب الأرغفة، فكان الدفء يفوح في الصباحات الربيعية برائحة الخبز الطازج الحلوة، وقامت هنا في زقاق فيشنياكوفسك منازل التجار المتينة المؤلفة من طبقتين وذات الأفنية المعشبة وعنابر الحطب، وكانت تتنزه على أسطحها المغطاة بالتولين والملتهبة بالحر طيور الحمام الخارجة من أقفاصها الشبكية، فيما تتدفأ الهررة المتكبرة بكسل في ظهيرات أيار تحت الشمس هازة آذانها بسبب من ضوضاء أعراس الدوري الجنونية في أعماق الزيزفون المتكاثف. كانت زوابع زغب الحور تثور في نهاية شهر أيار في شوارع زاموسكفوريتشيه وأزقتها وحاراتها المسدودة كلها، فينزلق الزغب غشاء ناعماً على قارعات الطرق ويطير

عبر النوافذ المفتوحة ويسبح فوق مناصب حوانيت الخضار في أنصاف الأقبية، ويلتصق بلوحات الإعلانات على الأسيجة وعلى زجاج أكشاك الصحف ويحاصر أنصاف الأعمدة الحجرية بأمواج بيضاء حول مداخل الأفنية، ويتشبث بأعمدة المصابيح الحديدية. كان ملمسه الخفيف يدغدغ الوجه والحاجبين والأهداب، فيشعر المرء برغبة في الضحك وفي نفخه...

لم يكن فاسيلييف هنا منذ بضع سنوات – لم تتوافر لديه ساعة واحدة ليأتي إلى هنا، أو، ربما، وقاه لا وعيه من الماضي، ومن هذه التغييرات الجديدة كلها قرب الكنيسة الصغيرة التي يعرفها منذ الطفولة في زقاق فيشنياكوفسك. لم يعد هنا حانوت بيع الخبز ولا حوانيت الخضار الصغيرة ولا الفيلات المسكونة المكونة من طبقتين ولا أنصاف الأعمدة الحجرية عند مداخل الأفنية ولا الحمام الشبع على أسطح الأقفاص. انتصب هناك، حيث كانت هذه الأفنية والفيلات القديمة وأشجار الزيزفون التي يبلغ عمرها مئات السنين، بناء ضخم متعدد الطبقات، واغبرّ متسخاً، وشق جدار واجهته السماء البنفسجية مع حلول المساء بسخافة وعلى نحو مسطح، وبرزت لافتات محل الالكترونيات فيه وشرفاته غير الجميلة التي جففت عليها بياضات مرقشة ووضعت عليها صناديق وزلاجات، أما قبالة الكنيسة وخلف سياجها فابتعد إلى الأعلى فوق الزقاق باستعلاء وعلى نحو أخرق برج من أربع عشرة طبقة – وانسل هؤلاء الدخلاء الغرباء وهؤلاء المحتلون الأجانب إلى عيني فاسيلييف بعداء وقبح مستهتر معاصر- وفهم أنه تأخر في القدوم إلى هنا، إلى أرض طفولته، وأن خداعاً قد ارتكب شبيهاً باغتصاب لا يمكن تفسيره.

نظر إلى إيليا عند زاوية لوجنيكوفسك، لكن هذا الآخر صمت منطوياً، وسرى ارتباك يكاد لا يلحظ، على شكل تشنج غامض، على وجهه، وخيل أن هذا كان ابتسامة ضعيفة غير مكتملة، تشبه انعكاس التعرف غير الواضح على الطفولي والقديم الذي ظل في كوات الثلج الضارب إلى الزرقة والمستقر على أغصان حور الطريق، وفي مياه أنابيب تصريف مياه الثلج الذائب المتجلدة والمبللة، وفي النوازل الجليدية المتشكلة على الأفاريز والتي تتساقط القطرات منها، وفي الستائر الشفافة الرقيقة على نوافذ الطبقات الأولى، وفي تشعث الشمس المنخفضة الثابت فوق

الأسطح البيضاء ذات الزرقة المؤلمة في الأقسام المائلة والظليلة منها، والتي تصير على هذه الحال مع اقتراب الربيع، والتي انحفرت في الذاكرة لسبب ما في الأعوام المنصرمة إلى الأبد. لم يمس الزمن ذلك كله- الجليد على المزاريب، وشرارات الشمس على النوازل، والقطرات، والظلال، وحتى هواء شباط الفواح بشيء ما رطب ومر قليلاً كأنه دخان مدافئ. وسمع فاسيلييف بوضوح كيف لفظ إيليا هامساً:

"-أذكر، هكذا كان." وتنشق الهواء بأنفه متوهاً ناظريه على أسطح الأبنية.

سأله فاسيلييف: "-هل قلت شيئاً؟ قلت: هكذا كان؟"

أجاب إيليا متمهلاً، وقد أدهشت فاسيلييف نبرة صوته الجافة:

"-لقد صمتُ، وفكرت –نسيت كل شيء- كل شيء... سيظهر الآن فوج الإطفاء.. وبناؤنا. أظن... رقمه أربعة... أذكر المرآب جيداً في هذه الجهة".

"-أذكره أيضاً".

قام هنا مرآب فوج الإطفاء المعروف في المنطقة كلها، وكانت بوابته قبل الحرب مطلية دائماً بلون العشب، وكانت تظل مفتوحة عادة في صباحات الصيف الحارة فيبدو للعيان كيف كانوا هناك، في البرودة المعتمة قليلاً والفواحة برائحة الزيت، يغسلون برشات مرنة من فوهات الخراطيم السيارات الحمراء الملساء واللامعة بتأثير المياه وذات جرس الإنذار الذهبي الرنان، الذي يبدأ يقرع بعنف ما إن تخرج السيارات من المرآب لطارئ ما ويظل يقرع إلى أن تختفي باتجاه زاتسبيا في الغسق المتشكل بتضافر أغصان الحور الكثيفة المتدلية فوق الشارع. قام الآن عوضاً عن بوابة المرآب الخضراء جدار متقشر الطينة وازرقت فيه شاحبة بنور مشع خفيف نافذة محترف ما...

لا، كان خطأً اصطحاب إيليا إلى هنا، كان تهديماً لركن الطفولة الفرح في روحه، للزمن الشاب قبل الحرب وبعدها (أفضل أعوام حياته)، وصار هذا الخطأ واضحاً خصوصاً حين رأى الفناء العزيز من غير سياج وبوابة، مهملاً، رثاً، ضئيلاً، مليئاً بالكثبان عن آخره، وليس فناء بل بقايا فناء. فمن اليمين تعدى عليه بناء جديد من خمس طبقات بواجهاته الرمادية، ومن اليسار جدار أسمنتي لبناء رمادي جديد أيضاً

ذي ألـواح زجاجيـة مربعـة، بني على الأرجح في الأعـوام الأخيرة مكان الفـيلات ثنائيـة الطبقـات ذات المـداخل المظللـة (حيـث كان المـارة في وقـت مـا يختبئـون مـن المطـر). والـدرابزون الحديـدي على الشـرفات المحمولـة على أكتـاف الأطالسـة الجبـارة، الـذين كانت شمس الغروب تنير بدفء عضلاتهم خلل أوراق الزيزفون.

لـم يكـن الفنـاء ولا كل مـا كّون الفنـاء موجـوداً، بيـد أن بناءهمـا ثنـائي الطبقـات المتسخ بالـهباب القـاتم ظل سـليماً، وكـذلك مدخلـه المظلـم المتـداعي المائـل ودرجاتـه الخشـبية. كانت نوافـذ الطبقـة الأولى المغبرة وحـدها المغطـاة في كل مكان من الـداخل بالصحـف المصفرة – لم يعد أحد يسكن في الأسفل.لكن النوافذ العلوية ذات السـتائر المزاحة بدت وكأنها لا تزال محافظة على الأنفاس البشرية، و قادتهما الطريق الضيقة بين الكثبـان إلى غرفـة المـدخل. راحـت امـرأة مجهولـة في منـديل مـوبر تضـرب سـجادة صغيرة على الثلج قرب الدرجات، فجفل قلب فاسيلييف: رايسا ميخائيلوفنا؟ بيد أن تلك المرأة مسطحة الوجه وقصيرة الجسم، والتي لم تسكن من قبل في فنائهما أبداً، باعـدت بطريقـة تـدل على أنها من أصحـاب المكان، بين سـاقيها السـمينتين المنتعلتين جزمـة، وأدخلـت شـعرها المنزلـق تحـت المنـديل، وبـدأت تضـرب بالعصـا مـن جديـد ضربات مدوية نافضة الغبار.

سـارا عبر الممـر. توقـف إيليـا قـرب المـدخل وهـو ينظـر إلى المـرأة مخمنـاً، وتمـتم: "مرحباً". ثم التفت فوراً إلى فاسيلييف مستفهماً بقلق: "من هذه المرأة التي نسيها على الأرجح؟ " أجابه فاسيلييف بضم كتفيه: "-لا أعرفها أيضاً".

كانت تفـوح من قبل عنـد السـلم المتين في المـدخل رائحـة الخشـب القـديم الجيـد والغبـار الجـاف المـائر صباحاً في عمـود الشـمس القـادم من النافـذة الجانبيـة. ورائحـة المطبخ العامر، وشيء ما منزلي لا يمكن وصفه. أما الآن فالمكان هنا مهمل، وغير مريح، فسـدت النافـذة المحطمـة بـألواح تمـرر ضـوء النهـار مـن بـين شـقوقها، وتفـوح رائحـة العفونة والفئران وبرد العليّات.

بـدا السـلم المؤدي إلى الطبقـة الثانيـة صـغيراً وضـيقاً مثل الممر الكئيب في الأعلى، وبدت الأبواب المخدوشة ضئيلة، وصارت النوافذ واطئة كما في القرى –عـاد كل شيء مختلفـاً بائسـاً. وحـين صـعدا تلفـت فاسـيلييف حولـه أيضـاً في الطبقـة الثانيـة شـاعراً

بألم حلو.

"هنا في وقت ما كانت الحياة خالية من الغيوم ومشمسة وسعيدة..."

تبادلا النظرات.

قال إيليا صاغراً: "-ساعدني يا إلهي". ثم خلع قبعته كالمحكوم وأمسكها بيده المسبلة، وتحرك نحو باب منزلهم، الأول إلى اليمين، ذي الطلاء المقشور منذ زمن، والذي عُلِّق عليه على نحو مائل صندوق بريد متقشر أيضاً أُلصق عليه شريط من الورق، فقرأ بهمس مسموع:

"-رايسا ميخائيلوفنا رام. زينا..."

ولم يكن ما صعق فاسيلييف هو وجه إيليا غير الواثق، وشحوبه العاجي، بل صوته المتلعثم الذي لفظ كنيته وكأنها غريبة عنه ويسمعها أول مرة.

قال فاسيلييف وهو ينظر إلى آخر الممر، حيث اصفرّ كالبيض الباب الأخير المكسو بجلد اصطناعي جديد وغير المعروف بصفرته الفاقعة الحالية، والذي يجب أن تكون وراءه غرفتاهم المتلاصقتان، بنوافذهما المطلة على الفناء والمشرعتان دائماً منذ الربيع للخضرة الفرحة ولبرودة الزيزفون. من يعيش هناك الآن وراء هذا الباب الأصفر المخيف؟

"-ربما الأفضل أن تدخل وحدك. سأنتظرك هنا".

رجاه إيليا، ولم ير فاسيلييف من قبل أبداً في عينيه مثل هذا التعبير الوجل والعاجز:

"-أرجوك أن تدخل معي ولو دقيقة واحدة. أتوسل إليك أن تساعدني يا فولوديا..."

"-اقرع الباب يا إيليا".

"-حالاً...".

قرع خائفاً، فلم يرد أحد من وراء الباب. قرع مرة أخرى، وضغط بحذر الباب بأصابعه منصتاً ففتح من غير صرير المفاصل وزعيقها الصدئ الذي يصادف كثيراً في

المنازل الآيلة إلى الدمار، وكان أول ما شعر به فاسيلييف هو الهدوء الراسخ والثابت المنبعث من الغرفة المنارة بالشمس عبر نافذتين.

ساد الصمت هنا. كانت مملكتها هنا بخزائن الكتب ذات المصاريع نفسها، المصفوفة على امتداد الجدار الأيسر، وبالمرآة القائمة القديمة نفسها في إطارها المصنوع من الخشب المحفور وبالخزانة الصغيرة نفسها، لكن شيئاً ما أعاق على الفور وعلى نحو مقلق الإحساس بالقديم غير المسوس: لم تكن هناك منضدة الكتابة الخاصة بإيليا موجودة، ولم تكن صوفاه البدائية المزينة برف من المرايا، التي كان يستلقي عليها أحياناً ويرفع الأثقال كي يقوى عضلات يديه.

لم يتمكن فاسيلييف من تفحص ما ظل على حاله وما تغير في النصف الأيمن من الغرفة لأنه رأى هناك الباب المفتوح للمدفأة الهولندية الآخذة في الانطفاء، وفي الأريكة قبالة منضدة الطعام (أمام النافذة المطلة على سطح المدخل المغمور بالثلج) امرأة نحيلة شاب شعرها حتى صار أبيض خالصاً، تضع على عينيها نظارة ذات إطار معدني كتلك التي كانت تضعها المعلمات قبل الحرب. لم يعرف فيها رايسا ميخائيلوفنا بل خمن ذلك تخميناً، ثم سمع في الحال صوت إيليا الأصم المخنوق: "ماما...". سار نحوها ممسكاً قبعته بإحدى يديه على نحو أخرق. أما هي فنقلت آليا على نحو ما الكتاب السميك من على ركبتيها إلى حافة المنضدة وهي تستقيم، وخلعت نظارتها، وتكلمت بصوت واهن: "-إيليوشا؟.. "ونهضت، وسارت للقائه بخطا صغيرة.

"-ماما..."

ألصق وجنته بصدغها وهو يحتضنها وتسمر هكذا، أما هي فوقفت كالميتة مرجعة رأسها ذا الحزمة الشيباء عند القذال، وحدهما شفتاها البيضاوان راحتا تتحركان وتنطقان بكلمات تكاد لا تسمع ولا تدرك: "-لماذا يا إيليوشا، كيف استطعت... طوال هذا الوقت؟"

تكلم إيليا بحرص في وضع الانحناء من غير أن يفك عناقها، ولا يزال ممسكاً بخراقة منسية القبعة خلف ظهرها، لكن حاجبيه راحا يقفزان وكأنه يكبت نحيبه: "-

ماما، ماما، يا غاليتي.. سامحوني[1] على كل شيء... أنا مذنب في حقكم، مذنب..."

تنحت قليلاً وهي تتفحصه بابتسامة متكلفة وهمست: "-هل هذا أنت يا إيليوشا؟ وأنت حي؟.

"-هذا أنا يا ماما. أتيت لأراكم".

قالت وهي تمسد وجنته، فأمسك يدها مغمضاً عينيه، وضغطها بفمه: "-وصرت على هذه الحال يا إيليوشا؟ تجاعيد وأشيب تماماً؟ حين روت لي ماشا كيف التقيتم في الخارج لم أتخيلك أشيب. كنت أحلم بك ولداً دائماً." وأومأت برأسها لفاسيلييف الواقف عند الباب: "-حين ذهبت مع فولوديا إلى الحرب كنتما ولدين... انقضت حياة كاملة. مرت كالحلم..."

وهنا فقط بكت مرتعشة وراحت ترمش بجفنيها جاهدة كي لا تذرف دموع العجائز الصغيرة لكنها أخذت قبعة إيليا في الحال ووضعتها على المنضدة داعية إياه بعينيها المبللتين إلى الغرفة وطلبت من فاسيلييف متكلمة بصوت متماسك:

"-اخلع معطفك من فضلك، وأنت أيضاً، يا فولوديا، اخلع معطفك... كم سنة، كم سنة مرت. الحمد لله أنك حي يا إيليوشا." تكلمت وهي تغمز برموشها النادرة الرطبة: "-أذكر كيف عدتما من الخنادق، وكيف جلستما وراء هذه المنضدة. كم سنة مضت..." كررت رايسا ميخائيلوفنا بهمس مرتجف: "-أما أنا فعشت الحياة كلها وحدي... كم تقلبت أفكاري حولك يا إيليوشا، صدقت ولم أصدق. يا للورقة المرعبة التي جاءتني: ضاع من غير أثر... ويا للفراغ الذي حل في الروح... أين أنت؟ في الأسر؟ قتلت؟ ماذا حل بك؟ كم فكرت بك، كم من الدموع ذرفت في الليالي يا إيليوشينكا. ولم تصلني منك ولو رسالة صغيرة، ولو كلمة... كيف استطعت ذلك طوال هذا الوقت؟ يا بني، يا وحيدي، يا أعز إنسان... كان من الممكن أن أموت... لماذا تركتني أتعذب بقسوة كل هذه السنين؟..."

قال إيليا خالعاً معطفه وملتفتاً باستعجال، بوجه متوسل نحو أمه، وكأنه خائف من دموعها، ومما لم تعانه بعد من يأس الفقدان، ومن تأنيبها المنفلت من غير قصد:

---

[1] يحدث والدته بصيغة الجمع احتراماً لـها (المعرب).

"-ماما، سامحوني إن كنتم تستطيعون، سامحوني كرمى لله. سأروي لكم كل شيء، يجب أن تسمعوني يا أماه، أريد أن أروي لكم كل شيء..."

قالت رايسا ميخائيلوفنا: "-ها أنت تخاطبني بصيغة الجمع يا إيليوشا. لماذا تخاطبني بصيغة الجمع كالغريبة؟"

"-اعذروني يا ماما. كنت أذكركم. كنت أذكركم طوال هذه السنين..."

"-وهل عدت نهائياً؟ أين أسرتك؟"

أطلق إيليا زفرة مصحوبة بأنين، واقترب منها وكأنه رازح كله تحت وطأة نظرتها المتسائلة، فدلك يديه وضمهما ثم حررهما بانصياع مذنب: "-اغفري لي يا أمي. ليس لي أسرة. أتيت وحدي... كان عليّ أن أراك يا ماما".

"-وحدك؟ وأين زوجك يا إيليوشا".

"-أنا أرمل يا أماه".

فكر فاسيلييف معانياً من حرج شديد بسبب من وجوده واقفاً عند الباب من غير أن يخلع معطفه: "ما كنت لأتصور إيليا أبداً مغرماً بأمه هكذا وحائراً أمامها. لكن تعذبني وتلاحقني فكرة أن إيليا جاء ليودعها. يا لللطف الذي ينظر به إلى رايسا ميخائيلوفنا، يا لرغبته في أن يبتسم لها ويمسح يديها وللوجل الذي يعتريه من أسئلتها... نعم، نعم. هذا هو إيليا الذي يرتدي بذوق رفيع بزة رائعة، والحليق بعناية، لا بل الوسيم أيضاً، لكنه ميت. لن يكون على الأرض بعد عام أو عامين. ورايسا ميخائيلوفنا لا تعرف ذلك. ستعيش أكثر منه. ما دمت أفكر بهذا طوال الوقت فهذا معناه أنني لا أرغب في أية حال بالموافقة على موته".

"-سأغيب يا رايسا ميخائيلوفنا لأشتري السجائر. نسيت، لو تدرين، العلبة في المرسم. أظن أن ثمة كشكاً هنا عند الركن؟ سأعود حالاً، يا للأسف".

وضرب فاسيلييف على سبيل البرهان جيبيه وخرج حالاً إلى الممر من غير أن ينتظر ممانعتهما إياه. لقد فهم أنه لم يعد قادراً على مساعدة لا إيليا ولا رايسا ميخائيلوفنا بمشاركة غير مقصودة منه.

لم ينعطف فاسيلييف في الممر نحو المخرج بل إلى اليمين، نحو نهاية الممر، نحو

ذلك الباب الضارب إلى الصفرة الذي جذبه على نحو لا يقاوم، وذي قبعات المسامير المعدنية البراقة المطروقة في الجلد الاصطناعي الجديد الذي يكسوه. جلس على حافة النافذة منصتاً إلى الصمت وراء باب هاتين الغرفتين اللتين صارتا غريبتين، وفكر في أنه يتمنى لو يلقي نظرة، ولو دقيقة واحدة، إلى هناك كي يرى فقط المدفأة الهولندية المغطاة بالبلاط، والتي كانت صوفاه قبالتها.

"-إلى أين أيها المواطن؟ عمن تبحث؟ آ ؟"

صوبت المرأة قصيرة القامة في المنديل الموبر، التي التقيا بها قبل قليل في الفناء، نحو فاسيلييف نظرة عدائية ضاربة إلى البياض من تحت جبينها مع لهاث مصفّر، وهي تضم إلى بطنها بقوة السجادة الصغيرة الملفوفة.

شرع فاسيلييف يتكلم: "- أنت... في هذه الشقة؟ أنا، كما ترين، في وقت ما... " مسه على نحو غريب أن هذه المرأة الدميمة وغير البشوشة تعيش في غرفتهم، وأن وجهها المسطح بدا وكأنه مستعد لإطلاق صرخة مدوية وللصراع الغاضب دفاعاً عن بابها، فلم يكمل كلامه وقاطع نفسه بابتسامة ساخرة: "باردون مدام. لم آت إليك. يا للأسف، لم أرك هنا أبداً. آسف أسفاً شديداً يا مدام أن شخصك لم يزين هذا البناء من قبل. "قال هذه الجملة الساخرة التي خطرت له لسبب غير معروف، والخالية تماماً من أي معنى، وبعد أن قالها فرقع بكعبي حذائه وأحنى رأسه كما يفعل الفرسان، وراح يفكر في الوقت نفسه بأسى بهذه الصبيانية: " يبدو أنني سأجن..."

تنحنح في الخلف صوت فيه مسحة من الشجار حين اتجه فاسيلييف نحو السلم: "-هه، يسيرون ومظهرهم كمظهر المثقفين، يعتمرون القبعات، أما هم في الواقع فزعران..."

"مثقفون زعران يسيرون في القبعات". ظلت هذه الجملة ترن فيه برخامة لاذعة إلى أن هبط إلى المدخل الفواح برائحة العفن.

لفحته الرطوبة الناعمة التي حملها هواء ذوبان الثلج، لكنه لم يشعر بالارتياح التام في الفناء أيضاً، حيث راح جدار البناء المجاور خماسي الطبقات يلتهب كله في الغروب المبكر، وزأر من خلفه محرك مهتزاً بكل قوته تارة ومخفضاً عدد دوراته تارة

أخرى، وصرّت الجنازير وترددت أصوات ضربات ثقيلة، وانهال شيء ما، وحف وسال تحت هذه الضربات التي ملأ وقعها الزقاق.

"مثقفون زعران يسيرون في القبعات". سخر فاسيلييف من نفسه ذهنياً، فيما قاده الممر بين الكثبان المحمرة إلى حيث كان المدخل إلى الفناء والبوابة الخشبية.

وقف هنا متلفتاً ومستنشقاً رائحة الثلج الذائب، وراح يتخيل فجاءة أمراً آخر: غسق الصيف البعيد ودفء الغروب الهادئ في ذرا الزيزفون غير المتحركة، والبريق الهادئ لزجاج العليات كالبحيرات الصغيرة في الغابات في غبش المساء، أما في الأسفل فتناهى في أماكن متفرقة من النوافذ المفتوحة وعبر أوراق الأشجار ضوء المصابيح المنزلية وتناهت أصوات مكبوتة ورنين الأواني... ثم ليلة حارة من ليالي تموز والنجوم فوق الأشجار وفوق الهوائيات القاتمة، والبوابة الخشبية المغلقة بالمزلاج حتى الصباح من قبل البواب العم أخميت، والفناء الليلي الذي يبدو كالمطوق والمعزول عن الأزقة والشوارع الهادئة، والمتحد في الداخل بالثقة المتبادلة الشبيهة تقريباً بالثقة بين الأقرباء: أخرج إلى تحت كل نافذة سرير قديم من السقائف، ووضعت المفارش على المقاعد والألواح الخشبية، وابيضت الوسائد في الظلمة، وراح الجيران يتبادلون الأحاديث بأصوات غير عالية قبل النوم، ويتردد أحياناً ضحك طفولي مغطى بالبطانية، أما حول الفناء فسبح صمت الليل الساكن القادم من الأفنية الأخرى، ومن الشوارع القريبة وزاموسكفوريتشيه كلها. وفي تلك الساعات كانت الرغبة تراوده في النظر طويلاً من السرير إلى السحر المتزحزح في الأعماق الزرق القاتمة، وإلى الحركة الغريبة والتشكل الغامض لمعينات النجوم ومثلثاتها، وفي أن يشعر بوجهه بعد أن يغفو ويستيقظ بهبوب النسيم المتبرد وأن ينكمش بسبب من إحساسه بالصلة السرية مع السماء، وأن يسمع من مكان ما بعيد صوت عواء حافلة كهربائية متأخرة.

فكر فاسيلييف متخيلاً بوضوح الفرح الطفولي بالليلة الهادئة والنجوم وذرا الزيزفون القاتمة في الفناء حتى أنه أحس برائحة نسيم الصباح وبالوسادة الباردة تحت وجنته في الهواء الطلق: "ما هذا الذي كان؟ أهي العراقة العزيزة التي تتصف بها أفنية التجار؟ لا. كان أمراً آخر ما هو؟ الحنين إلى الماضي؟ لا. إنه بغض النظر عن أي شيء التقارب الواثق بين أناس يقطنون معاً. وكان الأمل الوحيد. وكان لدى الجميع

كفاية متواضعة ومتماثلة... أين هذا كله؟ هل غرق في نهر الزمن؟ هل رحل من غير أثر؟"

***

هز المحرك الهواء بزئيره، ودوى خلف البناء خماسي الطبقات، وتناهت أصوات الضربات البليدة منتظمةً، فاقترب فاسيلييف من منعطف الزقاق نافد الصبر، تتملكه الرغبة في أن يرى ماذا يبنون هناك.

تحركت خلف السياج المقام من ألواح الخشب عربة مجنزرة شبيهة بالرافعة فوق ركام الطوب المتكسر، وراحت كرة فولاذية معلقة على خطافها تتأرجح على نحو رهيب وتضرب باضطراد صدر الجدار المشوه –علق الغبار البني في الهواء وانهالت الطينة، وراح الطوب الأحمر المتحطم يتساقط ويطرق الأرض، وهوت عوارض الجسور السميكة. كان الجدار لا يزال قائماً ومحافظاً بأعجوبة على كورنيش الفيلا المزين بالأشكال الجدارية، وفي الأسفل هب الهواء عبر فتحات النوافذ المحطمة وفتحة باب الشرفة العريضة ذات الدرابزون الحديدي المبروم والمتضافر ليشكل وريقات الزنبق المتفتح السوداء، أما الأطالسة تحته، المغبرون، نصف المحطمين، فكانوا لا يزالون يسندون بمناكبهم المتوترة وبآخر ما يملكون من قوة الشرفة المهتزة مع كل ضربة مدوية من الكرة الفولاذية الرنانة التي لا ترحم. كان هذا بقايا واجهة الفيلا ثنائية الطبقات لمالك معمل الحلويات السابق على الأرجح، والتي وضعت فيها قبل الحرب مكتبة للأطفال. وشعر فاسيلييف بالألم في صدغيه بسبب من عدم وضوح أو فهم لزوم تهديم هذه الفيلا القديمة، التي كحلت الأنظار وسط أشجار الزيزفون النامية منذ قرون بشرفاتها و مزاغلها المزخرفة ودوارات الهواء المغنية فوق الأبراج وبمدخلها المشيد على شكل بوابة عالية-و بسبب من زئير المحرك الذي يرج الأرض كهدير الدبابات، وتأرجحات الكرة وضرباتها القاتلة شعر بالألم في صدغيه.

نظر باشمئزاز إلى الكرة الثقيلة المتأرجحة ببلادة أمام الجدار المشوه، وفكر بإيليا ورايسا ميخائيلوفنا وبالفناء غير الموجود وبانعدام الفائدة من جهود البشر للمحافظة على أنفسهم في الزمن.

"أنا مستعد لأن أوافق على أنني مذنب أيضاً في هذا كله. لكن من أين هذه الشيطنه الهدامة؟ هل يعقل أن لا يبقى الماضي، وأن لا يذكر أحد شيئاً؟ ولا أياً منا؟ سيهدمون البناء القديم ويبنون بناء جديداً مسبق الصنع، ثم يأتي آخرون بعدنا ويهدمون الأبنية مسبقة الصنع ويبنون أبنية أقبح... وربما سيتناثر ماضينا في الكون مثل ذرات الغبار. وحدها ذاكرة القليلين... ربما وحده الفن قد يحفظ شيئاً ما قليلاً..."

وسار في الزقاق المرتج من دوي الصدمات، وقد أثارته سخافة هذا التدمير، وتذكر لسبب ما كيف راحت مرة زوبعة في أمسية من أمسيات شباط بعد الحرب تدور بعنف خاص في هذا الزقاق، مثيرة الغبار الثلجي عن الأسطح وعن ذرا الكثبيات، وكيف سارت الأقماع وبرمت على قارعة الطريق، وتأرجحت المصابيح في كل مكان وصرَّت مع أشجار الزيزفون المتجمدة، وصار نور متكدر يتخطر على الأسيجة إلى الأعلى تارة وإلى الأسفل تارة أخرى، وكيف ظهر بصعوبة خلل هذه العاصفة الثلجية المدخنة منزل منار عند المنعطف مع أبراج الحراسة فيه ودورات الهواء المصفرة كالزعران، أما هو- وكان لا يزال في معطفه الرسمي- فسار مع ماشا غير حليق الذقن، مرحاً، تلسعه الزوبعة، ولم ير عينيها اللتين حجبهما فراء الياقة. لقد رأى جزءاً من جبينها فقط وحاجبيها المشعثين اللذين علق الثلج بهما، وكان غالباً ما يتوقف مبتسماً ("ماشا، ماشا") ويجذبها من كتفيها ثانياً عن وجهها الياقة اللزجة المبللة، ويبدأ يقبل غير مستعجل شفتيها الرطبتين، الفواحتين برائحة الشتاء والحلوتين حلاوة لا حد لها، فتعبس وتنشب في صدره يدها المدفونة في القفاز، وكان يظل ممسكاً بها برقة متعطشة...

فكر فاسيلييف: "هذا أيضاً غير موجود. بقي في ذاكرتي وحسب".

كان صوت الكرة الحديدية المتين، التي راحت تهدم بقايا واجهة البناء، شبيهاً بضربات كتل الدبابات على جدران الطوب (حدث مرة في كامينيتس بودولسك قرب القلعة حين راحت الدبابات الألمانية تهاجم)، وقد رافق هذا الصوت المنتظم للحديد المنغرز في الطوب فاسيلييف حتى المنعطف نحو شارع لوجنيكوفسك، حتى مكان بوابة بنائهم السابقة، ولم يهدأ الألم المضني في صدغيه. شعر بالأسف لأنه، بسبب من انشغاله كالثور المخصي بعمله الذي لا ينتهي، وبسبب من إرضاء الذات المغرورة، لم

يأت منذ قرابة العشر سنوات إلى ركن الطفولة هذا، وكان في مقدوره أن لا يرى بقاياه لولا إيليا. لم يستطع أن يغفر لنفسه هدر الوقت الذي لا يعوض وتأجيله المخادع والمهدئ إلى "ما بعد". كما لو أنه كان يأمل في حياة ثانية.

"إذن، الوداع أيها الزقاق العزيز. كان عليَّ أن آتي إلى هنا مصطحباً مسودة الرسم منذ زمن بعيد، لكنني لم آت..."

كانت العودة إلى آل رامزين صعبة عليه، لم يشأ أن يرى دهليزهم والتناثر الظافر لرؤوس مسامير التنجيد الفضية على الجلد الصناعي الأصفر على بابهم العزيز منذ الطفولة، والذي بدا وكأنه يدفعه عنه بخيانة ما مرتكبة، وبخنوع الزمن المذل أمام تلك المرأة المتجهمة ذات الوجه المسطح.

صعد بعد قرابة الساعة ونصف الساعة إلى رايسا ميخائيلوفنا ليودعها، وحين قرع الباب وفتحه بعد أن سمع أصواتاً مكبوتة أوقفته للوهلة الأولى فكرة أنه وصل، على الرغم من كل شيء، في الوقت غير المناسب، لكن الخروج صار مستحيلاً. التفت إيليا عن المنضدة، ونظر إلى فاسيلييف وكأنه يكبح استياءه: "-هيا ادخل، ادخل، لا تتخبط عند العتبة، ليس ثمة أسرار." وعاد يتكلم من جديد موجهاً حديثه لرايسا ميخائيلوفنا، وقد شابت صوته الحيرة:

"- ماما، لن أستطيع الرحيل على هذا النحو، عليك أن تفهميني. أريد أن تكون شيخوختك هادئة".

جلست في الأريكة مغطية وجهها بأسى بيديها الجافتين، وبانت على المنضدة قرب الفناجين وصحون المربى رزمة من أوراق مالية خضراء جديدة، قرّبها إيليا من رايسا ميخائيلوفنا متابعاً حديثه بارتباك:

"- لست فقيراً يا أماه، صدقيني. لن تتسببي في إفلاسي. سأرسل لك كل شهرة مائة وخمسين دولاراً لمصاريفك. ثمة في موسكو محلات بيريوزكا[1] ممتازة، وبالعملة الصعبة سيكون في مقدورك..."

أزاحت رايسا ميخائيلوفنا يديها عن وجهها ونظرت إليه من الأسفل إلى الأعلى

[1] *محلات تجارية تبيع البضائع المستوردة بالعملات الصعبة (المعرب).*

بعينين جافتين وبتعبير مرّ عن المصاب الكبير والتعب الروحي، وقالت مبتسمة ابتسامة ضعيفة:

"- كم تأخر الوقت يا إيليوشا. مضى العمر كله. لقد وصلتَ مع نهاية حياتي".

تمتم إيليا من غير أن يقدر على إخفاء استيائه: "-أرى يا أماه أنك لست سعيدة لمجيئي. أما أنا فأردت... لا يمكنك أن تتصوري كم رغبت في رؤيتك. بقينا، أنا وأنت، وحدنا. وحدنا في هذا العالم كله".

ترنحت رايسا ميخائيلوفنا إلى الأمام كالمغشي عليها، وضغطت صدغيها براحتيها، وتكلمت بهمس كهمس المصلين، وبألم منفلت مفزع، وبدموع داخلية غير مذروفة:

"-لماذا هذا العقاب. عشت حياتك كلها مستغنياً عني يا إيليوشا، استطعت... أن تعيش مستغنياً عني في مكان ما. أما الآن فجئت تقول إنك تحبني وتعرض عليّ نقوداً... ما حاجتي إلى النقود الأجنبية في سني شيخوختي يا إيليوشا؟ لم أعد أرغب في شيء. لن آخذها معي إلى القبر." هتفت رايسا ميخائيلوفنا بذلك وهي تمعن النظر إلى شحوب وجنتيه النحيلتين الرمادي، أما هو فظل واقفاً على بعد خطوتين عن الأريكة مسنداً أصابعه إلى حافة المنضدة حتى انثنت بمرونة وابيضت، وكان ينظر بثبات إلى آنية المربى: "-كنت أحتاج إلى حبك وحسب يا إيليوشا. لكنك استطعت أن تحيا حياتك كلها مستغنياً عني." رددت رايسا ميخائيلوفنا ذلك بفتور: "-اعذرني، قلت كل شيء... كي لا يعذب واحدنا الآخر بالواجبات المزيفة. آه، كم تعبت اليوم، خارت قواي..." أغمضت عينيها منهكة، وجلست على هذا النحو بعض الوقت، ثم أكملت كلامها وفي صوتها رجفة وهن: "-اذهب يا إيليوشا، انتظرك فولوديا طويلاً. تعال إليّ مرة أخرى... قبل سفرك. خذ النقود. ستحتاج إليها..."

قال إيليا، وقد اقترب من الأريكة بساقين مستقيمتين، وانحنى متصلباً ووجلاً، وقبّل صدغ أمه حيث بانت عروقها الزرقاء: "-سأمر بك يا ماما من بعد إذنك." أما هي فمست بخفة كتفه بأصابعها الثلاث المضمومة، فتمتم: "-ماما، ماما. سامحيني وإلى اللقاء. سامحيني على كل شيء...".

تذكر فاسيلييف جيداً كيف راح إيليا يدس حزمة الأوراق الخضراء في محفظته

كالأعمى، وكيف أومأت رايسا ميخائيلوفنا لهما حزينة متعبة من غير أن تقف، وكيف هبطا على السلم المتقلقل إلى غرفة المدخل وخرجا إلى الزقاق، حيث أصابهما بالصمم زئير الجرافة، وقد وحدهما صمتهما وحال بينهما – لم يتكلم إيليا إلا عند منعطف فيشنيافسك، إذ تمتم: "قف." وتلكأ ناظراً إلى امتداد الشارع الذي عتمه الغروب، حيث تدلى باكراً فوق غصون الزيزفون العارية في السماء الخضراء الفاتحة بدر ما قبل الربيع الشفاف، وتنشق بأنفه الهواء المشبع برطوبة الثلج الذائب، وتكلم بحدة متجهمة:

"-هل على الابن الضال أن يعود إلى الأماكن المقدسة؟ ثمن الرومانسية في زمننا باهظ. "يوضع النعش حيث المائدة عامرة بالأطايب".

قال ذلك شاحباً وساخراً من نفسه، لكن وجهه صار غاضباً على نحو مكشوف وقاسياً، مذكراً في شيء ما بإيليا الآخر من عام ثلاثة وأربعين، صباح يوم العودة إلى المدافع المحاصرة من قبل الألمان عند معبر السكة الحديدية.

*****

الفصل السادس عشر

أدهشه في البدء النور في نوافذ شقته المضاءة مثل شريط في الطبقة الثامنة، وحين فتحت ماريا الباب صعقته ظلال الحداد تحت عينيها. قبّلها على عجل والشك لا يخامره في أن شيئاً ما غير سليم قد حدث في المنزل، وسألها قلقاً:

"-ماشا؟ ما بك؟"

"-شكراً لأنك أتيت. اتصلت بك في المرسم لأنني لم أستطع..."

دخلت الغرفة وتهالكت على مسند الأريكة تحت المصباح القائم، ورتبت ثوبها المنزلي على ساقيها، وتناولت عن حافة صحن السجائر السيجارة المدخنة. بدا أن ماريا كانت تقرأ وحيدة هنا وهي تنتظره: استلقى الكتاب الإنكليزي المفتوح على منضدة الصحف.

قالت ماريا، وقد وضعت الكتاب على ركبتها لسبب ما: "-لم أشأ أن أوقظك. لكن سامحني، لست على ما يرام. كل شيء يصير مخيفاً. اتصلت فيكتوريا في السادسة مساءً. قالت إنها تتكلم من هاتف عمومي في طريقها إلى المنزل، وها هي الساعة الآن الثانية ليلاً ولم تعد. لا يمكنك أن تتخيل شيئاً لم أفكر به. يا إلهي..."

أوقفها فاسيلييف بلين مهدئ مصطنع: "-انتظري يا ماشا، انتظري. مع من كانت؟ هل رافقها أحدهم؟"

"-لم أسألها مع من كانت، لم أفطن لذلك لأن الوقت كان مبكراً. أعلم أنهم يذهبون أحياناً إلى طريق ديميتروف، إلى مدرس مهنة التمثيل. ما اسمه؟ إنه مخرج

مشهور بعض الشيء. هل تذكر الفيلم عن الصبي القروي الذي أثار ضجة؟ ماذا يسمونه؟ يجب أن تتذكره، أنت تعرفه..."

"-لا أذكر الفيلم يا ماشا. ببساطة لم أشاهده".

حرفت ماريا ركبتها نافدة الصبر ممسكة بالكتاب المفتوح الذي انزلق على قماش ثوبها.

قالت: "-عليك أن تتذكر. يا إلهي، لن أحتمل..." وشعر من نظرتها إلى باب الغرفة المفتوح وإلى الهاتف الصامت في الدهليز ومن أسلوب حديثها وإمساكها بالكتاب الذي أعاقها باهتياجها غير المبرر الآن، وفكر أن أفضل شيء هو أن لا يلحظ ذلك وينسى فوراً كيف حاول نسيان أمر جديد في علاقتهما نشأ على نحو مؤلم كعائق بينه وبينها في صباح من الصباحات الخريفية. تناولا حينئذ فطورهما. نظرت عبر النافذة إلى الأسطح الضبابية فشاهد فجاءة بقلق تدفق الدفء العميق من عينيها الرماديتين الغامقتين، والبريق الشاب الفائض منهما، وأحس أنه مغرم بها وأنه ممتلئ نحوها برقة قديمة، وصار يقول لها سخافات مرحة، مفادها أنه يحبها أكثر مما أحبها منذ ثلاثين عاماً. لكنها عبست مستفسرة، وبدت تلك الليلة ذاتها، وهي في أحضانه، بعيدة، ميتة، فأشاحت بوجهها جانباً مخبئة شفتيها عن قبلاته، وكان في برودتها تلك وفي وصالها الصاغر اللا مبالي شيء معروف ومخيف ومكدر.

لا، بدأ كل شيء قبل ذلك بكثير. لقد شعر بتنائيها منذ فينيسيا، حين رفضت أن يتعشيا معاً، وذهب هو إلى البار ليشرب هناك ويسترخي. ذلك المساء فهم رفضها على أنه نزوة تعب ناتجة عن التنقلات واللقاءات في المعارض والاستقبالات في روما، ولم يربط أبداً برود ماريا غير المفهوم برسالة إيليا وظهوره يوم افتتاح المعرض في روما، وحتى بلقائها به في مطعم في الضواحي (وهي ما روته له فيما بعد) –كان من المضحك أن يغار من مشاعر ما قبل الحرب الطفولية المنقضية.

ومع ذلك فإن الفكرة المهينة عن الغيرة المثيرة للضحك في سنه هذا، وفي الوقت نفسه معرفة ماريا مسبقاً بوصول إيليا إلى موسكو وإبلاغها رايسا ميخائيلوفنا بيوم وصوله من غير أن تخبره شيئاً خدشت روحه بمخلبها على الرغم من أنه لم يرغب في

أن يفكر بذلك.

قال فاسيلييف من غير أن ينظر إلى وجهها كي لا يرى دهشتها غير الحقيقية:

"-تعرفين على الأرجح يا ماشا أن إيليا وصل".

ردت على نحو عابر: "-وصل إيليا؟" نعم، أعرف. "ورمت الكتاب على الأريكة، ثم شرعت تسير في الغرفة حاضنة كتفيها بيدين متصالبتين: "-تقول إيليا- إيليا... لماذا شرعت تتكلم على إيليا؟ ما شأنه هنا؟... أين يمكن أن تكون؟ قل لي من فضلك أين؟ إذا كانوا قد عرجوا على مخرجهم فماذا في مقدورهم أن يفعلوا حتى الثانية ليلاً؟ وإن لم تكن عند المخرج فأين هي؟ أين؟ أين؟ ما اسمه؟ ماذا يدعى؟ ليوباريف؟ نيكونوف؟ لا، لا، آه، تذكرت... أظن... تيخوميروف. نعم، نعم تيخوميروف..." عضت شفتها وهي تنظر حولها باحثة عن الاسم المفقود وكررت: "-نعم، نعم، أظنه نيكولاي ستيبانوفيتش تيخوميروف. أذكر أنها لفظت اسمه. يجب أن يكون رقم هاتفه لدينا، يجب أن يكون..."

سحبت في الدهليز مفكرة الهاتف من تحت الرسائل والفواتير المختلفة المكومة على الخزانة الصغيرة، وشرعت تقلب صفحاتها بسرعة موقعة رماد السيجارة. اقترب فاسيلييف من الخلف، ورأى في المرآة وجهها المركّز المحني، المثير للشفقة والعزيز في كل تجعيدة، وفكر مرة أخرى بمرارة في أن كل شيء في هذا العالم معلق بشعرة، وقبض تشنج مفاجئ على صوته:

"-اسمحي لي أن أتصل، سيكون الأمر أسهل عليّ".

"-لو... لو ينقضي كل شيء معها... هل وجدت الرقم؟"

"-اهدأي يا ماشا".

وجد رقم هاتف نيكولاي ستيبانوفيتش تيخوميروف المسجل بخط فيكتوريا فطلبه، وتردد أزيز دوران القرص العجول عالياً في صمت الدهليز المطبق كإشارة أمل غير راسخ. لكن أحداً لم يرفع السماعة، ووصل الطنين الطويل أحادي النغمة من غير أن يرد عليه أحد من الصحراء المكتومة في الشقة الغريبة. لم ترفع السماعة حتى بعد أن طلب الرقم مرة ثالثة ورابعة. ظلت الشقة المجهولة في طرف المدينة الآخر صامتة

كالسابق. وحين راح فاسيلييف يبحث عن الرقم ويتصل وينتظر الرد كان يلتقي كل دقيقة في المرآة بعيني ماريا الرماديتين القاتمتين المتسمرتين، فيحاول أن يهدئها بنظره شاعراً بقلق متنام من الجمود المنذر بالخطر في عينيها ومن الضوء الصحراوي المنار في كل مكان من الشقة، ومن الطنين اليتيم في السماعة، الذي بدا وكأنه يظهر من اللا وجود وينساب في الوجود على شكل خط متقطع –نحو هاوية موسكو الليلية الحالكة، حيث يمكن أن يحدث أي شيء...

لم يشأ أن يصدق كل هذا الليلي القاتم، لكنه حين تخيل ابنته النحيلة اللدنة مثل طائر التم وهشاشة عنقها وكتفيها وتخيل ساقيها الطويلين جداً وصدرها ناقص النمو والشفقة القاتلة التي يثيرها ذلك كله فيه، وحين تخيل ابتسامتها الداعية وصوتها المنساب: "مرحباً بابا" لم يعد يشعر بالاضطراب بل بزحزحة الرعب المتجلدة في أعلى معدته، وصار كل شيء على الفور تافهاً ما عدا هذا الشعور.

قال فاسيلييف من غير أن يرفع يده عن سماعة الهاتف: "-اسمعي يا ماريا. ثمة رجل آخر لا هم لديه، ويمكن أن تكون عنده. إنه خالك العجيب إدوارد أركاد ييفيتش. يحدث أن تكون مونولوجاته بغير نهاية، والتهرب منها ليس سهلاً..."

هزت كتفيها برداً.

"-بدأت أتصل بالجميع منذ الثانية عشر والنصف ليلاً. اتصلت بإدوارد أركاديبفيتش وبصديقك لوباتين، وبهذا المغفل سفيتوزاروف. لن تصدق، وجدت المغفل في المنزل، كان يشاهد مباراة بالهوكي، وأكد لي أنه لم ير فيكا اليوم. أي عجز، أي عجز مرعب..."

تحدث فاسيلييف بصرامة: "-تعالي لنجلس يا ماشا ونفكر بهدوء. أينما كانت فيكتوريا فليس لنا سوى أمر وحيد هو الانتظار".

كررت: "-تقول الانتظار؟ " ثم تكلمت بسخرية متألمة: "-أليس لديك شعور بأنني أنتظر ابنتي في غرفة الضيوف هذه منذ عامين؟".

"-ماذا تريدين أن تقولي بذلك يا ماشا؟"

فحت الساعة في غرفة الضيوف، وقرعت المطرقة، ومع ازدياد الفحيح وقعت

الضربة المقطوعة بصوت رخيم كثيف كصوت الأورغ، وترددت في الدهليز والغرف على شكل دوي بطيء وتوقفت دقات الساعة، وعاد "باول بوريه" القديم يتكتك من جديد برتابة وحيداً. وفي تعداد ثواني أعماق الليل هذه غير المبالية بأي شيء انتصب أمام عيني فاسيلييف بناؤهم الغارق في ظلمة آذار ونوافذهم الثلاث الساطعة المنذرة بالخطر، التي اخترقت العتمة وقد انساب خلفها الزمن الثقيل من غير رادع.

فكر فاسيلييف من غير مناسبة: " ربما كانت السعادة ستغمرنا لو أن مشاعرنا كانت فوق الزمن. وكان الخلاص سيأتي في الأحلام اللازوردية".

"-إن ابنتنا، الفتاة الشابة، مغرمة بشاب ما على الأرجح، و، طبعاً، يمكن أن يكون بينهما أي شيء كما يحدث في سني الشباب. " قال فاسيلييف ذلك وهو غير راغب إطلاقاً في هذا "الأي شيء" لكنه سعى إلى تهدئة ماريا: "- تخيلي أن شاباً وشابة متحابين قد نسيا كل شيء في الدنيا، ولا يوجد هاتف في الشقة، وليست لديهما الرغبة في أن يهرعا إلى الهاتف العمومي. ألا يمكن أن يكون الأمر كذلك يا ماشا؟"

ردت ماريا هامسة: "-إنك لا تعرف شيئاً. لا تعرف شيئاً إطلاقاً... لا تعرف كيف انتظرتها هكذا حتى الصباح منذ عامين..."

نهضت متجهمة وقد عرَّضت وجهها لرعب غير مرئي له، متخيلة فقط ذلك الأمر الذي لا يمكن رميه جانباً، والذي لم يستطع معرفته أو افتراض حدوثه بعد. وعصره الخوف الممزوج بالحب تجاه كل ملمح من ملامح وجهها بقشعريرة معروفة له.

سألها: "- ما الذي لا أعرفه يا ماشا؟ ماذا تخفين عني؟"

"-لم أرغب..."

جلست في الأريكة قرب المصباح القائم، ووضعت، من غير أن تدعو الحاجة إلى ذلك، الكتاب الإنكليزي نفسه على ركبتها المنكشفة بتكورها واكتنازها عند حافة ثوبها المنزلي، وأحنت رأسها صامتة فوق الصفحات، فرأى أهدابها المسبلة المنتفخة بالدموع.

قال لها، وفي نيته أن يخفف التوتر، شاعراً كيف راحت الشفقة عليها تستولي عليه بظلام أخضر شائك: "-ربما لا حاجة إلى أن تقولي لي شيئاً؟ عم تتحدثين؟"

تكلمت ماريا بصوت خارج من أنفها، ومسحت دمعتين متفشيتين سقطتا على

صفحة الكتاب:

"-لم أشأ أن أحكي لك. لا ينبغي على الرجل والأب أن يعرف هذا. هل تذكر مرض فيكتوريا؟" لم تحتمل، فقد شرعت الدموع تتلألأ على خديها، وأشاحت بوجهها شاكية، وقالت في حال من العجز الهادئ: "-طبعاً، لا تعرف كل ما هو مخيف...".

لا، لم يعرف كل ما حدث منذ عامين، عرف فقط أن مرض ابنته بدأ على نحو غامض بعض الشيء، بعد ذهابها إلى خارج المدينة إلى ضاحية ما تدعى غريبانوفكا. كان ذلك موقعاً للبيوت الريفية في ضواحي موسكو، حيث اجتمعت ثلة طلاب السنة الأولى لدى أحدهم بعد الانتهاء من الامتحانات. عادت فيكتوريا إلى المنزل عند الفجر (كان فاسيلييف يعمل في مرسمه تلك الليلة)، وحين اتصلت به ماريا في الصباح الباكر ووصل إلى الشقة بغير إبطاء، مصعوقاً من صوتها الجليدي، سقطت بصدغها على صدره وهي تنتحب نحيباً مخنوقاً، وهمست: "لا لزوم للدخول إلى فيكا الآن".. وفهم من همسها ومن الهدوء ومن رائحة الأدوية أن حادثاً جدياً خطراً قد وقع مغيراً كل شيء في المنزل بسرعة البرق. بعد ذلك ذهبت إلى غرفة ابنتها بينما جلس هو عند الباب، وراح يمص السيجارة غير المشعلة ويستمع إلى فيكتوريا وقد راحت تبكي خلف الجدار بكاء متقطعاً، وتنادي ماريا وتزعق غير واعية. تمكن من التقاط كلماتها المتفرقة وجملها غير المترابطة وهذيانها وتوسلها الموجه إلى سائق سيارة أجرة ما، ولشبان مستعدين للقتل وشرطي ما لم يشأ أن يتخذ أي إجراء، وتردد زعيق ابنته ذات الثمانية عشر عاماً المتكرر وعويلها الذي لا يقبل سلوى على شكل ضربات من الألم في داخله. وكان غير فاهم لذلك الشيء المرعب الذي حدث لها أمس خارج المدينة. أما ماريا فكذبت عليه على نحو خال من المهارة، وحدثته متلعثمة عن خصائص نفسية عمرية أنثوية لا يجوز شرحها للرجال كما قالت. استأجرت جليسة ليلية كانت ممرضة سابقة، وحصلت على إجازة من العمل ولم تفارق فيكتوريا شهراً كاملاً. ضمرت، وذوي جمالها، وكفت عن الابتسام، أما في الأماسي فكانت تجلس حاملة كتاباً قرب المصباح القائم مرهفة سمعها ومنصتة للحفيف في غرفة فيكتوريا، فتنتفض لأقل صوت صادر من خلف الجدار، وفكر بقلق لم يفارقه: "ماذا يخفون عني؟ ولماذا؟"

رأى فاسيلييف ابنته بعد ثمانية أيام حين أدخلوه أخيراً ذات يوم حزيراني غرفتها المهواة والمليئة بالشمس (فاحت رائحة الحور الصيفية الطرية في كل مكان)، رأى على الوسادة البيضاء كالثلج وجه ابنته الناحل والأبيض أيضاً، وفمها الأسود الجاف والمعضوض، وعينيها المزرقتين، اللتين صارتا كبيرتين كالعيون في الأيقونات، وقد شع منهما نور حزين عاجز لحيوان جرح جرحاً مميتاً، فعصرته قشعريرة كقشعريرة الملاريا، ولكي لا يبين ذلك لها نطق بنشاط زائف:

"-مرحباً يا ابنتي، كيف تشعرين يا عزيزتي؟"

أدارت وجهها، ونظرت إليه حتى أنها جربت في اللحظة الأولى أن تبتسم له بعينيها الضخمتين. انحنى كي يقبلها، وابتسم أيضاً، لكن وجه فيكتوريا شرع يرتجف فجاءة وتصعر، وراحت الدموع تتدحرج دمعة وراء الأخرى على شفتيها المشوهتين الجافتين، واندفعت نحوه بجسدها كله مخرجة يديها من تحت الغطاء، واحتضنته باكية وصارخة وضاربة جبينها بعنقه، وراجية إياه: "-با- با. عزيزي... ساعدني. ساعدني يا بابا..."

عانى فجاءة، ضاغطاً بعناق مهدئ ابنته الدافئة، المرتجفة، العاجزة، وشاعراً بالفقرات الدقيقة الضعيفة على ظهرها، من ذلك اليأس عند الفاصل المتقلقل بين الحياة وموت مخلوق قريب، غال، يطلب العون، حتى أنه لم يستطع أن يتفوه بحرف واحد، وأحس فقط كيف راحت وجنتاها المبللتان العزيزتان تتمرغان بذقنه وهي تكرر على نحو متقطع وتتفهق مرتجفة:

"-بابا، عزيزي، ساعدني، لا أستطيع، لا أريد... رؤية الناس... لا أريد رؤيتهم بعد الآن..."

"-ما بك يا فيكا؟ ما بك يا عزيزتي؟"

"-لا أستطيع، لا أستطيع يا أبي أن أحكي لك، لا أستطيع، لا أستطيع، لا أستطيع..."

لاحقت فاسيلييف بعد ذلك كلمات ابنته حارمةً إياه السكينة ومتكررةً بالنبرة ذاتها وبالتوسل نفسه والأمل نفسه والشكوى المهتاجة نفسها. وكان الألم الأبوي الذي

وعـاه أشـد وطـأة لأن فيكتوريـا راحـت تبحـث غريزيـاً عـن حمايتـه، وكان عـاجزاً عـن مساعدتها.

والآن، بعـد أن تـذكر حـال الشـفقة العـاجزة التي لا مخـرج منهـا، ويـدي ابنتـه الملتفتين حول عنقه والواثقتين به وزعيقها المجهش: "بابا، عزيزي، ساعدني" فكر أن ذاك الـذي هـزه لـم ينتـه لـدى فيكتوريـا، وأن ماريـا ربطـت اعـتلال ابنتهـا الشـديد ذاك بغيابهـا الليلي اليـوم – ولكي يفـك الأنشـوطة الحديديـة عـن حنجرتـه سألـها: "-مـاذا حدث لفيكتوريا آنذاك؟"

نظرت إليه من الأسفل إلى الأعلى، فبدا وكأنه مس الضوء الحذر الرطب.

"-هل ثمة حاجة إلى أن تعرف يا فلاديمير؟"

"-قرري بنفسك يا ماشا. ثمة حاجة على الأغلب".

"-الحديث عن ذلك مرعب. " صمتت، ثم تكلمت، وقد أوقفت على وجهه عينيها المتوترتين المظلمتين، اللتين انهار وراءهما كل شيء: "-يا إلـهي، لم كان عليها أن تتأخر يومئذ ولا تذهب مع الجميع إلى زميلهم. نزلت من قطار الضواحي، وتاهت في الظلام في حـرج الصـنوبر وهي تبحـث عـن ضـاحية غريبانوفكـا الفظيعـة. لكـن الأفظـع كـان أنهـا التقـت شـابين مـن تلـك المنطقـة يركبـان دراجتهمـا، وكانـا صـاحبي زميلـها، وتخيـل، وعـداها ضـاحكين ومـازحين بمرافقتها حتى ذلك الشـارع حيث قـام المنزل الريفي الـذي تبحث عنه... ظنت أن الخلاص قد جاء، أما الفارسـان راكبـاً الـدراجتين فجّـرا الفتـاة المسكينة إلى عنبر مهجور، وسدا فمها وهدداها بسكين، وصلباها على القش الوسخ..." تكلمت ماريـا باشـمئزاز وأشـاحت بوجهها: "-يمكنـك أن تتخيـل مـا الـذي احتملتـه، مـا الذي صبرت عليه. أية سفالة، أية قذارة. مر أحدهم في الطريق قربهم، استطاعت أن تصرخ وتفلت وتخدش صاحبي سحنتي الدراجتين، فتركاها..."

رمت ماريا الكتاب على منضدة الصحف وفاض وجهها الذي بدله التشنج بنفور اشمئزاز، وكان متألماً ومنهكاً.

"-الأقبح من ذلك كان حين خرجت فيكتوريا من العنبر المرعب ووصلت إلى قطار الضـواحي، وكان في المحطـة شـرطي الحراسـة فشـرعت وهي ممزقـة. هـل يمكنـك أن

تتصور، تروي وتشرح له أنهما اعتديا عليها، أما هو فرأى بوضوح سترتها الممزقة وراح يؤكد ويردد حماقة منافية للعقل، وهي، كما قال، ترتدون الجينز وتحتسون الفودكا، ولهذا تثيرون المشاجرات. هل تفهمين، تثيرون المشاجرات. لم يكن صعباً إيجاد "الفارسين" صاحبي الدراجتين، لكن... تلخصت هذه الـ "لكن" في أن فيكتوريا نفسها لم ترغب في ذلك. تخيل فقط فحوصات الأطباء المهينة. حين تتذكر غريبانوفكا يتملكها الرعب وتنتابها رجفة الحمى، حتى أنها تبدأ تشعر بالغثيان..."

وقف فاسيلييف عند النافذة جاذباً الستارة من غير أن يرد على ماريا، وناظراً إلى الأسطح الثلجية المزرقة، هب من الزجاج هواء بارد، أما جبينه فتبلل بعرق حار، وتراءى له بوضوح ذلك الأسى الطفولي وعينا ابنته المليئتان بالدموع حين عانقها وهي تفهق مرتجفة ناحبة، مصعوقاً بهشاشة فقراتها تحت رداء النوم الشبيهة بهشاشة الطيور وبتوسلها إليه: "بابا، عزيزي، ساعدني..."

اشتهت فيكتوريا التفاح مرة العام الماضي في المنزل الريفي في إحدى أماسي أيلول، فخرجا معاً إلى الحديقة الخريفية الباردة. ضج الهواء في أعالي أشجار البتولا قرب السياج، ونثر الأوراق على نحو غير صيفي، واصطفت النجوم الضخمة بقوة لا تقاس فوق سطح المنزل الريفي الأسود، وبرزت الجوزاء بين طبقات الشوح الفحمية على شكل حزام أبيض عال. هز فاسيلييف في الظلام جذوع أشجار التفاح، وأشعل مصباح الجيب فمس شعاع الضوء على العشب جوانب التفاحات المتكورة، وراحت فيكتوريا تجمعها خاشة بالسلة وفرحة بهذه المغامرة المسائية: "انظر يا بابا أية ثمرة حمقاء ضخمة استلقت وتوارت. "سقطت آخر التفاحات على الأرض مصدرة وقعاً شديداً ريانا، وحين أدخلا السلة المليئة إلى المنزل وأفرغا التفاحات على منضدة الشرفة انتشرت في كل مكان برودة الهواء الليلية، وبدا وكأن نظافة جليد الأنهار الشفاف وطراوة التكوين الأول قد فاحت من فيكتوريا ومن عينيها الواسعتين الزرقاوين الرماديتين الداعيتين إلى الصدق والمأدبة المرحة. وفكر مهدئاً نفسه أن فيكا قد تعافت تماماً من مرضها، وعاد إليها إحساسها السابق بالحياة. لكنه رأى بعد نصف ساعة، حين صعد إلى العلية حيث المرسم، أن الضوء مطفأ في الأعلى، وقد ساد الليل الأسود ذو الأبراج المتلألئة في النوافذ الضخمة الممتدة على طول الجدار

كله. أما فيكتوريا فاستلقت تحت النافذة على السرير وبكت بكاء أصمّ هادئاً، ونظرت عيناها البراقتان بالدموع إلى عينيه فزعة متوسلة، وحين انحنى نحوها وسألها ماذا حدث أجابته محتدمة، وجلست على السرير: "-لا، لا شيء، لا تشعل النور من فضلك. "وصارت تقضم التفاحة ناشقة بأنفها كالأطفال من غير أن تقول شيئاً آخر.

"بابا، عزيزي، لا أستطيع، لا أريد أن أرى الناس..." تذكر مرة أخرى كلمات اليأس الذي لا عزاء له، التي فاهت بها في أيام مرضها، وسمع، مجبراً نفسه على أن لا يلتفت عن النافذة نحو ماريا، كيف اقتربت حذرة من الخلف وأسندت رأسها على كتفه وسألته هامسة:

"-لماذا أنت صامت؟"

تمتم بأسف حاد، وكأنه لم يرغب في ملامسات ماريا الآن:

"-لم نساعدها، لا أنا ولا أنت. الشيء الوحيد الذي أستطيع قوله".

تنحت وقالت، وهي تمسد كتفه برقة قسرية:

"-لكن-كيف؟.. لقد اعتدت يا فولوديا فلا تلحظ كم تحبك فيكتوريا. لن تحتمل لو عرفت بحديثنا... أرادت أن تظل كما كانت في نظرك. حتى أنني واثقة من أنها تحبك أكثر مني كثيراً. لكن يبدو لي أنك تلومني على شيء ما؟"

"-لا ألومك على شيء".

"-ثمة أمر ما غير جيد بيننا".

"-ببساطة، صرت تحبيننا أقل".

فاه بذلك من غير أن يعي بعد لماذا قال هذه الجملة، وعبر متفاديا ماريا إلى الدهليز المليء بالضوء من أوله حتى آخره، ذي المرآة الكبيرة المتلألئة على نحو فارغ، وذي الهاتف الذي لا معنى له، فارتدى معطفه سريعاً ورمى سلسلة الباب وتوقف وقد باغته نداؤها الضعيف:

"-إلى أين يا فولوديا".

أجابها قائلاً: "-سأنتظر فيكتوريا قرب البناء".

وخرج إلى فسحة السلم متجهاً نحو المصعد.

***

كان يحتاج إلى أن يتنشق الهواء الطلق مهما كلفه الأمر وإلى أن يخفف من شدة انضغاط نابض الاختناق فيه. حين خرج من المدخل أزاح قبعته الفرائية عن جبينه الذي لا زال رطباً، وفك الأزرار عن صدره -غسلته رطوبة الليل عبر كنزته وصارت حاله أحسن قليلاً.

أما في الأعلى فتعالى الصفير والهدير على الأسطح وتدافعت الأمواج، وتردد في العتمة صوت تلاطمها اللزج، وضج البحر في كان ما وراء الأبنية، وصفق على شكل هبات وتمزق إلى أشلاء شراع مبلل، واندفع من وراء زاوية البناء الهواء حابساً الأنفاس.

سار فاسيلييف على الجليد المتهشم، وكان البدر يظهر أمامه فوق أغصان الحور في أعماق الفتحة الصافية تارة، وتارة يندفع ويغوص في الدخان الرمادي الأزرق. فاحت من الهواء في كل مكان رائحة آذار، وتماوجت الأشجار في عتمة الشارع العبقة والمنتفخة. تردد هديرها البحري مع صفير الأسلاك كتيارات ضيقة، وسط الأسطح، فانفلت الثلج الذائب المشحوذ بهواء الجنوب عن الأفاريز ودوّى منهاراً في الميازيب.

"أهو الربيع؟.. لم ألحظ كيف أتى. قبل أمس كان شباط..." فكر فاسيلييف بذلك متنشقاً الرطوبة الحلوة لليل آذار، ومندهشاً من سرعة مرور الوقت، وغير فرح بالربيع، الذي كان يوقظ فيه دائماً في أيام الشباب المقدرة وانتظار الأمل غير المفقود: "ماذا يحدث لي في الفترة الأخيرة؟ أنا معتل أو مريض مرضاً ما مؤلماً. أشعر أنني مذنب بحق الجميع- بحق ماشا وبحق فيكتوريا وبحق إيليا... وهذا يشبه الألم... لكن بم أنا مذنب؟ أفي أن بعضنا لا يستطيع مساعدة بعضنا الآخر في الوقت المناسب؟ لكن فيكتوريا رغبت ولم ترغب في طلب العون."

وسار في دوائر قرب البناء على محيط البولفار مصاباً بالصمم من ضجيج الأشجار ومن الأصوات الصماء في الميازيب، ماراً قرب السيارات المتوقفة شتاءً، والتي راحت تبرز من تحت الكثبان الآخذة في الذوبان تحت الأشجار، كاشفةً عن ظهورها الحدباء

ومتلونةً بلون ضارب إلى الزرقة تحت ضوء البدر.

"أين يمكن أن تكون فيكتوريا الآن؟"

كانت فترة كتيمة سبقت الفجر تلك الليلة. لم يكن ثمة مار واحد في الشوارع المجاورة، ولم تُنر نافذة واحدة. وصار البرد الداخلي الحاد يخترق جسده، وتجمد فاسيلييف بعد أن رفع ياقته المشبعة بالرطوبة متوجساً مصاباً محتوماً قاسياً مثل نذير أو تحذير بأن عليه عاجلاً أم آجلاً أن يدفع ثمن خمسة عشر عاماً من العمل الهادئ، وثمن ما يسمى نجاحاته واعتراف الناس به وشراء المتاحف لوحاته وسفراته إلى خارج البلاد لإقامة المعارض-ألم يفرط في الانشغال بنفسه في هذه السنين الموفقة؟..

ثاب إلى رشده فجاءة ورفع رأسه بسبب من صوت محرك، ومن ضجيج تلاطم المياه في برك الثلج الذائب بفعل العجلات، ومن فرقعة كسرة جليد. سطع مصباحا سيارة في نهاية الزقاق غير المنار، وامتدت أشعتهما عبر البرك وعبر الخطين المدحولين في الثلج الأسمر الداكن، فأنارا بوضوح السياج الملطخ وجذوع الحور الرطبة – وتوقفت السيارة قبالة ركن البناء ناشرة الدفء الزيتي المنبعث من المحرك، وانطفأ المصباحان الملطخان بالأوساخ.

ميز أن السيارة كانت سيارة أجرة، غير أن الضوء الأخضر لم يكن مناراً، ولم يخرج منها أحد، وساد الظلام الحالك خلف زجاجها. لكن فاسيلييف شعر هنا بخفة مندفعة في صدره وبثقل غير معقول في ساقيه، فتهالك ظهره على الميزاب الذي راح الماء داخله يتمتم ويرن لاثغاً، وتنشق الهواء بضع مرات كي يخفف من ضربات قلبه.

لا، لم ير فيكتوريا، ولم يسمع صوتها، لكن في هذه السيارة الوحيدة القادمة من الشوارع الليلية وفي أنها أشعلت مصباحيها ثم أطفأتهما في الزقاق بحثاً عن مكان مناسب من أجل التوقف، وفي أنها توقفت قرب زاوية بنائهم، الدليل الذي لا يدحض على وجود فيكتوريا فيها، لذلك سار من غير أن يساوره الشك في ذلك نحو السيارة التي ظل محركها يعمل، ففتح بابها الخلفي حالاً:

"-بابا عزيزي. أنت؟ أتستقبلني بنفسك؟"

"-إنني أنتظرك..."

خرجت فيكتوريا بقبعتها الفرائية ومعطفها الطويل المحشو بالفراء من السيارة. وانتصبت نحيلة أمامه، وكان ذلك واقعاً: عيناها الممعنتان المبتسمتان، ملامسة شفتيها العزيزتين الباردة على خده، رائحة الخمرة المنذرة بالخطر التي شعر بها، صوتها الفتي الرقيق اللدن الخالي من أي أثر للإحساس بالذنب والمشبوك بعفوية حرة خفيفة:

"- لم أعرف يا بابا أنني سأجبرك على الانتظار حتى هذا الوقت المتأخر... لكنني لست وحدي. ثمة من يرافقني، ولم يكن أي داع للقلق إطلاقاً... لم أنت خجل يا إيليا بيتروفيتش فلم تظهر نفسك لأبي؟ " تكلمت بمرح متعمد في باب السيارة المفتوح متسلية بعفوية بما شكل من غير سابق إنذار وضعاً مثيراً للفضول.

"إيليا بيتروفيتش؟ إيليا؟ بأي شكل؟ كيف التقيا؟ أين؟"

نظرت فيكتوريا إلى أبيها مبتسمة ابتسامة الاهتمام البريئة. فهم أنها توقعت منه التعبير عن الدهشة أو عدم الارتياح، فعبس فاسيلييف فقط حين رأى كيف خرج إيليا من السيارة غير مستعجل إطلاقاً، بمعطفه القصير وقبعته اللبادية الناعمة، وقد ابيض في ظل حوافها وجهه النحيل.

تكلم إيليا بصوت جدي مسكوك زيادةً وغير ميال إطلاقاً للمزاح والتبرير، فقال: "- مساء الخير... الأصح، ليلة طيبة يا فلاديمير. أعترف أنني لم أتوقع اللقاء بك. لكن بما أنني التقيت بك... استلم ابنتك الأسطورية سليمة مصانة".

لم يتماسك فاسيلييف: "-أليس كثيراً يا إيليا، يا للشيطان، كيف تأمر أن نفهم هذا كله؟"

نزع إيليا قبعته وانحنى بشيء من الظرف لفيكتوريا، ثم لفاسيلييف، وأجاب بلهجة صاحب حق لا يتزعزع:

"-أرجوك أن تتكلم مع ابنتك. ستشرح لك كل شيء تماماً. ليلة هادئة. لقد أخللت اليوم بأنظمتي كلها، وعليّ أن أذهب إلى الفندق. تعبت اليوم حتى الموت. اسمح لي يا فلاديمير أن أتصل بك صباحاً. سأسافر بعد غد".

ركب سيارة الأجرة وصفق الباب مصدراً فرقعة معدنية ترددت عالياً في الزقاق الضيق، وتحركت السيارة وقد تعالى صوت حفيف إطاراتها الرطب في برك الثلج الذائب، وانعطفت باتجاه المركز على امتداد خط الترامواي.

بدأ فاسيلييف حديثه متماسكاً، وعارفاً أن لا معنى الآن للتعبير عن الدهشة والأسى وعدم الرضى: "-فيكتوريا، أنت راشدة وتفهمين ما تفعلين. اتصلت بي أمك في المرسم في الواحدة والنصف، ونحن ننتظرك منذ ثلاث ساعات. انظري – إنها الخامسة إلا عشر..."

قالت فيكتوريا، وقد تأبطت ذراعه: "-إنك تعنفني على نحو سيئ يا بابا. ربما تحبني، ولهذا لا تحسن تعنيفي..."

دخلا الفناء، فنظر هنا على نحو لا إرادي إلى الأعلى، إلى النوافذ المنارة في الطبقة الثامنة، إلى حيث برق البدر كالمرآة فوق السطح وسط الغمائم البنفسجية المدخنة، وتلاطمت عالياً أمواج بحر آذار القريب. هبت من الأعلى على وجهه رطوبة دافئة، وتساقطت قطرات دقيقة عبقة برائحة قشرة حور رجراج رطبة – رائحة الليل الربيعية.

أدركت فيكتوريا اهتمام أبيها بالنوافذ فجعدت قصبة أنفها ساهمة وأخرجت برقة كفها غير الثقيلة من تحت ذراعه.

قالت له بصوت مليء بالرجاء: "-فلندخن يا بابا ونتنزه معاً بعض الوقت. لا أريد الصعود إلى المنزل... أريد أن أتحدث إليك. هل أنت موافق يا بابا؟"

هز رأسه مستعداً للموافقة على كل شيء وفزعاً في الوقت نفسه من نبرتها سريعة التصديق ومن صدقها.

"- لكن اتصلي بأمك. قولي لها إن كل شيء على ما يرام وإننا سنتمشى قرب البناء. لنذهب إلى الهاتف العمومي. هل لديك كوبيكان؟"

راحت في كشك الهاتف تنقب في حقيبتها، ثم أخرجت قطعة النقود، وحين شرعت تتحدث مع ماريا فكر أن شيئاً ما مشدوداً إلى آخر حد في روحها سيسترخي أخيراً الآن، ومسته في هذه اللحظة حال قريبة من الارتياح.

فكر، حين رآها تشعل سيجارة وهي خارجة من القمرة من غير أن تخجل منه: " هل سيطول هذا؟ لكن كيف... لماذا أتت مع إيليا؟"

راحت تتكلم بصوتها المرن، ونظرت إليه برقة مشاكسة وهي تدس من جديد كفها تحت ذراعه:

"-أعرف أنك تشعر بالنفور حين أدخن يا بابا، لكنك تحبني، وستغفر لي، خصوصاً وأن أوان الإقلاع قد فات..."

مرا قرب الفناء، وسارا على محيط البولفار المخترق بالتيارات الهوائية وقد تعالى صوت الأغصان الخادشة في دهليز الشارع المقفر.

قال فاسيلييف بهدوء مصطنع: "-ربما يا ابنتي ما عاد شيء يرتبط تقريباً بغفراني أو عدمه. في مثل سنك قدت بطارية، وكنت فتى ذا استقلالية في شيء ما. قد أكون مخطئاً، لكنني أرى أنك صرت أيضاً تتخذين قرارات مستقلة... من غير أن تستشيري أمك أو تستشيريني".

"-من أين علمت يا بابا؟"

"-ماذا؟"

"-أنني اتخذت قراراً بنفسي".

أجبرته بضغط خفيف وملح من كفها على التوقف. وجذبته من مرفقه نحوها، واكتسى الوجه الذي كان مبتسماً منذ وقت قصير بتعبير جدي ومتشكك نابع من إنسان مستعد لعدم الموافقة على أي شيء.

"-من أين علمت يا بابا أنني اتخذت قراراً؟"

سألها فاسيلييف مهموماً: "-أي قرار؟"

أنزلت رأسها، وسحبته وراءها بضغط ثان، ثم سارت إلى جانبه مختارة بجزمتها كتل الجليد غير الذائب، التي راحت تفرقع بصوت رنان.

قالت شاجبة بغضب: "-يا للغرابة يا بابا. لماذا لا تسألني عن إيليا بيتروفيتش؟ فأنت مندهش، أليس كذلك؟"

"-ماذا عليّ أن أسأل –كيف التقيتما؟ في مقدوري أن أخمن..."

"-لا، لن تحزر شيئاً".

"-حسناً، ليكن الأمر كذلك. ماذا أردت أن تقولي لي يا فيكا؟"

مجت السيجارة، وأشاحت بوجهها، ونفثت الدخان جانباً بشفتيها الرقيقتين المطوطتين.

"-لا تغضب يا بابا، فلقد احتلت بعض الشيء حين عرجت عليك في المرسم. لم أقل لك حينئذ إن صديقك إيليا بيتروفيتش سيصل مع أنني كنت أعلم بوصوله. وماما كانت تعرف. هل تفهمني يا بابا؟"

"-لا أفهمك لكنني.. أسمعك يا فيكا".

"-بعد سفركما إلى إيطاليا أصاب ماما شيء من الحزن، وأرتني في الألبوم صورتك مع إيليا بيتروفيتش. كنتما واقفين قرب عارضة على خلفية عنبر ما وبرج حمام ما... فتيان من زمن ما قبل الحرب، أبولونان مفتولا العضلات، يا للروعة. لن تجد شبيهاً لهما الآن. طبعاً، كان إيليا بيتروفيتش قبل الحرب لا يقاوم. قل بصراحة يا بابا: كان في ذلك الوقت معشوق أمي، أليس كذلك؟"

"-ربما كان كذلك يا فيكا".

"-لا تفش أمري، لكن بعد سفركما صارت ماما تتلقى رسائل منه من إيطاليا، وأخفتها عنك. قل لي، هل غرت على ماما في وقت ما منه؟ ولو مرة؟"

قال فاسيلييف بصدق كي لا يخيف فيكتوريا بازدواجية المتملص: "-كنا صديقين، وكنت أثق بإيليا بيتروفيتش. لم أشأ أن أغار، لكنني غرت مع ذلك. أحببت أمك من غير وعي..."

"-أعرف منذ زمن أنك تحب ماما أكثر كثيراً مني. أنت مخلص يا بابا".

"-أحبكما أنتما الاثنتين يا فيكتوريا".

"-ولكنك لا تملك الحق في أن لا تحب طفلك".

"-في هذه الحال لديَّ طفلان".

تكلمت فيكتوريا وهي تضغط مرفقه بثقة: "-اسمع يا بابا ما سأقوله لك. حين رأيت آخر رسالة من إيليا بيتروفيتش بين أوراق أمي لم أحتمل وقرأتها – أترى أية دنيئة مخيفة أنا؟ كتب لأمي أنه سيصل في السادس والعشرين، وأنه حجز غرفة في فندق "ميتروبول". اسمع يا بابا كيف حدث الأمر...أردت كثيراً أن أراه، صديقك القديم، ومعشوق أمي السابق، أبولو، الذي لا يقاوم في تلك الصورة. انتابني فضول شيطاني كي أعرف هاتفه وأتصل به في غرفته من بهو "ميتروبول"، وأرى كيف جحظت عيناه على السلم نحوي: "كيف؟ أنت ابنة ماريا؟ مدهش، غير ممكن، عموماً، تشبهينها أشد الشبه، ماريا الشابة عينها. "هذا ما حدث، بعد ذلك بدا مسلياً الاستماع إليه وهو يخطئ مرتين- سماني ماشا. هل تعلم، استمتعت بالوقت معه: فيه مأساوية ومرارة ما..."

كاد فاسيلييف يئن خوفاً من نظافتها الشفافة البريئة وتصرفاتها غير الحذرة، ومن سرعة تصديقها المفزعة، وقال بصوت أجش: "-لكن ما حاجتك إلى ذلك كله يا فيكا، يا عزيزتي؟ لو لم يكن هذا إيليا بيتروفيتش لما كان ممكناً فهمك كما ينبغي".

صفرت فيكتوريا لا مبالية، ثم تكلمت متحدية:

"-بابا، إياك فقط الإتيان على ذكر التعقل الكريه. إنه كذب ونفاق وجبن، والشيطان يعرف ما هو. يا إلهي، كم العالم مليء بدواليب الإنقاذ الكاذبة. من يحتاج إليها؟ " غاصت في دخان السيجارة، وبدا صوتها الرفيع شبيهاً بنشيج طفولي وخز فاسيلييف بإبر الألم: "-لا يا بابا، كل شيء مرتبط بنا. " تمالكت فيكتوريا نفسها ورمت بغضب السيجارة تحت قدمها، وتابعت بنبرة متأنفة: "-هل تعلم من يشيد الجحيم على الأرض؟ ليست الطبيعة، ولا قوة سوداء. لا يا بابا. الإنسان هو الخالق العظيم للجحيم الأرضي. هذه الجملة جديرة بأن نتذكرها، فهي ليست خداعة مثل الكثيرات غيرها".

"-من قال هذا يا ابنتي؟ في أية رواية؟"

قالت فيكتوريا: "-لا تبالغ في حكمة كتاب الدراما لدينا. قال هذا إيليا بيتروفيتش... اسمع يا بابا، ولا تعجب مما سأقول لك. " تركت مرفقه، وتخطت

بجزمتها بانسياب بقعة ثلج ذائب، وابتعدت عشر خطوات إلى الأمام مفرقعة بكعبيها على الحواف الزجاجية الهشة للبرك، حيث راح البدر المنزلق يتصدع ويبرق، ثم التفتت، طويلة، بمعطفها الضيق، وتكلمت من بعيد بصوت يرن رنيناً غير عادي مثل شفرة مشحوذة: "-سأسافر على الأغلب إلى إيطاليا يا بابا. إنه يدعوني وقد قررت".

قال فاسيلييف مصعوقاً: "-يدعوك إلى إيطاليا؟ يدعوك؟ متى؟ لماذا؟"

"-سيرسل لي دعوة يا بابا وسأسافر. لا أعرف إلى متى: مدة شهر أو عام أو خمسة أعوام- لا أعرف. لا لزوم للأحاديث عن التعقل وإلا سنختلف. ولا تقل لي إنكما تعارضان لأنكما تحبانني- هذه حركة ممنوعة. أعرف أنكما الاثنان الوحيدان اللذان يحبانني على وجه الأرض، لكن ما العمل يا بابا؟ قررت... ومن النذالة أن أتراجع وأجبن".

ورأى في وجهها احتقاراً لا حد له للجبن المحتمل والتراجع الممكن.

لم يتكلم فوراً في محاولة مؤلمة منه لإيجاد المعنى الدقيق لعدم الموافقة: "-فكري في أمر وحيد يا فيكا. ستقتلين أمك. لا نملك الحق في أن يكون بعضنا عديم الرحمة ببعض".

"-لكنهم قتلوني يا بابا." قالت ذلك بمرح تقريباً، ورفعت يديها بيأس وكأنها تقدم نفسها للقدر القاتل، حتى أنه لم يتماسك فاحتضنها وقبل جبينها العزيز البارد ملسوعاً بالحب والشفقة الأبوية العاجزة، وشاعراً بما هو ضعيف وطفولي ويائس فيها:

"-فيكا، فيكا..."

تكلمت فيكتوريا هامسة: "-لا لزوم يا بابا وإلا سأبكي". ولم تدس رأسها في صدره، بل تنحت من غير أن تتقبل المساعدة، وسارت مسرعة إلى المنزل تحت ضجيج أشجار الحور البحري في البولفار.

*****

الفصل السابع عشر

في العاشرة مساء وبعد رنات طويلة وملحة، وبعد قرع على الباب فرقع فاسيلييف بالقفل ودخل أوليغ يفغينيفيتش كوليتسين المرسم مستعجلاً، فوضع حقيبته تحت المشجب في غرفة الدخول، وشرع يتكلم بانفعال من غير أن يلقي التحية ومشرعاً معطفه الفرائي:

"-لا تعجب يا فاسيلييف فقد تسللت إليك اليوم في زيارة غير ديبلوماسية. شكراً لك أيها الزميل، شكراً على غطرستك أيها المعلم الكبير. شكراً لأنك طردتني من عنقي مثل صبي أمخط بحضور رجل أجنبي. نعم، طردت تحديداً من مرسمك عديمَ موهبة ملحاحاً يحشر نفسه بين صفوة أصدقائك، والسؤال لماذا أهنتني؟ أنا مندفع نحوك من كل قلبي وأنت؟ لماذا؟..."

كان كوليتسين مهتاجاً إلى حد لا يوصف، إذ تكلم مرتجفاً، ونظرت عيناه المثلثتان الحمراوان الكامدتان نظرات مشتتة غاضبة، ولم يشأ فاسيلييف، الذي شعر بالندم على ما أبداه من انفعال يوم وصول إيليا، أن يصعّد أي شيء (ما كانت قواه ستكفيه كي يشرح لكوليتسين شروحاً لا طائل منها)، فتكلم مصالحاً:

"-أولاً، مرحباً. وثانياً... أرجو منك المغفرة إذا كنت قد تصرفت بغباء ما. اخلع معطفك من فضلك يا أوليغ يفغينيفيتش".

"-سأخلعه حتى لو لم تدعني. لكن الأمر مشوق. كل شيء لديك مشوق يا فولوديا...

أدعوك باسمك فتدعوني باسم الأب[1] . هكذا إذن. وكأن واحدنا يعرف الآخر بالطرق الرسمية. ما الذي تؤكده بذلك؟ عدم توافقنا؟ الهاوية بين الموهبة والوسطية".

اعترض فاسيلييف بامتعاض: "-هكذا يتم إبداء الاحترام في روس[2]." وبدا خجلاً من تذكر فظاظته، فسأل: "-هل استقبلت أحداً اليوم؟"

نطق كوليتسين متوتراً، ورمى المعطف على الأريكة: "-أخطأت، لم أستقبل أحداً، ولم أودع أحداً، ولم ألاطف بالمجاملات أحداً، لا أحد. إنني اليوم أنتمي إلى الموظف كوليتسين غير المعروف لك، إلى نفسي فقط... إلى "أناي". من غير السلتيين والهون واليانكي- ولم يكن هناك كوكتيلات أو كؤوس الجن مع التونيك. أنا سعيد اليوم يا فاسيلييف. كان في مرسمي أحد أصحابي القدماء، وقد أريته... شاهدنا أشيائي منذ الصباح. فأريته كل شيء. شعرت بالرغبة في أن أريه أعمالي كلها: كان مفتوناً... ليس حكراً عليكم أنتم العباقرة، ها- ها... ليس حكراً عليكم مجد العالم كله، بل، كما في تلك الأغنية " الصيصان تريد أن تعيش أيضاً". فتكرم، تكرم. " صرخ كوليتسين وأمسك بيده الرطبة يد فاسيلييف وشده بقوة: "-عليك الآن، عليك الآن أن تذهب معي إلى مرسمي، من غير إبطاء، ارتد ثيابك. ما كنت عندي أبداً، ما كنت. أبداً، أبداً. مرة في الحياة، هل يمكنك أن تجبر نفسك مرة في الحياة على أن تضحي بساعتين من أجل رفيق دراستك؟ إنك لم تر في مرسمي شيئاً واحداً من أشيائي. أنا في نظرك شخص من السلك الوظيفي في فننا التشكيلي. فلنذهب يا فولوديا، فلنذهب إلى المرسم".

"- الآن؟.."

وخطا فاسيلييف في المرسم متخيلاً أي عذاب لا إنساني قد يسببه الذهاب ليلاً إلى ماسلوفكا لمشاهدة أعمال مع كوليتسين المفرط في الاهتياج، وسماع إساءاته وتوبيخاته غير المواربة والفظة، والحديث بكلمات ما عن اللون والتشكيل والمديح والنفاق-سيكون هذا قتلاً لا يرحم للوقت وإتلافاً للخلايا العصبية، وعذاباً عبثياً

---

[1] تعتبر مناداة الشخص باسمه واسم أبيه من طرق التعبير عن الاحترام والرسمية في التعامل (المعرب).

[2] الاسم القديم لروسيا. (المعرب).

للذات، وهذا ما لم تكفه الإرادة للموافقة عليه، فقال مسالماً:

"-يا للأسف، أنت مستثار قليلاً. أما أنا ففي صفاء زهدي قبل النوم. سأستيقظ في السادسة يا أوليغ".

تكلم كوليتسين بغيظ، وخطا إلى جانب فاسيلييف في المرسم مشعثاً شعره الطويل الرمادي الأشيب ونافشاً إياه:

"-تشمئز مني؟ لا.. آ، سنذهب، سنذهب إليّ يا فاسيلييف. لن ترفض، لن تأنف مني. لقد جئت إليك من مرسمي مباشرة، أتيت لآخذك، لآخذك. لقد جئت لهذا الغرض".

خلل أعوام كثيرة لم يظهر كوليتسين نفسه أبداً مهتاجاً إلى هذا الحد، مفرطاً فجاءة بمظهره المهيب وابتسامة وجهه البشوش الوقورة، ومشيته الظافرة الراسخة، لم يره فاسيلييف هكذا من قبل، كانت كنزته المحاكة بفظاظة، والتي ارتداها على ما يبدو من أجل العمل، مهترئة الكمين عند المرفق، وملطخة بالألوان ومدسوسة على نحو غير منتظم في سروال الجينز البالي، وركضت عيناه المليئتان بالدم والملتهبتان والمتورمتان على اللوحات المدارة نحو الجدار، فكانتا تصطدمان طوال الوقت بالمنصب المغطى بالقماش، وقد بدا أنه يثير فضوله.

تكلم بصوت متلعثم: "-هل معنى هذا أنك لن تذهب؟ هل معناه أنك لا تبالي؟ " وخرج متمايلاً إلى غرفة الدخول وجلب من هناك حقيبة كبيرة وراح يقرع بها المنضدة بشدة وهو يفتح مستعجلاً أقفالها المطلية بالنيكل: "-حسناً، سنمسح أنفنا. حسناً، اصطدم خطمنا بصخرة التعالي – وها نحن نمسح أنفنا، نمسح أنفنا. إذن تنازل يا فولوديا وانظر إلى هذه على الأقل... الق نظرة على الأقل على هذه الأشياء التافهة. لم أرك أعمالي أبداً، ولم أطلب... نعم، هذه ثلاثة أشياء. إنها عزيزة عليّ، انظر، انظر".

أخرج من الحقيبة بيديه المرتجفتين ثلاثة أعمال زيتية ملفوفة جيداً بخرقة من الفانيلا، كل منها بحجم صفحة دفتر، ثم وضعها بعناية على المنضدة ووقف خلف فاسيلييف، وراح يتنفس بصوت عال خلف كتفه. وصلت رائحة الخمرة الحامضة الجانبية المنفرة إلى فاسيلييف فعبس متفحصاً اللوحات. هتف كوليتسين بمشقة:

"-ماذا؟ ماذا؟ لم تعجبك؟"

وارتجف كوليتسين خلف ظهره وكأنه ينتظر حكماً بالإعدام، وراحت ركبته تصطدم بقائمة المنضدة، فجعل صوت أنفاسه العصبية وحموضة رائحة الخمرة الفائحة منه وملامسة ساقه المرتجفة، التي هزت المنضدة، فاسيلييف يعجب فجاءة من ترقب وتهيب هذا الرجل الناجح في الحياة، والذي لم يكن، يا للأسف، ليأمل بأي شيء في الفن. وعلى الرغم من أن أعمال كوليتسين المبكرة، أيام كان طالباً، ومناظره الطبيعية ولوحات الطبيعة الصامتة لم تكن مستقلة تماماً كما يذكر فاسيلييف إلا أن طراوة الشباب وضوء الشمس برزا فيها، واستلقى فيها ظل أخضر مبرقش ليوم صيفي، وحينئذ قال أحد المعلمين له: "يجب البحث بفظاظة أكبر عن الذات، عن الذات وليس عن عين الانطباعيين في الذات، حينئذ قد يكون ثمة معنى."سرعان ما نسيت هذه الكلمات المشجعة التي صارت معروفة لطلاب السنة كلهم، لكن المعنى كان، فأنهى كوليتسين المعهد بنجاح، ودعوه بعد فترة قصيرة للتدريس، ثم انتخبوه لمناصب اجتماعية مختلفة -هل بحث عن ذاته في هذه الأعوام المثقلة بالمراتب والهموم والعمل في لجنة الأجانب والكوكتيلات والمطارات والاجتماعات؟ نادراً ما شارك في المعارض. من كان المذنب هنا؟

سأله فاسيلييف مستعيناً بجمل مخففة غير موارية ومتعاطفة: "-هل أنت واثق من أن هذا أفضل ما لديك؟ لماذا أريتني هذه الأعمال الثلاثة تحديداً يا أوليغ؟"

"-أرجوك... أريد أن أعرف تقويمك. لكن بصدق، بصدق. ما تفكر به... لقد أخذت رأي صاحبي... ذاك الذي كان عندي. نصحني بأن أريك هذه الأشياء الثلاثة. كان مذهولاً، اعذرني، كان مذهولاً".

كرر فاسيلييف بنغمة غير محددة وهو يتمعن في لوحة رسم فيها بأدق التفاصيل منظراً داخلياً لمرسم مغمور بالشمس: "-كان مذهولاً، ليأخذه الشيطان، كان مذهولاً. منضدة خشبية دائرية في الركن عليها صحن سجائر مملوء بأعقاب مدخنة – ما دمت تريد الصدق يا أوليغ فيا للعنوان الذي اخترته والذي يدير الرأس: صورة ذاتية... لقد سبقت المحدثين بكل المقاييس، تخطيت مفاتنهم العزيزة، ليس لديهم أي مفر. ماذا هنا أيضاً؟ " سأله فاسيلييف ولم يستطع أن يكبت عدم رضاه حين رأى في

اللوحة الثانية زاوية مدفأة روسية مرسومة جيداً، وحبلاً ممدوداً من مسمار إلى مسمار، علقت عليه، متلاصقةً، سراويل داخلية شبيهة بالرايات المسننة وقمصان، وجففت جزمة جلدية مستهلكة مربوطة من عراها: "-لا أفهم مثل هذا الجمال يا أوليغ. السراويل الداخلية مجتمعة مع الجزمة. أهي الواقعية الجديدة الروسية؟ " سأله فاسيلييف بسخرية مقطبة، ثم نقل انتباهه إلى اللوحة الثالثة، وهي منظر طبيعي لحدور نهري، كل عشبة فيه منارة بآخر شعاع غروب متورد في القصب والماء: "-اعذرني، ثمة أمر لا أفهمه جيداً هنا أيضاً. كأن المقصد العبقري بالبساطة. لكن أين الفكرة يا للشيطان؟ لا معنى للمنظر الطبيعي من غير فكرة، ووفاقاً للأسلوب... عتيق، ثمة الكثير من الخصيلات والتفاصيل الجميلة على الحدور، تتجزأ العين كما في صندوق الدنيا. لا، لا أقصد ذلك". قطع فاسيلييف كلامه غاضباً من نفسه: "-لا أقصد هذا يا أوليغ. عموماً، لا تسمع شيئاً ولا تسمع أحداً. " ألاح فاسيلييف بيده وابتعد عن المنضدة متجنباً النظر إلى هذه اللوحات التي تعري كوليتسين: "-كل شيء مجازي في الفن، كل شيء ذاتي في نهاية الأمر، رأيي بلوحاتك لا يجعلها أفضل ولا أسوأ".

فكر فاسيلييف وهو يزداد كدراً: "لا أريد قول الحقيقة، إنني أخدعه، أفرش له قش الكذب وأهين نفسي بالثرثرة الطيبة. وما الذي ستغيره حقيقتي؟ ولماذا يحتاج إليها؟ الطموح؟ الزهو؟ إنه ناجح، واقف بمتانة على قدميه —دكتور وبروفيسور وسكريتير، ويدرّس في المعهد، وأستاذ، ويعلم الطلاب... ويريد أيضاً أن يعرف رأيي؟"

نطق فاسيلييف العابس: "-إليك ما خطر في بالي. لماذا طلبت مني التكلم بصدق مع أن رأيي لا يملك أية أهمية لك؟ أعرف أن الطبيعة ذاتها والحدث ذاته يتقبلهما الناس على نحو مختلف. ربما بهجة الحياة والفن تكمن في المختلف يا أوليغ. لكن لا يعقل أن تمسك بيديك دجاجة وتتخيل أنك أمسكت طائر النور. لا تزعل، لدي شعور بأنك أمسكت بيديك دجاجة، لكنك لم تنتفها هي أيضاً. أطلق ذات الريش هذه يا أوليغ كرمى لله، أطلقها، دعها تتنزه على هواها. " تنهد فاسيلييف بضيق: "-أما أنت فاكتب ما شئت من الكتب عن التشكيلات والتلوين، لكن لا تفسد عيون الطلاب بأناقتك المبتكرة في الفن التشكيلي. فهذا الأجمل من الجمال أسوأ عندهم من

معجنات الحلوى العفنة. الواقعية – شيء لا يرحم..."

قال ذلك وأجهد نفسه كي يتجنب الكلمات الفظة، فيما كان كوليتسين واقفاً أمامه مصالباً يديه على صدره مثل روماني، ورداً رأسه بتحد، وقد زحف اصفرار الموت على وجهه المتجمد وعلى أنفه الذي صار شمعياً، والذي تدبب على نحو مفزع، وبدا أن كوليتسين ينشق الهواء نشقات قسرية كي يقطع نشيجه العميق المتراكم. برق في رأس فاسيلييف: "سيقع الآن"، لكن كوليتسين قفز على الفور مرتداً إلى الوراء كالأعمى وارتمى نحو المنصب وتعبير الألم يكسوه، ونزع القماش بقوة عن اللوحة، عن الصورة المنظفة بعض التنظيف أمس للمخرج شيغلوف، الذي لم يتمكن فاسيلييف منه ولا بأية حال، والذي أتخمه متحمساً بالأحاديث لاذعاً إياه بكلمات الغضب المغلية:

"-أو تظن أن أعمالك هي آخر حدود الفن؟ أنموذج الكمال؟ أو ربما تظن نفسك مشرع الفن المعاصر؟ ربما تظن أنك الوحيد الذي يرى العالم باللون والمسحات؟ لا يا فولودينكا. استطاع ذلك المعلمون العظماء العالميون، الذرا التي لا تطال، وليس أنت، التلة، النتوء مقارناً بهم. كما أن... كما أن أحداً لا يدري بعد من منا الأكثر موهبة. لا أحد يدري. إنني أبصق على رأيك يا فاسيلييف. أبصق على ألوانك الرنانة، وعلى أسلوبك القاسي كله، الذي لا يساوي تفصيلاً واحداً مما لدي. إنني أبصق عليه، أبصق عليه... أيها المجدد الغواطي. إن أياً من أشيائي غير الناجحة أعلى بمقدار رأس من نجاحاتك كلها. لا أطيق أخويتكم ما بعد الحربية كلها، بكل ما فيها من أساليب، قاسية ولينة، لا أطيقها...".

كان كوليتسين يصيح على نحو خصامي منفر من غير رادع، وكان رأسه الكبير الشبيه بلبدة الأسد يهتز في سورة غضبه الحانق، وكان جفناه المتورمان ينقبضان ويتمددان مدحرجين خارجاً الدموع القصديرية الضخمة، وحين أفلتت منه في أثناء صياحه علامات ليست علامات نحيب ولا علامات ضحك هستيري فكر فاسيلييف المذهول أن الناس قد يفقدون عقولهم هكذا في سورات الحسد العاجز، وكان، بعد أن التفت عن كوليتسين شاعراً بالخجل وعدم الارتياح، لا يتمنى الآن شيئاً سوى أمر واحد – لو يرحل هذا الرجل سريعاً من المرسم، سريعاً، سريعاً... "غداً سيتذكر آسفاً

جنونه هذا".

صاح كوليتسين مقهقهاً قهقهة مسرحية جاشت الدموع فيها، وضرب مسعوراً قبضة بقبضة حتى أن صوت عظام تردد: "-عبقري، أنت عبقري. أجبني يا موتسارت العظيم. قل، قل لي، أنا ساليري الوضيع، لماذا، لماذا أنت واثق من أن الله منحك الموهبة، أما أنا فمنحني خازوقاً مطلياً بالزيت؟ أجبني، أجبني –أتعتبرني غير موهوب، وتظن أنني، أنا ساليري الدودة الدنيئة، أحسدك، أنت موتسارت الإلهي؟ أحسدك؟ هل تظن ذلك؟"

تكلم فاسيلييف: "-طلبت مني قول الحقيقة. قلت نصفها وتحولت إلى أحمق، وأنا الآن لا أعجب لذلك. لذلك أرجوك أن لا تصرخ وأن ترحل".

"-يا لك من... هكذا إذن. معنى ذلك أنك تطردني مرة ثانية..."

"-إنني مضطر إلى أن أرجو منك الذهاب".

"-اصمت، اصمت. إذا تفوهت بكلمة أخرى فسأضربك".

وضرب كوليتسين المستشيط قبضة بقبضة من جديد هارساً ما كان يحقد عليه ويعاديه، وأكدت صحراء عينيه المحروقة بالغضب وخداه المبللان بالدموع وهاتان القبضتان المضمومتان بقوة حتى الارتجاف واللتان راحت إحداهما تلكم الأخرى لفاسيلييف ما لم يكن ليصدقه أبداً من قبل- لقد قام بينه وبين كوليتسين وضوح ضروري مدقق للعلاقة بينهما، ومفرّق بينهما نهائياً، لكنه تمتم بلين:

"-أرغب في أن أرجوك مرة أخرى يا أوليغ، ارحل من فضلك".

"-سأرحل، وسأتذكر هذا المساء. سأتذكره مدى الحياة أيها العبقري..."

صدحت فرقعة الباب المنغلق مثل طلقة في الدهليز المسائي، أما فاسيلييف فمشى من ركن إلى ركن مصرفاً بأسنانه ومجعداً جبينه، وراح يتذكر من غير أن يهدأ كيف بكى كوليتسين بغيظ وضرب قبضة بقبضة على نحو هستيري، وكيف صرخ هنا، في المرسم، متلوياً من الجرح الأعمق الذي لا براء منه.

***

تقلب من جنب إلى جنب، وأُنهك جسده كله في هذا الأسى الجليدي، وفي هذا

الخوف القاتل، حتى أنه خاف من أن يصيح بصوت عال ويثب من فراشه ويتصرف تصرفاً مفزعاً وخالياً من الحكمة، ولكي يتحرر من خوف الجسد العصي هذا حاول الإيحاء لنفسه بأن الصباح سيطلع بعد بضع ساعات، وحينئذ سيفارقه ألم الروح الممزق أو سيخف.

"ما هذا الحلم المخيف الذي حلمت به؟"

طارت في البدء حوامتان ضخمتان في السماء، ثم تدلتا كبنائين مستطيلين فوق كنيسة مبنية على شكل طبقات حلقية مثل برج بابل، وقد ارتفعت ذروتها مبتعدة عالياً في السماء القاتمة. أشعلت على كل طبقة شمعة ثخينة، وسار الناس على الطبقات المستديرة، وأنيرت في الحوامتين أيضاً أضواء قرمزية تنذر بالشؤم، وهناك، في السماء وراء هذه الأنوار، كان يُعدُّ أمر عدائي قاتل. لكن في تلك اللحظة طارت نحو الحوامة الأولى من وراء سياج الكنيسة سلسلة خطوط غريبة شبيهة بحجارة متوهجة. انفجر المبنى المستطيل في السماء ونثر لهيباً ممزقاً، وتساقطت الشظايا متشقلبة على الكنيسة وتراكمت الواحدة تلو الأخرى على الصليب هازة على نحو تجديفي القبة الهائلة المدببة.

ركض الناس في الطريق حفاة، بقمصان داخلية رمادية ذات أكمام كبيرة على نحو لا يصدق، متلفتين إلى المعبد الذي بدأ يتأرجح على وشك الانهيار بطبقاته كلها: لذعت الطريق الحجرية المتلظية بالشمس الإفريقية الأقدام على نحو لا يحتمل، وانغرز الشوك في الأعقاب كخطاطيف حديدية.

من كانوا؟ وممن هربوا؟ ومن كان ذلك الذي طار في الأمام من غير أن يمس الأرض بقدميه فوق الطريق الحارة الضاربة إلى الحمرة، المحروقة بالشمس، مليحاً بكميه الطويلين، ومندفعاً بخط منكسر إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى؟ كان، احتكاماً إلى ظهره وقذاله، يشبه إيليا، أما الوجوه فكان التمعن فيها غير ممكن، لكن لم يكن ثمة معنى لذلك لأن أمراً أصدره أحدهم صائحاً استحثهم على الركض: "ورائي، ورائي، إلى البستان".

ظهر سياج إلى يسار الطريق، وامتد وراءه بستان، وفاحت رائحة الغبار الحجري

الجاف. راحوا، والرائحة الخانقة الحادة تضيق على أنفاسهم، يتسلقون الأشجار والأغصانَ الشائكة المغبرة، التي دخلت أشواكها عيونهم وخدشت جلودهم حتى سال الدم منها. أحنت الأغصانَ من حولهم ثمار صفراء غامضة ذات قشرة سميكة قاسية، فصاروا يقطفونها باستعجال جنوني ويدسونها في جيوبهم، ويملأون أعبابهم وقد أضناهم الجوع والمطاردة الطويلة. أما المطاردة فكانت في مكان ما قربهم، في الصحراء المحيطة بهم، وحينئذ صاح إيليا من الشجرة المجاورة مستنداً بقدميه العاريتين على الجذع المتفرع إلى فرعين: "اقضموها هكذا. "كان ينبغي قضم الثمار السميكة مثل التفاح، فتقشرت القشرة مثل درع فولاذي، وذابت الجوزة الضئيلة في الفم. التهمها بنهم على غرار إيليا مهدئاً جوعه، ومتلفتاً طوال الوقت نحو الصحراء الخطرة وراء البستان، وقد راح الهلاك يقترب قادماً منها حتى صار لصيقاً... وهنا رأى ماريا في الأسفل تحت الشجرة. وقفت شابةً، نحيلةً، في خمار أسود غطته طبقة غبار، ولم ترتدِ مثله أبداً كان وجهها شاحباً وانثنى حاجباها خطين قاتمين، وكانت عيناها الرماديتان الغامقتان الضخمتان تتوسلان إليه خرساوين. أما هو فبدأ يرمي لها الثمار إلى الأرض مستعجلاً، وقد أضعفه الحب والرقة، فاهماً أنها تبعته بعناد عبر الصحراء وهي جائعة جوعاً لا يوصف. وفي تلك اللحظة حين ظهرت ماريا تحت الشجرة فهم أنهما سيموتان الآن. لاح على بعد مائة متر تقريباً خلف السياج، وسط الرمل القائظ، شكلان إنسانيان، رجلان، أحدهما شاب في قميص ابيض وعظماه الوجنيان عريضان، والآخر أكبر سناً ويعتمر سدارة رسمية على حافتها مطرقتا سكك حديدية، وبدا وجه الرجل، الذي انكشف وهلة، معروفاً: وجنتاه المنتفختان الحليبيتان، عيناه الأسديتان المثلثتان بين جفونه المتورمة. من هذا؟ كوليتسين؟ معقول؟ لا، لا. لكن كم كان شبيهاً به. حمل هذا الرجل بيده بإحكام حقيبة سفر سوداء، حيث راحت ترن أدوات واخزة وحادة مجهزة لتعذيب الهاربين...

أمسكا بهما فقط (لم يجدا إيليا معهما)، وقاداهما إلى منصة خشبية وسط الصحراء المتنفسة بالحر الناري، نزعاً عنهما الثياب ثم رفعاه مقيداً إلى المنصة، وقد أفردا على الألواح الخشبية الأدوات الحادة المطلية بالنيكل، والتي يجف الدم في العروق لمرآها، لكي يمزقاه، أما ماريا فأبقياها في الأسفل تحت المنصة، وراحا

يعذبانها، فسمع من هناك أنين ألمها، ورأى كيف تقوس عنقها الرقيق على الرمل، وكيف استلقى وجهها ذو العينين المغمضتين، اللتين انهمرت الدموع منهما، وأحس أن قلبه الآن سينفجر لنشيج ماريا هذا. صرخ بهما بصوت أبح، وهو غير قادر على التحرر ومساعدتها، كي يقتلاه ويتركاها... رجاهما، وناداهما عارفاً أن هذا الشيء الوحيد الذي لا زال يستطيع به أن يخفف آلامها.

اقترب منه حينئذ الرجل ذو العينين المثلثتين، وصار، وهو ينظر على نحو زجاجي إلى حدقتيه مباشرة، يدفع بقدمه أقرب فأقرب المنضدة الصغيرة التي أفردت عليها الأدوات المطلية بالنيكل مرتبة وفاقاً لمقاساتها...

"-فولوديا، فولوديا. لماذا تئن هكذا؟"

استفاق وقلبه يدق دقات خانقة، وحين ثاب إلى رشده تماماً نظر طويلاً في الظلام، حيث بصت الستارة على النافذة، معانياً من وحدة وأسى يمزق الروح بعد أن شعر بماريا قربه، وقد مست بكفها جبينه الرطب بوجل حتى أنه كاد يفقد زمام نفسه ويهمس لها وهو لا يزال كله أسير الكابوس الذي لم يفارق وعيه بعد: "ماشا، عزيزتي، لماذا صارت حالنا شاقة هكذا؟ "لكنه قبّل معصمها بوجل أيضاً وقال شيئاً مختلفاً تماماً، عادياً، شجاعاً شجاعة كاذبة:

"-حلمت حلماً متشابكاً. حلماً سخيفاً".

"-لكنك كنت تتقلب وتئن. ألا تشعر بالألم؟ أنت مبلل بالعرق كلك. هل أعطيك الفاليدول؟"

"-لا لزوم يا ماشا".

استدارت عنه بهدوء وسرعان ما غفت. وها هو البستان مرة أخرى والمطاردة والمنصة في الصحراء، وتكرر كل شيء مرة أخرى، وتمثل كل شيء كحقيقة ثاقبة، وكان حقيقياً ذلك الرجل في السدارة الرسمية ذات المطرقتين، الذي عذبهما بحماسة وتلذذ. تقلب فاسيلييف في الفراش، وخار بخفوت في الوسادة، وراح يمسد قلبه على نحو غير مسموع، أما قلبه فكان يدق ويفلت من الاختناق على نحو متقطع. خاف أن يموت فجاءة، وقد أنهضه هذا الخوف من الفراش. قام من غير أن يشعل النور.

محاولاً أن لا يوقظ ماريا، فشرب الماء في المطبخ ثم سار جيئة وذهاباً في الدهليز مصالباً يديه على صدره، وراح يردد هامساً بشفتيه الجافتين:

"-أي أسى، أي أسى".

منعه الفراغ الحاد والضاغط في صدره من أن يجد الاتزان، وبعد أن أزاح الستارة وفتح مصراع النافذة، سامحاً لنفحة باردة بالدخول، راح ينظر باهتمام بليد إلى الشارع الذي صار أشهب بهواء الفجر، وفكر: "نعم، أنا مريض. صرت ألحظ هذا في نفسي أكثر فأكثر...".

ثم ارتدى ثيابه، وبعد أن فرقع بالقفل بحذر هبط إلى الفناء المقفر، الذي لا زال مكبلاً بصقيع ما قبل الصباح.

***

لم يخرج هذا الحلم الهذياني من رأسه طوال ذلك الصباح، وظهر كواقع معيش، وحين بدأ يعمل فرّق نور آذار المشمس على نحو متنافر وضارب ما أراد فاسيلييف أن يوحده على القماش وهشمه. رأى بنظره الداخلي الغبار الحار والصحراء الحمراء المتوهجة وبريق القيظ الحارق ومنصة ما من أجل الإعدام، وفي الأسفل تحتها ماريا الممدودة على الأرض ووجهها المستلقي المبلل بالدموع، أما هو، المقيد على المنصة، فلم يستطع الحراك عاجزاً عجزاً تاماً، حتى أنه لم يقدر على التقاط أنفاسه، ولحظ فاسيلييف، غير القادر على التركيز وقد بلله العرق، لطخات الريشة العصبية على قماش اللوحة.

***

... عمل على هذا المنظر الطبيعي منذ زمن طويل، فقد خط الرسم التحضيري في الخريف في ضواحي بسكوف قرب دير الرجال السابق، الذي لم يبق منه سوى الأنقاض، وكان الاضطراب، كلما عاد إلى هذا العمل غير المكتمل، ينفخ فيه قلقاً من خسارة غير محددة.

كان على قماش اللوحة يوم وداعي ساطع من آخر أيام تشرين الأول، والشمس البيضاء منخفضة، وقد نفذت من بين جذوع البتولا البعيدة، التي بدت سوداء على

المنحدر قبالة الشمس. هب الهواء وعرّى حديقة الدير المهجورة، وتلألأت السماء الزرقاء الصيفية تماماً بالقليل من الغيوم الصيفية فوق ذرا الأشجار الملوحة وفوق الجدار الحجري المهدم والمنار من جانبه. استلقت التفاحة الوحيدة الساقطة على العشب قرب الجدار وهي تكاد لا ترى من خلل الأوراق الملتصقة بها.

نعم، كان وحيداً تماماً في جوار ذلك الدير، وكان يوماً مشمساً جافاً رحباً. ضجت فيه بكثافة متلونة بالذهب بقايا أوراق الأشجار الاسفندان القديمة، وهبت زوبعة قرمزية على دروب البستان التي نما العشب عليها، وكان كل شيء شفافاً، نقياً، وداعياً. لماذا وداعي؟ لماذا لم يكن قادراً بعد الخمسين، وخصوصاً في أيام الخريف الساطعة الجافة الرنانة، على الهرب من الإحساس بأنه سرعان ما سيتعرض لذلك الذي حدث للملايين من الناس الآخرين، السائرين مثله تماماً على مثل هذه الممرات التي نما العشب عليها قرب جدران أخرى، والمتنشقين باستمتاع حزين البرودة التشرينية في حديقة مهملة أخرى تهب الريح فيها، والمنشغلين بالفكرة نفسها حول استحالة الفراق إلى الأبد وحتميته؟ هل فكر بهذا فروبل أو نيستروف؟ لكن قد يكون في وعي هشاشة جمال كل ما في هذا العالم وقصر أمده ولحظته المفرحة خداع الحياة العظيم، وخداع الذات الحلو العظيم، الذي ينزلق فيه بصيص السعادة الدافئ والأمل المنقذ بشيء ما سيحدث بعدنا...

ربما نحن نعي الجمال في لحظة ولادته المقدرة الوجلة (الصباح، الانتقال إلى منتصف النهار، بداية الغسق، نهاية العاصفة الرعدية، الثلج الأول) وقبل اختفائه الحتمي وذبوله وعلى مشارف النهاية والبداية، وعلى حافة الهاوية؟

ليس ثمة ما هو أقصر أجلاً من الجمال، لكن كم هو مرعب على نحو لا يحتمل أن تولد مع كل ظهور للرائع نهايته، موته،النهار يموت في المساء، الشباب في الشيخوخة، الحب في البرود واللا مبالاة، وما لحظة الجمال الملتقطة، التي فيها جنين القضاء المحتوم غير المرئي، إلا كذب حلو، وهو مع رفض الأجل القصير على الأرض والإيمان بالاستمرارية والصحة والخلود سذاجة عظيمة تسم الحياة البشرية كلها. نعم، خداع ذات رائع وعظيم...

إذن – في الولادة الوداع، وبالعكس؟

وضع فاسيلييف الريشة على المنضدة، ومسح يديه، وشرع يرفع عن الرفوف بتباطؤ ساهم المناظر الطبيعية التي رسمها العام الماضي، ويسندها على الجدار.

غسق شتوي مبكر، أشجار بتولا بنفسجية في هواء القرية المسائي، ركن منزل قروي سدت نوافذه بألواح متصالبة، آخر شعاع قرمزي على حدور الكثيب الثلجي الذي طمر المدخل، وهدوء الخلق الأول الممتد فراسخ عديدة، الممزوج كما يتخيل المرء بنباح كلاب بعيد، والنجمة الوحيدة الأولى. نافذة شرفة واسعة، مفتوحة في يوم حار أخضر، انقضت العاصفة الرعدية، كل شيء ريان، فرح، مغسول:

العشب غير المقصوص وأشجار التفاح وقد أثقلتها الرطوبة وراحت تلمع تحت مروحة الأشعة القادمة من خلف الغيوم المبتعدة، خطوط الماء المرح تتدفق من البرميل الفائض حيث سبحت التفاحات الساقطة بفعل المطر الغزير، عمت الطراوة الرطبة الحديقة كلها، وبدا وكأن الهطل الصيفي لا يزال يطن في الآذان، يسقط على سطح الشرفة بدوي أصم مهشم (أية متعة وأي شعور حزين أن يرسم لحظة فرح فتي من الصيف سرعان ما اختفت). آب، ذرا الحور الرجراج تلمع بلون ذهبي في الهواء الهادئ والدافئ قبل الغروب، السكون الهانئ في كل مكان، وداع صاغر لليوم مع الحر، روائح الأعشاب والأوراق المحماة، ثبات كل شيء بانتظار الغروب والغسق وتحول الحياة الجديد (كم أراد أن يلتقط حال الانتقال القابضة هذه). سماء الشمال المسائية المنظفة بالهواء، مياه الخريف الكالحة حتى الأفق وقاربان عتيقان جنباً إلى جنب عند الشاطئ، مربوطان بإحكام بسلسلة صدئة مثل اثنين لا يفترقان في العالم كله، يربطهما الحب والزمن والخوف والواجبات مثل وحدتين مرتبطتين... (كم كل شيء محزن، محزن). نيسان، قمر ليموني في غابة بتولا عارية، ينير سواد الأرض، جزر الثلج المتبقية، أوراق الأشجار الساقطة العام الماضي. ومرة أخرى كَمَنَ في هذا كله القلق من الوداع السريع والوحدة ومتعة الفقدان وترقب الصلب، المديد، المشمس، الذي لم يصادفه مرة واحدة في حياته...

"لم يكن هذا بعد الحرب أبداً... ومع ذلك كان... لكن بم هو مرتبط؟ بالطفولة؟ بالحرب؟ بماريا؟".

سقط فاسيلييف في الأريكة التي رنت نوابضها، وبدأ، وهو ينظر إلى اللوحات،

يمسد صدغيه متبعاً نصيحة قرأها في مكان ما لينشط نفسه أملاً في أن يفارقه ثقل رأسه وتتحسن حاله. انسال اليوم الصافي من شهر آذار بنوره عبر نافذة المرسم بكرم ربيعي، وفاحت من الهواء المنساب عبر المصراع، لسبب ما، رائحة التفاح الناضج الفتية مذكرة بالاضطراب اللطيف الناجم عن الإنهاك، وبالذنب المستمر...

"بم أنا مذنب؟ أنا مرهق جداً، متعب تعباً لا يوصف..."

مسد صدغيه، لكن الألم لم يفارقه، وصار وهن الدوار يزحف تدريجاً إلى يديه وبطنه وكأنه ناجم عن جوع شديد أو هزال، ثم تصبب العرق من ظهره وصدره، ورغب في الاضطجاع والاستراحة على المقعد، وفي أن لا يفكر بأي شيء مستلقياً على ظهره في حال من عدم التركيز المريح، كأنه يسبح في الهواء ملفوفاً بضباب مخملي خفيف، حيث لا يوجد تأنيب ضمير ولا شعور بالذنب أو الشفقة ولا بألم الروح الذي يضنيه ساعات طوال.

لحظ هذه الحال العصبية المعقدة منذ عام ونصف العام، حين غفا في الأريكة قرب المنصب في مساء يوم من آب، وقد أرهقه جداً العمل على ثلاثية لوحات، ثم أيقظته رنات الهاتف الحادة، التي أجبرته على أن يثب والدم يضرب رأسه.

كان المرسم الغارق في الدخان البنفسجي المغبر للغروب المنطفئ نصف معتم، فتلون قماش اللوحة المستطيل على نحو مضلع ومشوؤم بألوان دموية. أما الهاتف فرن على الخزانة الصغيرة متشنجاً ومنادياً، حتى أن فاسيلييف انتزع السماعة بغضب وظل مدة طويلة لا يدرك من المتصل به. لفظ صوت شائخ أو أضعفته المسافة جملاً غامضة لم يفهم فاسيلييف معناها التام، وكان في مقدوره أن يحزر فقط أن رساماً ما، أحد المعجبين به من الشرق الأقصى (هكذا قال: "من الشرق الأقصى"- من غير أن يسمي المدينة) هو المتصل، وسينطلق غداً إلى موسكو كي يزور مرسمه... أي رسام؟ أي معجب؟ ولماذا من الشرق الأقصى؟ في اللحظة الأولى لم يفهم شيئاً، وكان غاضباً ومنزعجاً لأن الهاتف انتزعه على نحو مفاجئ من نومه الهادئ، لكنه في الدقيقة التالية شعر بهواء صقيعي يهب على لوحي كتفيه: من الذي اتصل به؟ فهو قد سمع مئات المرات هذا الصوت الأصم بعض الشيء والضعيف والمرتج أحياناً كصوت الطيور. لا، من كان هذا، من؟

وهرع فاسيلييف من جديد إلى الهاتف مدفوعاً بقلق لا يقهر، وشرع يستعلم من استعلامات المخابرات بين المدن عمن اتصل به للتو ومن أية مدينة (لم تُستثنَ المشاكسة أيضاً هنا)، لكن عاملات المقسم لم تستطعن الإجابة بما يفيد ومعرفة المتصل ومن أين-وحينئذ، وهو جالس وحيداً في ظلمة المرسم المحفحفة من غير أن يجهد ذاكرته تقريباً، تذكر صاحب هذا الصوت. بدت الموافقة على ما فكر في تلك اللحظة أمراً مريعاً ووحشياً، لكن الصوت الشائخ الأصم أحياناً والضعيف والمرتجف كصوت الطيور أحياناً أخرى كان صوت المرحوم أبيه المتوفى منذ عشرة أعوام. فهم فاسيلييف أن هذا مستحيل تماماً، وأنه بداية الجنون ببساطة، وأنه في الوقت نفسه لم يكن خداع سمع ولا هلوسة- لقد فهم بوضوح شديد الصوت في السماعة وخصوصية نبرة أبيه.

"ألا أكون قد حلمت بهذا كله؟.."

تصاعد هذا الإحساس بما هو مناف للطبيعة بعد أسبوع: لم يعرج أحد من الشرق الأقصى على المرسم ولم يتصل أحد من القادمين إلى موسكو، فصار يعتبر الآن ذلك الاتصال غير المنتظر في مساء من أماسي آب إشارة تحذير في المنام أو علامة تذكير مبهمة ما بذنبه السابق تجاه أبيه. عاش أبوه في مكان ما غير بعيد جداً عن موسكو (ليلة واحدة بالقطار) على ضفاف بحيرة بسكوف في قرية صيادين، انتقل إليها من موسكو بعد تقاعده. كان فاسيليف منذ قرابة الخمس عشرة سنة يزوره كثيراً، فكان يعمل هناك في الطبيعة منذ الربيع وحتى وقت متأخر من الخريف راسماً كل ما استطاع رسمه، وهنا فقط فهم لماذا رحل أبوه المريض بالربو عن موسكو واشترى منزلاً في الهواء النظيف. كانت الرحابة هنا والشمس والهدوء وزرقة السماء العالية بهضاب الغيوم المجعدة، المنقلبة نحو مرآة البحيرة الرقيقة، هنا، خلف الجزء الضحل، راحت قوارب الصيد المقطرنة تتأرجح منسابة وترن سلاسل مراسيها في حر الظهيرة بخفة، والنوارس تصرخ زاعقة في ما ندروهي تحط على الزوارق التي صارت بيضاء من روثها، وهب الهواء الدافئ بلطف على الرمل الأبيض بين الصخور الحمراء محركاً شجيرات راعي الحمام المحماة، وقد طنت فوقها بشدة نحلات كبيرة مخططة، وفاحت رائحة الأعشاب المائية ورطوبة القاع من الشباك المنشورة على الأسيجة،

وسار الحمام على المرسى الخشبي، واستلقت البقرات وهي تمضغ بكسل وقد أضناها القيظ على اللسان الرملي أو خاضت حتى ركبها في الماء مليحة بأذيالها، ونظرت بغير معنى إلى المراكب القديمة الصدئة الغارقة حتى منتصفها، حيث جلس صبية ملوحون حفاة ممسكين صناراتهم. أما الغروب فكان عنيفاً لا ضابط له، غامضاً، لا ينطفئ طويلاً في السماء والبحيرة، وكانت الليالي عميقة مليئة بالنجوم وكأنها تستوعب في ذاتها خوف المعمورة المترامية...

تذكر كيف كان أبوه في تلك السنوات يتوقف أحياناً خلف ظهره في ساعات العمل في الطبيعة، متسمراً من الاعتزاز والإعجاب بابنه، الذي استطاع بفضل الجهد والموهبة أن يصير من صفوة الناس ويحرز النجاح والشهرة، وكان يخاف من أن يتزحزح فيعطله عن غير قصد عن عمله بتنفسه الربوي وبسعاله المغرغر. لكن فاسيلييف كان ينزعج من وجود والده الممل خلف ظهره ومن الإعجاب البالغ في عينيه الذابلتين وهو يتحسس بنظرة لطيفة الرسوم التحضيرية واللوحات الجاهزة الموضوعة على الشرفة كي تجف ألوانها. "موهبتك فائقة يا فولوديا. احرص عليها. لقد أكرمتك الطبيعة. "وكان يشعر بالحرج حين يضطرب أبوه ويحمّر ببقع تصلبية ويتأتئ خجلاً ويتأوه لمرأى النقود التي كان يعطيها له فاسيلييف لتغطية نفقاته. كان أبوه يتمتم دائماً الجمل ذاتها مخفياً عينيه، وهي أنه لا يحتاج الآن إلى أية نقود، فمعاشه التقاعدي يكفيه. أما فاسيلييف فكان يخيل له أن أباه يخادع ويتملق، وكان يشعر بالارتباك لمرأى وجهه الوردي المهتاج وإيماءاته ويديه وهما تخفيان الأوراق المالية في جيبه.

وأذهله اكتشافه بعد موت أبيه أن النقود كلها التي أعطاه إياها والتي حولها له كل شهر بقيت غير ممسوسة وغير منفقة، وقد أوصى بها كتابياً لابنه مع المنزل والأمتعة وعشرات القمصان الجديدة في أكياس النايلون غير المفتوحة، التي لم يرتدها، والتي أهداها له فاسيلييف في مناسبات مختلفة.

لكن الأمرّ من ذلك كله أن أباه قبل عام من مماته راح يسأله في رسائله بتأدب شديد إن كان مناسباً أن يأتي إلى موسكو يوماً واحداً ليشاهد اللوحات الجديدة ويرى حفيدته – ألن تستاء ماريا من اقتحامه العجائزي؟ قرأ فاسيلييف تلك الرسائل

قراءة سطحية ورماها في كومة الرسائل الأخرى والدعوات والاتفاقات والأوراق، وكان في أحيان غير كثيرة يرد عليها بسطرين ساعياً إلى أن يفصِّل كل شيء، ويكتب أن مجيء أبيه ضروري لزاماً حين يفرغ من أعماله التي لا تقبل التأجيل، وكان أبوه عادة يعتذر بتذلل في الرسالة التالية ("إنني أفهم انشغالك يا بني. اعذر أباك الملحاح")، لكنه وبعد مضي القليل من الوقت يشرع يسأل من جديد متردداً إن كان في مقدوره أن يأتي إلى المرسم يوماً واحداً "لأنظر إلى اللوحات وإلى حفيدتي، ثم أركب القطار في الصباح- وإلى المنزل".

وهكذا لم يخصص ذلك الوقت من أجل أبيه على الرغم من أنه أهدر في تلك الفترة أياماً وأمسيات كاملة على مختلف أنواع الجلسات والثرثرة "المثقفة" الفارغة واللقاءات غير المجدية في النادي. لم يجرؤ أبوه، المعجب به الهياب، على القدوم لتمضية يوم واحد من غير دعوة، خوفاً من أن يعطل ابنه عن عمله المقدس. أما فاسيلييف فسرعان ما اضطر إلى السفر من أجل دفن أبيه، معانياً فجاءة من فراغ وتأنيب ضمير هائلين حتى أنه قضى الليل كله واقفاً عند نافذة العربة وهو يكاد يختنق من استذكار رسائله الأخيرة وحدها...

وحين رأى فاسيلييف في النعش وجه أبيه الهامد، الذي صار فتياً حتى لم يعد معروفاً، وفمه الكئيب الثابت بنصف ابتسامة رضى مع التعبير المتكبر عن السكون الغيبي، أذهله كيف يبدل الموت الملامح الحية بغطرسة لا ترحم، واضعاً عوضاً عنها دمغة سر التنائي الأبدية، لكن ما الذي كان في الثنايا المرة لشفتيه المضغوطتين على نحو غير معهود؟ أهي معرفة ما لم يكن الأحياء وهذا العالم المبهرج كله يعرفونه؟ كم أشفق بمرارة وعن دراية بكل شيء على الباقين على الأرض... ربما لم يعد يحتاج ببساطة إلى أي شيء، لا إلى مجد ابنه ولا إلى القدوم إلى المرسم ولا إلى الزيارة القصيرة لحفيدته. ومس فاسيلييف مودعاً يد أبيه المتحجرة (آمن أن عليه أن يلمس المرحوم فيحل الارتياح)، لكن هذا لم يساعده لا ذلك اليوم ولا بعدئذ. كان في مقدوره أن يقنع نفسه بأن الأحياء مذنبون دوماً بحق الموتى، وأن الكثيرين في عصر الإجهادات العصبية تنقصهم خطوة واحدة فقط على الطريق نحو الخير، لذلك خفّت على الأرض روابط القربى والفهم المتبادل بين الأقرباء. أثارت محاولته التبريرية المنطقية

هذه في نفسه الشعور بالخجل، ولم يستطع أن يسامح نفسه على جفافه. ("ليأخذني الشيطان. أستقبل الأجانب وأريهم اللوحات ساعات طوالاً، وأكون صبوراً ولطيفاً، وأجيب عن أية سخافة منافية للعقل. أما من أجل والدي فلم أجد وقتاً".) وكان لا يغتفر في أيام سفره إلى أبيه، إلى بحيرة بسكوف، انزعاجه من فضوله الذي لا يشبع أبداً تجاه عمل "ابنه الشهير"، ومن عشقه الخانع تقريباً ومن سعاله المكبوت بصعوبة حين كان يراقب ولادة اللوحة من وراء ظهر فاسيلييف ("لماذا كان يحبس أنفاسه وهو يراقب يديَّ؟"). كان فاسيلييف العابس يلتفت ليلتقي نظره بعينيه الشائختين الهامدتين الزرقاوين النيليتين، اللتين تقولان له: "سامحني، سامحني. "ثم يبتسم أبوه مختنقاً بسعاله خلل الدموع المنهمرة وكأنه كان مذنباً لأنه لا يزال يعيش في الدنيا.

وحفظ فاسيلييف ابتسامة الاعتذار الأليم هذه إلى الأبد.

"هل من المعقول أنني لم أصر على الرغم مني قريباً من أقرب الناس لي؟ لقد خلقني والدي أما أنا فبادلته الانزعاج الصامت من أناني مشغول بنفسه".

صدمه ذلك الاتصال المسائي الغريب من الشرق الأقصى، وذلك الصوت الضعيف المرتجف كصوت الطيور بالحد المسموم للذنب القديم، ويبدو أنه شعر حينئذ بأعراض مرضه الأولى.

***

شق رنين الهاتف هدوء المرسم، بيد أن فاسيلييف ظل جالساً كالسابق قبالة اللوحات المصفوفة عند الجدار ماسحاً العرق عن جبينه وشاعراً بالارتجاف والوهن في بطنه. لكنه الآن لم يعد يرى هذه المناظر الطبيعية المتشابهة بعدم اكتمال مقولتها المرهق، وراح ينصت متعجباً إلى شبكة الألم الطنانة من غير انقطاع في داخله. فهم أن هذا ليس ألماً جسمانياً، وإنما أعصاب منهكة إلى أبعد حد، وأن الحزن الأصم والشفقة على فيكتوريا وماريا والمرحوم أبيه يعصرانه ويضغطانه ويضنيانه وكأنه، هو فاسيلييف، قد خانهم بقسوة. جرب ذهن فاسيلييف أن يبرهن على أن لا شيء أكثر عقماً من تعذيب الذات، وأن تعبه الشديد وبداية إرهاقه العصبي هما نتيجة عمله

سنوات طوال من غير راحة: "أنت موهوب وناجح ووضعك المادي جيد، ومتزوج من المرأة التي تحب، هل من المعقول أنك لم تصل إلى حال الرضى السعيد؟ ما الذي تحتاج إليه أيضاً؟ لن تفلت، لن تفلت.." - واندفع فيه هذا الصوت اللجوج مصحوباً بشيء ما، وتعقبه بإلحاح في الساعات الطوال حين كان يبقى وحيداً مع نفسه.

فكر فاسيلييف مقاوماً وراغباً في التخلص من ضيقه الكئيب: "لا يمكن أن تكون حياتي كلها ذنباً بحق الآخرين." وها هو من جديد صوت متسلل يرد عليه بهدوء مساعداً أحدهم: "ولم لا أيها السعيد؟.. وقع إيليا في الأسر أما أنت فعدت، أحبته ماشا لكنها صارت زوجك. إيليا مريض مرضاً خطيراً أما أنت فأعصابك فقط. لكنك لن تفلت... الحياة لا تحتمل لوناً واحداً فقط من ألوان النجاح. عليك أن تدفع ثمن كل شيء... عودة الدين القديم أيها المدين للتوازن، يا ضحية ميزان الحياة الذي لا يرحم. كم مضحك وقع كلمة "ضحية". لا، لن تفلت، لن تفلت... أيها المدين للواقع والحقيقة. من يحتاج إلى دينك؟ آه، أي أسى، أي أسى.."

انقطع الهاتف، ثم راح يفرقع من جديد بغضب وبإلحاح متصاعد. رفع فاسيلييف السماعة على الرغم من أنه لم يشك في أن المتصل هو إيليا، ومن أنه لم يكن مستعداً للحديث معه متذكراً كلماته عن فيكتوريا، لكن دموع الفرح المفاجئة أنزلت رده حتى الهمس: "نعم، ساشا.." كان المتصل الرسام لوباتين، صديقه المقرب الوحيد الذي لم يره منذ زمن طويل بعض الشيء: عمل هذا الأخير على الأرجح متجنباً بهرجة العاصمة، ومتخفياً في ملاذه المحبب- إحدى القرى قرب نهر الفولغا.

"-مرحباً يا فلاديمير الراهب. كيف تتنفس؟"

شرع فاسيلييف يتكلم وهو يشرق ويكاد لا يسيطر على نفسه: "-ساشا، عزيزي، تعال فوراً، أرجوك أن تأتي. إنني بأمس الحاجة إليك... تعال الآن حالاً".

ضخم لوباتين صوته ضاحكاً: "-احزر من أين أتكلم معك يا رافائيل العفريت؟ من المطعم الذي يسمى "أراغفي". عرجت لأعرف ماذا بشأن اللحم المشوي، هل تفهم؟ اشتقت إليه في القرية، هل تفهم؟ ثمة مسرح يلهو هنا، سيدات على رؤوسهن ريش وذكور في صنادل يحتفلون بمناسبة ما، إما برتبة أو بالعرض الأول. المكان مليء

بالضجيج والمطعم كله يموج، والندّل مغمى عليهم. الأفضل أن تأتي أنت يا فولودينكا. لم أرك أيها الشيطان منذ قرن. سنتذوق اللحم المشوي. سننظر إلى الشعب...".

توسل إليه فاسيلييف: "-لا أريد أن أرى أحداً غيرك. لا أريد رؤية أحد غيرك. تعال كرمى لله، إنني أنتظرك، أنتظرك بفارغ الصبر..".

ضاع رد لوباتين في هاوية الحفيف الهوائي المفرقع في الهاتف العمومي الذي لا يعمل كما ينبغي، وسبح من الفوضى الصوتية ما يشبه الوعد بالراحة المنتظرة طويلاً:

"-... سآتي يا فولوديا. سأكون بعد ثلاثين دقيقة تقريباً. سآتي على حنطوري".

فكر فاسيلييف وهو يخطو في المرسم من ركن إلى ركن لاوياً أصابعه والأمل يملؤه: "ها هو الخلاص، ها هو... إنه يخلصني دوماً في الأوقات العصيبة. يكفيني أن أراه... وأرى لحيته وعينيه الحكيمتين الخفيفتين حتى تصير حالي أحسن".

***

حين اندفع لوباتين بعد قرابة الأربعين دقيقة بسترته البالية المبطنة بالفرو ومعتمراً قبعته الشعثاء الكبيرة المجلوبة أغلب الظن من سيبيريا، من تونغوسك السفلى، وحين نظر بلطف بعينيه بنفسجيتي اللون من تحت حاجبيه المشعثين، اللذين غزاهما الشيب، قائلاً: "مرحباً، مرحباً أيها الأكاديمي، يا لص الريشات، فليأخذك العفريت. " ارتمى فاسيلييف نحوه مضطرباً وفرحا بهيئته غير المدنية وصوته الرخيم الكثيف المشدد على الحرف "O" وقبّل مرتين لحيته التي بدا وكأن رائحة مواقد ضفاف الفولغا تفوح منها، وتكلم متأثراً:

"-شكراً يا ساشا، شكراً. لا تتخيل كم أنا سعيد لأنك أتيت...".

وسمع فجاءة كيف أسكتت صوته الدموع المارقة المنفرة بظهورها اللا رجولي، الذي كان يشمئز من الإحساس به لدى الآخرين، وأخافه أنه لم يستطع تمالك نفسه.

تكلم لوباتين مشدداً على الحرف "O" وهو يخلع سترته متظاهراً بأنه لم يلحظ اهتياج فاسيلييف الزائد، ثم أطلق يده في لحيته متأملاً برضا مرح المناظر الطبيعية المعروضة واحدها تلو الآخر على الجدار: "-وفقت جداً، جداً في يوم الافتتاح. اسمع أيها العفريت... أية فكيرة مدهشة في هذا الشيء ذي النافذة المفتوحة في البستان. لم

أرها، هل تفهم؟ من قبل. يا للسعادة والحزن قبل برودة الخريف. يا للصفاء في تدفقات الضوء، ويا للألوان العميقة المشبعة. يا لك من بهيمة، هل تفهم؟ هذا وداع الطفولة، أو عموماً وداع العيش على الأرض بسعادة الطفولة." كان يتكلم ويقترب ثم يبتعد عن المناظر الطبيعية ويهمهم في لحيته مهموماً وبصوت عال: "-جيد يا فولوديا أنك تعمل وتعمل. فيك من الموهبة أكثر مما فيك من الغرور، وفي أُخوَّتنا من هذا ما يكفي: البروز وليس الوجود. نحن، هل تفهم، مهرة في إطلاق الفقاعات الصابونية. لا، لقد قلت منذ زمن طويل إن فنك التشكيلي يفتتح عهداً جديداً. في رسم المنظر الطبيعي خصوصاً، نظرة الإنسان المعاصر إلى الطبيعة من حوله: الجمال يموت، إنه يرحل، والإنسان والحياة يموتان معه. ليس حناناً بل حزن وقلق يساوي يأس القرن... أنت ساحر اللون يا فولوديا. في هذا سعادتك وتعاستك. تعاستك لأنك تولد الكثيرين من الحاسدين".

نطق فاسيلييف وهو لا يزال يخطو في المرسم ويدلك أصابعه بعصبية حتى راحت تفرقع:

"-امدح، امدح يا ساشا. أعرف أنك تحبني. تحدث أيضاً عن الحدة أو لين الصورة القلقة، وعن خفقان الهواء والألوان الملتهبة، وعن الشيطان في الجرن، الذي يثرثر عنه المعلم كوليتسين، لِمَ تتحدث عن هذه الحماقات المختلقة كلها يا ساشاي الحكيم والذكي؟ أستطيع أن أفسر إعجابك فقط بأن أحدنا لم ير الآخر منذ زمن. لا لزوم لهذا كله. لا، لا تعتبر هذا من قبيل التواضع، أعرف منذ وقت بعيد أن التواضع في الفن هو راية الخبثاء، لكن..." رمى فاسيلييف رأسه باتجاه المناظر الطبيعية: "-ليست ذات شأن مقارنة... بما اشعر. يا للأسف، أستطيع أن أنقل إلى القماش الثلث فقط...لكن الأمر ليس هنا، الأمر ليس هنا... عزيزي ساشا. أنا سعيد، لقد اشتقت إليك، لم أتحدث معك أبدية كاملة، أين التقينا معاً آخر مرة؟ على المريخ؟ على الزهرة؟ اجلس هنا كي أستطيع رؤيتك. ماذا ستشرب؟ ما بك تنظر إليّ متردداً هكذا؟"

اعترض لوباتين وهو يشعث لحيته، وارتد عن المناظر: "-أقود الحنطور، هل تفهم. سأقول لك، مرة كاد مفتش اسمه سيروتكين أن ينتزع رخصة القيادة مني، وقد أجبرني قبل ذلك على أن أتنفس في سحنته بغض النظر عن أنني كث الشعر، ومع أن

المغامرة مرة ثانية أمر مسل إلا أنها لا تحمل أي معنى من وجهة نظر التعقل. والوقار. آ؟ انتظر، ما هذه الحمية كلها؟ لا أفهم أي شيء. ما هذه النفايات التي تراكمت لديك؟"

ونظر لوباتين شاحباً إلى الزجاجات التي أخرجها فاسيلييف من الخزانة، وراح يتفحص بتعنت الميداليات على لصاقاتها الملونة الفاخرة، ويديرها ذات اليمين وذات اليسار بشيء من ريبة الخبير، ثم نطق أخيراً بعقلانية:

"-رائع جداً أن تحتسي الويسكي في مكان ما في أفريقيا، في ظل شجرة بوباب. الجن جيد لتدفئة جوف المزارع الذي أصابته خريفاً بالبرد الشديد رياح الألبيون النافذة حتى العظام. التشينزانو شهوة أليات الأغنام المعاصرين في سراويل الجينز، الحالمين بالسفر إلى الخارج الفاخر، لكن هذا وذاك والثالث محمول حين تحط الرحال في بار مريح ما في فندق وراء البحار. وفي روسيا – ماذا؟- في روسيا لا بديل عن الفودكا. لكنني مضطر يا فولوديا إلى أن أقول: لينجنا يسوع. كان المفتش سيروتكين ملاكي الحارس الصدوق، إذ كنت في حال من الكيف الشديد. بمن سألتقي هذه المرة؟ أقترح خطة مضادة: أن نندفع هاربين من موسكو إلى الضواحي على طريق ستاروكالوجسك. فنلقي نظرة على خطوط كفاف القرى..."

هتف فاسيلييف، وقد توقف وسط المرسم، وكأنه تذكر الأهم والضروري الذي لم يُقلْ بعد للوباتين: "-لا، لا. لن نذهب إلى أي مكان يا ساشا. عليّ أن أتحدث معك يا ساشا. إنني بأشد الحاجة إليك.. فلتقف سيارتك. ستذهب بها غداً. سأقلك بسيارة أجرة متى شئت وإلى أين شئت. اجلس، اجلس، اجلس. "-أجلس لوباتين القلق بعض الشيء في الأريكة، وتلكأ عند النافذة ناظراً إلى السماء الربيعية المزرقة فوق الأسطح: "-أي سرعة، أي سرعة في هذا الربيع". تكلم من غير أن يلتفت إلى لوباتين، وسأله من غير أي تسلسل: "-أين كنت يا ساشا؟ في قريتك؟ هل رسمت شيئاً؟"

نظر لوباتين إلى فاسيلييف بعينيه الفاتحتين المخمنتين وأجاب: "-أقمت أسبوعاً على بحر آزوف. لم أرسم شيئاً. الفراغ وراء الظهر. هل صحتك جيدة يا فولوديا؟ هيئتك شاحبة نوعاً ما. ألم تجهد نفسك بالعمل؟"

"-اعـذرني على ضـيافتي الخرقـاء. وأدعـي بـأنني أستضـيف صـديقي. أخرجـت الزجاجات، أنا المغفل، والسؤال لماذا؟ أمن أجل حفل الافتتاح؟ هل قلت الفودكا؟ نعم، الفودكا، موافق. الفودكا تحديداً. وكل ما تبقى هو واجهة تافهة للهواة. الفودكا، الفودكا. ما هذه الأقداح – أهي لسقي عصافير الدوري؟"

انتفض فاسيلييف واقترب بخطوات سريعة جداً من المنضدة، وصب من غير أن يجلس، الفودكا في قدحين راشاً بعض القطرات على المنضدة، وقرع كأسه بكأس لوباتين باستعجال وعبها بحدة كما يفعل الناس غير المطلعين جداً على هذا الطقس، وتكلم ملذوعاً وغاصاً:

"-وكيف، كيف الحال عند بحر آزوف؟ لماذا ذهبت إلى هناك؟"

ارتشف لوباتين الفودكا من القدح على غير استعجال وقال: "-تبادلت والمسؤولين المحليين أقذع الشتائم، ولم أجلب معي منظراً طبيعياً واحداً. وصلت إلى البحر، وهنا حكوا لي أمراً فظيعاً..سمموا البعوض العام الماضي بالكيمياء في مراكد الماء فجرف تيار الفولغا، هل تفهم، إلى آزوف هذه النفايات الكيماوية كلها، لو أستطيع سكبها على رؤوس أولئك الحمقى، تخيل البحر كله أبيض صباحاً، وكأنه مغطى بطوافات بيضاء هائلة- آلاف أسماك الشبوط الميتة وقد طفا بطنها إلى الأعلى. جنون، هل تفهم، مناف للعقل. حماقة من الدرجة الأولى، غباء كوني، هبل – وليس غير ذلك. يقطعون اليد كي ينظفوا الأظافر. وليأتي من بعدنا الطوفان. لا يريدون أن يفكروا برؤوسهم ماذا سيحدث غداً، بالمقابل لا يوجد بعوض. البعوض غير موجود والطيور أيضاً غير موجودة، الطيور غير موجودة والأساريع في البساتين والجنائن تلتهم كل شيء. مقابل ذلك البعوض لا يلسع أحداً. ما رأيك، آ؟ مذهل، سقارطة، مفكرون، ليأخذهم الشيطان..."

قال فاسيلييف وهو يواصل السير في المرسم بتوتر لا يفارقه، فالفودكا لم تساعده على الاسترخاء:

"-كم هذا محزن يا ساشا، كم هذا محزن. أردت أن أطلب نصيحتك." قال ذلك ولم تكفه الأنفاس: "- يبدو أنني مريض مرضاً جدياً. حدث لي شيء يا ساشا... لا أعرف

ماذا، لكنني لا أستطيع أن أجد لنفسي مكاناً يا عزيزي ساشا. لو تدري كم أعاني هذه الأيام. أشعر بالألم هنا. مثل ألم الأسنان." عبس فاسيلييف قليلاً وأشار وهو يستنشق الهواء إلى صدره: "-أحياناً أرغب في البكاء مثل صبي، لكنني لا أستطيع. لا أحسن ذلك. لو تدري يا صديقي العزيز أي أسى، أي أسى عضال لا ينتهي. ولا أستطيع أن أفعل لنفسي شيئاً..".

استفسر لوباتين قلقاً، ونظر إلى فاسيلييف رافعاً حاجبيه الكثيفين: "-ما هذا الذي يحدث حقاً؟ أين السبب؟ رجل صحيح، يتلاعب بالأثقال كل صباح ويستنشق في الطبيعة الحية الهواء النظيف." تكلم بصوت غليظ متذمراً، وبدأ يتململ بجسمه الكبير في الأريكة: "-أنت موهبة اللون، يمكن القول، ساحر الألوان، وعليك أن تفرح كل ثانية بما وهبت، لكنك... يا للخجل والعار، ليأخذك العفريت. من يخدم الفنُ – الله أم الشيطانَ؟"

كرر فاسيلييف، ودس يديه في جيبيه وكأنه شعر بالبرد: "-نعم، نعم. هكذا تحديداً هكذا تحديداً... من يخدم الفن؟ من؟ هل تظن أن أحداً ما يحتاج الآن كثيراً إلى الفن التشكيلي؟ هل يحتاج إليه غريب أطوار واحد من مائة ألف أو خمسمائة ألف؟ آ-آ، هذا سيان، إنه عاجز، لا يمارس تأثيراً على أحد، إنه لا يستطيع أن يغير، أن يصحح شيئاً... هل تلحظ أن الإنسان صار أسوأ وأكثر شراً، وأقل رحمة مما كان عليه قبل عشرين أو ثلاثين عاماً، وأننا فقدنا شيئاً ما هاماً؟ بم الناس جديرون – بالكراهية، بالعلاج، بالعقوبة؟... من هم الناس؟ تيجان الخلق أم قياصرة الكون أم خلايا سرطانية على جسم الأرض؟ لا أعرف ما العمل، وكيف العيش لاحقاً يا ساشا. هل تفهم، كيف العيش... وهل كان ثمة معنى في كيف عشت سابقاً؟ لا، ليس هذا ما أردت قوله لك. اكتسب كل شيء المعنى الذي لا يحمل أي معنى. تمر لحظات يا ساشا أشعر فيها بالكره تجاه الإنسانية كلها، وعلى الفور أحس بالذنب... كأنني المذنب في كل شيء. لا أعرف ما بي يا صديقي..."

لم يحرك لوباتين قسمة واحدة من قسمات وجهه الفظ الملفوح بالهواء، وراح ينقب بأصابعه المتينة في لحيته، وسأله بنبرة منخفضة:

"-ماذا حدث لك يا فولوديا؟"

"-لك فقط أستطيع أن أقول يا ساشا، لك وحدك... لك فقط."

وظل يذهب ويجيّ في المرسم إلى جانب المناظر الطبيعية المسندة على الحائط، وإلى جانب المنصب المغطى بالخرقة، فيقف أحياناً بحدة قبالة لوباتين المستمع إليه بوجهه العابس، وأحياناً يتلكأ عند النافذة مدلكاً صدره تحت المصراع المفتوح وكأن الهواء ما كان يكفيه. روى له فاسيلييف كل شيء: سر ابنته المرعب المكتشف بعد عامين، وخوف ماريا المستمر مع كل خطوة تخطوها، وقرار سفر فيكتوريا الذي صقعه- وعانى فاسيلييف من جديد من ذلك الحدث البشع الذي لا يمكن تصوره- مثل ذلك الحرْج في الضواحي قرب مجمع البيوت الريفية، وذلك العنبر المهجور الفواح برائحة القش القذر، وحين أتم حديثه واقترب من المنضدة تكلم لوباتين المهتاج والمتصبب عرقاً والحار كله، مشدداً بحزم على الحرف "O" ومسرّعاً الكلمات:

"-غيظنا كله فعل فارغ ومحض أصوات. توقعت كل شيء ما عدا هذا. أوه، الدراجان السافلان. إعدام أمثالهما في الساحات قليل. طيب، تعال نستوضح ما بعد ذلك. من أين أتت هذه الفكرة الحمقاء بخصوص إيطاليا؟ من صديقك السابق؟ هل دعاها إلى السفر؟ ألم تقل لك كيف ولدت هذه الفكرة العبقرية؟"

"-لست واثقاً يا ساشا من أن هذه الفكرة قد نشأت لديه. المشكلة أن فيكتوريا هي التي وجدته في الفندق، وهي نفسها التي رغبت في لقائه".

"-هي نفسها؟"

"-إنها لا تخفي شيئاً".

قال لوباتين بصلابة: "- إليك ما بقي علينا أن نفعله، علينا أن نشرح، أولاً، لصديقك الإيطالي الروسي كي يرمي من رأسه الحماقات الرومانسية ويقنع فيكتوريا بنفسه بأن تحقيق فكرة السفر مستحيل في الوقت الحاضر، خصوصاً وأن أية بلدان أجنبية لا تقود أحداً إلى عالم التوفيق، ولا تنقذ من أي شيء. عموماً، أعرف طبع فيكتوريا، إقناعها ليس سهلاً... لكن من أين ظهر؟ من أين شق الأرض وخرج فجاءة؟ يا للحدث الخيالي. كم سيبقى صديقك المثير للشك في موسكو؟"

"-أظنه سيسافر غداً. نعم، غداً".

"-فلنذهب إليه الآن فوراً. في أي فندق هو؟"

"-الآن؟ إليه؟"

وضع لوباتين القدح ونهض، وراح يرتدي سترته بهيئة الاستعداد للفعل الفوري: "-لا تسأل أسئلة غبية يا فولوديا. الآن تحديداً. ولم لا؟ إنني أسألك. لن نؤجل ما لا لزوم لتأجيله. زد على ذلك أنني أريد رؤية هذه الشخصية الأسطورية، صديق طفولتك. اتصل به".

استحوذت على فاسيلييف همة لوباتين التي لاتكل، والتي لا يعرفها جيداً من تصرفاته الفورية، حتى أنها أثارت فيه الأمل بإمكان إيجاد المخرج العقلاني، وبعد أن طلب رقم فندق إيليا من غير أن يكون واثقاً من أنه سيجده، وحين سمع صوتاً غريباً ينطق بالألمانية على نحو منتظم وبترنم:

"- Ja-ja- ja[1]" طلب يائساً إيليا رامزين إلى الهاتف مرة ثانية، قام الصوت نفسه، الذي رد بالألمانية، بقفزة صوتية مباشرة، وضحك ضحكة صفيحية مقتضبة، ونطق بالروسية:

"-هذا... أنا من يتحدث. فلاديمير؟ ليس فجاءة، لكنني أتعرف صوتك. إنني أنتظرك. عندي، بالمناسبة، ضيوف. لن أقول لك من. سترى حين ستحضر. آديو".

فيما كان فاسيلييف يتحدث في الهاتف، ارتدى لوباتين سترته وبدأ يتأوه بعد أن جذب على قذاله قبعته السيبيرية الشعثاء، وفتح باب الخزانة معبراً عن استيائه، وشرع ينقب فيها، بيد أنه لم يجد ما كان يبحث عنه، وشتم في المرسم كله ممتعضاً:

"-يا للشيطان-ن. الفاليدول، أين الفاليدول؟ احتسيت قدحاً من الفودكا، وستفوح الرائحة في الهواء الطلق كما من برميل. لدى كهنة شرطة المرور حاسة الشم جيدة، وعلينا أن نذهب بحنطوري وإلا فالأمر في منتهى الغباء مثل حلاقة شعر القنفذ. أعطني الفاليدول لأتناوله. يقضي على الرائحة على نحو ممتاز..."

نصحه فاسيلييف في حال من التفكير غير المحدد: "-أليس من الأفضل أن نذهب

---

[1] *نعم، نعم، نعم (بالألمانية).*

بسيارة أجرة؟ كم وجود أولئك الضيوف عنده غير مناسب. لو تدري كم أنا غير راغب في رؤية أحد. هاك، خذ الفاليدول يا ساشا".

قال لوباتين وهو يرمي حبة الفاليدول في فمه: "-انظر إذن إلى الجميع كالشيطان، سننعم بحرية أكبر. غرور الرسامين لا حد له، هذا معروف حتى للدجاجة. لكن أظهر نفسك للجميع على أنك شبع حتى التخمة، لذلك حرر نفسك مبكراً من الانحناءات".

"-لم أنحن مرة واحدة في حياتي يا ساشا".

"-لا تبالغ أيها المسن، لا تبالغ. كل منا أحس غير مرة بمرونة عموده الفقري. فلنذهب يا فولوديا، أعاننا الرب كما قال أجدادنا القرويون".

*****

الفصل الثامن عشر

في بهو الفندق الفسيح جداً والهادئ والخالي من الناس في هذه الساعة، والفواح بنسيم الخزامى الدافئ ورائحة الجلود الاصطناعية المنبعثة من الحقائب الغريبة، عرض البواب ذو العنق السمين ذقنه الممتلئ باللحم باحترام قبالة لحية لوباتين الباسق الموحية (الداخل مثل صاحب المكان من الباب المفتوح)، لكنه قاس بعدئذ فاسيلييف بنظرة قاسمة متمتماً على نحو مستظهر وبخنوع:

"-هل تقصدنا؟ بطاقتك..."

رد فاسيلييف من غير أن يتوقع مثل هذه الممانعة، واشتعل فجاءة، وكان نادراً ما يحدث هذا من قبل: "-أنا؟ هل تسألني؟ أنا قدم إلى السيد رامزين. ماذا تريد تحديداً؟"

غلظ لوباتين صوته بكثافة، وراح يتلاعب بعينينه باستهتار وهو يقدم على المكاشفة مع البواب على نحو لا يخلو من السخرية: "- إنه معي. والأصح أنني معه أيها الرفيق العزيز القاسي والحريص لأن أمامك الأكاديمي في الفن التشكيلي والرسام المشهور فاسيلييف، أما أنا فلست سوى رجل متواضع من رجال الفن. ماذا تريدني أن أضيف؟ جواج[1] السفر، الهوية الشخصية؟ بكل سرور..."

اقترب في هذا الوقت من أعماق البهو ومن غير ضجة شاب وسيم مسرح الشعر على نحو أملس ومستو بفرق مائل، وسألهما بابتسامة لطيفة عمن يبحثان، وحين

[1] خطأ مقصود (المعرب).

عـرف اللقـب عبر إلى مـا وراء المنضـدة القـائمـة التي وضـعـت قربهـا بضـع حقـائـب (راح مسـؤول الاسـتـقبال الفتي والأشـقر والأنيـق يراجـع رزمـة ورقـات خضـراء) فاسـتعرض بسرعة كبيرة نسبياً جدولاً ما على المنضدة، ثم دعاهما باللطف المصطنع ذاته قائلاً:

"-تفضلا. الرقم مئتان وخمسة عشر. يشغله السيد رامزن".

لم يفهم فاسيلييف، وظن أنه أخطأ السمع، مع أن نطق الشاب ذي التسريحة المصقولة كان دقيقاً للغاية: "-كيف قلت- السيد رامزن؟ ليس رامزن بل رامزين على الأرجح؟".

نظر الشاب ببراءة إلى قصبة أنف فاسيلييف وأجاب: "-قلت: السيد رامزن. تفضلا، اعبرا.. يمكنكما الصعود بالمصعد، ويمكنكما على السلم".

تمتم فاسيلييف: "-أمر يثير الفضول".

راحا يصعدان السلم.

قال لوباتين لاهثاً حين بلغا الطبقة الثانية: "-تبين أنه ليس رامزين بل رامزن." وبعد استيضاحات مختصرة من قبل المناوب وراء المنضدة اقتربا على الممر التوتي من باب هائل قبضته نحاسية: "تبين أن الفرق غير كبير: في حرف واحد. رامزين، رامزن . "ين" أو "ن" – تفصيلات على النمط الغربي". أشار لوباتين إلى ذلك على نحو لاذع وقرع الباب.

أثرت هذه المعلومة المكتشفة بالمصادفة – تغيير حرف واحد من اللقب الذي عرفه منذ الطفولة –على فاسيلييف مهيجة إياه، وكأن إيليا قد أخفى بذلك شيئاً ما مخجلاً، مرتبطاً بالماضي، منتقياً لنفسه رمزاً جديداً في العالم أكسبه جوهراً مغايراً وأبعده على نحو منفر، لكن الشعور الأشد تنفيراً انتاب فاسيلييف حين دخلا الغرفة الرحبة ذات المرايا الكبيرة وستائر النوافذ الثقيلة والأثاث القديم الجيد، وكان أول ما وقع عليه نظره المائدة المفروشة وزجاجات الشمبانيا البارزة من الدلاء الفضية المملوءة بقطع الجليد، و –عينا فيكتوريا الهائلتان، الرماديتان الغامقتان، المستعدتان للابتسام وغير المبتسمتين، والمسلطتان بذهول على لوباتين، وإلى جانبها إدوارد أركادييفيتش شيغلوف المنتشي كالعادة، شعراته النادرة المشطة بمهارة حثيثة

على صلعته من الأذن إلى الأذن، وزجاج نظارته الذي ينثر خطوط الشرار السام على الرغم من أن السترة السوداء وربطة العنق- الفراشة السوداء على القميص الأبيض كالثلج قد أضفتا عليه هيئة رسمية لإنسان زائر عائد من حفلة كوكتيل في سفارة، وهيئة إيليا النشطة على نحو مشدد (وكأنه استحم بالماء البارد للتو)، وقد ارتدى بزة رمادية وقميصاً أزرق جعله يبدو شاباً، ووحده وجهه الشاحب والرمادي ذو الدوائر تحت العينين لم يكن قادراً على إخفاء اعتلاله الجسماني الغامض. شد على يد فاسيلييف الباردة شداً غير قوي، ونظر بانتباه رافعاً حاجبيه إلى لوباتين مشيراً بهذا التعبير إلى انه لا يعرفه أو لم يلتق به أو أنه لا يذكر حتى إن كانا قد التقيا من قبل في وقت ما.

قدم فاسيلييف لوباتين رداً على اهتمام إيليا الاستيضاحي: "-لوباتين ألكسندر غيورغييفيتش رسام، غرافيك صديقي. لا يعرف أحدكما الآخر، في مقدورك أن لا تجهد ذاكرتك. درستما في مدرستين مختلفتين، ولم تحاربا معاً." ثم شرع فاسيلييف يتكلم نصف جاد: "-اسمع، كدنا أن لا نعثر عليك. سمعت باهتمام في البهو أن السيد رامزن هو المقيم في الفندق. ظننت أن اللقبين متشابهان لكن تبين أنني مخطئ خطأً ممتعاً، فرامزين ورامزن هما شخص واحد".

ضحك إيليا.

"-آ، نسيت أن أقول لك إنني حملت في حياتي ثلاثة ألقاب: رامزين وزايغل وأخيراً رامزن. زايغل هو لقب المرحومة زوجي، أما رامزن فهو من ابتكاري. هكذا يبدو لقبي غير محدد أكثر من النهاية "ين" التي تدل بدقة أكبر على أصلي الروسي. العيش في الغرب أهدأ حين لا تتميز بأي شيء. ليس لمثل هذا التكتم أية علاقة بجيمس بوند".

وقادهما بلباقة المضياف البشوش إلى المائدة، وأجلسهما بحرية حيث كانت أدوات الطعام النظيفة بين فيكتوريا وشيغلوف، وصب الشمبانيا للجميع مؤكداً على نحو فائق على حفاوته الرجولية، ثم جلس مكانه في آخر المائدة كصاحب للضيافة في أريكة ذات مسند ظهر مستقيم، وملأ كأسه، وطافت عيناه بوجوه الضيوف مضيئتين على نحو مَرضي بسوادهما الحارق.

تكلم إيليا ممسكاً الكأس بأصابعه الدقيقة المرتجفة: "-اليوم آخر يوم في روسيا، وقد أخللت بالحمية والنظام الصارم، لكنني لا أقصد هذا... هنا أربعة رجال وبينهم ممثلة وحيدة للجنس الرائع، ابنة صديقيّ القديمين (فكر فاسيلييف مندهشاً من الحر المريض في عيني إيليا: "غريب أن ماريا غير موجودة هنا") –الآنسة الذكية الفاتنة، التي تزين اجتماعنا كالألماس النظيف... العجيب. نخب صحتها وازدهار جمالها. لا أدري إن كان الجمال سينقذ العالم، لكن لولا الجمال والشباب لكان فظيعاً".

لم يخجل من انتقاء الكلمات، لكن شيئاً ما غير طبيعي وقسرياً لف جمله وظهر عن عمد في صوته، لأن إيليا بدا غير صاح أيضاً. أما هي، فيكتوريا، فنظرت إلى أبيها بابتسامة قسرية راجية إياه أن لا يستاء وأن يغفر لها هذا اللقاء غير المحدد سابقاً، ثم نقلت عينيها المشعتين وناشرتي الدفء إلى لوباتين، وجعدت أنفها وحاجبيها ملقية التحية على هذا النحو ومتكلمة معه من غير كلمات. غمز لها لوباتين بشيء من المكر، وتأوه في لحيته ملمحاً، وراح يحرف نظره كل لحظة بحدة نحو إيليا مراقباً إياه بفضول. بعد أن شربوا الشمبانيا وملأ إيليا الكؤوس لضيوفه من جديد شرع إدوارد أركادييفيتش، بعد أن نهض بحيوية ناشراً بسعادة بزجاج نظارته حزم الإبر فوق المنضدة، يتكلم مجيباً إيليا باستهزائه المعتاد الميال للمداعبة ونصف السام:

"-نخبك الموجه لحفيدتي المحبوبة عاطفي للغاية، ولم يمسك إطلاقاً بذيل الحقيقة الربانية، التي تمتلك وجهين. أرجو من مضيفنا فائق الاحترام قبول جملة من الاعتذارات. أولاً، نحن جميعاً أطفال ونحمل في أنفسنا خطايا آبائنا. ثانياً، من الآباء ومن الأولاد؟ ليت شعري، أين الفهم المتبادل الهائل، وليس المأساة البيولوجية. لكن... الشجاعة الأكبر في زمننا- الاكتفاء بالذكاء الشخصي. لا تسألي يا غاليتي أبداً الطسوت القديمة وممالح العالم الحكيم- ولتسد حقيقة الشباب الهوجاء، لكن المشروعة. فعلى سبيل المثال، ماذا أستطيع أن ألقنك يا غاليتي؟ توزيع الممثلين البذيء؟ الإيماءات المبتذلة؟ الكلمات القديمة؟ الممنوعات الجبانة؟ إذا كان في الأسبوع ستة أيام عادية، فاعتبري الشباب مثل اليوم السابع- الأحد، فهو سرعان ما ينتهي وتحل كينونة الاثنين، ثمة أمر وحيد- الحياة نفسها هي كاستمتاع بالحياة، والأنانية العاقلة يا طفلتي كمنهج هذه الحياة. فإذا قدرت فتقبلي هذه الحياة المهداة لنا بمصادفة حب

مثل كرنفال..."

فكر فاسيلييف بأسف ونفور: "كالعادة ينبغي استقباله بصحبة غربال... لكنه يبدو وكأنه يقنعها بشيء ما." وأراد أن يقول بصوت مسموع: "أظن أنك تحشو رأس فيكتوريا بالهراء. "لكن لوباتين شرع ينخر بأنفه في الحال، ونطق مشدداً على الحرف "O" بصوت ريان سابقاً إياه بالهجوم المباشر على شيغلوف:

"-إنني أحييك، لكنني لا أستطيع أن أهنئك يا إدوارد أركاديفيتش على سبيتشك[1] المسرحي. اسمح لي أن أسأل لأي سبب حلّق على هذا النحو العبق فوق الرؤوس بحبه القديم للحكمة؟ لقد عرفتَ مغزى الحياة، هل تفهم. إذن يكمن مغزاك في المتعة، ها –ها. ارأف بي- دلني، علمني كيف أستمتع بكينونتي مثل أحد أبدي وكرنفال. اجعلني تلميذك أيها المعلم. أنقذني أنا الأحمق والغبي من الجنون الخاطئ، لكن متى نزرع القمح ما دمنا طوال الوقت نهز أرجلنا في الكرنفال؟"

هتف شيغلوف، وأطلق بهمة بوساطة نظارته قطيعاً كاملاً من الشرارات الحربجية ذات الحوافر الحادة لتعبث في لحية لوباتين المشعثة: "-آه، ألكسندر غيورغيفيتش، ها أنا ذا أسمع أخيراً صوتك العالي، الصوت الثمين لمناقشي الدائم. لكن كان عليك أن تلحظ يا أعز ألكسندر غيورغيفيتش أنني لا أؤكد أي شيء قطعي. إذ إنني لم أفعل شيئاً في شبابي سوى أنني كنت أدمر وأؤكد. زد على ذلك أن للحكمة الأفضلية نفسها على الغباء كما للغباء أفضليته على الحكمة. وأنا، حمار القرن العشرين الأشد إثارة للاستغراب، أتقدم إليك بسؤال: مع من عقدت الحقيقة قرانها؟ خطيبة من هي؟ بمن تزوجت؟ وهل هي مخلصة؟ أجبني كرمى لكل ماهو مقدس –إنني سأدوس باحتقار الفكرة الشائنة عن الحب المقرف للحياة وغير ذلك من القذارات الكريهة غير اللائقة بإنساننا المعاصر الطليعي، وأقول لنفسي: أيها الحمار المسن عليتك مؤثثة على نحو سيئ".

صور إدوارد أركاديفيتش حول رأسه بإيماءة قاض غير مرتش من محكمة التفتيش خطوطاً منكسرة عشوائية تمثل كيف يمكن أن تكون عليته سيئة التأثيث،

[1] كلامك (بالإنكليزية) (المعرب).

ورأى فاسيلييف عيني فيكتوريا: بدتا له متسعتين وممتلئتين بالضحك الذي جعله يشعر بالضيق تماماً مثلما جعله وجه إيليا الرمادي الشاحب والحليق بحذلقة والمبلل بالعرق.

قال لوباتين: "-برافو، نص غير سيئ. إنني أضرب كفاً بكف. لكن هل ثمة مغزى في أن نبدأ التقاضي فيما بيننا يا إدوارد أركاديبفيتش في هذه اللحظة؟".

كرر إدوارد أركاديبفيتش، وقذف من جديد من زجاج نظارته قطيع شياطين لئيمة، برقت حوافرها، باتجاه لوباتين: "-ولكن على من قرانها معقود، ألا تتذمر من الفضول اللجوج يا ألكسندر غيورغييفيتش؟ ذراع من تتأبط العزيزة، أريد بشدة أن أسمع".

أجاب لوباتين وهو ينشج بأنفه: "-ستسمع القليل، ومالا يروي الظمأ. أولاً، محرم على الحقيقة أن تعقد القران قسراً على أقوياء هذا العالم. إذا أردنا التعبير بلغتك يا إدوارد أركاديبفيتش. أي الزواج بحسبة مادية. ثانياً، وهو الأمر الرئيسي: لتسر كالعذراء الروسية الأبية والمستقلة، التي ينبغي الفوز بها بالحب والعقل، وليس شراء حسناء غريبة، هل تفهم، في ثوب أجنبي على قارعات طرق العالم الآخر لليلة. لتعذرني فيكتوريا والضيف الأجنبي....".

صمت إيليا مضيقاً عينيه باهتياج وهو ينظر إلى لوباتين.

شع إدوارد أركاديبفيتش دهشةً، ومس كفاً بكف مرتين، مصوراً إشارة التصفيق:

"-هائل. هـ ـ ائل يا ألكسندر غيورغييفيتش. أنا مع الوضوح الكلاسيكي. لكن هل أستطيع الانحناء أمام عدم فسادك الروحي وأشك في المثير للشك؟ ألكسندر غيورغييفيتش. طبعاً، كلما كنا أكثر مثالية ما عدنا أفظعَ من خطيئة الفاني. أنت ضد الحقيقة المستعارة، لكن... أنقذ الشيطانَ من الإعدام يا روحي. المسألة هي: أليس قران الحقيقة معقوداً على نحو ما على الكذب؟ مثل هذا الزواج المليح الشاذ، لو تدري، والذي اعتاد عليه الكثيرون منا يا للأسف الشديد..".

شتم لوباتين لا مبالياً: "-يا لقهقهة الكلاب. لقد ابتدعت أمراً طائشاً للغاية يا إدوارد أركاديبفيتش".

"-أدهش لدهشتك يا عزيزي ألكسندر غيورغييفيتش. آه، بعضنا بمقتضى أخلاقنا الخاصة يذبح حقيقة بعض كل ثانية وكل دقيقة بصمت مبدئي خاص وأمام الأعين المحملقة فاتحة اللون. إننا لا ننحط أبداً حتى الكذب، وحتى انعدام أخلاق يجعلنا نُذكّر بصوت مسموع النذلَ والمحتالَ والغبيَ الجالس على كرسي المسؤولية بحقيقة هذا وذاك. آه، مثل هذه الهجمات دلالة على انعدام التهذيب، وليست دلالة على الشجاعة إطلاقاً. فما هذا –كذب؟ أم حقيقة مرعبة؟ إننا نحمي في كل لحظة أنفسنا وليس الحقيقة يا ألكسندر غيورغييفيتش".

تكلم إيليا بصوت متعثر، مخمداً نهاية الكلمة الأخيرة بجرعة شمبانيا، وابتسم ابتسامة مقتضبة لشيغلوف الناظر إليه بانتباه مرهف: "-الحقيقة مرعبة دوماً. الحقيقة مثل الذاكرة، وهبت للإنسان كعقوبة. حين نتذكر السيئ نتألم، وحين نتذكر الجيد نشعر بمرارة اللارجوع. أحياناً كان يخطر في بالي أن الكذب حقيقة، والحقيقة كذب... أن الحقيقة ضرورية من أجل إخفاء الكذب يا إدوارد أركاديفيتش." تكلم وأشعل سيجارة بالنهم والتعطش ذاته الذي كان يشرب به الشمبانيا، وراح يخرج الدخان من منخريه بصوت مسموع، ونقل صحن السجائر الذي امتلأ بالأعقاب إلى مكان أقرب على متكأ اليد على الأريكة.

لم يكن ثمة شك في أنه خرق نظام الحمية الذي اتبعه، كما بدا، بصرامة مدة طويلة، وساد شعور واضح بأنه ثمل – صار وجهه أقسى وأشد شحوباً، وكأن شيئاً ما قديماً، حربياً، حاداً، مميزاً لإيليا في تلك الفترة قد أطل من ابتسامته بذكرى ضبابية. وأراد فاسيلييف أن يلتقط هذا التعبير، وأن يفهم ويتذكر بما كان مرتبطاً، وأراد أن يقرر بحزم كيف يبدأ معه الحديث عن فيكتوريا وعن رغبتها المجنونة غير المعقولة، لكن إدوارد أركادييفيتش، الذي ألهبته ملحوظة إيليا، منعه وتابع بغير كلل سك الصيغ المحشوة بالفلفل الحارق ورميها على المنضدة:

"-فوو، كم هو مرعب ما قلته يا إيليا بيتروفيتش. لقد قصدتَ، كما فهمت، تلك... الحقيقة وكذب ما وراء السياج. أؤكد لك أن أخلاقنا هي صدمة في وجه الكذب الذي يزدهر بلون زاه وراء السياج فقط. إنها هناك. حقيقة الآخرين – طفيليات. أوهي وبر

خنازير. مفارقة بلياردية. جزمة في اللبن الرائب".

تساءل لوباتين: "-هل أحجارك موجهة إلى بستاني؟ استرسل في تمرغك".

"-إلى بستانك وبستاني يا ألكسندر غيورغييفيتش. إلى البستان العام".

وجلس شيغلوف مكانه، ونزع نظارته، وراحت جفونه الخالية من الرموش ترمش، وبدأ يتأوه زاعقاً ويئن بضحكه هازاً قليلاً الفراشة السوداء على الياقة المشدودة بضيق على عنقه المسن، الذي لا زال متيناً (هكذا كان يضحك، والأدق –هكذا كان لا يتقن الضحك)، ثم اهتاج بحرارة من جديد وبسرعة البرق وهو يمسح بعناية نظارته بطرف منديله، وشرع يتكلم كلاماً لا يخلو من نفحة شائكة:

"-وتاريخ البشرية- ماهو؟ وصف حياة آدم وحواء في الجنة؟ يا للأسف. إنه دم، عرق، تعاسات، جرائم. كابوس خالص. كيف نسميه – بحث عن الحقيقة؟ ولاشك – ولا ريب. يسوع المسيح مبشر مصلوب،... صار ابن الله لأن الناس أرادوا بآلامه أن يؤكدوا الحقيقة، أن يصلوا إلى الحب. أكدوها؟ بالحروب الصليبية؟ محاكم التفتيش؟ أين، أين هي خيرات جنة عدن؟ ماذا؟ لا، تاريخ أوروبا السابق كله تاريخ جنون. الحضارة الآلاتية الحالية كلها تاريخ علماء لا أخلاق لهم، تاريخ قنابل هيدروجينية وقتل ونزعة قومية. ومن أجل الحقيقة سأقوم بالتصحيح. على تاريخ البشرية أن يكون سيرة للحقيقة، وليس موضوعاً عن سيدة جميلة سهلة المنال، تتزين بنقود عشيقها لتنال إعجابه في هذا الثوب تارة وفي ذاك تارة أخرى. هنا أتفق معك يا عزيزي ألكسندر غيورغييفيتش. هنا فقط يا صديقي." – رمى برشاقة نظارته على قصبة أنفه، وصوّب على نحو معبر نظرته الجاحظة المختبِرة نحو لوباتين، وانفجر مرة ثانية ضاحكاً ضحكاً أخرق رذاذياً: "-لا يمكننا وحسب تزويج أمنا الحقيقة من الكذب، بل نستطيع نشلها، أي سرقتها، فنشهّر بها أو نطردها جارينها من تلابيبها. كيف تسمي ذلك؟ زواج باطل من عذراء أبية؟"

تكلم لوباتين بنبرة التعقل البريء: "-ها أنا ذا أفهم كيف يمكن تسمية موضوع بحثك عن الحقيقة يا إدوارد أركادييفيتش. هل تسمح لي بأن أسيء إليك من غير قصد؟ هل تحتمل؟"

"-رائع. لأي سبب؟ أرني، أرني... كيف ترغب في أن تسيء إليّ ما دمتُ لا أفقه شيئاً في غرس الذرة الشامل؟ كيف تريد تسميته؟"

"-فلسفة كئيبة لورقة خريفية. تذمر، بكاء، أنين، نواح، ونشيج. التشاؤم ليس شيئاً ماكراً".

"-أنا متفائل يا عزيزي. وأحب تحديداً البشرية كلها. التشاؤم هو زحف على أربع، أما أنا فحلمت منذ الطفولة بأن أنمو إلى أعلى، مثل شجرة، من غير أن أخاف البرق".

"-أي برق حين تنزع ريح الخريف الأوراق، وتظلم في الرابعة. مذكرات تشرين الثاني".

"-نعم، نعم. هذا مشهد حزين".

واندفع إدوارد أركادييفيتش بحيوية فائضة بجسمه النشيط الجاف مثمناً الكلمة وغير مظهر استياءه، محيياً صيغة مناقشه الجدلية:

"-ورقة مذكرات خريفية. رائع. هل هذا، هل معنى هذا يا ألكسندر غيورغييفيتش أنك تقصد سني الطاعنة؟ أم أنك تصب السم في كأسي، أنا المستعد لأن أقرعه بكأسك؟"

ألاح لوباتين بيده بفظاظة: "-ابداً، أي عفريت. أردت أن أقول إن طعم الورقة الخريفية المر مع مصاحبتك المرحة يثير لديَّ دوراناً في البطن. ثمة رغبة في العواء باتجاه القمر والجري نحو المرحاض. إنك لا تكف عن ضرب الرأس بالمقولات العالمية والمقاسات الكونية. قل لي يا إدوارد أركادييفيتش، يا سقراط القرن العشرين ذا الفم الذهبي، قل كيف تؤكد، أنت نفسك، أمنا الحقيقية في الوجود في أزماننا الليبرالية؟ في ركن أشجار البتولا العزيزة العائد لك... هل حركت ولو خنصرك؟"

قفز إدوارد أركادييفيتش، وخفق بقدمه وانحنى للوباتين بلباقة لاذعة: "-أولاً يا عزيزي ألكسندر غيورغييفيتش لستُ متطرف جيوب، ثانياً هل من المعقول أنك لا ترى أن أمنا الحقيقة صارت طائشة إلى حد خارت معه القوى؟" تابع حديثه من غير كلل: "-ألم تفكر أنها، العذراء المعذبة، قد هربت عبر التلفزيون إلى الأفلام البوليسية البخسة والبذاءات، فرت اليتيمة إلى كرة القدم والأثاث المصقول ومحلات الصاغة.

غريزة الالتقاط قلبت أمنا الوالدة ومرغتها في الأحوال إذا أردنا أن نتكلم كالسيبيريين. أتوسل إليك بكل روحي يا ألكسندر غيورغييفتيش أن تقترب من طابور عند محل مجوهرات وتتفوه بجدية مطلقة بمثل هذا الكلام الديوجيني: "إخوتي وأخواتي، أيها المواطنون المحترمون، ليس من المعقول أن يكون مغزى حياتكم في هذا المعدن الأصفر. لن يجعل أياً منكم أجمل ولا أكثر سعادة. زد على ذلك أنه لن يجلب الخلود لأحد. الجمال في الحياة المهداة لكم، في أنكم تتنفسون، ترون الشمس، تعملون، تسيرون على الأرض. تفرقوا كل إلى منزله، فكروا في أنكم لم تخلقوا من أجل هذا الطابور. الذهب ليس الخبز ولا الماء. ماذا سيمنحكم قرط أو ميدالية زائدين؟ ترى ماذا ستكون ردة فعلهم يا عزيزي ألكسندر غيورغييفيتش؟ أولاً، إذا كنت مرتدياً لباساً لائقاً، وكان، إضافة إلى ذلك، على سواري كميك مثل هذه الزينة التي لديّ والمشتراة في الثلاثينيات " هز شيغلوف سواري كميه بطريقة تمثيلية، وأدار ضاحكاً معصميه عارضاً الزرين: "-فإنهم سيصرخون بك من غير أدنى شك كما يلي: "انظروا إليه، برزت سحنة بقبعة. لديه من الذهب حقائب، أما نحن فلا حاجة لنا به كما يرى". أما إذا كان عليك معطف مدعوك ومبتذل فإنهم سيرفعون عقيرتهم بالصراخ بهذا الأسلوب: "أترون، لقد فر من مشفى المجانين. أمسكوا به. الشرطة، أين الشرطة؟ سيعض الجميع أيضا. يجب سوقه إلى حيث ينبغي". الثالثون سيقتربون من غير أن يعيروا قبعتك اهتماماً، وسوف يندفعون بصدورهم الهائلة وعيونهم الجاحظة: "افرنقع من هنا قبل أن... لماذا تخل بالنظام؟ تريد أن تتجاوز دورك أيها الكذا والكذا؟" قبل ثلاثين عاماً كان صعباً تخيل مثل هذا المشهد غير المرسوم من أجل رواية. حدث أمر ما ليس لنا علاقة به أنا وأنت. جرثومة الاستهلاك العالمية انتقلت إلينا مثل الانفلونزا. لكن، هناك، وراء المحيط أتت من الإغراء والدعاية، وأخيراً من الإشباع، فما سبب ظهورها عندنا؟ العوز؟ وحين يبدأ السباق من أجل الأغراض تتشكل في رؤوس الكثيرين صحراء روحية، وقلّ ما تتم دعوة السيدتين –الحقيقة والأخلاق- إلى هنا للزيارة". نقر شيغلوف بإصبعه على قمة رأسه: "-ما الحاجة إليهما؟ لن تعلقهما على العلاّقة في خزانة الثياب. الأفضل أطقم أدوات المائدة في الخزائن ومزهريات الكريستال –أمر يثير الاحترام حتى الدموع. والمظلات والمعاطف المطرية والجوارب

النسائية والثريات-آ؟ شيء مؤثر، ضد من ستناضل يا عزيزي ألكسندر غيورغييفيتش؟ ضد نفسك؟ أرمي نفسي بنظرة مفكرة: كلي مغطى بالأغراض. ماهو وطني الصنع عليّ جواربي وبعض الأشياء. هل نناضل ضد الجراثيم التي لا لقاح لها؟ هذه بداية المأساة الروحية يا ألكسندر غيورغييفيتش الغالي. لا أشك في أنك ستدافع بالكلام المنمق عن شرف السترة الرسمية. لكن هذه الحقيقة لا تمتلك مكان إقامة، ليست مسجلة في أي قيد. ليس لديها جواز سفر". رفع إدوارد أركادييفيتش صوته الساخر الرفيع، ونظر بانصياع خال من الحماسة حانياً رأسه باحترام، وبعينين جاحظتين، إلى نهاية المنضدة، إلى إيليا، وتابع كلامه غير الخالي من قسوة مرحة: "-لا أشك مقدار أنملة بأن البشرية المجنونة فقدت فكرة وجودها السامية وتاهت... أو تاهت بمقدار النصف في الدهاليز الإسمنتية في المدن المريضة المتخمة بالسكان... لست واثقاً من أنهم سيجدونها غداً وينقذونها. من سيجدها؟ من سينقذها؟ عوالم أخرى؟ سكان الأطباق الطائرة؟ مخلوقات الكواكب الأخرى؟ نعم، ربما يعيروننا انتباهاً لا يزيد على ما نعيره للنمل. هل ستجد البشرية نفسها بنفسها وتنقذ نفسها؟ لقد فقدت مهابتها... عليها أن تنظف نفسها يا ألكسندر غيورغييفيتش، لكن –كيف؟".

هدر لوباتين باستياء واحتقار، حتى أنه ضرب حافة المنضدة بقبضته في سورة من عدم الموافقة، متخلياً عن خجله من إيليا، الذي راح يصب الشمبانيا لنفسه باستمرار في كأسه، ويحتسيها على نحو منغلق أو بجرعات صغيرة، وقد ازداد شحوبه وتجمعت قطرات العرق جُزُراً جُزُراً على صدغيه: "-رنين فارغ. صفير فني. هز صوتي للهواء". "معنى الحياة". "البشرية". "سكان الكواكب". "الحقيقة". يعجز العفريت عن فهم هذا كله. باسم أي شيء خلطت يا إدوارد أركادييفيتش هذا الكم من الكلمات الكبيرة، وباسم أي شيء طهوت براميل العصيدة المستهترة هذه؟ لقد سكبت السم الآن على البشرية كلها من رأسها حتى قدميها، اتهمت الجنس البشري كله بالشيئية وهزئت به، زوجت الحقيقة من الكاذب – السافل، ولم تخلف سوى الأنقاض، ودست بحوافرك كل شيء مثل ماماي ما. صادوم وعامورة. صحراء لا ينبت فيها زرع ظلت من بعدكِ. أرض محروقة. ماذا تريد –طوفاناً عالمياً مطهراً... والتكفير؟ ألا تشفق على جنس البشر؟ وماذا عنك نفسك؟ ألست فرداً بشرياً؟ من أنت –عنزة، عشبة؟

حشرة صغيرة؟".

قال إدوارد أركادييفيتش وقد رفع يديه باستسلام محطم: "-أرغب في أن أسير مثل عنزة صغيرة على العشب الأخضر. ما كان ثمة حد لسعادتي".

ما أعلن عنه شيغلوف الآن بخفة أسير عادته ولم يأت على هوى لوباتين مسّ فاسيلييفَ في هذه الآونة لا بجوهر موقفهما المتعارضين بل لأنه لحظ كيف اكفهرّت عينا فيكتوريا الواجمتين تحت رموشها، وأراد بحماسة أن يفهم ما يحدث في رأس ابنته الجميل وأشقر الشعر هذا، وقد راحت تتشرب بنهم السم القابض المنبعث من كلمات إدوارد أركادييفيتش، الذي بدا وكأنه من خلل الضحك يستمتع بمرارة خيبة الأمل المدمرة للذات.

فكر فاسيلييف: "واضح لي أنه يريد أن يعجب إيليا، لكن ما يلهمه هو جدله مع لوباتين وانتباه فيكتوريا، وإلا فمن أين وابل الاستهزاء والسخرية هذا. فيه قوة زعزعة إدمانية. يا للأثر غير الحسن الذي يؤثر به على فيكتوريا، وكم هي غير حسنة مشاهدة ذلك".

سألت فيكتوريا فجاءة بتحد مشمئز: "-على من الإشفاق يا ألكسندر غيورغييفيتش؟ قل من فضلك. على الكاذب؟ اللص؟ الأحمق؟ سيزدادون بذلك كذباً ولصوصية وحمقاً".

حاول لوباتين أن يتلاعب بكلمات فيكتوريا وقد أقلقه حنقها المندلع: "-نصيحة يا فيكا. علينا في ما يخص الحمقى أن نُكسِب أنفسَنا مناعة ضد الحماقة، أو، ربما، علينا أن نحسب حسابهم يا فيكا نظراً لتفوقهم العددي. ربما ينبغي أن نؤمن...".

قاطعه شيغلوف في الحال، وتعالى شرار الموقد الشيطاني في عينيه:

"-نؤمن؟ رائع. قلت "نؤمن". وما معنى الإيمان —الخوف أم القناعة؟ الإيمان؟ هل هو الحقيقة المعيشة أم العلاقة الانفعالية بالحقيقة؟ إلى أي إيمان تُوجِّه فيكا؟".

تكلمت فيكتوريا بصرامة، وعبرت حنجرتها رجفة تكاد لا تلحظ: "-كف أيها الخال. صار الأمر هكذا مسايراً جداً للموضة. تحويل كل شيء فوراً إلى مزاح. وأنت أيضاً صرت هكذا يا ألكسندر غيورغييفيتش مع أن هذا لا يناسبك. لم قول الكلمات،

الكلمات فقط لمناسبات الحياة المختلفة، من يحتاج إلى مونولوجاتكما الطويلة؟" عبست باشمئزاز: "-من يجعل هذا سعيداً؟ كم مرعب أن الجميع يتكلمون ويهيبون ويقسمون ويعلِّم بعضهم بعضاً، أما في الواقع فالأمر مغاير تماماً. ببساطة، أمر مخيف..."

تمتم لوباتين على نحو أخرق منقباً بأصابعه في لحيته ومتحسساً إياها: "-محال يا فيكا، محال أن تكوني محقة تماماً، عبثاً تعنفيننا هكذا...".

نطق إدوارد أركاد ييفيتش متأسفاً، ورفع يديه وكأنه يدعو مصلياً السماء نفسها للمساعدة:

"-فيكوتشكا، ارحمينا يا ذهبيتنا، يا غيرتسوغتنا الفتية. أردت لو أعلمك كيف تكونين سعيدة يا حسنائي. لكن –كيف؟ السعادة هي ما نتصوره عنها وحسب. سراب، حلم العيش في حلاوة الأحلام الربيعية. من يمكن تعليمه السعادة؟ أستطيع تعليم المرح الشرير فقط، ولكن هذا ليس من أجلك. صدقيني كممثلة قادمة –الفن وحده الذي يساوي شيئاً ما في الحياة، لكنه هو أيضاً لا يستطيع أن يعلم السعادة، إنه يسلي فقط بحكاية ممتعة: كن صادقاً، شجاعاً، فاعلَ خير...".

هتفت فيكتوريا بفرح غير طبيعي: "-يا إلهي، أي عسل، أية حلاوة. فليذهب فنك إلى الشيطان أيها الخال. هل أستطيع أن أكون ممثلة إذا لم أرغب في أن أتزلف لأحدهم؟ قل من فضلك يا إيليا بيتروفيتش... إنك صامت، وأنا أرغب في أن تجيبني... بم تفكر؟" تكلمت بنبرة مغايرة موجهة حديثها إلى إيليا، أما هو فكان يدخن وقطرات العرق على جبينه، وينظر إليها نظرة ثقيلة من غير أن يرف له جفن. نظر بصمت قصي، ثم تكلم بصوت أبح وبابتسامة ملتوية:

"-لست ملائماً لجدلكم يا فيكتوريا".

-"بماذا تفكر؟ بماذا –أنت؟".

"-بماذا أفكر؟.. ما إن ألقى الإنسان نظرة على روحه حتى عرف الجحيم. على الأقل، بدأ هذا لدي بعد الحرب عام ستين".

"-بدأ لديك منذ زمن بعيد، أما لدي..." شرعت فيكتوريا تتكلم ساخرة ولم تكمل،

وعبر ظل متجهم تحت رموشها المرتعشة الطويلة، الشبيهة برموش ماريا.

فكر فاسيلييف: "ما الذي يوحدهما، ما المشترك بينهما، ما الذي يقربهما –إيليا وابنتي؟" وشعر يائساً تقريباً بأن فيكتوريا في احتدامها المشمئز الذي لم يفارقها لا تريد سماع أحد غير إيليا، وجعله جدلها مع محبوبها إدوارد أركادييفيتش وخصوصاً مع لوباتين، الذي كانت تستمع إليه عادة بلطف، وبحثُها بنفسها عن المخرج، يعاني من جديد من ألم أبوي حاد شبيه بالخوف من فقدانها إلى الأبد.

قال فاسيلييف ساعياً إلى التحدث بهدوء: "-هل تعلمين ماذا تذكرت يا فيكا؟ تذكرت كيف ذهبت مرة في الصيف الماضي للرسم في الثامنة صباحاً. نزلت إلى نهر موسكو، واتخذت مكاناً على الدرجات. كان أمامي الجسر والخضرة على الضفة الأخرى، وكان الشارع المحاذي للنهر مغطى بالظلال وبقع النور. والأهم –الصباح الرائع، المشمس، الهواء المائل للبرودة وفرحة الاستيقاظ. وفجاءة تسلل إلى قماش اللوحة، عوضاً عن اللون الليلكي والفضي، الأزرق –أية شيطنة. لا أفهم شيئاً، لكن لم يعد ثمة وجود لظلال الصباح الشفافة ولتماوج الماء. صرت أشعر بأنني أرسم الليل بدلاً من الصباح. ثمة ألوان الشمس، أما لدي فليل". صمت فاسيلييف متوجساً فجاءة من أنه شرع يتحدث، وخائفاً من أن يرى على وجه فيكتوريا تصعيرة استياء: "-كان خلفي سياج ما –أمريكيون على الشارع المحاذي للنهر، يراقبون من الأعلى، وكنت أحجب بظهري المنصب وأفكر: ما هذه الوساوس؟ ما هذا التبدل؟ النور حولي، الشمس، لألأة المياه، أما على قماش اللوحة فليل... لا أستطيع حتى الآن أن أفسر هذا التحول الغريب. لقد رأيتَ هذه اللوحة يا ساشا، هل تذكر؟"

تمتم لوباتين: "-م- نعم. ليلة مقمرة".

سألت فيكتوريا وقد فصلت تجعيدة الاهتياج قصبة أنفها: "-لماذا رويت هذا يا بابا؟ هل من المعقول أنني أدعي بأن شمس الصيف الساحرة هي قمر كئيب؟ لا يا بابا..." جلست بالقرب منه على حافة الكرسي الفارغ، ومست يده، بإصبعها: "-لا يا بابا، ستظل تنظر إليّ دائماً مثلما تنظر إلى طفل. لا تخدع نفسك، صرت كبيرة. أعرف يا بابا أنهم سمموا حياتي وحياتك". أضافت هامسة وشفتاها مرتجفتان بنصف

ابتسامة: "-سامحنا، أنا وأمي، مع أننا غير مذنبتين لكن سامحنا...".

أسبلت رأسها، فصار يشعر بالضيق والشفقة عليها في انصياعها المفاجئ هذا والفاهم كل شيء.

مد يده إلى ذقن فيكتوريا، ورفع رأسها، ونظر إلى عينيها اللتين كانتا منذ وقت قريب نائيتين، عابستين، ورأى شعاب عمقهما الحزين، وذلك التعبير المعروف نفسه الذي كان يظهر في نظرة ماريا الشابة، التي كانت تذكره بالظلال الدافئة على العشب: "-اسمعي يا ابنتي، أردت أن أقول إن الصباح قد بدأ في حياتك للتو. مهما حدث فالصباح لم ينقض. سيأتي الفرج يا ابنتي".

"-لا يا بابا، لا أصلح لأن أكون واحدة من النساء القديسات المعذبات مثل ماما".

تردد صوت إيليا حاداً بعض الشيء وواثقاً بإفراط، فقص بتدخله هذا، الذي لم يرق تقريباً لفاسيلييف، حبل الحديث بينهما، وقاطع جملة فيكتوريا الثاقبة: "-كم تشبه ماريا، تشبهها على نحو يذهب بالعقل، وخصوصاً حين تنظر من الجانب".

"قالت: "قديسات مثل ماما"؟ هل هذا ممكن؟ هل اعترفت ماريا لفيكتوريا بأنها احتملت عشقي الأحمق لها أعواماً كثيرة، منذ أيام المدرسة، أما هي فحملت الصليب مكرهة؟ هل معنى هذا أن الوحيد لديها كان إيليا؟ يبدو أن الأمر كذلك".

ردد إيليا بصوت عال: "-كم تشبه ماريا".

وقف عند الطرف الآخر من المنضدة المغطاة بالزجاجات، ممسكاً بيده اليمنى كأس الشمبانيا وباليسرى السيجارة المشتعلة. برز وجهه، وقطرات العرق الضخمة على صدغيه، بشحوب الأموات وبشيء من الشرود وبتحديقه الإدماني بعينيه المتوسعتين، المسلطتين على فيكتوريا. كان واضحاً أنه قد ثمل، لكنه ظل يشرب الشمبانيا ويصبها لنفسه ولضيوفه بإفراط، كما أفرط أيضاً في تدخين السيجارة تلو الأخرى. أخافت هذه الشراهة بعد الحمية الشديدة والصارمة في الطعام والتدخين، وبعد الامتناع التام عن الخمرة، وحتى عن الكوكتيلات الخفيفة في لقاءاتهم في فينيسيا وهنا، في موسكو، فاسيلييف بقسوتها الهدامة، فكان كمن يقتل في نفسه المحدّد والمتماسك والعقلاني، الذي ظل يصونه وينفقه على دفعات حتى أمس. ربما

توقع إيليا لقاء مختلفاً بأمه، وربما أطاحت البرودة التي لم يدفئها مجيئه في روح رايسا ميخائيلوفنا واستياؤها الذي لم يتلاش عبر الزمن بأمل ما فيه، وخيل أنه الآن يثأر من رغبته الساذجة التي لم تلبّ.

تكلم إيليا في تلك الأثناء متأرجحاً قليلاً على أصابع قدميه وعقبيه، ومبتسماً ابتسامة خالية من الحياة: "-الوجه البيضوي، تعبير العينين، الصوت –كم كل شيء متكرر في ابنتك يا فلاديمير. لا يشبهني ابني رودولف بشيء. أي الروسي فيه – صفر. ألماني متحذلق حريص- يأمل في الاتجار مع Sowjet union[1]، لكنه تعلم اللغة الروسية على نحو سيئ. نداء الدم معدوم. تهمه روسيا كشريك تجاري مربح. أمريكا – كمثال، أنموذج. رودولف... رودولف رامزن. أترى يا فلاديمير، لدي ابن أيضاً. لكن... عموماً، ما المغزى؟ نتقابل مرة في السنة. في عيد الميلاد. إنه لا مبال بي. كما ترى، لم أترك أي أثر من دمي ولحمي على الأرض".

قالت فيكتوريا: "-أنا اليوم، على نحو ما، متعبة جداً يا بابا. حان وقت ذهابي. أستودعك يا إيليا بيتروفيتش". رتبت شعرها، وأمالت رأسها، وتناولت حقيبتها من على المنضدة: "-متى ستقلع الطائرة غداً؟".

حذر إيليا فيكتوريا بجفاف مضيقاً نحوها عينيه المليئتين بالسواد والمتذكرتين وغير المتراخيتين: "-لا لزوم لمرافقتي، فالوداع يذكر بمراسم الدفن. هل تستطيعين أن تلبي لي طلباً يا فيكتوريا؟".

"-طبعاً، إن كان في مقدوري ذلك يا إيليا بيتروفيتش".

ارتشف الشمبانيا من الكأس، ومج السيجارة بنهم مختنقاً، ثم خرج إلى الغرفة الأخرى ببطء ساهم على ساقيه المترنحتين قليلاً، وعاد بعد دقيقة.

قال إيليا بتأدب مبالغ فيه، وقدم لفيكتوريا علبة حمراء مصقولة عبارة عن بيت مجوهرات مستطيل أنيق: "-سلمي هذه الهدية الصغيرة لوالدتك المتوعكة، كما علمت، فلم تستطع الحضور إلى هنا، يا للأسف الشديد. لم أقتن الهدية من إيطاليا،

---

(1) *الاتحاد السوفييتي (بالألمانية).*

بل من "البيرويوزكا" في... ما اسمه.... شارع كوتوزوفسك. آمل أن يعجب القرطان المختاران من قبلي والدتك. أما أنت يا فيكتوريا، فكلي أمل وجل أن تعجبك أنت أيضاً هديتي المتواضعة". –أضاف ذلك راجياً بانحناءة من رأسه السماح له بأن يكون لبقاً حتى النهاية فلا تمتنع فيكتوريا عن قبول العلبة الأخرى الحمراء المصقولة أيضاً، التي قدمها لها.

سألته بسرعة:

"-ماذا فيها يا إيليا بيتروفيتش؟".

-نوط. أتمنى أن لا تنهريني؟".

مرت بناظريها بسرعة على وجهي أبيها وإيليا مستفسرة، وقد احمرت، ثم فضت العلبة وجذبت في الحال من هناك سلسلة النوط الدقيقة جداً، فوضعته على صدرها أمام المرآة، لكنها تكلمت من غير فرح خصوصي:

"-أنثوي جداً. شكراً. كيف تراه يا بابا؟".

"-لا أحب الهدايا يا فيكا". اعتبر أن قول هذا ضروري، ونطق خائب الأمل محدثاً إيليا: "- أظن أنك رجل عاقل كفاية كي تفهم أن الهدايا الثمينة مزدوجة المعنى. لم هذه الإيماءات يا إيليا؟".

"-أعترف أنني لم أفكر بهذا".

نطق إدوارد أركادييفيتش مرتاباً، وخار بضحكة معصورة مؤنبة: "-الرحمة يا فلاديمير أليكسييفيتش. أنت تدقق وترتاب على أعلى مستوى. عبثاً، عبثاً، إننا نخلق المنغصات بأنفسنا...".

هدر لوباتين مشتعلاً فجأة: "-بحفظ المهرج، ماذا "عبثاً"؟ على أي أساس ينبغي أن يضع واحدنا مع الآخر بين قوسين اقتباسات الكلام المؤدب. يا لقهقهة الكلاب، إنك، برأيي، يا إدوارد أركادييفيتش، تتخيل أنك موجود في استقبال في سفارة ما، وانقطع زر من أزرارك لحظة رفعك للنخب في مكان مناف للياقة ومحرج".

"-أتجرأ فأسأل ما شأن السفارة، ولماذا يشارك الزر في مثل هذه المناسبات

الرسمية؟".

"-انقطع الزر في اللحظة الأشد حماسة من نخبك مصدراً زعيقاً، وسقط اللعين في صحن الأناناس".

قال شيغلوف، وأمسك رأسه جاعلاً وجهه خائفاً ومشوهاً: "-يا للهول. رسم خيالك يا ألكسندر غيورغييفيتش لوحة مذهلة ذات خصائص بريجيلية. لكن،... أنا وأنت ضيفان، بالتالي نحن مدينان...".

ضخم لوباتين صوته على نحو مدو غير خجل، حانقاً من شيء ما: "-في هذه اللحظة لست مديناً لأحد بأي رمح، مع أن هذا حدث من قبل. أنا مدين فقط لسيدة صارمة واحدة، هي التي رحتَ من قبل تتغنج وتتدلل حولها طويلاً. اسم السيدة الحقيقة كما تفضلت وحزرتها من غير أن تخطئ يا إدوارد أركادييفيتش، لذلك علي الآن أن أرد أحد ديونها – من ضيف من؟ هل نحن ضيوف السيد رامزن أم السيد رامزن ضيفنا؟".

حينئذ أجاب شيغلوف بنبرة المجاملة الجارحة:

"-إنك تتخطى الحدود يا ألكسندر غيورغييفيتش المحترم –تحفر بالمخل عميقاً كما يقولون...".

فرد لوباتين بكلام منمق فيه لباقة قاسية مستورة: "-مستعد لأن أصير من متخطي حدود السلوك الراقي يا إدوارد أركادييفيتش لأسأل السيد رامزن سؤالاً. من ضيف من؟ هو ضيفنا أم نحن ضيوفه؟".

أما إيليا، المبلل بالعرق كله والأبيض كله مثل العاج، فلم يجب عن السؤال مفصلاً بشفتيه الرماديتين ابتسامة ساخرة ضيقة، لم يكن فيها مقاومة ولا دفاع ولا أنفة ممسوسة. لم تبدر عن وجهه أية حركة، لكن هذه الابتسامة الساخرة بدت وكأنها نشرت تعباً لا حدود له ومرارة هادئة ناجمة عن أسف الفراق مع كل شيء.

نطق إيليا على نحو غير واضح: "-لا، أنا الضيف، لكنني غريب، مثلما نحن جميعاً على هذه الأرض على كل حال. غرباء. أما ما يخص الهدايا فهي أفراح حياتية صغيرة، قد لا نفهمها نحن الرجال. والحق، لا يوجد سبب. بيد أنني لست قادراً على أن أنبذ

الشكوك...".

سالت من ابتسامته الحزينة وكلماته المنطوقة بهدوء طاعةٌ مرضية للقدر ولتلميحات عدم الثقة لدى الآخرين، ونوع من قوة إيحاء حزين ذاهلة، وبدا واضحاً للعيان كيف امتلأت عينا فيكتوريا الرماديتان بطوبة طرية متلألئة، وكأنها تعتذر من إيليا عن الفظاظات التي قيلت هنا (هل معقول أنه صار خلل هذه الأيام يتمتع بمثل هذا التأثير عليها؟) بعد ذلك التفتت إلى لوباتين داعية إياه بنظرها إلى أن يتخلى عن الحدة والشكوك غير اللازمة، وقالت متضادة مع كل ما كان من الممكن أن يشكل عائقاً الآن:

"-سآخذ الهديتين يا بابا. لن يحدث شيء لي. شكراً يا إيليا بيتروفيتش. سأوصل الهدية إلى ماما". تحركت خطوة نحوه ووقفت على رؤوس أصابعها، وقبلت ذقنه بجدية فائقة: "-لن آتي لوداعك. لا تريد ذلك. وهذا حسن. لذلك إلى اللقاء. بالمناسبة، أفضل شيء أن تعيش غريباً وسط الغرباء. لا أحد يعرف أحداً. لا شأن لأحد بك. حسناً، العيش مثل قطة كيبلينغ. هل تذكر؟ كانت تسير على هواها".

صحح لوباتين مكفهراً: "-لم تكن قطة، بل قطاً. ثمة فرق في هذا يا فيكا".

"-سيان. إلى اللقاء مرة أخرى".

قبّل إيليا يدها وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً جداً، فكان منخراه ينقبضان وينبسطان وكأنه يستنشق رائحة دواء شاف في دفء جلدها، ثم همس بكلمات علقت في حنجرته:

"-الوداع في فيكتوريا. سأفي بكل ما وعدت به".

"-لماذا الوداع يا إيليا بيرتوفيتش؟ لماذا تكلمت بهذا الحزن؟".

صمت ناظراً إلى وجهها، فكررت قائلة:

"-لماذا الوداع؟".

شرح لها إيليا بلباقة وحيوية قسرية: "-ليس واضحاً لأحد في مثل سني إن كان سيستيقظ صباحاً سليماً معافى". ورافق فيكتوريا بخطوات سوية مشدودة إلى غرفة

المدخل مسقطاً رأسه بانحناءة ومبللاً جبينه الرطب بالمنديل.

حين عاد إلى الغرفة فك أزرار السترة كلها، وحل عقدة ربطة العنق بهيئة المتحرر وسط جماعة من الرجال فقط، وحين مسح بالمنديل المضموم أصابعه المرتجفة وكأنه يدفئها تحت هذا المنديل، بدا متجلداً كله ورطباً تحت البزة، وكان العرق الذي غطى جبينه وصدغيه بارداً على نحو متفاقم، أما الشمبانيا، التي راح يخضها في الكأس ويرتشفها وهو يدخل الغرفة، فلم تكن قادرة على أن تدفئ فيه شيئاً ما متجمداً كان يكبله.

تكلم إيليا بصوت مرتج: "-لديك ابنة فاتنة يا فلاديمير. نعم، فاتنة وذكية. لكنها لشبابها لا تعرف أن العالم يسير من سيئ إلى أسوأ. حال الإنسان الآن سيئة في كل مكان. حال الجميع وفي كل مكان. لا توجد آلهة لدى أحد، ولا يوجد إيمان بالنفس وبالآخرين... نتجول كلنا في فراغ غير عارفين إلى أين ولماذا". صمت، وأجهد نفسه كل يظل واقفاً على ساقيه بصلابة، ثم دار حول المنضدة، وزاد الكؤوس بعناية وبطء مؤكداً بذلك على رغبته الجامحة بأن يستمر في الشرب مع الجميع، وصار يقرع كأسه بكؤوس الحاضرين كل بدوره: "-في السنوات الأخيرة قتلت الوقت بالقراءة. أذكر جملة أحد الكتاب الروس: "سنشرب والرأس متعب". أما بخصوص النظام الذي أتبعه يا فلاديمير". أضاف ذلك وشرع يضحك ضحكاً غير طيب وهو يقرع كأسه بكأس فاسيلييف على نحو مطول خاص وذي معنى: "-فإنني سأضطر إلى أن أدفع ثمناً ضخماً. ونقداً. Alles[1]".

قال فاسيلييف: "-توقف إذن يا إيليا. أنت قادر على ذلك".

"-لم؟ لا أرى لذلك معنى. يجب أن نشرب اليوم. غداً –آديو، آلليس".

نعم، لم يكن لدى هذا الرجل المتعب جداً من الحياة والمريض مرضاً جدياً أي شيء مشترك مع نفسه في الماضي المنقضي إلى الأبد، ومع ذلك فقد كانت هذه الصلة موجودة. كانت موجودة في طريقة حديثة عن الشبه الظاهري بين فيكتوريا وماريا. وفي طريقة تقبيله يد ابنته بحزن، وفي أنه نظر طويلاً و مستذكراً إلى وجهها وهو يودعها،

---

[1] انتهى (بالألمانية).

وقد وجد فيه على الأرجح ملامح ماريا المتكررة بأعجوبة، ملامح ماشا تلك من فترة الشباب الرائع الذي لن يتكرر، حين كان هو، إيليا، شخصاً آخر، بدا الأمر وكأنه رأى في فيكتوريا، في عينيها، في صوتها المرن، في ابتسامتها، ماريا الشابة السابقة، وربما في محاولة منه لاستعادة أفضل سنوات عمره، لتبرير شيء ما، للتكفير، للمساعدة، لوداع شيء ما، كان مستعداً للإقدام على جنون غير مبرر في مثل وضعه، فيقلب كل شيء في علاقتهما المتبادلة.

تكلم فاسيلييف على نحو مجزأ: "-عليّ أن أقول لك يا إيليا..." ثم أكمل كلامه متوازناً بصعوبة وقد بدأ يلتهب غيظاً: "-مؤسف جداً أن الأمور حدثت هكذا. مؤسف جداً، لكنني أطلب منك أن تدع فيكتوريا وشأنها... أظن أنك تفهم جيداً عم أتحدث. ما كنت أرغب في الإساءة إلى "فجر شبابنا الضبابي".. وكل ما كان... نعم، هكذا تحديداً. لذلك اسمح لي بأن أودعك وأتمنى لك رحلة سعيدة يا إيليا".

نهض فاسيلييف الهادئ هدوءاً فائق الحدود، والقصي بهذا الهدوء القاتل الذي سحقه من داخله، وأضاف بضيق:

"-ربما لم يكن ثمة أي معنى لأن نلتقي. لقد أفسدنا عبثاً بعض الأمور. عموماً، هذا ما كان ينبغي أن يحدث...".

هتف إيليا هامساً من غير أن يفك أسنانه المطبقة، واكتسب وجهه تعبيراً قاسياً وحاداً: "-انتظر". ثم كرر بزفير أبح خارج من حنجرته: "-انتظر، قد لا يرى أحدنا الآخر بعد الآن أبداً، لا تستعجل...".

تدخل إدوارد أركادييفيتش ورفع يديه المتحركتين في حال من عدم الفهم المستكين: "-يا مالكي الحقيقة. يا فارسي الحقيقة. علمانا كيف نعيش. كيف؟ وبأي شكل؟ في الخارج – قذارة، وعندنا – وساخة؟ لكن تذكرا يا صديقي حمامة سلام بيكاسو الفريد.... أين يمكنها، الثمينة، أن تضفر عشها؟ هل توجد لها جغرافيا؟ فيكتوريا هي تلك الحمامة النظيفة...".

قاطعه لوباتين ناشجاً بغضب، ووضع إصبعه الضخم بهيئة رجل نافد الصبر باتجاه إدوارد أركادييفيتش، وهدر على نحو مصمم من غير أن يدعه يتكلم: "-مرة أخرى

يفيضُ ثرثرةً فارغةً. في مثل هذه المواقف مشاركتك وسخريتك ضروريتان تماماً مثل مؤخرة الجرموق في يوم من أيام نيسان".

هتف شيغلوف برقة، وقد ملأه اضطراب صادق: "-كيف؟ ما هذه التعابير الفظة التي ترددها يا ألكسندر غيورغييفيتش فائق الاحترام؟ إنني أحب فيكتوريا لقرابتي بها. كيف تستطيع؟...".

"-لهذا تحديداً لا لزوم للجراميق".

صاح إدوارد أركاديفيتش: "-إنك تسمح لنفسك باستخدام قلة أدب ممدد القساطل". وأظهر تكشيرة غاضبة قصيرة، هدمت في رمشة عين خفته الدنيوية اللعوبة، وقابليته لمتع الجدال البعيدة عن أن يطالها عقاب، لكنه تنبه حالاً بفزع، وكأنه بتكشيرة الشر هذه قد سمح عن غير قصد بمشاهدة نقص في مكانته الجسمانية، فأعاد وجهه إلى طبيعته بسرعة البرق، وأطلق بسخرية متألمة ضحكة متأوهة زاعقة، متلفتا إلى اليمين واليسار، ثم التقط الكأس عن المنضدة بحركة أنيقة منسابة من كفه الراقص، الذي عاد الشباب إليه بفضل بياض سوار الكم الناصع والزر الضخم عليه، ونطق بنبرة هزلية جداً:

"-أشد الأنخاب اقتضاباً يا أصدقائي الأعزاء: "Keineilei probleme"[1]". ألا تكمن فتاة السعادة في هذا؟".

لم يرد أحد عليه، إذ همهم لوباتين في لحيته باستياء عابساً، فيما نظر فاسيلييف إلى إدوارد أركاديفيتش المتلين بسعادة وتودد، والداعي إلى السلام، لكنه رأى أيضاً ابتسامته الذئبية السابقة، التي بدلت مظهره قبل دقيقة، وفكر: "أين حقيقته؟" أما إيليا فوقف على ساقيه المستقيمتين وسط الغرفة من غير أن يفلت الكأس من يده المرتجفة قليلاً ماجاً السيجارة، وسلط نظره نحو زخرفات السجادة على الأرض، ولفظت شفتاه على نحو متثاقل جملاً متقطعة خرقاء:

"-افهم يا فلاديمير. إنني لا أجبر فيكتوريا، لا أرغمها. إنني لا أخونك يا فلاديمير. هي

---

(1) لا توجد مشاكل (بالألمانية).

نفسها... من الخطأ أن تظن.... لم أعد.... أحتاج إلى شيء...".

كان في صوت إيليا برود مسطح محروم من الجسد الصوتي، وكانت نظرته مقيدة كالسابق على نحو خال من الحياة بالزخارف المنسوجة على سجادة الفندق، وسالت خطوط العرق المتعرجة على وجهه المنكس ذي العينين الغائرتين المطوقتين ببقعتين رماديتين. وعلى الرغم من أن كلماته كلها، التي لفظها، كانت واضحة إلا أن إيليا كان أشبه بالصامت الذي لم يلفظ حرفاً، وهذا ما بث الرعب: لقد صمت حتى حين تكلم بوضوح – بدا وكأنه في خلوة مع ذاته.

قال فاسيلييف: "-لا أتهمك بالخيانة".

لم ينظر إيليا إليه. التصق وحسب، وعيناه مخدرتان، بكأس الشمبانيا، ثم راح يبعده عنه غير مستعجل، واختنق ناشجاً بدخان السيجارة وهو يكاد لا يلتقط أنفاسه. أصاب سلوكه الملحوظ هذا بالذهول – فبعد كل جرعة كان يمج السيجارة مازجاً، على ما يبدو، عن قصد الكحول بالدخان، وخطر في بال فاسيلييف فجاءة أن إيليا كان في وقت ما قبل مرضه يشرب على الأرجح بطريقة سيئة مذهلة.

كرر فاسيلييف: "-لا أتهمك بالخيانة، الحديث يدور حول أمر آخر...".

تكلم إيليا موافقاً وغير مبال: "-الحديث يدور حول أمر آخر". ونظر إلى نفسه من الأسفل باستفهام واهن محتقر- حذاؤه الشتوي ذو البكل المعدنية، سرواله الرمادي المكوي بعناية فائقة، وربطة عنقه المخططة –نظر وابتسم بسخرية جاذباً قليلاً خده الترابي، ورفع عينيه الليليتين، المانعتين من التسلل إلى داخله، نحو شيغلوف، الذي انشغل بتقشير برتقالة، وسأله متعباً: "-كم عشت في هذه الدنيا يا إدوارد أركاديفيتش، اعذرني كرمى لله؟".

أجاب شيغلوف، ووضع فص البرتقالة في فمه المبتسم: "-قليلاً يا إيليا بيتروفيتش. ومقارناً بآدم قليلاً على نحو لا يعقل. عاش آدم، إذا لم أخطئ، تسعمئة وستين عاماً كما في التوراة... حتى السقوط في الخطيئة. أنا –الخاطئ كلي، ولدت في نهاية القرن الماضي".

تنشق إيليا دخان السيجارة بمقدار مجة، وأتبعه بجرعة من الشمبانيا، ناظراً

بخمول إلى شيغلوف، وإلى عدستي نظارته المطلقتين البرق الشيطاني.

"-هل تخاف الموت؟".

أكمل إدوارد أركادييفيتش مضغ فص البرتقالة بشهية، وجفف بالمنديل الورقي بحيوية، وكأنه أخذ على حين غرة، ذقنه المسن المتين الحليق حتى صار نظيفاً أملس.

"-ما الفرق يا إيليا بيتروفيتش – إن عاجلاً أم آجلاً. عاجلاً- الأمر محزن طبعاً، وآجلاً – معنى ذلك أنك تستطيع أن تأكل زيادة بضع مئات من هذا البرتقال اللذيذ جداً. وطبعاً، تستطيع أن تُخرج مسرحيات سخيفة أكثر. ومع ذلك فالأفضل آجلاً. في الحقيقة كلما تأخرنا اقتربنا، وكلما اقتربنا تأخرنا... الموت هو الوجه الآخر للوجود، وظلنا، وحان الوقت كي نعتاد على أننا نحمله في أنفسنا...".

تكلم إيليا بجفاف: "-كذب وخداع. عشت حياة مديدة، لكنك تذعر من الموت مثلنا جميعاً. تذعر من الموت. أليس كذلك يا إدوارد أركادييفيتش؟".

تكلم إدوارد أركادييفيتش ببراءة، ومسد بملامسة مضبوطة من كفه شعراته المصففة على صلعته: "-وإن كان الأمر كذلك؟ ما الذي سينتج عن ذلك؟ هل نملك الحق في إدانة محبي الحياة؟ هل يمكننا أن نتذوق طعم الحياة حتى أقصى حد؟ هل يوجد فاوستات كثر بيننا؟".

نطق إيليا مصوباً من جديد نظرته إلى زخارف السجادة تحت قدميه: "-كلنا عبيد وجبناء وأسرى الخوف. الحريات كلها مظاهر مُختَلَقة، سراب. الخوف والحرية واحدهما ينفي الآخر. ثمة حرية عظيمة وحيدة... حين يصير الإنسان إلهاً على نفسه وعلى الآخرين. حرية مطلقة. لكن هذا لا يمكن تقريباً أن يحدث. باستثناء...".

سأله فاسيلييف مدفوعاً بضربات قلبه لدى سماعه كلمات إيليا المسكوكة هذه وغير المنتهية: "-باستثناء من؟".

تكلم إيليا بلسان منعقد وهو يتتبع بصعوبة فكرة ما ملحاحة تنزلق بين الفينة والأخرى من وعيه: "-الأبطال والمجانين. حال الإنسان سيئة في كل مكان Sehr

schelcht[1]. تجولت خلل هذه الأيام في موسكو كما أتجول في متحف – زرت المحلات والشوارع.. لا توجد جنة. طراز عالمي ممل. لماذا يقلدون الغرب في موسكو هكذا على نحو عبودي؟ ثمة لديكم من هو مغرم كالمجنون بالطراز الغريب عنكم... بالطراز القاتل... الخالي من الروح – ويصير الأمر مثيراً للضيق. من العمارة... من الكراجات المخصصة للناس... ومضحكاً. أمر يذهب بالعقل. لا توجد الجنة ولا الركن العزيز.... اسمع يا فولوديا، هل ثمة بداية للزمن ونهاية للفضاء؟ فكرتَ بذلك؟ بالزمن؟ أظن أنك قلت لي شيئاً عن هذا. الأرجح أن ماضينا كله –طفولتنا وشبابنا- كان خارج الزمن. ألم يخطر هذا في بالك؟ وكل شيء آخر... بدأ فيما بعد؟ سمحوا لي بالقدوم... قدَّمت عدة خدمات لوطني بعد الحرب، لكن أية تفاهات. ربما نحن ذرات غبار في تيار المصير العالمي. الكون... الحياة شيء مرعب... مرضت وأردت أن أنسى فقتلت الوقت بالقراءة، وعرفت الحزن العظيم... مثل الملك سليمان. ذرات غبار، تيار، و... عجز. مرعب أن لا نموت. مرعب أن نموت. يمكن ترك أثر، لكن يمكن أن نورث، أسوأ ما نورث، مكاناً فارغاً. مر – رعب هذا- مكان فار-رغ. ألا تفكرون في أن البشرية كلها- أرانب اختبار على الأرض، وأن أحدهم يجري علينا تجربة فظيعة؟ شبيهة بتنفيذ بطيء للحكم. لا، ليس الله، هذه قوة بعيدة عنه. اسمع يا فولوديا، يا صديقي القديم، الكل فانون. الكل مطلقاً. أولئك الذين نحبهم وأولئك الذين يحبهم أحدهم. لسنا نحن من نختار بل السيدة تجربة. المشعث، النجمي، البعيد... وتأتي ساعة الوداع أياً كان. والغفران إن لم تكن اللعنات. الاختيار هو تحديد الذات. إما وإما. من يوحي لنا بهذه "الإما"؟ مر- رعب، هذا مكان فراغ. ليس ثقباً أسود أو أبيض في الكون، بل فراغ لا قاع له... أُنجزت التجربة وعُرفت مقدرات البشر – وفراغ. تُرك المختبر. نجحت التجربة أم لا- لسنا نحن من يحكم. لم نوهب العقل لهذا. اختيار، اختيار.. الحياة أم الموت – اختيار. من يوحي لنا؟ الكون؟.. أم بضعة أناس قادرين على كل شيء ويريدون أن يحكموا العالم؟..".

قال لوباتين بشرود عابس وهو يستمع إلى إيليا بجدية مرهفة مثلما يستمعون إلى

---

[1] *سيئة جداً (بالألمانية).*

هذيان المختلين عقلياً، مستغرباً اقتناعه الراسخ، وهو على ما يبدو متفق وغير متفق مع استنتاجات ذهنه المحموم:

"-أظن أن صاحبك غارق في الثمالة، لكنه يقول أشياء غير معقولة، وقد بدأ الشعر عندي يتحرك...".

اعترض شيغلوف على نحو لا يخلو من تلذذ حزين وهو يغتسل بالحمض الكاوي لفكرة غيره: "-نـ-نعم، عدد الحقائق بعدد الناس. اعترفوا بذلك. إنه ببساطة يتفوه بأشياء غير مبتذلة يا ألكسندر غيورغييفيتش".

قال فاسيلييف: "-حان وقت ذهابنا". وشعر ببرود الرعب يزحف إلى صدره بسبب من أفكار إيليا، التي ظل يتخيلها صمتاً وأصواتاً مغلقة مع أنه استقبل بوضوح معنى كلماته والنداء الجديد الذي لم يكن يناديه به من قبل: "اسمع يا فولود يا، يا صديقي القديم". أما إيليا فراح ينظر من غير حراك تحت قدميه إلى الزخارف السخيفة غير المتناظرة في السجادة، وانسالت خطوط العرق الفاتحة على وجنتيه الحليقتين، واهتزت شفتاه، وأهالت السيجارة المدخَّنة حتى الفيلتر في يده المسبلة الرماد على سرواله المكوي، وكان في مظهر إيليا ثمة شيء ما مريض، وحيد، غير عكوس، شيء لم يرغب فاسيلييف في رؤيته ومعرفته، شيء دمر نهائياً ومن غير أثر شبابهما الذي لم يستطع تخيله خالياً من الإيمان الراسخ بالمصير السعيد وبقوة إيليا المرحة والمزهوة – وحينئذ تكلم فاسيلييف بصوت أعلى:

"-حان وقت ذهابنا يا إيليا. ربما يستحق الأمر أن ترتاح قبل الطيران. سأتصل بك صباحاً إذا كنت لا تمانع".

في تلك اللحظة حين بدأوا يبعدون الكراسي وينهضون من وراء الطاولة، ويخرجون إلى غرفة المدخل حيث علقت معاطفهم، لم يتحرك إيليا من مكانه. لم يوقف أحداً بكلمة أو إيماءة. رفع رأسه فقط ورافقهم جميعاً بعينين مثقلتين، ثم انتفض وجهه وتشوه وكأنه يرى الهول على مقربة منه، لكنه استقام في الحال بتوتر، ووضع بعد جهد بصلابة الكأس الفارغ على المنضدة وخرج وهو يترنح تقريباً إلى غرفة المدخل ليودع الضيوف.

وكانت برهة مقيتة حين راحوا يرتدون معاطفهم صامتين.

انتظرهم في تلك اللحظة عند جانب المرآة مطبقاً فكيه بإحكام، وبدا وكأن حلهما الآن لقول بضع كلمات في الختام محال، وضاقت التجاعيد على شكل أشعة ضئيلة في زوايا جفونه نصف المطبقة، وبدت أنها بسبب من عذاب مكبوت ينهش داخله أو من أسى وشيك (سيبقى وحده هنا، في هذا الجناح الهائل مع صمته العضال القاتل، الذي ما عاد في الإمكان القضاء عليه بالكلمات)-ومد فاسيلييف يده، وهو لما يعتمر قبعته بعد، وقال مقطباً:

"-إلى الغد. سأتصل بك".

تكلم إيليا وهو يكاد لا يستطيع تحريك شفتيه المارقتين، وارتجفت التجاعيد في زاويتي عينيه على نحو أوضح: "-لا تتصل يا فولوديا. سيتصلون بك. لم يقبّل واحدنا الآخر حين وصلت. "أضاف ذلك وهو يبتسم مذنباً وذليلاً، وخطا باتجاه فاسيلييف غير واثق على ما يبدو من أنهما يستطيعان الوداع على نحو مختلف عن اللقاء: "-أريد أن أقول لك مودعا... قد تكون هذه المرة الأخيرة...".

"-هل أنت واثق من أن أحدنا لن يرى الآخر؟".

باعد إيليا بين شفتيه بصعوبة مرة أخرى، وتقلص صوته وغاص في همس أبح: "-أريد أن أقول إنك لستَ قادراً على أن تغفر لي عام ثلاثة وأربعين. لكن حينئذ كان أيضاً "إما وإما"... الاختيار نفسه... السيدة تجربة... إما لازاريف وإما أنا. غير أنني بخلت بطلقة واحدة على نفسي... لقد أردتَ أن تعرف هذا. أما الآن فوداعاً يا فولوديا. لن يرى أحدنا الآخر بعد الآن".

"-وداعاً يا إيليا. كل شيء ممكن في هذه الدنيا".

"-ليس كل شيء يا فولوديا، ليس كل شيء".

لم يكن فاسيلييف يحب قبلات الرجال فتأرجح كل منهما باتجاه الآخر على نحو أخرق، بيد أن أياً منهما لم يقبّل الآخر، ضغطا وجناتهما ضغطات قصيرة غير مريحة وحسب، وقد تذكر فاسيلييف فيما بعد طويلاً وبألم هذه الملامسة الجليدية كالموت والرطبة بسبب من عرق وجه إيليا. شعر بهذه الرطوبة الباردة حين أوصلا شيغلوف إلى

المسرح بسيارة لوباتين، وحين سارت بهما نحو المرسم، وحين سعل لوباتين بكثافة متنهداً وهما يفترقان، وجذب لحيته وتمتم في شرود مليء بالأسف: "أنموذج غير بسيط أبداً، هل تفهم، فليأخذه العفريت". ومن ثم في الضيق المحيط به والأليف والعزيز في مرسمه، الذي سبح به كفلك نوح في الهدوء المسائي محملاً برفوف الكتب والمنصب والمناظر الطبيعية التي وزعها صباحاً على جدارين ونسي أن يجمعها، والمطلة باللون الذهبي الرقيق لهدوء ما قبل الغروب على ذرا البتولا، وبشمس الصباح الشتوي الزهري المبكرة، وبالعُرْي الوداعي للخريف المتأخر...

*****

الفصل التاسع عشر

في الساعة العاشرة صباحاً اتصلوا من الفندق بفاسيلييف، وبعد أن تحققوا أكثر من مرة من اللقب والاسم واسم الأب قالوا له إن لديهم رسالة له من السيد رامزن، ويرجونه رجاء حاراً أن يستعجل في المجيء لاستلامها، فالظروف تقتضي بضع شكليات عاجلة مثل التوقيع عند الاستلام. حين سمع فاسيلييف هذا الصوت الغريب المهذب، الشارح بعبارات منمقة سبب قدومه المأمول والعاجل إلى الفندق (بدا واضحاً أن الصوت لم يقل كل شيء) فهم من غير أدنى شك أن الأمر، طبعاً، لا يتعلق باستلام الرسالة المتروكة له رسمياً بل بشيء آخر، لذلك عبّر عن عدم فهمه بسؤال ساذج: ما الذي حدث في نهاية الأمر ومع من يتشرف بالتكلم؟ قدّم الصوت المهذب نفسه على أنه مدير الفندق، بل إنه من مشجعي الفن، ويسره أن يتعرف إلى رسام معروف ويستقبله شخصياً في بهو الفندق كي يقدم له الاهتمام والمساعدة قدر المستطاع.

فكر فاسيلييف، وقد غطاه عرق القلق، وأنزل سماعة الهاتف باستعجال حائر كحيرة رجل غير مؤهل لمقاومة ما يجره تفاقم خطأ محتمل: "ثمة شيء ما حدث لإيليا، وعليّ، على ما يبدو، أن أكون هناك وأقدم المساعدة له بطريقة ما".

مساء أمس رفض إيليا بحزم مرافقته إلى المطار، وقد طلب زيادة على ذلك أن لا يتجشم أحد عناء الاتصالات المضنية بالهاتف، أما الطائرة المسافرة إلى روما فستنطلق في الحادية عشرة وأربعين دقيقة، فإذا غادر الفندق قبل ساعة من الإعلان عن الرحلة فينبغي أن يكون الآن في مطار شيريميتوفو. لكن لماذا لم يرسل الرسالة بالبريد العادي قبل ذهابه إلى المطار، لماذا أبقاها لدى المدير، ولماذا، أخيراً، أحاط

رحيله بهذا الغموض؟ طوال الطريق إلى المركز، وفي عربة المترو، وبعد أن صعد إلى الساحة الصباحية، المشمسة، الربيعية، التي تعشي الأبصار بالأشعة على برك الماء فيها، وبزجاج الحافلات الكهربائية، وببقع النور الحارة لرتل السيارات المقرقع الذي لا ينتهي، ظل يفكر باللباقة المبالغ بها في نبرات المدير، الذي، بكل وضوح، لم يقل الشيء الرئيسي، وتفاداه بالكلمات المنمقة عن حبه للفن – وانقبض قلبه بقلق بانتظار رسالة إيليا غير المتوقعة هذه، إيليا، الذي سمح لنفسه أمس بأشياء كثيرة بعد امتناع ونظام حمية طويل اقتضاه مرضه.

حين دخل فاسيلييف البهو تفاقم لديه إحساسه الناشئ المسبق بشيء ما غير عادي ومتبدل خلل الليل في الفندق بسبب من خدر أمس، وهنا استدارت للقياه العينان اليقظتان لموظف الاستقبال الأشقر خلف المنضدة القائمة، واستعجل ليقطع الطريق عليه في الحال عبر الممر المغطى بالسجاد رجل صغير أصلع، شع بفرح ملقّن، وقد ارتدى بزة سوداء بصديرة مزررة فوق بطنه، وهو على الأرجح المدير نفسه الذي اتصل بالهاتف، وأشار منبهاً إلى السلم والمصعد وهو يقدم نفسه بمهابة مريحة، لكن من غير أن يمد يده، ونطق بصوت غنائي هديلي متأدب:

"-شكراً لأنك حضرت يا فلاديمير أليكسييفيتش. أرجوك أن تتفضل إلى جناح السيد رامزن. سأرافقك من بعد إذنك. كيف تفضل؟ بالمصعد؟ على السلم؟..".

قال فاسيلييف متذكراً أنه صعد السلم أمس مع لوباتين إلى الطبقة الثانية، وغير فاهم مع ذلك لماذا ينبغي عليه الصعود إلى جناح إيليا الفارغ، احتكاماً إلى الوقت، بعد ذهابه إلى المطار:

"-أليس الأمر سيان؟" ثم سأل نصف مازح: "-هل تريد أن تسلمني الرسالة على نحو احتفالي في الجناح الذي عاش فيه السيد رامزين؟".

صحح المدير باستعطاف، وتوردت صلعته الواسعة: "-السيد رامزن. هل قلت رامزين؟".

صحح فاسيلييف: "-آه، نعم، نعم. هكذا تحديداً: السيد رامزن. نعم، رامزن، رامزن، طبعاً".

صعد هذا الرجل الأصلع الصغير السلم بانضباط، حاملاً بصلابة بطنه الوقور

محركاً مرفقيه بحيوية وبطريقة عملية. وفي الممر على الطبقة الثانية بالقرب من جناح إيليا بدأ وجهه المدور يتبدل برمشة عين، وزحف حاجباه على جبينه باستغراب مستنكر، وتكلم عند الباب الضخم بقوة النزاهة الجافة ممسكاً بالقبضة النحاسية:

"-ما أشد عجبي، ما أشد – ده...".

وبعد أن وقف مديراً جانبه بطريقة ما وحانياً رأسه بغطرسة أفسح المجال لفاسيلييف كي يتقدم، لكنه لم يدخل الجناح وراءه بل أغلق الباب الهائل من الممر وهو ممتلئ بالتبجيل المتشامخ – ونفخ صمت الكارثة الضاغط في وجه فاسيلييف فجاءة هنا، في غرفة الدخول، حين رأى على المشجب معطف إيليا الرمادي وقبعته، وحين أحس برائحة السجائر المرة، ورائحة طعام أمس غير الطازجة، و رائحة الخمرة المصبوبة الحامضة والقابضة، وحين اصطدمت عيناه بالمنضدة الكبيرة غير المنظفة والأطباق وفيها بقايا المقبلات الباردة والسلطات وزجاجات الشمبانيا المختومة في دلاء الجليد الذائب، والزجاجات الفارغة البارزة بفوضى من بين أدوات المائدة النظيفة والمناديل المطوية على شكل حلقات والمقبلات غير المسوسة (حجز أمس طعام يكفي عشرين شخصاً)، وحين رأى رجلين غريبين في الغرفة، التفتا نحوه دفعة واحدة بأنظار فاحصة غير واثقة ومتشابهة. كان أحدهما متقدماً في السن، وذا وجه مجعد جاف، رمى معطفه على مسند الأريكة، بيد أنه لم ينزع عن رأسه قبعته اللبادية، وجلس مستقيماً عند حافة المنضدة وراح يقرع بأصابع المدخنين ورقة موضوعة في مصنف مفتوح، وقد كتب على ثلثيها، ووضع إلى جانب المصنف قلم متعدد الألوان. أما الرجل الثاني فكان شاباً بما يكفي، طويل القامة، في معطف ربيعي خفيف، مصفف الشعر جيداً، شبيهاً في مظهره بعامل سفارة متمكن، وراح ينظر إلى وجه فاسيلييف العابس مستديراً عند عتبة الغرفة الأخرى، وهي غرفة النوم على ما يبدو، (شعر فاسيلييف بارتجاف عصبي من هذا الاهتمام به الخالي من التكليف) وقال على نحو رسمي خال من الحماسة:

"-أنت الرسام فاسيلييف فلاديمير أليكسييفيتش؟ لقد أقلقناك، اعذرنا على هذه الشكليات الضرورية. اجلس من فضلك، اجلس، اجلس يا فلاديمير أليكسييفيتش". أمره بذلك وهو يدفع نحوه عرضياً الكرسي، وسار على السجادة حتى نهاية المنضدة

حيث كان جاف الوجه يقرع أصابعه، ثم استدار هناك مطوحاً كراقص باليه بحوافي معطفه فاتح اللون، وتكلم بنصف صوته مقترباً من بعيد على ساقيه المرنتين وكأنه يزحف بحدقتيه الفاحصتين إلى داخل عيني فاسيلييف، الذي جلس لسبب ما قبالة باب غرفة النوم:

"-من المعلوم يا فلاديمير أليكسييفيتش أنك كنت صديقاً... على معرفة قديمة بالسيد رامزن، أليس كذلك؟ يتلخص الأمر في أن...".

كان باب غرفة النوم مفتوحاً، وسال من هناك صمت مطبق تجف له العروق، وشعر فاسيلييف، قبل أن يسمع كل ما كان على الشاب أن يقوله له، بأن باب غرفة النوم المفتوح هذا ينفخ في وجهه رائحة الموت الخانقة، رائحة فاقت كل حد لصحراء قاحلة، وبأن إيليا هناك، في الغرفة المجاورة، مستلق على ظهره، غير مستعجل إلى أي مكان –لا إلى المطار، ولا إلى الطائرة، وقد بدّل فوراً لنفسه معنى هذا الصباح الربيعي الصاحي والهدف منه ومن قطرات آذار وراء النافذة والسماء الزرقاء الساطعة فوق أسطح موسكو المبللة الحية، البعيدة عن هذا الجناح وعن كل ما لم يفهمه فاسيلييف بوضوح بعد من حديثه الغامض مع المدير. وعلى الرغم من أن فاسيلييف رأى من باب غرفة النوم المفتوح قسماً فقط من المرآة القاتمة الكبيرة وغطاء الحقيبة غير المرتبة المرمي إلى الخلف على منصب الحقائب وحافة الفراش والمفرش المدعوك وقد تدلت زاويته حتى الأرض، فإنه لم يشك ولم ينخدع بالأمل وبإمكان أن يكون مخطئاً – كان يعرف رائحة الموت في المنزل - رمادية، جافة، رائحة تنفذ إلى كل مكان وقد تكون رائحة هواء الميت نفسه وأغراضه وأدواته وملابسه، لكنها بالإضافة إلى ذلك رائحة شيء ما آخر، مادي ولا جسد له، إنذار معمم بالخطر وتحذير يذكّر بالمدة الأرضية القصيرة وبالنهاية الواحدة...

تكلم فاسيلييف بصوت خشبي: "-هل تريد أن تقول إن السيد رامزن قد توفي؟ وتريد أن تقول إنكما دعوتماني... كي تسلماني رسالة المرحوم، هل الأمر كذلك؟".

دار الشاب دورة مرة أخرى مطوحاً بحوافي معطفه سكري اللون كالأجنحة، وصارت حدقتاه المحققتان تزحفان من جديد إلى داخل عيني فاسيلييف.

صحح لفاسيلييف بنبرة الحقيقة القاهرة، التي لا تقبل النقاش: "-لا أريد أن

أقول، بل من واجبي. من واجبي أن أقول إن السيد رامزن لم يمت موتاً طبيعياً، بل قتل نفسه".

"-أي أنه... كيف قتل؟".

"-تفضل واتعبني يا فلاديمير أليكسييفيتش". اقترح الشاب عليه ذلك بارتياب بطيء وهو لا يزال يغرز حدقتيه في فاسلييف، فنهض هذا الأخير آلياً، ومن غير أن يسمع جيداً الكلمات التي حثته على فعل ذلك: "-لا، ليس إلى غرفة النوم، بل إلى الحمام. تفضل...".

لم يتسن له أن يفهم لماذا يدعوه إلى الحمام، لكن المعطف ذا اللون السكري حف أمامه وحجب باب غرفة النوم، ثم تحرك وظهر محاصراً بالسيراميك الأبيض والصنابير المطلية بالنيكل والمرايا الضخمة ذات الرفوف القاتمة، التي لاحت عليها منحرفة باتجاه ما زجاجات اللوسيون الصغيرة وماء العطر والكولونيا ومعجون الأسنان وآلة حلاقة غير مغلقة، ثم تحرك المعطف في الحال إلى جانب المرايا والرفوف، وتكلم بعد ذلك من الإشعاع المتزحزح للمرايا والمغاسل الخزفية والسيراميك صوت غريب خال من الثقة، قائلاً جملة نصف توكيدية متعلقة بوسائل الانتحار الغريبة – وكان ما انكشف لفاسلييف مهولاً بفجائيته وحدوثه القطعي مثلما هو قطعي دائماً فعل الموت الإنساني الأشد غموضاً والأشد حزماً. لكن من رآه فاسلييف في الحمام لم يكن إيليا وفي الوقت نفسه كان هو، لأن الرجل الغائص حتى صدره في الماء الراكد الداكن بدا وكأنه نائم، ملقياً رأسه إلى الخلف قليلاً بسكون تام، وتعب وعجز، وقد فقد وجهه قسماته الصارمة وتوتره العصبي الذي سببه اهتياج الثَمَل أمس، وانبسط ليونة وهدأ، وتدلى الشعر الأشيب على جبينه على شكل حلقة صبيانية، وأعاد الوجه شيئاً ما من الوسامة السابقة الفتية الرجولية لإيليا، معشوق المدرسة وشارع زاتسيبا في زاموسكفوريتشيه، وهنا لحظ فاسلييف أن ظل رموشه غير المطبقة بإحكام قد استلقى مثل خط ضعيف تحت جفنيه بسبب من ضوء المصباح القاتم، الذي ظل منارا في الحمام.

"ما حاجتك يا إيليوشكا إلى مثل هذه الرموش؟ هبها لإحدى الفتيات". تذكر فاسلييف كلمات ماشا المازحة المتحدية هذه، التي قالتها في ضباب الطفولة السعيد،

التي لم يتجل منها شيء واضح في هيئة إيليا، لا أمس ولا في أثناء لقائهم في فينيسيا، وها هو يظهر الآن على نحو مألوف – وفيما هو يتذكر رأى فجاءة على السيراميك أثراً واسعاً من دم متخثر على شكل مروحة يدوية، وصار على الرغم منه يبحث في الحمام بعينيه شاعراً بالدوار في رأسه، فاصطدم نظره بالشفرة الخطرة الملطخة بخطوط حمراء والملقاة عند الجدار على الأرض. وتخيل بوضوح إلى حد الإحساس الجسماني ما فعل إيليا بهذه الشفرة، بعد أن فتح الماء في حوض الاستحمام، وكيف انتثر الدم من عروقه مثل نافورة ضيقة على الجدران المغطاة بالسيراميك، وعلى الشفرة، وكيف قذفها محروقاً بالألم حين لم يعد يحتاج إليها، وأنزل يده في الماء منتظراً النهاية، ملقياً رأسه، ومغمضاً عينيه...

قال فاسيلييف بصوت مبحوح: "-الشفرة". وانحنى كي يرفع الأداة الحادة البراقة، التي قتل إيليا نفسه بها، لكن كتف الشاب المرن أبعده في الحال بقوة عن الجدار، وكاد يقلبه بدفعته الحادة وبأمره المتسلط:

"-إلى الوراء. لا تلمسها. ما بك –هل جننت؟".

"-لا أفهم، ماذا...".

أمره الشاب بصوت تملؤه الإرادة: "-ستفهم فيما بعد. أرجو أن تتبعني إلى غرفة النوم". وحف المعطف فاتح اللون من جديد، وراح يتمايل في الأمام في باب الحمام المشرع من الحمام إلى غرفة النوم.

هنا عكست المرآة الكبيرة على قد نصف الجدار (من الطراز الامبراطوري التجاري)، التي أفسدها الاصفرار في أماكن متفرقة، بدقة مذهلة جزءاً من الغرفة والسرير المزدوج غير المرتب، وغطاء اللحاف المكوم والمرمي باتجاه الأرجل، والوسادة المدعوكة – والفراش، الذي لم يره فاسيلييف إلا خطفاً، متخيلاً في الحال كيف استلقى عليه إيليا العاري وحيداً في دقائقه الأخيرة وهو يفكر مودعاً العالم قبل أن يذهب إلى الحمام.

عند موضع الرأس من السرير على الخزانة الصغيرة، التي لطختها البقع الدبقة في مظهرها، والتي أهيل رماد السجائر عليها، كان ثمة زجاجة شمبانيا فارغة، وقد ارتفعت كومة من الأعقاب في صحن السجائر وألقيت علبة "سالم" فارغة.

اقترب الشاب من منضدة التبرج من غير أن يتلكأ عند السرير، وانحنى هناك باهتمام، بعد ذلك نادى فاسيلييف بإشارة من رأسه المشط جيداً، وسأله بغموض خطر:

"-هل هذا خطه على الصحيفة؟ هل تتعرف عليه؟ ممن يطلب المغفرة؟ منك يا فلاديمير أليكسييفيتش؟ انظر....".

نظر فاسيلييف.

كانت تلك صحيفة "موسكو المسائية" التي اشتراها إيليا، كما ينبغي الافتراض، من الكشك القائم في البهو، وقد فرشت على المنضدة، وقرئت على الأرجح، أو حضرت للقراءة، أو ربما فرشت لغرض مغاير، لكن كلمة متوسلة مضغوطة مكتوبة مرتين بخط غير مشدود وخزت العين بحدة وعلى نحو غير طبيعي في الأعلى، في الفراغ الشريطي: "سامحوني"، "سامحوني". انغرزت هذه الكلمة في الوعي بغموض ضرورتها وبتعقيد الهدف غير المعروف منها وببساطته وبإبهام حركة فكرة ما قبل الموت لدى إيليا، لقد نفذت إلى الصدر ببرودة حدها القاتل المدغدغة. وسأل فاسيلييف مشتعلاً اهتياجاً من ثقة الشاب القوية:

"-لماذا تظن أن على إيليا بيتروفيتش رامزين طلب المغفرة مني؟".

نطق الشاب بجدارة العدالة التي لا تقهر، مستثنياً أي توتير، وثنى بخفة منسابة صفحة الصحيفة على المنضدة، التي غطت مظروفاً غير مغلق: "-لأن رسالة المرحوم موجهة لك تحديداً يا فلاديمير أليكسييفيتش، لك أنت، لذلك اضطررنا إلى أن نقلق راحتك ونعطلك، كما يقولون، عن العملية الإبداعية، وعن خلق لوحات تتغنى بقيم الكدح....".

قاطعه فاسيلييف بسخرية، وقد مسته جملة الشاب المزيفة: "-ألست من النقاد الغابرين؟ يبدو الأمر وكأنك تسرد مقالاتك عن الفن التشكيلي المعاصر. هل أستطيع أن آخذ الرسالة؟".

"-لا، أرجو أن تقرأها".

تشنج فاسيلييف: "-أظن أنها موجهة إلي، لكنني لا أستطيع أن آخذها. هل صار محتواها معروفاً لكما؟".

صحح الشاب بتسلط: "-طبعاً، من واجبي أن أطلع عليها نظراً لمجرى... الأحداث غير العادية. لم نأت إلى هنا لنحتسي الكوكتيل يا فلاديمير أليكسييفيتش". وقدم له المظروف بنفسه ناظراً إلى وجهه ومضيفاً على نحو لا يخلو من تعنت: "-أرجو منك أن تطلع على محتوى رسالة المرحوم هنا، وأن تبقيها لدينا من فضلك حتى انتهاء التحقيق... آمل أنك رجل عاقل وتفهم أن كل شيء قد يحدث في الحياة، حتى الشرايين تفتح أحياناً بيد ليست يد صاحبها وبإرادة ليست إرادته... لا زلنا، كما يقولون، في طور البحث عن الحقيقة. لكننا سنجدها، أؤكد لك".

قال فاسيلييف باشمئزاز: "-لست كما يبدو رجلاً عاقلاً". وابتعد نحو المصباح المنار في نهاية المنضدة، ووقف مديراً ظهره للشاب كي لا يرى هذا الأخير وجهه وارتجاف أصابعه حين أمسك الورقة المكتوبة بخط دقيق.

"عزيزي فولوديا:

سامحني على رحيلي الشبيه برحيل سينيكا. لكن الأمر هكذا أبسط وأسهل. صديقي السابق، اهتم فقط بشيء واحد – أن يدفنوني في مقبرة موسكوبية ما، واغفر لي ما سأسببه لك من عناء كبير. أريد هنا، (شطب) حتى لو طالب بي رودولف (شطب)عبر السفارة. الإيطاليون يعاملون الموتى باحترام شديد، وقد لا يسمحون بذلك.

كلنا في هذه الدنيا وحيدون على نحو مأساوي، وكلنا فانون. كل الأمكنة مرعبة(شطب)....

ليس في مقدور أحد أن يساعدني –لا النقود ولا المرأة ولا صداقتك يا فولوديا.

كنتُ طموحاً، لكن القدر لم يكن رحيماً، لم أبقِ أي أثر من بعدي على الأرض. ماضينا وحسب كان رائعاً- فناؤنا، المدرسة، صداقتي معك، الشباب الذي لم يعد موجوداً ولن يعود إلى أبد الأبدين. الأرجح أنني لن أعرفك في العالم الآخر، ولن أعرف ماريا. وماذا سيكون هناك في عالم اللاجسد؟

مهما حدث لن يفرقنا شيء أمام الأبدية، ولن أتبرأ، يا صديقي الوحيد فولوديا، من ماضينا ومن شبابنا.

لا أدري بم الناس جديرون بعد: بالشفقة أم بالحقد، لكن لازاريف كان قدري، وكنت مضطراً إلى أن أخرج (شطب) حياً من الأسر. سنتفاهم في العالم الآخر. لم

أغفر له حتى وهو ميت.

قبّل ماريا، وقل لها إنها عبثاً تهربت من لقائي في موسكو. وهكذا فلم أرها. سامحني أيضاً على فيكتوريا. إنني أعترف، وأرجو غفران خطاياي.

المرجح أن ماريا كانت تعجبني في وقت ما، ولا أعرف ما كان سيحدث بيننا لو أنني لم أقع في الأسر. كان اسم المرحومة زوجتي مارتا زايغل. أحبتني بغيروعي كما يحب المجانين. كانت مارتا حدباء قديسة، عيناها حزينتان مثل مريم العذراء.

لو أستيقظ في العالم الآخر في صباح صيفي مشمس، ويبدأ كل شيء من جديد. عموماً، هراء عاطفي.

يؤسفني يا صديقي القديم فولوديا أنك، أنت أيضاً، الرجل الموهوب، لا تستحم في أشعة السعادة. وهل ثمة وجود لها عموماً؟

Finis[1]، ما باليد حيلة يا صديقي. انتهت الشمبانيا في زجاجتي، وكم كانت الكتابة سهلة. انتهيت. كل شيء واضح لي... هاهو الاختيار الأخير الذي أستطيع القيام به.

أليس الإنسان أداةً في أيد ما؟ من الذي يجري التجربة المجنونة علينا؟ من يريد السلطة علينا؟.

سامحوني، سامحوني، سامحوني.

الساعة الآن الثالثة ليلاً.

أظن أن أمي، المرأة الحديدية، سوف تحتمل رحيلي بهدوء. ثمة شيء وحيد يعذبني...

آديو.

إيلياكم كثير الخطايا.

****

قرأ ثلاث مرات متتالية رسالة إيليا، الذي تبين أنه انتحر في وقت متأخر من الليل، وهو الآن مستلق هناك، في الحمام، غاطس حتى صدره في الماء الملون بدمه، غير قادر على أن يجيب عن السؤال الرئيسي: "لماذا؟" لا، ما كانت أية شروحات من

[1] *النهاية (باللاتينية).*

شروحات ما قبل الموت ستعين أبداً هذه الـ "لماذا" الأبدية، وتخيل فاسيلييف مرة أخرى كم ساعة تقلب إيليا ههنا على الفراش، مفكراً بالحياة كلها وبلحظات حياته المولية قبل النهاية الدانية، مرتاباً فجاءة، وقد بلله العرق الدبق كله، قاضياً الثواني الأخيرة المتبقية للقيام بنَفَس واحد، وانقطاع الضوء. وراح يتهم نفسه ويقنعها، نابذاً ضعف التردد والجبن، بالإقدام على الخطوة التي تنهي كل شيء، وتسدد ثمن كل شيء، والتي ستنهال بعدها العتمة من الهاوية، جارفة إلى الأبد الشكوك والضوء الأبيض كله بألم قصير كالحرق. تخيل كيف صب إيليا، وقد عقد العزم، الشمبانيا مستلقياً واحتساها من هذه الكأس، التي حافظت على آثار القطرات عليها، وربما تكلم بصوت مسموع، وقرأ الجمل بصوت مسموع، ودخن السيجارة تلو الأخرى محموماً وناظراً حوله فيما ندر، وملتقياً في غمرة الخوف في فضاء المرآة على يساره بوجه نحيل غريب، ليس فيه قطرة دم، حكم عليه بالموت وانتهى أمره. لعله انتفض، ولم يعرف وجهه، فنهض ليمعن النظر في كل تجعيدة، وفي عمق عينيه، متجمداً على حافة الهاوية التي تنفست ظلمةً، وساخراً بغضب من الرعب المتسلل إلى روحه من جديد، ثم خلع ثيابه كلها، وقبل أن يذهب إلى الحمام ويفتح الماء ويجهز الشفرات الحادة ويفحصها، سقط بظهره على الفراش عارياً كما من أجل الإعدام في روما القديمة، ونظر إلى السقف المزركش العالي، المغبر قليلاً على نحو رمادي بفعل الزمن، والرائع ببساطته العادية، والذي حجب سماء الليلة الربيعية الرطبة....

هل كان إيليا يحسن البكاء؟ هل حدث الأمر هكذا؟ لماذا رأى فاسيلييف ساعات إيليا الأخيرة هكذا تحديداً؟

"-أرجو منك يا فلاديمير أليكسييفيتش أن تجيب عن بضعة أسئلة ضرورية، إذا لم يكلفك ذلك عناء طبعاً... قل من فضلك، أمس كان في ضيافة السيد رامزن، ما عداك وما عدا ابنتك فيكتوريا فلاديميروفنا، اثنان آخران –المخرج إدوارد أركادييفيتش شيغلوف والرسام ألكسندر غيورغييفيتش لوباتين؟".

"-ماذا؟ نعم، هكذا تحديداً، كانا، كانا..." تمتم فاسيلييف بذلك سامعاً على نحو سطحي صوت الشاب اللبق الممطوط، وعاجزاً في الوقت نفسه عن الخلاص من الرغبة الجامحة في النظر إلى عمق المرآة، الشاهد المشؤوم، وكأن وجه إيليا الخالي من

الدم، غير المعروف تقريباً، الذي ما زال حياً، الوداعي، المشوه باحتقاره لذاته أو بصبره على العذاب في تلك اللحظة حين كان ينبغي القيام بالخطوة الأولى والأخيرة نحو باب الحمام، مطبوع هناك، وسط انعكاسي السرير والجدار الثابتين، وفي مقدوره أن يظهر من العالم الفضي الآخر". لهذا أيضاً يغطون المرايا في منزل الميت". برزت هذه الفكرة في وعي فاسيلييف، وخطا غير دار بما يفعل، ملتصقاً بالمرآة حتى تعرقت من أنفاسه، نظر إلى انعكاس السرير المزدوج والفراش المدعوك، وشعرت وجنته بالهواء الصقيعي القادم من الجانب، من باب الحمام المشرع، حيث استلقى إيليا الآن. وضع المغلف مع الرسالة على منضدة التبرج وخرج إلى الغرفة الأخرى الفسيحة، التي ملأتها الشمس بحرية ربيعية ودفأتها، والشبيهة بقاعة ولائم ما مقارنة بغرفة النوم المعتمة.

قطب فاسيلييف وهو يجلس في الأريكة شاعراً بقذاله المتألم، الذي ثقبته بزالات مثلمة: "-لقد سألتني.... ماذا سألتني؟".

"-لم أستطع أن لا أسألك سؤالاً: من كان أمس برفقتك في ضيافة السيد رامزن؟ ابنتك والمخرج شيغلوف والرسام لوباتين؟"

قال فاسيلييف، الذي استحوذت عليه اللامبالاة والتعب الجسدي: "-نعم، لكن في الواقع لماذا تسأل ما دمت تعرف هذا جيدا؟"

"-ستضطر يا فلاديمير أليكسييفيتش إلى التحلي بالصبر وإلى الإجابة عن الأسئلة الشكلية". قال الشاب ذلك بخفة باردة مؤكداً كلمة "ستضطر"، وتدلى إلى مسند المرفق من الأريكة قبالة فاسيلييف، وسحب حافة معطفه المطري الخفيف، وأخرج من جيب سترته ولاعة رونسون، وأشعل سيجارة، وأشار بها باحترام إلى الرجل ضيق الوجه مجعده الجالس وراء المنضدة: "-وعن بضعة أسئلة ضرورية لتدقيق بعض التفاصيل سيطرحها زميلي".

كف الرجل المتقدم في السن، ضيق الوجه، عن قرعه المترقب للمنضدة، وتكلم بغير رغبة، وبصوت صدئ، ربما من التدخين، وصار يدقق في أية ساعة حضر الضيوف إلى الجناح ورحلوا، وهل غادروه معاً أم أن أحدهم بقي، أو ربما عاد أدراجه، ألم يتلق السيد رامزن اتصالات هاتفية في ساعات جلوسهم إلى المائدة، وصرّ صوته على نحو أصم، ولف فاسيلييف بشبكة عنكبوتية صفيحية واخزة، وراح

فاسيلييف يجيبه آلياً وقد أضنته هذه الدقة المتناهية للاستجوابات المفصلة والمتأخرة، وعذبه الألم المثلم في قذاله (لقد عرف متى ظهر مثل هذا الألم)، ورأى كيف صُوِّب القلم الناشف بالإصبع النحيل، وتعرجت الأسطر المتدفقة على الورقة كالأساريع منزلقة من الأعلى إلى الأسفل على هيئة فقرات سوية مرتبة ومربعات متراصة وأفواج كاملة من الأساريع الزرقاء الغليظة، مالئة أكثر فأكثر المستطيل الأبيض بفيالق لا حصر لها من الكلمات الموضحة والكاشفة والمدققة لما لن يوضحه الباقون على قيد الحياة أبداً أو يكشفوه أو يدققوه.

فكر فاسيلييف معانياً من الإحساس بالاختناق: "لن يساعد هذا في شيء، ولن يكشف الحقيقة". أما ضيّق الوجه فتابع توجيه أسئلته بنبرة العدالة الخالية من الحماسة نفسها، وسجل الأجوبة، وحفّ بالورقة، وقام بفواصل مهمة، ورمى في أحيان نادرة نظرات صارمة من عينيه الخضراوين الباهتتين نحو فضاءات الأبواب المفتوحة في غرفة النوم وكأنه يؤكد خصوصية ما حدث والضرورة الجدية للسؤال الموجه، وصحح في أثناء ذلك من وضع عقدة ربطة العنق الغليظة تحت تفاحة آدم.

كان أحياناً يصالب يديه على صدره متوقفاً عن الكتابة ومبتسماً برتابة، لكن النور الباهت لم يفارق عينيه المرتابتين المصوبتين مباشرة إلى جبين فاسيلييف، وحينئذ كان فاسيلييف يصمت كابتاً اهتياجه من الريبة الوظيفية متناهية الدقة، التي اتصف بها هذا الرجل، أو يجيب باقتضاب من خلل أسنانه وهو على وشك أن ينفجر ويشتعل بسبب من هذه الأسئلة البروتوكولية التي لا تفضي إلى شيء في واقع الأمر، ولم يعد لها معنى بعد رسالة إيليا، لكنه لم يعد يحتمل، وتكلم أخيرا بأسى غير خفي:

"-ألا يبدو لكما أن أجوبتي لا تضيف شيئاً إلى ما حدث؟ هذا كله عبث. تخطئان إذا ظننتما أنكما ستستطيعان أن تجدا عندي مفتاح الأقفال كلها. يا للأسف، الأمر ليس كذلك".

ضحك الشاب في المعطف المطري ذي اللون الفاتح ضحكاً غير مسموع نافثاً دخاناً وناظراً إلى السقف نظرة واضحة، وقال:

"-تقول مفتاح؟"

تكلم ضيّق الوجه بإلحاح، ودحرج تلال أدوات المضغ على وجنتيه الغائرتين: "-ن
-نعم، مفتاح... سؤال واحد آخر يا فلاديمير أليكسييفيتش. كان الراحل السيد رامزن مواطناً إيطالياً من أصل روسي كما هو معروف. في رسالته قبل موته، الموجهة لك... وعلى الصحيفة المتروكة عمداً على منضدة التبرج، أي في مكان ظاهر، كتب الكلمة الروسية "سامحوني" مرتين مع علامة التعجب. هل تستطيع أن تقول لنا ما الذي أقلقه؟ ألم يحدث أمس خلاف أو مجادلة ما؟"

أجاب فاسيلييف بجفاف: "-خلاف أو مجادلة؟ حدث. لكن هذا من مجال آخر ولا يفسر أي شيء".

عبّر ضيّق الوجه بحاجبيه عن اهتمامه الفائق:

"-حدث؟ مجادلة؟ من أي نوع؟"

قال فاسيلييف: "-لا أرى حاجة إلى الحديث عما لا علاقة مباشرة له بالانتحار. "وفهم من الاندفاع الغاضب الذي نهض به الشاب ذو المعطف المطري عن متكأ المرفق من الأريكة، فاتلاً في صحن السجائر بحدة السيجارة المنتهية، ومن الطريقة التي قرع بها زميله ضيق الوجه المنضدة بأصابعه ونظر على نحو مائل، أنهما مكلفان معاً بالتحقيق بظروف موت الرجل الأجنبي وسببه، وبالتالي فإنهما سيظلان يوجهان الأسئلة بغض النظر عن كل شيء إلى أن يقتنعا بصدق البرهنة المفصلة والضرورية من أجل توضيح القضية. لم يكن في مقدور أي منهما طبعاً أن يعرف تعقيد العلاقة المتبادلة بينه وبين إيليا كلها ودربهما الطويل كله، من أيام المدرسة ما قبل الحرب وحتى الغداء أمس، حين بدأ إيليا (الآن فقط اكتسبَ الكثيرُ المبرراتِ المنطقية) يقتل نفسه بشربه الشمبانيا اللامحدود وبالتدخين وبغوصه ذاك في صمته الداخلي الذي لحظه فاسيلييف أمس. لقد أبقى، على ما يبدو، في وعيه القرار الذي اتخذه، وإلا لما حدث ذلك الوداع وتبادل القبل الأخرق بينهما، والأدق، ملامسات الوجنات الرجولية في أثناء الوداع إلى الأبد -عرق وجنتيه الجليدي لا يزال حاضراً برطوبته المدغدغة. لا، مثل هذا ما كان بالإمكان شرحه لأحد ما عدا شخصاً وحيداً لم يفسده شيء، وهو لوباتين. كم افتقده في هذه اللحظات. لو كانا معاً لغدا فهم كل جملة من جمل إيليا، التي قالها أمس قبل بضع ساعات من موته، أسهل وأوضح. لكن فاسيلييف شعر

باستحالة إدراك حزم المنتحرين وباستحالة إدراك إراداتهم التي تحلى بها إيليا كونه أقوى من الآخرين وأعند منهم.

وتكلم فاسيلييف بصوت سوي نابع عن إنسان متعب تعباً لا حدود له:

"-تذكرت... وفكرت..." فليسد العدل وإن مات العالم كله... "كم معرفة الحقيقة جيدة... لكنها مخيفة ومضحكة – من يحتاج إلى الحقيقة، ومن أجل من هي ما دام انتصارها يشكل الهاوية... بين الناس.. هل تفهمانني؟ لا أريد أن تشكا بأحدهم من غير سبب. تريان ما حدث هنا. ليس ما حدث جريمة قتل. لا أستطيع أن أضيف أي شيء آخر".

تكلم الشاب ذو المعطف المطري – سكري اللون نصف لائم، وأسبل متنهداً تنهيدة قصيرة عينيه وكأنهما متألمتان: "- لست متعاوناً يا فلاديمير أليكسييفيتش. لا أفهمك جيداً. كان قبلك هنا ممثل سفارة إيطاليا، وقد لا تكون الأمور كلها كما تفكر... ألا تريد الإجابة عن أسئلتنا وتدقيق بعض الأشياء؟"

"-وهل الشيء الرئيسي فيما سأقوله لكما". لا أعرف الشيء الرئيسي. لا أحد يستطيع معرفة الشيء الرئيسي في الحياة والموت".

"-إذن، أرجوك أن تشرح كتابياً، كما يقولون، ما كان أمس في هذا الجناح"

"-وتظن أن الحقيقة ستنتصر حينئذ؟"

"-أرجوك، أرجوك رجاء حاراً".

برقت طوال الوقت إطارات السيارات المنطلقة عبر الساحة وسطعت وحفّت، وشبّت على امتداد البولفار بقع الضوء وتراقصت منعكسة عن زجاج الحافلات الكهربائية، التي راحت ترمي الشرارات النارية عن الأسلاك، و تناثرت رذاذاً على البرك شمس آذار الشعثاء، وفاحت بحلاوة في كل مكان رائحة الربيع والثلج الذائب ورطوبة الهواء الدافئة، وتصاعد البخار الخفيف عن الأرصفة المبللة، المغطاة بالجليد المتكسر، وارتفع الدخان عن أسفلت الساحة الجاف في بعض المواقع تحت الشمس. في المركز، وكما هي الحال دائماً، سارت حشود المارة وتحركت في ألبسة ما عادت شتوية، فكان الكثيرون في معاطف خفيفة وكان الكثيرون من غير قبعات، واندفع بحيوية نحو مدخل الفندق بين الحافلتين السياحيتين المقتربتين والفاحتين

بمكبحيهما حشد أجنبي مختلف الألوان، في ستر تصدر حفيفاً وطاقيات طويلة الحوافي وحقائب سفر مبرقشة وكاميرات تصوير، وطوق فاسيلييف لغط أجنبي وضحك غير خجول، وانزلقت إلى جانبه نظرات راضية، شبعة، غير منتبهة، وسبحت رائحة اللوسيون الغريبة، المرة والمفرطة في الحلاوة، وطلاء الشفاه الغريب، وسمع كلمة "يافول" المعروفة، التي انغرزت أول الأمر في ذاكرته مثل إبرة، ثم راحت تتأرجح في حر الشمس مثل عوامة حمراء مدببة الطرف. وخطر له في الحال أن "يافول" هي الحرب والألمان والحر في أوكرايينيا، ورتبة الملازم وشبابهما، هو وإيليا، وتلك المعركة الليلية غير المتكافئة عند معبر السكة الحديدية والساعات المصيرية قبل الأسر، التي كانت لا تزال تحمل السعادة لإيليا، المستلقي الآن في هذا الفندق، الذي اتجه الألمان إليه، في جناحه على الطبقة الثانية، في الحمام المنار طوال الليل بالمصابيح المعتمة، غائصاً حتى صدره في الماء الداكن الدامي، منهياً متاعبه كلها مع الحياة، التي كان من المفترض أن يكون محبوبها، لكنه لم يصر... لكن من يعرف أين كان ذنبه القاتل تحديداً ومتى بدأ هذا كله؟ في الطفولة في زاموسكفوريتشيه؟ أم صيف ثلاثة وأربعين؟ هناك، عند المعبر، حين تركوا المدافع وعادوا، أما هو، المسعور، فصان في مسدسه ثلاث طلقات –اثنتان للازاريف- وواحدة لنفسه؟ وهذا مالا يعرفه أحد بدقة. الأمر الأهم كان أن إيليا – ذاك الفتي، القوي، الحازم، المنصاع للبريق الحار والخطر في عينيه السوداوين الساخرتين، وإيليا الآخر المنهك في الحياة، المريض، خائب الأمل، غير الراغب في أن يرغب في أي شيء آخر، قد فارقا الحياة...

"هل أفهم ما حدث؟ اقتطِع جزءٌ من حياتي؟ من غير إيليا لا أستطيع أن أتخيل طفولتي ولا الحرب ولا شبابي...".

ولم ير فاسيلييف عمق السماء المزرق فوق الساحة، ولا رذاذ الشمس المعمي في البرك، ولا سواقي الثلج الذائب في الشوارع، ولا فوضى الحشود وسرعة التبدل الربيعية الجامحة لهذه المدينة الكبيرة المستيقظة من الشتاء. دخل عند ركن الفندق قمرة الهاتف العمومي، التي راحت ترن بمرح بسبب من دفقات الهواء المندفعة عمودياً من سقفها، وطلب رقم لوباتين ووقف في ضجيج الهواء الجنوني الخانق هذا طويلاً وفي حلقه غصة ومغمضاً عينيه ولا يسمع شيئاً.

****

الفصل العشرون

بعد بضعة أيام استيقظ وسط الليل في مرسمه بسبب من قلق خانق، ونهض من السرير وهو يئن مسنداً قذاله إلى الجدار وساعياً بتنفسه العميق كي يخفف من ضربات قلبه.

فكر فاسيلييف: "لا، لم أعان من هذا أبداً من قبل. أستيقظ كل ليلة ولا أجد لنفسي مكاناً. لكن لماذا لا يفارقني هذا؟.. كنت إنساناً آخر منذ خمس سنوات فقط. عشت عيشاً مريحاً وانخدعت بالنجاحات وبحب ماشا وبعملي المفضل الذي لا ينتهي في المرسم. كم كان مضنياً ومفرحاً البحث عن الجمال في وجوه الناس وأيديهم، وفي الندى الفضي الصيفي البارد على نبات راعي الحمام عند حوافي الطرق، وفي الهواء الخريفي، وفي ثلج ليلة هادئة زرقاء... وماذا؟ هل وجدته؟ أجب نفسك عما يعني الجمال – الحقيقة؟ جوهر الطبيعة العاري؟ الحب؟ العذاب؟ وهل نستطيع أن نعرف معرفة حقيقية ماذا يعني لنا الجمال؟ أين يكمن؟ أين؟ وهاهي الشفقة على كل شيء مرة أخرى، وألم القلق هذا، وكأننا أضعنا شيئاً ما فلا نعي لماذا يحتاج أحدنا إلى الآخر. ومن غير هذا ليس لأي شيء أي معنى. لا، ليس الجوهر في هذا. كل منا يريد أن يعيش الحياة المكتوبة فأضعنا طبيعيتنا. كل واحد فينا مذنب بحق الآخر. خنقنا الأرض بالأسفلت... هل من المعقول أن هذا هو اختيار القرن العشرين؟ آه لو أننا نستطيع فهم جوهر أنفسنا. لا، عليّ أن أكف الآن عن التفكير بهذا، عليّ أن أغفو – والخلاص في هذا. لا فكرة واحدة، وستصير الحال أسهل... هذا أيضاً اختيار – أن لا تفكر. كان ثمة ديميدرول في مكان ما هنا على الخزانة الصغيرة الليلية. لقد وضعته

مساء، والماء في الكأس. فلأتناول حبة أخرى وأغرق في النوم، في النوم...".

تحسس بارتياح تقريباً حبة الديميدرول على الخزانة الصغيرة، وابتلعها بصعوبة شارباً وراءها الماء ومتوقعاً أن ينعم بالهدوء، ثم استلقى على ظهره شاعراً بالقرص البارد الخدر على لسانه، حيث كانت الحبة.

"-الآن، الآن سيصير الأمر أسهل...".

لم يأته النوم المنقذ، بل جذبته قوة متسلطة وحسب إلى الوراء، إلى يوم غير بعيد، رطب، قبل هطول المطر، وهناك، في يوم ما قبل المطر هذا حل بعض الارتياح حين انتهت جميع الإجراءات التوديعية، وغادر أول الجميع ممثل السفارة الإيطالية الصامت الذي حضر الدفن، أما الشبان الأربعة -حفارو القبور بسترهم المفتوحة والمتعرقون فأنهوا عملهم سريعاً، رامين بالمجارف الكتل المتدحرجة على التلة الترابية المستطيلة التي ارتفعت على أطراف سياج المقبرة الصدئ في ضواحي موسكو. بدأوا يضعون الأكاليل المحفحفة بقسوة وجفاف بورودها الاصطناعية، فاستدار فاسيلييف كي لا يرى عملية التبرج البذيئة التي يقومون بها. انتصبت حولهم في الضباب الليلكي أشجار البتولا العارية، المنتفخة بالعصائر، وسارت غربان القيظ السوداء بمناقيرها السمينة متسيدة المكان ومتهادية في الحقل المبلل المحروث من العام الماضي، وكان النور المشتت للربيع المبكر في كل مكان – بانت الشمس الدافئة وراء السحب، مع أن الجو كان ينذر بالمطر، وفاحت رائحة الثلج الذائب منذ وقت قريب ورائحة الهواء الرطب. إلى يسار المقبرة فقط انقشعت الغيوم – وطارت في سماء آذار الساطعة فوق سطوح القرية غير البعيدة الغيوم البيضاء الثقيلة الممتلئة والمنفوخة مثل الأشرعة بالهواء الرطب. "يجب أن أحفظ هذا". برقت آلياً هذه الفكرة في رأس فاسيلييف، وفي الحال فكر متضايقاً من نفسه بأن حياته مسممة إلى الأبد بعمل ذاكرته الاعتيادي، التي دربها كل يوم وطوال حياته مهذباً إياها إلى أقصى حد: "لا، هذا جنون لا شفاء منه- إنني أنظر إلى كل شخص ويخيل لي أنني أحرز أفكاره وأحفظ تعابير عينيه...".

****

رفضت رايسا ميخائيلوفنا، المريضة منذ يومين بضعف في القلب، أية مساعدة من ماريا، ولم ترغب، وهي مستاءة جداً من شيء مجهول، في الحضور إلى المقبرة مع الجميع، فطلبت من فيكتوريا "إسداءها خدمة" وأتت بصحبتها في سيارة أجرة، لكنها لم تستطع الخروج منها، واقترب الجميع منها كل بدوره لتعزيتها. لم تكفها قواها على الأرجح، وفي لحظة الدفن، حين أهالوا التراب بالمجارف على غطاء النعش المنزل في الشق البني، كانت جالسة وراء الزجاج المرفوع في المقعد الخلفي من غير أن تطلق فيكتوريا المرتبكة. بدا من هناك وجهها الجبسي الصغير، الفاتر، الخامد باستياء أبي، وبرزت فوق شعرها الأشيب على نحو مأتمي طاقيتها السوداء الخرقاء المضحكة، موضة الثلاثينيات. رحلت من غير أن تقول كلمة واحدة، وأشارت فيكتوريا، التي التفتت نحو الزجاج الخلفي، للجميع بإشارات وداعية غير مفهومة، وتكسر حاجباها كما لو من بكاء صامت أو يأس. وحينئذ تذكر فاسيلييف كلماتها التي قالتها أمس في المرسم: "سامحني يا بابا على حماقتي، سامحني...".

تحركوا بعد ذلك صامتين نحو السيارات التي أبقوها على الطريق الزراعية خلف المقبرة. فتح لوباتين صندوق "فولغاه" المهلهلة، وأخرج من هناك صفيحة بلاستيكية مليئة بالماء المقطر، وشرعوا يغسلون أيديهم الملطخة بالطين الدبق من حفنات التراب التي رماها كل منهم في القبر.

"-أجله، أجله... كلنا سنكون هناك" تنهد شيغلوف وهو يجفف أصابعه بمنديل الأنف مرتبكاً ومصعوقاً بتفاصيل موت إيليا التي لم تفتر بعد، وبالجو الكرب في قاعة الأموات التي أخذوا منها جثة المرحوم، وبالصلبان القديمة المتحاتة، وبالأسيجة المائلة للمقبرة المهملة عند أطراف موسكو، هذه المقبرة القروية التي سمحوا بدفن إيليا فيها. خلع شيغلوف نظارته بأسى ساهم، وصار يمسحها من غير سبب بطرف معطفه الفرائي الذي بدا فيه أقل سناً على نحو حزين، وراح يمضغ شفتيه، فانكشفت هنا فجاءة، في هواء الحقل النظيف، شفافيته المسنة وجفاف وجهه، وطيات عنقه المعروقة، والتجاعيد غير القوية لإنسان قريب من اللاوجود وتخطى السبعين منذ

زمن طويل، وتردد صوته على نحو أضعف وغير معروف ولطيف، من غير أن يستطيع اكتساب لذاعته المعتادة الكاملة الداعية للعيش ضاحكين.

"-كل شيء محزن، محزن، ومحزنة لنا جميعاً الهواتف من الأبدية.. التذكير بأن المدة الممنوحة للجميع قد استنفدت، وهناك في الجدول السماوي ستوضح إشارة الضرب القدرية ذات يوم رائع. احفظنا أيها الرحيم، أبقني هنا، أنا الغبي، الخاطئ كي أعيش أيامي التعسة" ثم قال بعد دقيقة بنبرة متضرعة ومرتابة في الوقت نفسه، عائداً من جديد إلى اللعبة التي شرع يلعبها، حاجباً نفسه كما هو واضح وخائفاً من أن يظهر ذلك الذعر من القدر المحتوم والهلع، الذي انكشف على وجهه على الرغم منه: "-اعذروني يا أصدقائي برحابة صدر تامة، لكنني تذكرت شيئاً هائلاً في هذه الساعة المأساوية". تابع حديثه ماطاً الكلمات عن عمد كأنه يتلذذ بها على نحو غير شجي، ووضع نظارته جامعاً على نحو معبر التجاعيد على جبينه تحت سدارته المدفوعة إلى الأمام والتي جعلته يبدو أقل سناً أيضاً: "-دفنا منذ ثلاثة أشهر المخرج المسن سيريبروفسكي في مقبرة نوفوديفيتشيه. كان كل شيء رزيناً، سوياً، والنعوت جميلة: "بارز"، "خالد"، "الكبير" وما شابه... وحين اتجه الجميع في النهاية نحو البوابة مفكرين بالوليمة الجنائزية اقترب مني شبان من مسرحه، ضخام، لو تدرون، مثل ثيران وأفراس، وانبروا يسألونني مهمومين: "وصحتك؟ كيف؟"أمر هائل وبديع. م م؟ .."

تذمر لوباتين عابساً، وكف عن مسح يديه بالخرقة: "-لقد رويت لنا هذا. ماذا علينا أن نفعل-هل علينا أن نبتسم؟" وحرف نظره نحو ماريا، التي تأخرت برهة عند القبر وراحت توزع النقود من حقيبتها باستعجال على الشبان الأربعة ذوي المجارف: "-ماشا، هذا زيادة. يكفي، لا تفسدي الفتيان، هل تسمعين؟ لقد سددنا لهم كامل أجرهم وزيادة". هدر وهو يشدد بلوم على الحرف "O"، وصار واضحاً لفاسيلييف على نحو خاص أنه لولا طاقة لوباتين وعونه لاستحال عليه المرور عبر دهليز الموافقات والشكليات والمصادقات والأوراق والوريقات اللازمة من أجل دفن رجل يحمل جواز سفر أجنبياً في موطنه الأصلي.

همست ماريا وهي تقترب ببطء بعينين مسبلتين، وكانت رموشها مثقلة بالدموع: "-

غريب، يا للغرابة...".

أخذها شيغلوف من تحت مرفقها، وقبّلها قبلة ضعيفة على جلد الشموة الأسود لقفازها قرب معصمها، وقادها إلى السيارة.

تكلم إدوارد أركادييفيتش مطرقاً برأسه ومواسياً بحسرة ماريا على ارتباكها المأساوي: "-كل شيء غريب يا ماشينكا في هذه الدنيا، كل شيء غريب. والغريب يا عزيزتي أن حياة المرء بعد موته تبدو مزحة بسيطة مثل "م.. اء الأغنام".

اعترض فاسيلييف بتجاوز عابس في صوته: "-لكن هذا لم يخيل لي أبداً. لقد قلت هراء ببساطة. لا أفهم حدة ذكائك السخيفة ومرحك غير المناسب".

زعق إدوارد أركادييفيتش بدقة: "-أوه. صرتما مخيفين. إنكما لا ترحمانني. أنت يا ألكسندر غيورغييفيتش، وأنت يا فلاديمير أليكسييفيتش. صرتما لا تطاقان. "وشرع يرمش وتنشق بأنفه ونشج مستاءً بطريقة طفولية خالصة (وهذا ما لم يحدث له من قبل أبداً، وكأن دعائمه كلها قد تحطمت دفعة واحدة) تقوس ظهره واهتز رأسه مما جعل السدارة الواسعة تترنح على رأسه بمهانة، وأمسك بمقبض باب سيارة لوباتين متحسساً إياه بيده وأجهد نفسه على نحو حثيث كي يفتحه وهو يكرر صرخاته المؤنبة الدامعة: "-سريعاً، سريعاً، فلنغرب من هنا. أرجو إيصالي إلى المنزل.... يا إلهي، مرحي. مرحُ إنسان لا يجد في العيش مرحاً. إنكما لا تحبانني... إنكما تكرهانني... وهذا فظيع، وغير عادل. أرجو منكما أن تحترما شيخوختي على الأقل...".

لكن الأهم، الذي بقي في ذاكرة فاسيلييف، لم يكن انهيار إدوارد أركادييفيتش العصبي هذا، بل ما تذكره بعد ذلك طوال هذه الأيام بأدق التفاصيل إلى حد الألم.

ما إن هدّأوا إدوارد أركادييفيتش حتى جلسوا في سياراتهم وتحركوا، لكنهم اضطروا في الحال إلى الخروج عن الطريق الزراعية نحو حافتها مفسحين لجنازة راجلة اتجهت نحو المقبرة من جهة القرية.

سار في الطريق قرابة عشرة أشخاص، وتأرجح في الأمام على نحو سوي شيء ما

ضيق وأحمر، ذكّر أول الأمر براية نصف ملفوفة، لكن بعد ذلك صار واضحاً أنهم حملوا غطاء أحمر لنعش صغير صغراً غير عادي، نعش للرضع. خطا وراء الغطاء مترنحاً ترنحاً هادئاً شاب غير طويل، من غير معطف، مرتدياً بزة جديدة بلون فولاذي، وألقيت ملاءة شديدة البياض عبر كتفه، وقد حمل في هذه الربطة نعشاً صغيراً طفولياً، مسنداً إياه عند موضع الرأس منه وموضع القدم، وناظراً من غير انقطاع إلى الأسفل، إلى ذلك الذي رآه هناك، أمامه مباشرة، وسط الملاءة البيضاء الثلجية الملائكية، التي راح الهواء يثنيها طوال الوقت. رمى الهواء القوي المنذر بالمطر شعر الشاب الأشقر على وجهه، حاجبا إياه بستارة من القش – ومن المشية الزنبركية المقتولة لهذا الرجل المفجوع لمس فاسيلييف كل شيء...

سار بعده حشد صامت من شبان مع سلال مملوءة عن آخرها وحقائب للبضائع لم يكن معروفاً لم اصطحبوها إلى هنا، إلى المقبرة، وفي وسط الحشد راحت امرأة شابة غير جميلة ذات جبين قرمزي منتفخ تنتحب بغير صوت كالمغشي عليها، ماسحة وجنتيها بمنديل منسدل، ورافعة رأسها، ومترنحة، وقد قادها من مرفقها مرتبكاً رجل مسن في سترة قطنية. من كانت؟ أم الرضيع؟ قريبته؟ شقيقة الشاب؟

انعطفوا يساراً نحو طرف المقبرة، التي انطلقوا منها وتوقفوا عند حافة الطريق سامحين للجنازة بالمرور. وبدأ فاسيلييف يعاني فجأة من تماثل مرير وقرابوي مع هذا الشاب الأشقر المفجوع ومع المرأة الشابة غير الجميلة، المنتحبة كالمغشي عليها، ومع جميع هؤلاء الناس المحملين بالحقائب على الطريق كما لو أنه يعرفهم ويعرفونه منذ ألف عام، وبعد ذلك غدروا تكبراً وعداءً وحسداً ونسوا من غير رحمة وحدة الدم والقبيلة وبساطة الطبيعة الإنسانية المحببة.

قالت ماريا مغمضة عينيها ومسندة قصبة أنفها على يديها المتصالبتين فوق المقود: "-يا إلهي، كم نحن تعساء جميعاً...".

صمت مقطباً. قالت بعد ذلك وهي تمعن النظر إلى وجهه:

"-يا إلهي، كم أحبك. إن حدث لك شيء... فسأموت أيضاً...".

وشعت عيناها بدفء رطب نحو عينيه، وتدفقتا، وسالت منهما خطوط تعابير

الإحساس بالذنب والتوبة الهادئة المتأخرة، أما هو فراح يجبر نفسه على تقبيل حاجبيها الطويلين ورموشها المرفرفة المالحة بسبب من الدموع، التي رآها في أثناء الدفن سوداء على نحو مدهش ومسبلة ومنتفخة، وقال لها بصوت أبح ما لم يكن عليه أن يقوله:

"-لا أعرف يا ماشا لماذا حدث هذا كله على هذا النحو".

لكن ما حدث كان مختلفاً: لم يجبها حينئذ بشيء، ولم تكفه الإرادة كي يقبل الشفتين المقدمتين له، وهو يرى كيف شعت عيناها توسلاً وإحساساً بالذنب وعدم أحقية، وسمع صوت ماريا على نحو سيئ، وتعالى إلى جانبهما هدير محرك في مكان ما، وتردد الصوت الفظ لبوق سيارة لوباتين التي تجاوزتهما وبدأت فوراً تزيد سرعتها على المرتفع على الطريق الزراعية، بين الحقول، مؤرجحة في المقعد الخلفي قامة إدوارد أركادييفيتش المنكمشة خلف الزجاج والمثيرة للشفقة والهرمة...

****

كان الرأس لا يزال صافياً، والديميدرول يكاد لا يؤثر، وشعر فاسيلييف بقشعريرة الأسى السوي التي لا تدرك، كما في ذلك اليوم الحزين، منقبضاً من صدق ماريا ومن كلماتها المنفلتة منها في السيارة ("يا إلهي، كم نحن تعساء جميعاً...") ومن نظرتها الوجلة غير المبتسمة من خلل رموشها الملتصقة، والتي حاولت بها أن تخفف وتصلح ما حدث بينهما حين لم يعد لديهما ما يكفي من قوة.

وفي غفوته فكر بالديميدرول ملقياً رأسه على الوسادة: "الحمد لله" – وسرعان ما انبلجت بحيرة صغيرة دائرية نما فيها القصب وأحاطت بها غابة صماء، لكنها كانت وردية تماماً في ضوء الغروب الآخذ في الانطفاء فوق ذرا الشوح المسننة. بعد ذلك اشتعل كل شيء بصباح صيفي ساطع في مدينة أورالية صغيرة (إلى حيث رحل بها)، ولسبب ما رأى من الأسفل (وكأنه سبح تحتهما) ألواح حوض الاستحمام الخشبية المبللة، والشقوق الزرقاء المخترقة بالشمس المتوهجة، أما الماء، الرائق حتى بدت الحصى فيه، فبقبق وغسل العبّارات التي لا زالت باردة ومتعفنة بخضرة مخملية، وفاحت رائحة النهر النظيف والمروج الريانة المدفّأة... وتبين أن كل هذا الصيفي

الصباحي كان مرتبطاً بفرح بماريا وبجسدها الملوح المتين بالشمس وطراوة لباس السباحة. لكن كان من المؤسف أن عودته إلى صيف ما بعد الحرب ذاك خطرت مسرعة وخداعة كما كانت خداعة الأعماق الشفافة تقريباً الذائبة في عينيها، اللتين خيل أنهما بردتا من السباحة الطويلة، حين استلقت على العشب، ونظرت مجانبة إياه إلى زرقة السماء العالية وهي تعض على شفتيها، أما هو فحفظ إلى الأبد رائحة كتفيها الملوحتين كالشوكولا، في أريج العشب المقصوص الذائب، ومذاق شفتيها النهري الرطب وهمسها غير الواضح "لماذا، لماذا؟.." وصارت هذه الكلمة المنبثقة من بعيد تدور كالسلسلة في الأمام، وتنحدر إلى الفراغ المتقلقل، وسبح شيء ما مبهم ومخملي يثير القلق هناك على الأجنحة السوداء أمام الأعين. أراد أن يفهم من أين أتت الآن الفكرة المشوشة، لماذا تكررت بإلحاح هكذا مفلتة من العتمة على نحو غير هادئ وغائبة في العتمة جملةً كاملةً التقطتها ذاكرته وحفظتها:

"نحن تعساء لأننا لا نرى سوى الطبقة السطحية من الحياة...".

"من قال هذه الجملة ومتى؟ شيغلوف؟ إيليا؟ لوباتين؟ من الذي تحدث عن معنى الحياة منذ وقت قريب؟" أراد فاسيلييف أن يفهم في المنام وهو في الوقت نفسه كمن يراقب نفسه من جانب في هذا الحلم الذي لفه بخفة.

ورأى المدينة القديمة الصغيرة وقلعتها القديمة ذات الأسوار البيضاء والوردية، وذات الأبراج والنهر اللازوردي حول الأسوار والجسر الخشبي عند طرفها، وقد بدت تحته بدقة في الماء غيوم غاية في الرقة والمدينة الصغيرة القائمة كلها في الحقول، وذات الهواء القروي العذب الواعد بالفرح والحب والهدوء والاستمتاع الصاغر بالحياة البسيطة. لقد أحس مع شعور بالغبطة الثقيلة بهذه المدينة الصغيرة الرائعة التي لم يمسها شيء، والتي وصلها لسبب ما ورأى بوضوح غير عادي خط كفافها وتجمعات بساتينها وسطوحها المسالمة والقباب فوق النهر، رأى ذلك وهو في الوقت نفسه نائم على سرير الفندق في الجناح القروي الفواح برائحة الأرضيات المقامة من ألواح الخشب، وفكر بانبهار هادئ:

"كم حسن العيش أبداً في مثل هذه المدينة وفي هذا الهدوء المفعم بالحب وفي هذا السكون التام. لكنني سأضطر إلى الرحيل من هنا حاملاً معي الإحساس بالماضي

العزيز والحب الفتي والشوق إلى مثل هذا النهر الروسي والسماء الدافئة والغيوم البيضاء، وإلى هذه الغبطة الموجودة في مكان ما. لا، فحقيقة الفرح نفسها هنا".

بعد ذلك تردد بصوت عال جداً قرع على الباب، وسُمِعَ وقع خطوات ثقيلة في الغرفة المجاورة، وصوت ثياب شبيه بحفيف لزج لمعطف مطري من المشمع، ونفذ من خلل الجدار زئير عذاب أبح مع وقع خطوات راكضة لرجل غير معروف.

صاح بصوت خارج من حنجرته: "-بسرعة، بسرعة، بسرعة..." وكان واضحاً أن الرجل خلف الجدار شرع يفقد عقله ويذهب ويجيء في الغرفة ثقيلاً لا يمكن كبحه، مشعثاً، في معطفه وجزمته، قالباً الأثاث في طريقه، ويخور كالوحش مستثاراً بلعنة لا تفارقه: إما بالحب أو بالخوف أو بجريمة.

خيل له فجاءة أن كل شيء صمت هناك، وأن أحدهم يقف في غرفة فاسيلييف عند موضع الرأس من السرير، عارياً إلا من ثيابه الداخلية التي صارت رمادية في الظلمة، وقف ملقياً ظلا مسطحاً متوتراً كي يقوم بفعل مضمر ومخيف ضد شخص آخر دخل في إثره إلى الغرفة وشبحه يكاد لا يرى. (كيف دخلا إلى هنا عبر الباب المقفول بالمفتاح؟) ورأى فاسيلييف جيداً، وقد تملكه الرعب، ومن غير أن يدير رأسه، ومن غير أن يفتح عينيه، هذا الرجل المسطح قربه عند رأسه تماماً، ورأى جسمه الرمادي الطويل ووجهه المعتم المتطاول كالحصان، من غير شفتين وعينين، بقعةً متطاولةً معتمةً مع تعبير عن تهديد أخرس.

كان لزاماً عليه النهوض بغير إبطاء. كان لزاماً عليه أن يهب من السرير بسرعة البرق كي يتدارك الجريمة الفظيعة اللاإنسانية التي حُضِّرت لترتكب بحقه هنا، لكن قوة شيطانية كدرة ضغطته إلى الدهق فلم يستطع حتى أن يحرك إصبعاً أو يلتقط نفساً.

حين اندفع في الفراش أخيراً، كما لو أنه يغالب الخوف غائباً عن وعيه، وأطلق صرخة قطنية. مستعصية: "من هنا؟" متوقعاً رؤية الرجل عند موضع الرأس من السرير ويتبين بالتفصيل وجهه الخالي من العينين والشفتين، لم يكن ثمة أحد في الغرفة. حفّ الغبش الليلي في كل مكان، واسودّ فارغاً سرير ثان قُرِّب من موضع

الرأس من سريره. وزحفت الظلال في الأركان على شكل ضباب متضافر...

فكر فاسيلييف، وقد بلله العرق: "الحمد لله. هذا ليس سوى حلم". وكان واعياً أنه رأى في منامه حلماً ثانياً، هو استمرار لجملة أحدهم، طفت من ذاكرته ولا علاقة لها إطلاقاً بالمدينة الصغيرة البيضاء والوردية وبأسوار قلاعها القديمة والغيوم المفرحة في النهر وبالقامة الطويلة للرجل عديم الوجه عند موضع الرأس من سريره في غرفة الفندق. وظل يفكر في منامه مديراً رأسه على الوسادة المبللة بالعرق: "أريد أن أحفظ هذا الحلم، أريد أن أحفظه؟ لكن أين المعقول هنا؟ من يفسر لماذا كانت جنونية وثقيلة خطواته وراء الجدار، وصراخه الزئيري غير المفهوم، إن كان مهدداً أو متألماً، والحفيف المطاطي المقزز لمعطفه. لقد خفت من مساعدته، كان غريباً عني وهذا معناه أنني مذنب بحقه. لكن من هو هذا الرجل ذو البقعة المظلمة عوضاً عن وجهه –عدوي، قاتل، مجرم، أم قديس وأخ غير معروف؟ على بعضنا أن يعرف بعضنا الآخر، إننا متماثلون في عجزنا أمام الموت... مرة واحدة فقط في السهب اختبرت شعوراً مساوياً للخلود –هبوب الريح المشبع برائحة الشيح، بريق الشمس، العشب، الروائح الجافة منذ ألف عام، غياب البشر– وأنت مثل العشب من حولك والشمس تداعبه... ووحده الشعور الهانئ بأنك، أنت تحديداً، عشبة من هذا العشب، أو حجر وحيد دافئ على التلة، جزء من العالم الرائع – تلك هي الفلسفة كلها. نعم، هاهي السعادة: حينئذ رغبت في القيام بهذا الاختيار، لكن هل كان مؤاتياً لي؟ لقد بحثت عن معنى آخر في كل شيء. ولماذا؟ أليس من الضلال أن أعرف سر الحقيقة وجمال الزمن بوساطة عجزي الإنساني؟ ألا يكون إلى هنا مرد عذاب الإحساس بالذنب المتكرر لدي وحسرتي وأسفي على أن العالم كله معلق بشعرة واحدة، وأن شيئاً ما رئيسياً سيزول؟ ماذا سيزول؟ الطيبة؟ الإيمان؟ الثقة وشفقة الواحد على الآخر؟ لا، ليس الجمال الذي سينقذ العالم، بل حقيقة الحتمية المتساوية وفهم الهشاشة البشرية لكل منا. الجميع. لا قوة الجميع، بل ضعفهم المأساوي أمام الموت. وهنا لن يفيد شيء. لا الموهبة ولا المجد ولا المقام. لا شيء. حدد إيليا اختياره عام ثلاثة وأربعين كي يظل حياً... أما أنا بعد الحرب فاخترت طريقي في الفن نحو ذرا الزهو عبر الاستكانة: العمل، العمل، العمل. مثل المهووس. هذا معناه

أنني كنت محباً للعمل وناجحاً – ما هذا، السعادة؟ مغزى حياتي؟ فما الموت إذن؟ استنفاد الذات؟ لا، لم يستنفد إيليا ذاته... هل من المعقول أن الموت هو أيضاً اختيار، تجربة القوة الكونية التي تجري اختبارها على البشرية وتعيق معرفة مغزى الحياة الحقيقي؟ بم أفكر؟ بم؟ بأنني أريد أن أفهم وأفسر؟ هل أملك الحق؟ أنا نائم وأفهم أنني أفكر في منامي وأتخطى حداً مرعباً تبدأ الهاوية وراءه... هذا سبب شعوري بالاختناق، ولهذا أرغب في البكاء ولا دموع، وثمة شيء يضغط بمرارة... ماذا أريد أن أفهم؟ الاختيار الذي قام به إيليا؟ ماريا؟ فيكتوريا؟ نفسي؟" – فكر فاسيلييف بعينين مغمضتين عارفاً أن أفكاره كانت رؤية في المنام وفي الوقت نفسه حقيقية وملموسة وكأنه سبح في فضاء الليل السماوي كثير النجوم، خاضعاً لتحكم عقل آخر مراقب وقاس لم يتح له أن يغفو تماماً: "ومع ذلك أريد أن أفهم: هل ثمة معنى وحيد للحياة؟ وهل ثمة معنى وحيد للموت؟ هل يعقل أنني أريد فهم شيء هو فوق الحد، مبهم، لا تمكن معرفته؟ لا، إنها قوة الكون العظمى وطاقتها العاقلة، التي، ربما، تجرى التجارب علينا كما كان إيليا مقتنعاً. هل يعقل أنها تخدعنا بالحقيقة وبالكذب، وبالأمل الغبي بالصحة الدائمة، بنيل المغفرة بالموت وتختبرنا حتى بالحب الذي يذهب بالعقل... وتحطم وحدة الروح. هل الأمر هكذا؟ لكن إذا كان كل شيء كذلك فلا وجود لمعنى وحيد للحياة ولا وجود لمعنى وحيد للموت. هذا معناه أن على الأرض آلاف الأفكار وآلاف الاختيارات – ماذا إذن؟ ربما لهذا السبب لحظت كم الكذب منطقي وجميل وكم الحقيقة خرقاء وغير منطقية. لكن تستحيل الموافقة على هذا، ويستحيل اختيار شبابي الثاني ومصيري الثاني، لأن هذا كان وحيداً وبدأ منذ زمن بعيد في حياة ساحرة أخرى على كوكب سعيد آخر، حيث كان المعنى الرائع للعالم كله –في خلود الأمسيات الزمهريرية الليلكية في زاموسكفوريتشيه، والروعة الفتية الخالدة لماريا...".

****

لكن حينئذ، منذ زمن بعيد جداً جداً، كان الشتاء، وكانت الزوابع الكثيفة والسدود الثلجية على خطوط الترامواي والصقيع القاسي، وكان في الأمسيات ينتظرها طويلاً وعلى نحو متعب عند البوابة الخشبية المسدودة بالهطل المشعث المتراكم منذ أيام عديدة، وكان يتجمد برداً ساعات عديدة عند الركن في الزقاق المزرق باكفهرار

بالكثبان الهائلة من أوله حتى نهايته، وكانت الندف تتساقط وتبرق في مخاريط أضواء المصابيح. خرجت من البناء بقبعتها الفرائية البيضاء مبتسمة له ومشعة بعينيها، وتأبطت ذراعه بمهابة، وراحا يركضان عبر المربعات الحمر لنوافذ زقاقهم المغطى بالثلج حتى وصلا شارع شليوزوف المحاذي للنهر والملفوف بالبخار الصقيعي، وراحا يتزلجان على الممرات المتجلدة على امتداد الأرصفة قرب المحلات الصغيرة والصيدلية عند الركن على شارع زاتسبيا، المصفرة دائماً بسطوع من الداخل بزجاجها المتجمد والمغطى كله بالندى المثلج المتلون كالألماس.

تذكر كيف توقفت في هذه اللعبة أمامه مهتاجة بطريقة صبيانية، وجذبته ضاحكة نحو الخط الجليدي الرقيق المتلألئ لألأة خفيفة وهي تقترح عليه بحماسة:

"-انطلق وحاول على ساق واحدة. أمر ممتع على نحو لا يعقل. أو أنطلق أنا، وتقف أنت في نهاية الممر كي لا أقع".

والتقطها في نهاية الممر، وسقطت بمرح وكأنها تلعب لعبة بريئة، انطلقت، انزلقت على الجليد، وإلى أحضانه، أمسكت بكتفيه، امتزج بخار أنفاسهما، وشعر بنهديها تحت المعطف مثل تلين مرنين.

مرة، في نهاية الشريط الجليدي، تحت نوافذ الصيدلية نفسها، انطلقت واصطدمت بصدره والتصقت به على نحو خاص، ثم راحت وهي تبعد نفسها رادة رأسها إلى الخلف تعض شفتها، أما هو فهمس لها حينئذ شاعراً بدوار ضبابي في الرأس بشيء يائس ولطيف، وفزع من غضبها حين رأى أول مرة في هذه اللعبة كيف اختفى التعبير الضاحك من على وجهها.

استوضحت مخبئة ذقنها في فراء ياقتها، وقد كبرت في الوقت نفسه عيناها واتسعتا، ونمتا، وبدت الدهشة فيهما مثل فاصلتين براقتين: "-حقاً؟ أنت؟ تحبني؟ أنا؟".

حتى الآن لم يستطع أن يفسر حتى النهاية سبب حزم ماشا ذاك ولماذا أبعدت بتحد فراء الياقة المدفأ بأنفاسها وعرضت له ثغرها المبتسم وهمست له همساً متقطعاً:

"-حسناً، موافقة، هل تحسن؟".

انحنى نحو وجهها المرفوع المنتظر، وقبّل بخجل وعلى نحو أخرق رطوبة شفتيها المتباعدتين، أما هي فقالت له وصوتها يكاد لا يسمع وعلى وجهها تصعيرة خفيفة نزوية: "-لا أدري لم تجمدت برداً". وطلبت منه، وقد انكمشت، أن يوصلها إلى المنزل.

اقتربا صامتين من البوابة المنارة بالمصباح والمسدودة بالثلج، وهنا، ومن غير أن تودعه ومن غير أن تشرح أي شيء جذبته بيدها المدسوسة في القفاز إلى فناء منزلهم. سار خلفها صاغراً، وعند الباب على الطبقة الثانية فقط همست له أن أمها ستأتي من المسرح متأخرة وأن عليه في الشقة أن يسير في الممر على رؤوس أصابعه وبهدوء تام كي لا يدفع بكتفه، لا سمح الله، دراجة حمقاء أوطست الجيران الغبي. فتحت الباب حذرة بالمفتاح الإنكليزي، وتلفتت بغموض مشاكس واضعة إصبعها على شفتيها، وانزلقت أولاً إلى عتمة ممر الشقة المشتركة المشبع بدفء المدفأة، والذي تسللا عبره كلصين حتى باب غرفتها، وهناك، بعد أن فرقعت بالقفل مرة ثانية جذبته إلى ظلام عطري تام وحار تقريباً بسبب بعد الصقيع، تلفح فيه الوجه بعذوبة رائحة العطور وغبار السجاد الحلو.

أمرته هامسة: "-اخلع معطفك".

وأضيء النور حالاً في وسط المصباح الكبير الوردي الليموني، المتدلي على نحو منخفض فوق المنضدة المغطاة بمفرش أحمر مخملي. ورأى أول مرة هذه الغرفة المدهشة، حيث عاشت مع أمها الممثلة في مسرح موسكو. كان كل شيء مريحاً، قديماً، طرياً، فرشت على الأرض سجادة سميكة، وبرقت على نحو آسر الأواني الخزفية خلف زجاج خزانة الأواني المزخرف، وعلقت المرآة البيضوية ذات الحجم غير العادي على الجدار وسط اللوحات المعتمة قليلاً، وقد عكست في رحابها الجاذبة منضدة التبرج (المليئة بالحقاق ذات الأشكال المختلفة والفراشي العظمية وعلب المساحيق)، وخزانة الكتب المفتوحة قليلاً ونصف الأريكة العريضة المخضرة بالمخمل، حيث وضعت بهدوء وعلى نحو مريح وبطريقة شرقية نوعاً ما وسائد قطيفية ذات شراريب مشعثة.

قالت بعد أن التقطت نظرته، وسقطت بظهرها على الأريكة ضاحكة ضحكاً

خافتاً ومدلية ساقيها ومؤرجحة حذاءها غير المخلوع: "-ههنا أستلقي وأقرأ وأفكر". ثم أمرته بصوت منخفض ودعته بعينيها المتهيجتين اللتين أضاءتاه بجماح السلطان الملوكي: "-ساعدني. فك حذائي من فضلك وانزعه إذا كنت فارساً. ليس كذلك. ما هكذا ينبغي أن تفعل، ستقتلع البكل. يا لك من أخرق". تكلمت فوراً ودفعته بنزق: "-ابتعد حالاً، إلى تلك الأريكة.. اجلس ولا تنظر إليّ الآن. خذ الألبوم، هناك على الخزانة الصغيرة. إنه ممتع، فيه شتى ممثلي وممثلات العشرينيات المسلين، الذين بدأت ماما معهم. كلهم منفوخون وجادون جداً وكأنهم ينوون جميعاً الطيران إلى القمر..."

وغرق على نحو سخيف في الأريكة، شاعراً أنه عاجز عن التغلب على الرعشة التي قطعت أنفاسه، وتناول عن الخزانة الصغيرة الألبوم الثقيل في الغلاف المخملي والمتصلصل بجفاف ببكلته الفضية. فتح الألبوم على ركبتيه كيفما اتفق، وميز على نحو مبهم اللمعان الراسخ والكتابة الذهبية للصور على الصفحات المتينة - وجوه جليلة، ملتحية، حليقة بعناية، ستر قديمة الطراز، فراشات بيضاء تحت الذقون المتشامخة، وأجسام وقورة مكتنزة لرجال ونساء في خوذ بوديونية على خلفية الديكورات غير المزالة.

نظر إلى الصور بضبابية ومن غير انتباه، منصاعاً لها بافتتان في تلك اللحظات، وكان خائفاً من أن يتزحزح وينظر إليها فيرى مصادفة ما تفعله وراء منضدة التبرج، وحين سمع صوتها أخيراً: "تفضل، يمكنك الآن النظر". ورفع رأسه، اقتربت منه مبتسمة قليلاً، وقد تمكنت من فعل شيء ما أنثوي، ساحر، عند المنضدة: صارت عيناها أكبر وأشد إخافة وغموضاً، وصارت رموشها المشعثة أشد سواداً. نظر إلى عينيها مبهوراً، أما هي فظلت تبتسم نافذة بنظرتها إلى أعماق حدقتيه، وكأنها تسأله بهذه الابتسامة المطولة: "ماذا، هل حقاً أنني جميلة؟".

قالت مخرجة إياه من كمه من الأريكة: "-تعال إلى هنا، دع الألبوم الأحمق والديكورات التي لا تطاق وشأنها". ثم ضحكت وقادته وراءها وهي تجلس على السجادة بين المنضدة الدائرية المغطاة بالمفرش المخملي والمدفأة الهولندية المكسوة بالترابيع، والتي فاح منها دفء جاف على شكل موجة متلبدة: "- اجلس ههنا، هنا المكان ممتاز. أحب بجنون الجلوس هنا على الأرض والتدفؤ عند المدفأة ومشاهدة

الكتب. اسمع عندي كتاب مقيت. وجدته مرة في خزانة أمي. لكنْ هناك حريم شرقي ونساء جميلات جداً، ببساطة حسناوات. ممتع، قل أيهن تعجبك؟ ألن تحمرّ؟ "قالت ذلك باستفهام ساخر رامية له الكتاب، وبدأ، وهو يكاد لا يستطيع تحت نظرتها السيطرة على ارتعاش أسنانه، يتصفح بحذر الصفحات المستوية الملساء ذات الرسوم الملونة، التي ألصقت بين النص تحت الورقة الشفافة. بدا أن ذاك وصفاً باللغة الإنكليزية للشرق المسلم القديم وعيشه وتقاليده، وصورت في الرسوم قصور غنية لا تعرف الأحزان تحت السماء اللازوردية، ونخيل، وراقصات حسناوات مدورات الأوراك ونصف عاريات أمام الحاكم الملتحي ذي العينين الصقريتين، المستلقي على السجاد، وأوضاع متكاسلة لشابات فاترات ينظرن حالمات وعاشقات بعيونهن الخوخية إلى الماء الفيروزي في البركة المرمرية التي عكست قمر السماء الضيق.

"-ماذا؟ هل أعجبتك إحدى حسناوات ذلك السلطان أو الشيخ؟"

نطق على الأرجح كي لا يبين وحسب تسمره الحار، الذي تملكه مثل قيظ تموزي مخدر، مثل سم من عسل سمحت له بأن يشربه بحضورها: "-هذه لا بأس... على الدرجات...".

قالت بجدية وزحفت على ركبتها نحوه حاجبة بخجل عينها بأصابعها المنفرجة، وألقت من بينها على الرسم نظرة قصيرة جداً: "-على الدرجات؟ أرني من فضلك حماقة – وتقول "لا بأس". ما الذي تفهمه عموماً من الجمال النسائي؟ دع حالاً الكتاب، هذا سيفسدك. الأفضل – هل تعرف ماذا؟ أنت ترغب في أن تقبلني، لكنك خائف؟ أليس كذلك؟".

انتزعت منه الكتاب بسخرية مرحة وأغلقته ورمته باتجاه الأريكة العريضة، والتقى متسمراً بعينيها المفتوحتين الهائلتين المرسومتين برموشها على نحو لا يخلو من عيب ما: اقترب على نحو مخيف من حدقتيه قوس القزح الفياض، واقتربت على نحو مخيف شفتاها المبتسمتان، المرتجفتان قليلاً عند زاويتيهما الرقيقتين.

****

يذكر الآن أيضاً المرونة الرقيقة في شفتيها الباردتين أول الأمر من الشارع،

والفـواحتين برائحـة الـثلج الطـازج، ثـم الـدافئتين، الـرطبتين، المنفـرجتين تـارة والمتحـركتين في الملامسـة الزلقـة، التي لا ترتـوي، والمضـغوطتين تـارة أخـرى على نحـو محكم وكأنها كفت في غيبوبة منها عن التنفس وعن الإحساس به، وكأنه لم يكن في تلك اللحظة موجوداً قربها، بينما كانت تحاول أن تتذكر وتقارن شيئاً ما غامضاً، خفياً، لا يعرفه...

ثم استلقت ببطء بظهرها على السجادة، وغطت عينيها براحتها وهمست همساً ضعيفاً:

"-عانقني هكذا... استلق...".

وسيتذكر مدى الحياة كيف استلقيا على السجادة قرب المدفأة الهولندية في تلك الغرفة المريحة الدافئة، حيث فاحت روائح عطور التوابل والقدم، وأيضاً رائحة الغبار العطر للمفرش المخملي المتدلي في الظل من نور المصباح الوردي فائق النعومة، وسيتذكر كيف اصطدمت أسنانهما، وكيف أصيبا معاً بالصمم في ضباب الثمل، وما عادا يسمعان أصوات الجيران خلف الجدار ولا ضجيج الترامواي البعيد على شارع نوفوكوزنيتسـك، ولا هـدوء الـهطولات المسـائي، ولا خطـوات المـارة المزقزقـة خلـف النوافذ. لقد سبحا، هما الاثنان، المنفصلان عن الأرض، والمنضغط واحدهما بشفاهه في الآخر، في ظلمة الكون المتوهجة النجمية، خائرين في تقارب جسدي غير ممكن، ومتعطشين للأمر الأخير، الذي كان عليه أن يحدث بينهما الآن، لكن خوفهما معاً وخجلها قطع تقاربهما وحجبه ومنع الأمر الأخير...

تشرب بنهم في هيامه مذاق شفتيها المؤلم وقد تورمتا ولم ترويا غليله، أما هي، العاجزة، الخائرة من قبلاته، فالتقطت أنفاسها بصعوبة فجاءة، وجذبت يده بخفة نحو فخذها ورجته هامسة همساً مختنقاً أن يساعدها في فك بكلة جوربها الأيمن التي تؤلمها – وتساقط همسها هذا مثل غبار شراري من سواد الكون، وبرق فوقهما مثل رواسب ذهبية، وخيل له لحظة أن قوة حارة حملتهما وساقتهما معاً إلى هيولى مستعمرة على حافة الهاوية، حيث انتهى كل شيء ومات في الظلمة وبدأ كل شيء من جديد في نار وضاءة حارة...

"-ما بك... ما بك...".

لم يعرف إن كان قد استطاع بمفرده أن يفك البكلة على جوربها الصوفي المتين، الذي ظل يحفظ القليل من برد الشارع، حسبه أنه رأى أول مرة في حياته عن قرب هكذا فخذها العاري واكتنازه الأنثوي، وأحس بالدفء الجسماني في جلدها، الذي اقشعر فوراً وبرد باهتياج.

كررت: "-ما بك... بسرعة، بسرعة". وكان في كلماتها سماح جنوني نافد الصبر، لكنها، حين شعر بجسدها المنتفض من البكاء الخفيف، الذي أحرق ذقنه بدموعها الحارة، وحين قرر أخيراً النظر إلى وجهها، استلقت مصرفة بأسنانها ومغمضة عينيها وكانت الدموع في رموشها تتجمع وتتدحرج على خديها.

أما هو، المصعوق من كل ما حدث بينه وبينها، ومن عريها الفتي المكشوف غير المحمي الآن بالخجل، الذي جعل أسنانهما للتوّ تصاب بالبرداء، والمستعد من أجل الوجود معها لحظة للذهاب إلى أي إعدام، والمستعد أيضاً للبكاء بسبب من الرقة غير المكتملة، فقبّل نهدها الصغير، الذي بدا وكأنه مغسول بالبرودة الصيفية لغابة صباحية، وبالتوت الإفرنجي الطازج، مصطدماً بأصابعها الحاجبة إياه بوهن، ومن غير أن يفهم تقريباً همسها السابح كالهواء من الهاويات النجمية، وردد بحرية يائسة:

"- أحبك يا ماشا...".

"- لو... لو عرف إيليا ماذا كان سيفكر... كان سيدهش... أليس كذلك؟ أليس كذلك؟"

ومع صوتها مرت فوقه باتجاه جانبي الهبات المشدودة للعاصفة الثلجية التي بدأت مع قدوم الليل، وهديرها المصفق، والريح الضاربة الأسطحة والزجاج من الخارج، وصرير الأغصان المتجلدة الممطوط في الفناء، ورنين عربات الترامواي القادم من بعيد من فوق الأسيجة، العربات التائهة في ثلج مساء زاموسكفوريتشيه العاصف. أما هو فأحاط به حر المدفأة الهولندية المنزلي، والرائحة الصوفية المنبعثة من السجادة الدافئة، التي استلقيا عليها وواحدهما يمس الآخر في حال من النسيان، وكان ثمة شعور بأنه يطير إلى مكان ما من سطوع لا قاع له في سماء نيسان الواعدة

بالربيع الأزلي والخلود والحب إلى الأبد.

"- دعني، دعني... لم أعد قادرة. ما عادت شفتاي تتحركان...".

"- ماشا، أحبك... هل تفهمين كم أحبك؟".

عند منتصف الليل خرج إلى الزقاق الغائم، الذي لسعه على نحو رطب على وجهه الحار ببرودته العذبة وبوخز زوابعه. أنارت المصابيح المنشبكة بالدخان الدوّار مثل بقع بيضاء. نظر إلى النافذة المتوردة في الدخان الثلجي، والمحجوبة بالستارة، حيث بقيت الآن، وشعر من جديد فجاءة برقة مغتبطة نحوها، وبحيرة بين الكارثة والأمل، وبوحدته السعيدة وسط هذه الكثبان المدخنة، والأسيجة المغطاة بالثلج والمصابيح المكفهرة حتى أنه شعر بأنفاسه تتقطع في حنجرته على نحو غير منتظر...

لم تذهب إلى المدرسة أسبوعاً كاملاً، لكنها، حين رآها في الاستراحة بين الدروس، التفتت عنه مسرعة، وكان وجهها شاحباً، معذباً، ثم ردت رأسها بتحد واقتربت منه وقالت ضاحكة: "-مرحباً يا روميو. تذكر أن أي لقاء بينك وبين جولييت لم يكن ولن يكون أبداً. آمل أن تكون فارساً نبيلاً وأنك نسيت كل شيء...".

لم يستطع أن ينسى شيئاً، ولهذا كان الألم طويلاً، شديداً، لا براء منه، وكان يعذبه أحياناً حتى في الحرب.

"ربما، يستحق هذا الألم أن نولد في هذه الدنيا من أجله وحده... لا، من بين آلاف الأفكار والاختيارات ثمة واحد –عظيم وأبدي...".

وأنّ في نومه، واستفاق، وفتح عينيه شاعراً بحال مبهمة من فرح فتي شديد ومن أمل فتي، ومن عشقه اللانهائي ذاك، الشبيه بالموت السعيد، وأعاقه تشنج النحيب المخنوق عن التنفس كما حدث مرة منذ زمن بعيد جداً في منتصف ليل ثلجي عاصف من شبابه البعيد.

ناداها بصوت خافت من العتمة التي عكست على نحو باهت ألوان اللوحات: "-ماشا". وحين لم يسمع الرد عارفاً أنها ليست هنا، همس قائلاً: "-ماشا، أحبك... ماذا أفعل يا ماشا؟..".

ساد صمت أصم في عتمة المرسم.

خلف النافذة ظل الهواء يثير على نحو رطب ضجيج الأشجار، وقرعت قطرات الثلج الذائب على الأفاريز مثل مطر رنان متواصل، وارتجفت النجمة الخضراء الربيعية الوحيدة على الزجاج المبلل، وكانت الساعة الثالثة من أشد الأوقات إقفاراً وقنوطاً في تلك الليلة من آذار.

انتهت

****

الفهرس

الفصل الأول 8
الفصل الثاني 17
الفصل الثالث 28
الفصل الرابع 47
الفصل الخامس 53
الفصل السادس 72
الفصل السابع 89
الفصل الثامن 108
الفصل التاسع 149
الفصل العاشر 160
الفصل الحادي عشر 188
الفصل الثاني عشر 208
الفصل الثالث عشر 221
الفصل الرابع عشر 234
الفصل الخامس عشر 252
الفصل السادس عشر 267
الفصل السابع عشر 286
الفصل الثامن عشر 314
الفصل التاسع عشر 342
الفصل العشرون 358